ملحمة الجلمود

اسم الكتاب: ملحمة الجلمود

التأليف: أ. د. شعاع اليوسف

نوع العمل: رواية

إخراج فني: سالم عبد المعز سواح (عمرو سواح)

رقم الإيداع: 2021 / 25956

الترقيم الدولي: 978-977-835-266-5

الناشر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر Facebook

Email za7ma-kotab@gmail.com

Tel 002 01205100596

002 01100662595

ملحمة الجلمود

رواية

أ. د. شعاع اليوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

ملحمة الجلمود

رواية مستوحاة من أحداث حقيقية مع مزيج من الخيال، وقعت أحداثها بين الأحساء والبحرين وقطر بين الأعوام ١٩٣٢ - ٢٠١٨م

تنويه

في نهاية عام ٢٠١٨م، ومن المنامة عاصمة مملكة البحرين، أنا الابن البكر للجلمود، أكتب لك يا قارئي العزيز ما يلي:

تُوفِّي والدي الجلمود في العاشر من مارس ٢٠١٨م، عن عمر ناهز السادسة والثمانين، في الدوحة عاصمة قطر، وكنت للأسف حينها في لندن عاصمة الضباب؛ من أجل علاج زوجتي من حالة مرضية مستعصية، وعندما اعتقد إخوتي أن مَنية والدي قد دنت استعجلوني في العودة، حاولت قطع مرحلة العلاج كي آخذ زوجتي معي، لكن الطبيب منعني، فتركت زوجتي وحيدة هناك، والتحقت بأول رحلة حصلت عليها؛ كي أصل إلى والدي سريعاً في ليلة وفاته، لكن وللأسف الشديد لم ألحق سماع كلماته الأخيرة في ختام رحلته الدنيوية. وعندما دخلت بيته في الدوحة، تفجّرت ينابيع حبي الحقيقي لوالدي في قلبي، وانهمرت دموعي مدراراً؛ وقد قيل لي: "كان يتمنى رؤيتك وتوديعك، ونادى على اسمك مراراً وهو يحتضر"، فقطع ذلك القول نياط قلبي، وهكذا تكون قد تكررت قصة أبي ذاتها مع وفاة أبيه في الأحساء! وجدت أن الجميع قد أخذ نصيبه من الدمع والحزن، ولم يظهر بينهم أي خلاف أو نزاع، فقد قام والدي بتوزيع كل ما يملك من مال وعقار بالعدل والإحسان قبل مماته. وحسب الوصية التي تركها، فقد كلَّفني أن أكون المشرف على استثمار ثلث قيمة بيته الكبير في قطر على أعمال الخير، وحددها في بناء مدرسة في مدغشقر، ومركز صحي في أفغانستان. وعليه فقد قررنا بيع بيته في الدوحة في أسرع وقت ممكن، حتى يتم خصم ثلث ثمن البيت لأعمال الخير التي أوصى بها، ثم نُقسِّم بقية الثلثين من المال على أزواجه وعلينا. قمتُ بعقد اجتماع عاجل من أجل توزيع مقتنيات أبي الخاصة، فكانت المسبحة وهي من العقيق الثمين من نصيب أخته الطاهرة، وقد أهدينا سجادة صلاته الشيرازية إلى زوجته الشريفة، أما خاتمه العقيق فكان من نصيب زوجته في قطر، وقد احتفظ أخي الأكبر في قطر بساعة أبي الخاصة، وعلقها في مجلسه من أجل الترحم عليه في كل حين. أما أخي في الأحساء، فقد اختار العصا التي كان أبي يتوكأ عليها

كي يحتفظ بها كذكرى عزيزة غالية عليه. وقد وهبني إخوتي مكتبته العامرة، كوني مُحباً ومُتفرغاً للقراءة، كي أنقلها إلى البحرين، لكني سمحت بأن يأخذ كلٌ منهم ما ينتقي من كتب دينية وغيرها؛ وذلك حرصاً على تواجد ذكرى أبي الطيبة في منزل كل واحد منهم. احتضنت ما كان أبي يداوم على قراءته من الكتب، حيث وجدت فيها لمسات أبي ورائحته، تحسستها وشممتها مراراً، وغسلتها بدموعي تكراراً.

فتحت درج مكتبه الكبير، حيث وجدت الرواية التي أوصاني بقراءتها ونشرها، وقد أسماها "ملحمة الجلمود"، وكانت بخط يده، وقد ختمها بكلمات مؤثرة في ليلة وفاته. وها أنا ذا أسردها لك يا قارئي الكريم بحذافيرها، كما كتبها دون زيادة أو نقصان. أما التغيير الوحيد الذي كنت مضطراً إليه، فهو تحويل التواريخ الهجرية التي كانت بين متون الرواية إلى ما يوازيها من التواريخ الميلادية السائدة حالياً.

بعد قراءتي المتأنية للرواية، واتتني فكرة تأريخ المزيد من أحوال والدي الشخصية؛ وعلى ذلك تمكّنت من جمع أعضاء مجلس العائلة المكون من جميع أبنائه وبناته وأخته وزوجتيه ومخاطبتهم بما يلي: "بما أن الملحمة تتعلق بتفاصيل حياة أبي الخاصة، وتاريخ تنقلاته على هذه الأرض، فهل يمكنني الطلب منكم، وكلّ حسب قدرته، كتابة أي إضافات مهمة، تختص بشخصية والدي في مراحل حياته المختلفة، أو ما يمكن الإشادة به من أدواره البارزة في حل مشاكلكم أو تكوين شخصياتكم، كما أن لكم الحق في توجيه أي نقد، فيما يختص بعلاقتكم الخاصة به فقط. ولما وجدت موافقة الأغلبية، انتظرت حتى وصلتني تلك الكتابات، وها أنا أرفق كل ما كتبوا بلا زيادة أو نقصان. ولم أنسَ أن أطلب من أخويه في البحرين الطلب نفسه، وكانوا قد حضروا إلى الدوحة للعزاء، وسارت الأمور بيننا كما ينبغي أن تكون. صارحتهما بما كتبه أبي من مسامحة لجميع أفراد عائلته، وطلبت منهم كتابة أي ملاحظات قيّمة لإضافتها إلى الرواية، لكنهم لم يحركوا ساكناً بهذا الصدد، ولعل ذلك كان أفضل لنا ولهم.

الكتابات التي وصلتني من بعض أبناء وبنات الجلمود

أحب التنويه للقارئ الكريم، أنني أنا الابن البكر للجلمود، قد تسلمت كتابات من بعض أبناء وبنات الجلمود ولم أغفل أياً منها، بل ها أنا أنشرها بحذافيرها، وبكل ما فيها من مدحٍ أو ذمٍ لشخصية والدي؛ وذلك حتى أكون مخلصاً ومنصفاً لإخواني وأخواتي، خاصة أنه قد غاب من حياتهم.

أما أنا فقد كتبت في نهاية الرواية (الفصل السادس) شرحاً وافياً عن نوعية علاقتي بوالدي، ورأيي في شخصه الكريم، من وجهة نظري الخاصة.

كتب الابن الأكبر للجلمود في الدوحة ما يلي:

كان أبي إصلاحياً بامتياز، يحب النظام والنظافة وإصلاح الأمور جميعها لو مالت عن مسارها الطبيعي، يلتقط ما يقع على الأرض بنفسه، ولو رأى شرشفاً مائلاً على الطاولة فلا بد أن يمد يده ويُصلح وضعه. كان أبي متوسطاً في كل أموره وسلوكه وآرائه، يُطبّق أسس الديمقراطية في كل قراراته ويُشاورنا في كل شاردة وواردة. لم يرفض لنا طلباً منطقياً سواءً كان ذلك الطلب متعلقاً بالسفر أو الدراسة أو الزواج. لكنه انتهج الصرامة عند تعليم الدين والأخلاق لأبنائه، ولم يتخذ موقفاً سلبياً من أي مذهبٍ أو طائفة إسلامية، بل كان منكراً للمنكرات مهما كان مصدرها، وآمراً بالمعروف، مقراً بالفضائل التي أتت بها جميع الأديان. كان متأملاً في تجليات الطبيعة الكونية، وفي جمال الأرض بما كل تحويه، متعمقاً في فهم سلوك البشرية مقارناً ما فيها من تعقيدات وتناقضات. وكثيراً ما كان يتعجب من الأوضاع الغريبة التي أتت بها الحداثة إلى مجتمعنا المحافظ، في هذا العصر المضطرب القبيح على حد قوله.

كان والدي محباً للنباتات بكل أنواعها، وكثيراً ما يأخذنا للحدائق والمتنزهات، كما كان يعتني بزراعة الخضار والورود في أي منزل يحط فيه. كان يرحمه الله حافظاً للكثير من أبيات الشعر التي تدعو إلى الحكمة والموعظة الحسنة، محاولاً بكل جهده تحفيظنا تلك الأبيات؛ لذلك كان يُنظم بيننا المسابقات في حفظ بعض أبيات الشعر وآيات من القرآن الكريم، ثم يمنح المكافأة لمن يفوز منا. أجل كان عصبياً في بعض الأحيان لكنه في الغالب حنوناً ومبتهجاً،

بل متلاطفاً معنا أثناء اللعب والمزاح. تميز والدي بالحرص على الإشارة لجميع النعم من حولنا، وتذكيرنا بها دوماً وأبداً ثم حمد الله عليها كثيراً؛ كان رحمه الله يكره الاستهانة بالنعم الصغيرة ويعتبرها فضلاً من الله كبيراً، وكان يرى أن الله قد تفضل علينا بوجودنا في هذه الحياة العظيمة، ولا بد لنا من الاستمتاع بكل نعمة فيها. كثيراً ما كان يتقمص دور القاص أثناء تناولنا القهوة والشاي في مجلسه، ولطالما أمتعنا بمتع عظيمة ونحن نتحلق حوله على سفرة الطعام، فقد يطرح علينا لغزاً ويترك لنا فرصة الإجابة عليه بعد الفراغ من الطعام، ثم يقوم بمكافأة الفائز منا.

يظن البعض أن والدي كان بخيلاً، لكن لا بد أن نتفهم ونقدّر لماذا كان أبي صارماً في إنفاق المال على أبنائه في ذلك الزمن الصعب، فقد جمع هو المال بعد مشقة وتعب شديدين، أجل لقد كان كادحاً، فقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ ﴾ [الإنشقاق: ٦]؛ بل إن صرامته في عدم الإسراف بالذات، هي التي جعلت من عياله أفراداً أغنياء مرموقين في المجتمع اليوم. ولا بد أن نتذكر أنه كان شريكاً مع أبيه وإخوانه في التجارة، كحال جميع الأسر في ذلك الزمان، فالمال لم يكن ملكه وحده؛ وقد تميز أبي بخوفه الشديد من الله، وبالذات في هدر القوت والمال؛ لأن ذلك محرّم شرعاً، حتى إن أبي كان ينهي عن الإسراف في استخدام الماء والكهرباء، بالرغم من صرفهما مجاناً من قبل الحكومة القطرية الرشيدة. وبالرغم من ذلك فقد رمقه أخواه بالحسد والغيرة لكثرة عياله وقلة عيالهم، وفي ظنهم أنه يصرف علينا أضعاف ما يصرفون على عيالهم، لكن العكس هو الصحيح، فقد ابتلاهم الله وأبناءهم بالأمراض التي عُولِجت في خارج البحرين بأموال طائلة، كما أن تدليل عيالهم بالصرف المستمر، قد أفسد تربيتهم مما زاد معاناتهم منهم.

كما تميّز أبي بحرصه الشديد على تعليم أبنائه أصول الدين وحفظ القرآن الكريم، حتى إنه أدخل الأبكار من أبنائه الكُتّاب أو المطوع، لتجويد وترتيل وحفظ القرآن الكريم، حدث ذلك بالتزامن مع دخولهم المدارس أيضاً، ثم ما لبثت أن توقفت الكتاتيب تماماً عن العمل بعد تلك الفترة الذهبية من الزمان. حينذاك كان المجتمع معادياً للتعليم العالي للمرأة

ومجحفاً في حقها بالعمل الحر، بينما أعطى الجلمود بناته كافة الحقوق في التعليم ثم في العمل الحكومي، بل ساوى الاهتمام بتعليم وتربية البنات بالأولاد تماماً.

لكن أغرب ما أصاب أبي هو السحر الأسود! أجل السحر الذي كان يحذرنا من مجرد التفكير به كسبب مباشر للمرض أو الفشل، كان يقول لنا: "نحن السادة من نسل رسول الله (ﷺ) محميون من السحر ولا يؤثر فينا أبداً، فلا تخافوا منه فإنه لن يؤثر فيكم، حتى ولو عُمل لأي منكم بشكل خاص". لكن للأسف الشديد لم يَصدق هذا القول عليه، فقد أصاب أبي فجأة هزال شديد، وذات يوم توقف عن الحديث معنا، وكان يبدو عليه أنه مكتئبٌ وحزين جداً. أصيبت الأسرة بصدمة شديدة، كيف تحوّل هذا الرجل المرح إلى شبح صامت؟ هل يخفي الوالد شيئاً عنا؟ حاولت التفرُّد به علّه يُفضي إليّ بخبر ما، أو يبوح لي بمكنون نفسه، لكنّ المسألة باءت بالفشل الذريع. وذات يوم كنتُ في المتجر مع أبي فلم أكن لأتركه وحده وهو على تلك الحال. تزامن ذلك الوقت مع قدوم تاجر صديق لأبي من مسقط، عاصمة دولة عمان، فبُهت مما رأى من أحوال أبي المتغيرة، خرج من المتجر وأومأ لي بأن أتبعه، ولما اختلى بي قال لي والحزن بادٍ على محيّاه: "أنا أعرف أباك لفترة طويلة من الزمان، ولم يكن مضطرباً في أي وقت مضى، وأظن أن أباك قد بات مسحوراً! بل إن هيئته تؤكد لي ذلك". ذُهِلت وقلت متعجّباً: "لقد مرت عليه فترة وهو على تلك الحال المقيتة، لكن كيف ولماذا؟ لا أظن أن له أعداء تعمدوا إيذاءه"، تمهّل التاجر العُماني قليلاً ثم قال: "أستطيع الكشف عن ذلك، أعطني فقط اسم والدته، وسوف أوافيك بالخبر اليقين سريعاً"، فكان له ما أراد، ولم تمضِ إلا عشرة أيام فقط، حتى عاد لي بالخبر اليقين، إن أبي واقع تحت تأثير السحر المعقود تحت عتبة بيتنا! طلب مني التاجر الحضور في منتصف الليل بالقرب من عتبة منزلنا، فكان له ما أراد. وعندما تأكدنا من خلو الطريق من المارة، تم كسر العتبة والحفر تحتها حتى ظهرت لفافة سوداء! تلقفها الرجل وتعهد بفكها لإبطال السحر، ثم قمنا ببناء عتبة الباب كما كانت. ولم تمضِ بضعة أيام حتى عاد أبي إلى طبيعته. لكن ظل السؤال مطروحاً حتى الساعة من هو الفاعل يا تُرى؟ وظللت أنا وأبي محتفظين بالسر دون إخوتي وأهلي جميعاً.

كتب أخي الوحيد في الأحساء ما يلي:

عندما طلب منا أخي الأكبر كتابة بعض ما يتعلق بشخصية أبي من وجهة نظرنا الخاصة، كانت تلك فرصتي الذهبية كي أعبر عما يعتلج في صدري من الغيظ، أجل ليرحمه الله، لكنه ظلمني أنا بالذات ظلماً فادحاً في عدة أمور؛ أولها تسميتي على اسم جده (الشاهين) فكم "تفكه" أقراني عليّ بقولهم: لقد طار الشاهين، أو ها هو قد هبط الطير من السماء، أو قد يركضون خلفي صارخين: صيدوا الشاهين قبل أن يطير؛ وغير ذلك من المزاح الثقيل والاستهزاء بي؛ فقد كان اسمي حينها اسماً نادراً ومُضحكاً في محافظة الأحساء. وأظن أن أبي كان يحب النفاق والتملّق، حيث اختار لنا نحن أطفاله الثلاثة أسماء أهله المتوفين، أمه وجدته وجده؛ لأن الناس يعرفونهم هنا ويتذكرونهم بالخير بعد وفاتهم، وهكذا لا يزالون يمدحونه على إخلاصه لأهله. بينما قد تملّق أبيه عندما سمى بكره على اسمه، وذلك كي يرضى عليه إثر زواجه في البحرين دون علمه، ولو أسماني على اسم والده لكنت سعيداً راضياً بذلك. أجل لقد ظلمني أبي ظلماً فادحاً عندما تركني أعيش بعيداً عنه في بلد آخر، وقد طلبت مرافقته في بلده الذي يعيش فيه عندما تخطيت سن البلوغ؛ لأني شديد التعلق به منذ طفولتي، لكنه لم يستجب لطلبي هذا، ولم يُقدّره أو حتى يُفكّر فيه جدياً. لقد ظلمني أبي بإهمال تربيتي بين ناظريه، ولم يُقدّر حاجة الولد الشديدة لتقليد أبيه في كل شي فهو ذكر مثله، ويحتاجه ليكون له مثالٌ يُحتذى به وقدوة قريبة منه. ظلمني أبي بتركي أعيش بين أربع إناث (أمي وجدتي وأختين لي) وكلهن يحسدنني على تدليل أمي لي، خاصة بعد وفاة أبيها، فما فتئت تناديني (يا خلف أبويا)، وأجبرت جدتي على مناداتي بذلك أيضاً، خاصة وهن يعلمن كرهي لاسمي، لكن على الجانب الآخر، لم يحب أبي مناداتي بذلك اللقب، ولا سيما أنه كان يكره والد أمي كثيراً، فقد وقف ضده في لحاق أمي به إلى البحرين أو قطر. كانا لا يكفان عن المشاجرة والاختلاف في كل الأمور، وقد عرفتُ سبب تفضيل أبي لإخوتي البنات عليَّ؛ ذلك لأني أشبه والد أمي في الشكل والسلوك كما يقول.

لا يد لي أو له في الشبه الجسدي، لكن أبي هو المسؤول عن طريقة سلوكي، فقد تركني بين يدي جدي الذي كنت أقلده في كل صفاته، العناد والتسلّط والعصبية ونقد الآخرين وكشف عيوبهم. ومما زاد ألمي معايرة جدي لأبي في كل حين، فقد كان يُطلق عليه هذه الألقاب

القاسية: (المتملّق، المتغطرس، المتعجرف، المغرور، المتباهي)، وكان يردد لي: (إن أباك هو الذليل الذي باع أصله من أجل بطنه)، أجل يظن جدي أن أبي متملقاً متمسحاً بجوخ الأغنياء. ولم يزل جدي حاقداً عليه طوال حياته، فقد ذكر لي أن أبي أخفى عليهم زوجته وابنه الذي في البحرين، حتى يتزوّج أمي، وهو يعتبره في ذلك الفعل غشاشاً وكاذباً.

لا أحد يعلم أنني كنت بين المطرقة والسندان، وما فتئت أعاني وتزداد عقدي النفسية دون أن يشعر بي أي أحد، حتى تحول عذابي النفسي إلى عقد مستديمة، وسلوك قبيح. ولم يكن لأمي رهافة الحس فيما يخصني من مشاعر، لم تكن قوية الشكيمة؛ لذلك لم تلجم جدي عند حديثه بالسوء عن أبي، بل ربما اقتنعت بحديثه فلم تحاول في يوم ما اللحاق بوالدي، ولو شاءت أمي وأصر أبي لأخذنا إلى قطر، وجعلنا أسرة واحدة مترابطة متماسكة، ولم يكن أبي ليتزوج من قطر. لم يراعِ أحدٌ مشاعري التي تميّزت بالتدفق والفيضان ورهافة الحس، ولا شك في أن الدلال وعيشي بين النسوة قد أفسدني، ولم يشبع عاطفتي تجاه الذكور غير الخضوع لأصحاب السوء، بل صرت أطلب الراحة منهم ومعهم، وهم طمعوا في أموالي؛ كون أبي تاجراً غنياً. أجل لقد عانت أمي من عنادي وسلوكي الانحرافي، وقضاء بعض الليالي بعيداً عن البيت، لكنها لم تخبر أبي بكل ذلك، ربما لأنه قد ضربني سابقاً ضرباً مبرحاً في أول شكوى منها إليه عني، وقد كان ذلك بسبب تافه لا يستحق الضرب. هو لا يملك أي عاطفة تجاهي، ومن قسوته أنه كان يستخدم الضرب كوسيلة وحيدة للتربية! لقد نسي أنه لا يمتن علينا بالزيارة إلا كل ثلاثة أشهر، وحينها يركّز اهتمامه على تزويج البنات ولا يلقي لي بالاً. لا أزعم أني حاولت التقرب منه بعد أن رفض عرضي العمل معه في قطر، وأصر على قطع دراستي لكوني فاشلاً فيها، ثم رتب لي العمل في متجر خاص بي، بعيداً عن منطقة سكن أهلي، مما زاد انغماسي مع رفقاء السوء الذين أتمنى أن ينقذني الله منهم يوماً ما بفضله وقدرته. لكن الآن وبعد وفاة والدي اختفت الشماعة التي تُعلَّق عليها أخطائي، فعسى أن أتوب اليوم إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- توبة نصوحاً.

كتبت أختي أصغر البنات في الأحساء ما يلي:

لم يكن أبي الجلمود مقصراً معنا في الزيارات أو الإنفاق وتلبية جميع احتياجاتنا، لكن وبالرغم من ذلك عشنا حياة بلا أبٍ يُحبنا ويُعطينا من عطفه وحنانه، وكلما احتجنا الدلال فإن الأم والجدة والجد هم الملجأ والملاذ، فنحن نعيش معهم وبينهم.

تفتّح سمعي على مناداتي باسم (لعيا)، لم أحب ذلك الاسم الغريب، وعرفت لاحقاً أنه اسم جدتي لأبي، وقد أصر أبي على تسميتي إياه رغم معارضة الجميع من حولي، بل ما فتئ يقنعني أنه اسم جميل ويعني المرأة الجميلة، وقد سمع من مرجع ديني، أنه اسمٌ لإحدى حوريات الجنة، التي يتكرر ظهورها لبعض زوجات الأنبياء للمساعدة أثناء الولادة! طلبت منه مراراً تغيير ذلك الاسم، وفي كل مرة كان يغضب مني ويقول: "لقد ورثتِ جمال جدتك ولا بد أن ترثي اسمها النادر أيضاً"، ثم يعيد لي القول إنه لا بد من تخليد اسم جدته التي ربته بعد موت أمه مبكراً، وكانت له خير حضن وملجأ ومعين، ولن يتمكن من رد أفضالها عليه إلا بتذكر اسمها والترحم عليها في كل حين.

كان ذلك الاسم مشكلة حياتي، في المدرسة كانت البنات يضحكن ويتغامزن عليّ ويقلن لي: "لعيا، لقد لاعت أكبادنا من اسمك الغريب"، ولطالما رجعت من المدرسة باكية حزينة. فازت أختي الكبرى بالاسم الجميل لوالدة أبي، وكذلك حصلت باقي أخواتي في قطر على أسماء حديثة وجميلة، وكان ذلك سبباً كافياً لإشعال غيرتي من أخواتي كلهن.

أصبحت عندي عقدة كراهية لمن يناديني باسمي الغريب، وفرضت على أمي اسماً آخر لمناداتي به. طالما كررت السؤال لنفسي: لماذا أنا بالذات تقع عليّ الطامة الكبرى؟ ويكون نصيبي من الأسماء غريباً عجيباً.

أمي لم تحرّك ساكناً لفك عقدتي، بل كانت تلجمني بالقول: "لن يكتمل إيمانك بالله إلا عند الرضا بالقضاء والقدر، قدر الله لك هذا الجمال المرتبط باسمك فكوني شاكرة له"، أجل كان هذا ديدنها، الرضا بأي شيء في الحياة، ربما لأنها امرأة مستكينة قليلة الحيلة، ضعيفة البنية والمناعة.

وبالرغم من عشقها الكبير لأبي، فإنها لم تجادل والدها المستبد في أي أمر قط، وإني لأعجب كيف رضيت أن ترضخ لأمر والدها القاسي وتعيش بعيدة عن أبي طيلة عمرها؟ لماذا لم تعمل حساب مغبة حرماننا من أبينا، كيف ضاعت حقوقنا بسهولة عندهم، وكأنهم قد تآمروا علينا، وأين حق أبي في الاحتفاظ بالعيش قرب زوجته وعياله؟ وكلما سألت أياً منهم تلك الأسئلة؟ لم أجد الإجابة الشافية غير أن الظروف منعتهم من لمّ الشمل!

دائماً يتهمني من حولي بالمشاغبة والتمرد، ولا يقدرون لي شجاعتي في خرق المألوف من العادات غير الصحيحة المتأصلة في مجتمعنا. ليس اسمي فقط هو ما لا يعجبني، بل جُل ما يحدث في مجتمعنا الغارق في الزيف والخرافات والمجاملات. وكلما تناقشت معهم في أمر غير منطقي مما يُفرض عليّ، لووا رؤوسهم بعيداً عني، وسدوا آذانهم بأصابعهم، فهم للأسف لا يعقلون ولا يفقهون! هكذا أصبحت كما يقول المثل: "أنفخ في جربة مقطوعة".

تمنيت أن أرتبط بشخص متحرر من الخرافات نسبياً، يؤمن بالعقل والمنطق، يدور معي ضد فلك الممنوعات التي تحاصر مجتمعنا المستسلم لكل ما يتناقله الأجداد، من مفاهيم مغلوطة دون إعادة التفكير فيها. ثم يجعلني سعيدة وأنا ألف معه بلاد الدنيا. رفضت الزواج ممن تقدّم لي، حتى تخرّجت من الجامعة، ثم ارتبطت بعلاقة حب مع موظف كان زميلاً لي في عملي، حيث كنت أعمل معيدة في أحد المعاهد، كان حباً عن بُعد، لكنه هاتفني كثيراً وشرح لي أنه يؤيد جميع أفكاري وقناعاتي؛ فرحت وظننت أني وجدت ذلك الرجل الذي طالما حلمت به. أصررت على الارتباط به، رغم أنه على غير مذهبنا الطائفي، لم يعارضني أبي فقد كان كل همه أن أتزوج والسلام. وللأسف الشديد خاب ظني في طليقي، فقد سخّرني جارية عنده في البداية، ثم أقنعني بنهب راتبي! والأدهى من ذلك أنه كان يعيرني بمذهب أهلي ويستهزئ بطقوسهم. حطم ذلك قلبي لأنه تعمّد التقليل من شأني وأهان أهلي، كما تنصل من جميع وعوده لي في لف بلاد الدنيا. لم أتحمله أكثر من عام واحد، والحمد لله أني لم أنجب منه فطلبت الخلع، وكانت أول حالة من نوعها في أسرتنا المحافظة جداً. خاب أمل أهلي في أنني سوف أهدأ بعد ذلك الطلاق، لكنهم لاحظوا زيادة تمردي، ونكران مذهبهم، وعلى ذلك ازدادت غربتي بينهم.

لكن أراد الله هدايتي إلى الصواب، بعدما قرأت الموضوع التالي: "للشاعر العربي دُرَيْدُ بْن الصِّمَّة أبيات يرثي فيها أخاه عبد الله، وتظهر في الأبيات تقاليد عربية ممدوحة شرعاً وأخرى ممنوعة، ومنها المسالك التي سادت بعض القبائل العربية إبان الإسلام، مثل العصبية للقبيلة وإن خالفت الحق! وفي ذلك يقول الشاعر دريد بن الصمة مشيراً إلى قومه:

أمَـــرْتُهُمُ أَمْـــرِي بِمُنْعَـــرَجِ اللِّـــوَى * فلَـمْ يَسْـتَبِينُوا الرُّشْـدَ إلا ضُـحَى الغَـدِ

فلـمَّا عَصَـوْني كنْـتُ مـنهُمْ وقـد أرَى * غِـــوَايَتَهُمْ وأنَّنــــي غــــيرُ مُهتَــــدِ

ومَــا أنَـــا إلا مـــن غَزِيَّـــة إنْ غــوَتْ * غوَيْــــتُ وإنْ تَرشُـــدْ غزَّيَـــة أَرْشُــــدِ

هذا الشاعر يُجسّد مصدر افتخاره ألا وهو ذوبان رأيه في رأي جماعته، وإن خالفت الحق واقتفت أثر الضلال، وهكذا أضحى معيار الأخلاق لديه ما تقوم به القبيلة، ويجتمع الرأي إليه منهم؛ رجعت إلى صوابي وفكرت عميقاً في تلك القصة، وأُلقي إليّ أن ما يقوله الشاعر سليم ومنطقي جداً، وإن لأهلي واجباً عليَّ، بل إن مساندتي لهم حق ومنطق، وليس هناك من سبيل صحيح إلا أن أتحد معهم في رأي واحد، لن ينفعني الحياد عنهم؛ لأنه مجلبة للهزء والعار لي، مثلما فعل طليقي معي.

وعلى ذلك أصبح سلوكي وكلامي يوافقهم في ظاهر الأمر، أتجنب نقدهم ومخالفتهم، حتى أرضيتهم جميعاً، لكني ما زلت أعتقد ببطلان بعض ما يعتقدون في مذهبهم، وتركت ذلك بيني وبين الله.

كتبت أختي الكبرى من الدوحة ما يلي:

كنت أول بنات أمي وفرحة أبي الثانية في عدد بناته، رحم الله والدي الحنون العطوف؛ فقد كان يحبُّ البنات حُباً جماً، ولن أنسى دفاعه المستميت عني عندما ضربني أخي الأوسط، بل استدعى أبي الشرطة للقبض عليه، ولولا تدخل أمي لوقع أخي بين قضبان السجن.

ونظراً لعدم وجود الخادمات والأجهزة المنزلية في ذلك الزمان، كان لا بد أن يقع عليّ قسط كبير من المسؤولية، فأنا من يتعاون مع أمي في ملاحظة العيال وحفظهم من الأخطار في المنزل والشارع، وتنظيفهم والحرص على استحمامهم، وغسل ملابسهم وتجهيزهم للمدارس.

لم أنزعج يوماً لأن عدد أفراد أسرتي في منزلنا قد تنامى، فأنا الأخت الكبرى وبديلة الأم لو غابت؛ بل طبخت لهم الطعام وأنا في العاشرة من عمري، وذلك عندما كانت أمي تعاني من آلام المخاض في المشفى. وعندما لاحظت أمي أني أنشغل أحياناً بالمذاكرة، كانت تصرخ عليّ قائلة: "لن تنفعك الدراسة ففي النهاية ستعملين في بيت زوجك لا في المكتب، انهضي وتعلّمي الطبخ معي"، ويا ليتها اعترفت لاحقاً بأنني كنت الأم البديلة، بل أنكرت فضلي كما أنكره معظم إخوتي.

أجل لقد عشت في زمن لم يعرف الخادمات في البيوت، بل كان الجميع يتعاون في خدمة البيت الكبير، حتى إن أبي كان يجهّز لنا طعام الإفطار في كل يوم، ويحثنا على النظافة والترتيب. أكننت له الحب والاحترام، وبالرغم من فورة أعصابه السريعة، وزجره لنا في أحيان كثيرة، فإن عطفه وحنانه كانا ظاهرين للعيان، فعندما نمرض يسهر بنا الليل بطوله، يسقينا من الأدوية الشعبية ثم يداوم على قراءة الأدعية والقرآن الكريم حتى يتم شفاؤنا. وأذكر أنني كنت أصرخ من وجعٍ في أذني، يتكرر كثيراً في منتصف الليل، ولم يجد أبي دواء إلا بغلي الزعتر البري ثم تقطيره في أذني، بعد تصفيته في طرف من غترته! تلك الغترة ناصعة البياض والتي كان يربط طرفها أحياناً كي يتذكر شراء طلباتنا من السوق.

ولا أزال أتذكر هذه الواقعة الغريبة التي تدل على عطف أبي الشديد وحنوه حتى على الحيوان؛ فقد طلب منه إخوتي الصغار شراء عنزة بيضاء صغيرة للتسلية بها، وعلى الفور

هيأ لها حظيرة صغيرة في ركنٍ من حوش المنزل، ولم يتأخر في شراء العنزة؛ رغبة منه في رؤيتنا فرحين ومسرورين بها.

وكثيراً ما تناوبنا على إطعامها وتنظيف حظيرتها واللعب معها. إلا أن الفئران ظهرت فجأة في حوشنا، مما سبب غثاء العنزة ليلاً خوفاً وفزعاً من تلك الفئران.

تأثر أبي كثيراً عندما لاحظ عضات تلك الفئران على سيقان عنزتنا البيضاء العزيزة. لكن في اليوم التالي وبينما كنا نلعب مع العنزة مساء، لاحظنا أنها منهارة، ثم فرت فجأة عندما فتحنا باب الحظيرة، ودخلت صالة المنزل، تكومت تحت رجلي والدي، كأنها تريد النجدة منه بالذات.

كان أبي أول من لاحظ تشنجها وشدة غثائها، فأمسك بها واحتضنها بحنان، والألم يعتصر قسمات وجهه، وأصبح يكرر: (اسم الله عليك لقد كنت بخير هذا الصباح). لكن ما لبثت العنزة أن خرت ميتة من بين يديه، صرخ إخوتي الصغار، واكتسى وجه أبي بالحزن والأسى حتى دمعت عيناه. لم نعرف سبب تأثر أبي الشديد بموت العنزة، إلا بعد أن أمر بتنظيف الحوش والحظيرة سريعاً، وبعدها قال: "لقد وضعت سماً للفئران على الخبز الجاف خلف خزان المياه، وأظن أن ذلك الخبز قد تسرب للعنزة بفعل فاعل، لكن الفاعل ليس ملاماً فأنا لم أحذركم من وجود السم في الخبز".

لاحظ الجميع كثرة انشغال والدي عنا عندما كبرت تجارته، وافتقدنا مراجعته المسائية للدروس والواجبات، كانت جلساته المسائية جميلة جداً مع مزاحه وضحكه معنا في غالب الأحيان. وأذكر أني بعد التحاقي بالمدرسة الابتدائية، حكيت لرفيقتي عن دور أبي في حياتنا وإعداده الفطور لنا في كل يوم، فتعجبت كثيراً، وازداد عجبها عندما أعلمتها بمعرفة أبي للقراءة والكتابة؛ فقد غلب على المجتمعات الخليجية في ذلك الحين سمة البداوة والأمية، وعندما ذكرت لها أن جدي يعرف القراءة والكتابة أيضاً، لم تصدقني بتاتاً.

ومن أكثر اللحظات الجميلة والمؤثرة في حياتي مع أبي، كانت وقت امتلاكي سيارتي الخاصة، وعندما صعد أبي إلى السيارة ليباركها لي، تبسّم لي بعذوبة قائلاً: "يا ابنتي كم أنا سعيد من أجلك، ذلك أن القيادة تعطيك الحرية الكاملة، وتسهّل لك أمورك، فقط تذكري على الدوام أن قيادة السيارة تحتاج إلى فن وذوق وأخلاق".

في ذلك الوقت كانت قيادة البنات للسيارات شبه نادرة، لكن أبي أثبت للجميع أنه ديمقراطي بامتياز، وذو ثقة عالية ببناته، بل ويملك عقلاً منفتحاً مناسباً لتلك الفترة من الزمان، وأعتقد أنه لولا وجود تلك النماذج الشجاعة من النساء، والعقول المتفتحة من الرجال في ذلك الزمان، لم يكن أي سبيل للمرأة كي تسير في طريق النجاح والتقدم على كافة الأصعدة، وبالذات في دول الخليج العربي.

وعادة ما كنا نذهب إلى زيارة إخوتي الذين يقطنون الأحساء، أحياناً في عطلات الربيع، لكن دوماً في عطلات الصيف؛ وما أدراك ما طبيعة الأحساء لقد كانت جنة الدنيا في فترة السبعينيات. ولأني لم أرَ غيرها من البلاد في ذلك الزمان، ظننت أنها الجنة الوحيدة على ظهر الأرض. كنا وإخوتي نعيش في كنف طيبة قلوب هؤلاء الناس وكرمهم غير المحدود، وكنت أستأنس بحديثهم وأحاول تقليد اللكنة في كلماتهم، وهي اللهجة الأحب إلى قلبي. عشقت التسكع بين غابات النخيل، والقفز في عيون الماء الحارة أثناء الشتاء، وفي الجداول الباردة أثناء الصيف، تلك التي سبحنا فيها بحرية دون أن يراقبنا أحد.

وكم تجولنا في تلك الحقول اليانعة المليئة بالثمار والخضار، تمتعنا بقطفها وأكلها وهي نضرة وطازجة. وأحياناً كنا نركب البغال ونتسابق بمرح وسرور، وما أجمل تسلق النخلات الصغيرات وجني تلك الرطيبات الغضة سكرية المذاق. أما فرحتي الحقيقية فتكون عندما نقرر المبيت في عشة وسط النخيل، حينها تسترخي عروقي على موجات النسيم المتطاير من عبق التربة الطينية الحمراء، وتنتعش روحي مع ضخات أريج الأعشاب والزهور، التي لم تتلوث بالمبيدات والمخصبات الصناعية. ولو كانت فسحتنا في موسم الربيع فما يسكرني حقاً هو عبير حبوب اللقاح، ورائحة الطلع الخاص بذكر النخلة، وما أجمل تلك الحبيبات الأنثوية البيضاء المصفوفة بعناية وهي تنبثق من جرابها على شكل سلاسل مصفوفة إلى جانب بعضها البعض، فتذكرني بقول الله تعالى:

﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ ﴾ [ق: ١٠].

كنت كما يقولون طفلة مرحة لكن بروح امرأة ناضجة، أحب الأطفال بصورة خاصة، وأعتني بهم عناية شديدة، والحمد لله أني استمتعت بالعيش مع جدي لفترة طويلة قبل وفاته.

جدي الحبيب الذي كان ذا عذوبة نورانية، يزداد وجه الصبوح إشراقاً عندما يبتسم، وتبدو أسنانه بيضاء كاللؤلؤ المصفوف، والغريب أن سماته الجسدية كانت على النقيض من سمات والدي في كل شيء تقريباً، كان جدي أبيض البشرة مشرباً بحمرة، عكس والدي أسمر البشرة، كان طويلاً ونحيلاً، ووالدي يميل لأن يكون مربوعاً، كان شديد الهدوء ذا صوت خافت جداً، عكس والدي شديد الصخب والمرح، كانا يشتركان فقط في قوة النشاط البدني وفي حب العمل.

لطالما اعتقدت أن جدي كان متصوفاً، ذلك أن كل من يراه يحب ملامح وجهه البهية المشرقة، ويعشق الوقار والطيبة البادية على محياه. وللأسف لم أرث منه ملامحه، بل اكتسبت ملامح أبي، لكني أخذت من جدي الهدوء الشديد والصوت الخافت.

شعرت معه دوماً بانسجام كبير وطمأنينة غامرة. كان يقول لي: "كم تشبهين جدتك أم أبيك إنك نسخة مصورة عنها، فإن في وجهك صفاء رباني وبهاء وإشراق"، ثم تبتل عيناه بالدموع وهو يقول: "تلك المسكينة لم تهنأ بحياتها، ولم تسعد بأولادها".

كان كثيراً ما يجلس بيننا ويُحدّثنا عن ماضيه الجميل في طفولته وصباه، ثم عن سفراته الكثيرة إلى الشام والعراق للتجارة عندما بلغ مبلغ الصبا والشباب، كان يقول رحمه الله: "لقد سارت بي الأحداث شرقاً وغرباً في أنحاء العالم، لكني ظللت شديد التعلّق بغوطة الشام، أعشق هواءها البارد، وخضرتها اليانعة التي ليس لها مثيل"، وقد وعدنا أن يصطحبنا معه ذات صيف إلى غوطة الشام ذات الجو الجميل والثمار والخضار المتنوع، والمختلف عن كل ما تنتجه بلادنا؛ وعندما يذكر لنا ذلك يمتلئ الجو بنسمات التشويق والإثارة، وتكثر الأسئلة على غرار: "متى وكيف يا جدي يكون ذلك؟ نحن عددٌ كبير فهل تأخذنا كلنا معك؟"، فيجيب: "قريباً إن شاء الله، سوف آخذكم معي على دفعات حسب أعماركم"، ثم تشرق ابتسامته وهو يقول: "اللهم لك الشكر والحمد والثناء الجميل، أن متعتني بالجنة أنا وأولادي وأحفادي في حياتنا الدنيا، وعسى أن ننعم بها جميعاً في الآخرة". وقد صدق وعده معنا، كما استمر في زيارة بلاد الشام في كل صيف هرباً من السموم القاتل في الأحساء، وكان يقضي فيها وقتاً طويلاً كلما أمكنه ذلك، لكنه لم يتقاعد عن عمله التجاري، وظل محافظاً عليه حتى يوم وفاته.

لم يكن البوح الصريح من صفاتي يوماً ما، لكني لم أطمئن إلى أحدٍ سواه، فكنت أكاشفه بكل ما يجول في خاطري، وقد صدقته القول بأني أود العيش معه في الأحساء وزيارة الغوطة معه كلما أمكن إلى ذلك سبيلاً. لكن كيف لي أن أترك مسقط رأسي؟ كم ترددت في ذلك؟ لكنه شجّعني بابتسامة عريضة وقال لي: "لقد تمنيت يا ابنتي أن تكوني بجانبي، خاصة أنك شبيهة جدتك، هيا احزمي أمرك يا بنيتي ولا تترددي في الزواج من الرجل الحساوي النبيل الذي سوف أختاره لك، ولا تضيّعي عمرك كما يقول الشاعر عبد الله الخفاجي:

ومشـتت العزمـات ينفـق عمـره * حـيران لا ظفـر ولا إخفـاق

ولحسن حظي حققت لي الظروف كل ذلك، حيث إن معدلي لم يمكنني من دخول الجامعة في قطر، كما كثر الخطاب من حولي، فقررت الزواج بشرط أن أعيش في الأحساء، لكن لم يوافق على شرطي أي خطيب؛ لذلك خطط لي جدي أن يكون زوجي من أقاربي في الأحساء، وقد فرح بقدومي كعروس فرحاً كبيراً، ومن حظي السعيد أن سكنت معه في المنزل نفسه بعد أن هجرته زوجته إلى البحرين.

ومن المفارقات الغريبة أنه قد كثر في تلك الآونة الاعتقاد بفكرة التقمص وتناسخ الأرواح، وتردد ذلك الاعتقاد في دورات التنمية الذاتية وفي العلاج بالثيتا وغيرها، وما لبث أن سمع جدي بها من محطات الراديو والتلفاز، وعندما ناقشني في تلك الفكرة، قلت له ضاحكة: "أجل تلك حقيقة ثابتة، والدليل أنني روح زوجتك أو جدتي المتوفاة، تناسخت حتى لحقت بك أخيراً في الأحساء، ولأن جدتي في الماضي لم تعمر أو تهنأ بأولادها، أنجبت أنا الكثير من الأبناء وتعلقت بهم وبك دون الأهل في قطر"، وقد ظن جدي أني أمزح معه؛ لأن التناسخ لم يكن ضمن عقيدتنا، لكني اعتقدت به شخصياً من خلال قراءاتي المتعددة ومشاعري الخاصة، وعليه فقد كنت واثقة من صدق كلماتي! قد يلومني البعض بسبب تدليلي الشديد لأبنائي، وحرصي على ملازمتهم أينما ذهبوا بطريقة مبالغ فيها. ولمن حولي العذر الكامل فهم لا يعرفون أني فارقت توأمي في حياتي السابقة، فارقتهم بالحسرة والألم، وتركتهم للعذاب والقهر، وها أنا ذا أحاول التعويض عن ما حصل في الماضي، بفيض الحنان على أطفالي في حياتي الحالية.

أجل لقد حرصت على رعايتهم والعناية بهم، لدرجة أني نسيت التواصل مع أهلي في الدوحة! ولولا اتصالات أبي الذي لا يرتاح حتى يطمئن علينا، والذي كان يلومني على قطع صلة الرحم، لكنه لو عرف الحقيقة التي أعرفها جيداً لعذرني كثيراً.

<u>أختي الصغرى تكتب لي من الدوحة ما يلي:</u>

لقيت من الحب والدلال ما لم يلقه أحدٌ من إخوتي، فأنا الجميلة جدا في كل ملامحي، بشرتي بيضاء وشعري طويل ناعم، هادئة السلوك مطيعة لأوامر أبي، مما جعلني على قمة المعزّة والتقدير والاحترام في عيون الجميع. لكن للأسف الشديد، كل تلك المظاهر الخارجية الجميلة، كانت مجرد قشور صفراء واهية؛ لأن النفس سوداء خبيثة، والقلب فاسد جداً، كنت شديدة الزهو في داخلي واعتقدت أنني الأفضل من بين الجميع، ولي الحق في فعل ما أريد، تغلغلت الأنانية بشدة داخل نفسي، حتى قمت بتدليلها وإعطائها كل ما ترغب فيه، ثم تولدت عندي الرغبة في التسلّط على الجميع، وقد أتاح لي الكل فعل ذلك، أنا الوحيدة التي كانت طلباتي أوامر لا بد من تنفيذها دون تردد، أجل إن للجمال سلطة وسحراً لا يُقاوم.

أمي هي الوحيدة من أفراد أسرتي التي كانت تغار مني لجمالي وحب أبي وإخوتي الشديد لي. ولا بد لي من ذكر هذه الحادثة كي أثبت غيرتها الشديدة مني منذ طفولتي. ذات يوم تشاجرت مع إخوتي بسبب سطوهم الدائم على مجموعة تخصني من صور الممثلات، والتي حرمت نفسي من الملذات من أجل شرائها بمصروفي اليومي، واللعب بها مع صويحباتي. وفي كل مرة كنت أسترد الصور من إخوتي بالقوة والصراخ، فما كان من أمي ذات يوم إلا أن أخذت الصور من يدي وقامت بسكب "الكاز" عليها أمام ناظري وحرقتها كلها! هي تعرف كم أن هذه الصور عزيزة وغالية علي! يا لها من صدمة قاسية! وما زلت من حينها أكره أمي وإخوتي جميعاً، وقد استمر الحقد عليهم جميعاً، حتى بلغت مبلغ النساء وعرفت أسرار الهوى، وحينها تمنيت لو أشفي غليلي بالتسبب في فضيحة لهم كلهم.

أما أبي الساذج فكان مُغيّباً عنا، ولم يظن بعياله إلا الخير، كيف لا؟ ولِمَ لا؟ هو يعتقد أنه قد رباهم أحسن وأفضل تربية.

﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]

تلك الآية تنطبق على صاحبه الصميدح فهو يمد أبي بالضلال والخيال، يلقنه كيف يتصيد الأحلام من الهواء، يطلب منه التسامح والعفو وتعليمه لنا! بينما أعتقد أنا جازمة أن التسامح يُشجّع الآخر على التمادي في الشر والظلم، وهذا ما حدث لأبي مع أخويه، عندما سامحهم على ظلمهم فنهبوا حقه.

تباً لتلك الأفكار التي تبيع الأوهام والظنون الكاذبة للمثقفين بالذات، تخدعهم بمعسول الكلام وترشدهم إلى ما لا ينفعهم أو يحقق أحلامهم، حتى تضيع حياتهم هباءً منثوراً.

إن المتع اللذيذة هي دنيوية مادية بلا شك، أما السعادة المعنوية الوهمية فهي طعام الفقراء، ومناسبة فقط لأصحاب النفوس الضعيفة، ودليل العجز عن تصيد اللذة الجسدية؛ وقد صدق الشاعر عمر بن أبي ربيعة وهو قدوة الكثير من الشعراء الماديين حين قال:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد * وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت ليلة واحدة * إنما العاجز من لا يستبد

وقد اقتنعت تماماً بالمقطع الأخير، وقررت أن لا أكون عاجزة، بل مارست الاستبداد على الجميع.

أما أبي فقد كان ظالماً، حيث مارس التفرقة الواضحة بين عياله، لم يكن عادلاً معهم في العطاء المادي، ولا حتى في المودة وتجاذب أطراف الحديث، والدليل أنه كان غارقاً في التودد إليّ ومحادثتي كثيراً وتأمل وجهي طويلاً، حتى ظننت أنه منجذب لي جنسياً، فيا عجباً من قوة تأثير الجمال الأنثوي، تلك التي تسحر معظم الرجال مهما كانت قرابتهم من تلك الأنثى، أو تديّنهم، أو حتى عُمق تفكيرهم وقيمهم ومبادئهم.

وبالرغم من ذكائي الاجتماعي فإني كنت غبية في الدراسة، وما إن تخرجت من الثانوية بمعدل ضعيف جداً، حتى عرف الناس أني لن أدخل الجامعة، فتهافت علي الخطاب من كل حدبٍ وصوب.

تقدّم لي شاب قطري وسيم ذو خلق قويم لكنه لم يكن يملك المال فرفضته، ثم تقدم لي اثنان من أهلي من الأحساء وهم قمة في الغنى والأخلاق؛ رفضتهم لأن المرأة هناك لم تكن تملك الحرية الكاملة بعد. لم أهتم بالدين والخُلق، كنت أبحث عن الحرية المطلقة، وعن الرجل القطري الثري والوسيم في الوقت نفسه، ولم أرَ حرجاً في أن أبحث عنه بنفسي، تعددت علاقاتي العاطفية حتى حصلت على مبتغاي وتزوجت به وسيطرت عليه سيطرة تامة. لم يعرف أحد من أهلي أنني المُحرّكة لأحداث حياتي من بدايتها إلى نهايتها، وما زال أبي يُقدسني فأنا البنت الطاهرة المؤدبة.

لكن الله لم يغفر لي نفاقي وكذبي، عاقبني أن أنجبت طفل معاق إعاقة كلية؛ ولإن ذلك لم يحدث في عائلتنا من قبل، فقد أصبح الكل ينظر إليَ نظرة التعاطف، لكن لم تزل أنانيتي وقسوتي تبعدني عن ابني المريض، كنت أرفض علاجه في خارج البلد، حتى لا أتعب معه! وعلى ذلك تولى أبوه وجدته مسؤولية السفر لعلاجه عدة مرات لكن دون فائدة تُذكر؛ بينما كنت أعيش حياة الرفاهية والمشاركة في الحفلات والسهرات وشراء أغلى الماركات العالمية، وكأن شيئاً لم يكن، وقد أرحت ضميري بممرضة خاصة ترافق ابني ليل نهار. ثم ألحّ عليّ زوجي للإنجاب من جديد، لكني رفضت خوفاً من تكرار ما حدث! ولم أُقدر حاجته للذرية، وأظنه مات قهراً مني ومن تسلّطي، فقد توفّي بالسكتة القلبية بعد ثلاثة أعوام من عمر ابني. ورثت منه الكثير من المال لكني صرفته كله على ملذاتي، وحتى ميراث ابني تصرفت فيه كما أريد.

بالطبع لم يتقدّم لي أحد؛ كوني أرملة وأماً لطفل معاق، لكني وضعت عيني على عم ابني، ذلك الرجل الطيب الذي يزوره ويسأل عنه في كل حين، غازلته حتى أحبني، ثم سلبته من زوجته وعياله، وعندما تقدم لخطبتي، لم توافق أسرتي عليه، كونه كثير العيال، وزوجته طيبة جداً، قالت أمي: "هي لم تؤذنا قط فلماذا نؤذيها؟".

لم استسلم وبحثت عن آخر، وكان يريدني لزواج المتعة الذي يُعتبر ساري المفعول في مذهبنا، لكني ضحكت على سذاجته وقلت له :(أنت غير محترم فهذا الزواج يكون في الغربة فقط، ولا تنسى أن مذهبنا يعتبره عمل مكروه ولا تقوم به السيدات المحترمات).

أما الحبيب الأخير فتمادى في طلبه وكان صريحاً ولم يُغطي شهوته بغطاء زواج المتعة، بل طلب تجربة الجنس قبل الزواج، وكما هو سلوك الناس في الغرب أصبحت تجربة الجنس قبل الزواج مقبولة في الشرق أيضاً، وافقت لأن شخصية الرجل وصراحته قد أعجبتني جداً. فقدت إيماني وأخلاقي بالتدريج، وأحس الطرف الآخر بذلك، لأني بالغت في علاقتي المحرمة به! ولم يرني قط أركع ركعة واحدة، فكانت النتيجة أن لعب بي ولم يتزوجني. وهكذا استمرت حياتي على هذا المنوال، وكنت أعرف الكثيرات ممن يلعبن نفس لعبتي، ويتغطين بغطاء النفاق الديني، فلماذا ألوم نفسي؟ بل أعطيتها الحبل على الغارب بحجة الوناسة والمتعة.

عادة ما يتردد المرء الوقوع في الحرام لأول مرة، وقد يشعر بالذنب والألم النفسي، لكنه يستسهل نفس الفعل في ما بعد، بل قد ينسى حرمته، وهذا ما حدث لي بالضبط، وكما قال الشاعر:

مَــنْ يَهُــنْ يَسْــهُلِ الهَــوَانُ عَلَيْــهِ ❋ مَــا لجُــرْحٍ بمَيِّــتٍ إيــلامُ

أعتقد بجزم أنني الفاجرة الوحيدة في أسرتي كلها، لذلك لم يعلم بفجوري أو حتى يشك في سلوكي الملتوي أحد من أهلي، بل حصلت منهم على المزيد من نظرات العطف والتقدير؛ كوني أُماً لطفل معاق، بالأخص أبي الذي كان مُغيّباً تماماً عما يفعله أبناؤه بالسر دون العلن، ويظن أنه قد أنجب الملائكة. لكن بعد وفاة أبي صحوت من غفلتي ومن جهلي، عرفت أن جسدي أمانة كان يجب عليّ صونها، وأن ابني هو اختبار صعب من الله قد وقع علي، ومسؤولية وجب عليّ الاهتمام بها.

الآن أعترف بذنوبي كاملة حتى تكون توبتي إلى الله توبة نصوحاً، فلن تُقبل التوبة إلا بعد الاعتراف بالذنب، ها أنا ذا أعترف، وإن لم يسامحني من حولي، إلا أني أطلب العفو من الله ﷻ، فهل سوف يسامحني الغفور الرحيم؟

❋❋❋❋❋

الإهداء

أنا الجلمود أكتب لك يا قارئ العزيز من الدوحة، وأهدي قصة حياتي الحقيقية هذه إلى كلّ مجاهدٍ في هذه الحياة، سواءً كان ذلك جهاداً في تطوير نفسه، في عمله، في تربية ولده، أو في حبه لوطنه.

كما أهديها إلى كل إنسان يحاول التصدي لمشاعره وأفعاله المؤذية للآخرين، يفكر كثيراً ويتأمل في معاني العدل والظلم، ثم يجاهد في أن يكون عادلاً في سلوكه وظنونه ما أمكنه إلى ذلك سبيلاً، حتى ينعم بالحاضرة والآخرة.

كما أهدي هذا العمل إلى كلِّ من أدرك حقيقة أن أخاه الإنسان ضعيف أمام غرائزه وطباعه، وكما قال الله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء: ٢٨]، وأنه المبتلى بحب النساء والبنين والمال بكل أشكاله وألوانه، وذلك كما نص القرآن الكريم: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤]، وعلى ذلك وجب علينا مسامحة المخطئ، ومحاولة العفو عن المذنب كلما أمكن إلى ذلك سبيلاً.

أجل إن الإنسان لهش أمام غرائزه وضعيف الإرادة أمام متعته، ولا راحة له إلا بتبادل العفو والمسامحة مع الآخرين، قال تعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ ﴾ [فصلت: ٣٤] صدق الله العظيم.

وقد صدق أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب كرم الله ووجهه عندما قال: "العفو تاج المكارم"، أي أنه تاج مكارم الأخلاق قاطبة، ولا شك في أن العفو هو أفضل مكرمة يعطيها الفرد لنفسه وللآخرين، فهو راحة لجميع الأطراف.

أما النصيحة التي كان والدي -رَحِمَهُ اللَّهُ- يرددها لنا جميعاً لطرد الحقد من قلوبنا على أخطاء الآخرين فهي: "إن من يشيل الأمس على ظهره، يثقل جسده وتغوص قدماه في وحل الحاضر، وقد يموت جزاء ثقله، فلا يتمتع بالحاضر ولا يدرك الغد ليفرح به"، وكم تمنيت لو تم تنفيذ نصيحة أبي! وذلك بتمام التواصل بيني وبين أخويّ، لكن لم تكن باليد حيلة، وذلك أن ما اختلفنا عليه هو المال وهو (عديل الروح) كما يقول المثل الخليجي، وعسى أن يغفر الله لنا جميعاً.

*****

المقدمة

كيف بزغت فكرة هذه الرواية؟ وكيف كانت بداية الكتابة؟

لم أقرر كتابة هذه الرواية مبكراً في حياتي، لكني مذ تركت أهلي وعشيرتي وخرجت من مسقط رأسي في الأحساء متوجهاً إلى البحرين، صبياً مراهقاً في السابعة عشرة من عمري، دأبت على كتابة مذكراتي وتسجيل أحوالي المتقلّبة، فقد كان الفراغ قاتلاً والوحدة مملة. ثم عشقت الكتابة ولم أتوانَ عن تسجيل مشاعري لكل ما يسعدني ويحزنني؛ أجل لقد سجلت كل شاردة وواردة مما أثر في نفسي أثناء مراحل حياتي، كتبت أحياناً بالمختصر المفيد لو كنت مشغولاً، وأحياناً أخرى بالشرح والتفصيل لو كنت سعيداً ومتفرغاً للكتابة. في البحرين بدأت حياتي الجديدة، وقد وجدتها مختلفة عن القديمة كلياً، مما شجعني على تسجيل عبارات مفصلة تتعلق بما يجري لي من أحداث مثيرة وتواريخها في دولة البحرين، حيث تنقلت ما بين المنامة والمحرق. ثم عندما مررت بتجربة الغرام والعشق في قطر لُذت بالكتابة الواضحة الصريحة، وعبّرت فيها عن تفاصيل دقيقة لما يجتاحني من مشاعر جارفة، بحثت عن أبيات الشعر المتعلقة بالحب والغرام، وقمت بتسجيلها يومياً في دفتر مذكراتي، راقني ذلك ومكنني من التعبير عن مشاعري الجياشة بالتفصيل. كنت حديث العهد بالدوحة فلم أجد من أشكو إليه، وكان من الصعب كتمان الشوق في نفسي، إذن لا بد من تفريغ مشاعري على شكل كتابة حتى يهون عليّ الأمر ويرتاح هذا القلب الشجي قليلاً. كذلك كانت كتابة المذكرات فرصة لنقاش النفس ومحاسبتها، فكسبت الشفافية مع ذاتي، مما حبّبني في الكتابة فأدمنت عليها. ثم قررت ذات يوم بعد تقاعدي الجزئي عن العمل، أن أكتب رواية مفصلة عن تاريخ حياتي، بحيث أستنفد ما كتبت من مذكرات، وأضيف عليها من أحداث الماضي القريب والحاضر

الجديد، كان لزاماً عليّ أن أكشف من خلال الرواية عن مشاعري الصريحة الخاصة بكل مرحلة من مراحل حياتي، وذلك من أصعب ما يكون. لكن كتابة هذه الرواية شكّلت لي فرصة عظيمة، كي أسجّل تطورات الحياة التي عشتها، وهكذا كانت فرصة لتعريف الأجيال الحالية المرفَّهة، بالمعاناة التي كابدها الأجداد والجدات حتى أسّسوا لهم هذه الحياة السهلة الميسرة.

استعنت بأُختي الطاهرة كي تُذكرني ببعض ما نسيت من أحداث طفولتنا الحلوة منها والمرة، كما طلبت منها أن تكتب هي أيضاً بعض ما لديها من مشاعر مؤثرة عن تلك الحقبة من الزمان الفريدة من نوعها لكلينا. وكان من حُسن حظي أن زودني أبي بمكتبته العامرة حين شعر بدنو منيته، وتم نقلها من الأحساء إلى الدوحة حينذاك، وقد وجدت من ضمنها بعض المذكرات بخط يده، وفيها إشارات إلى ذلك الزمن القديم الذي يشمل طفولتي وصباي وشبابي، وقد أذن لي قبل وفاته باستخدامها من أجل إثراء هذه الرواية. كذلك بذلت جهداً كبيراً جمع الكثير من المعلومات التاريخية عن الأحساء والبحرين وقطر قبل البدء في الكتابة، كما تأكدت من تزويدها بالكثير من المعلومات الاجتماعية السليمة. وكم تمنيت أن يقرأها جميع الأولاد والأحفاد، وتكون فيها العبرة والفائدة، ففيها توضيح لما عاناه الأولون من شظف العيش، ولما سعدوا به من البساطة والهناء في الوقت نفسه. وقد طلبت من ولدي البكر في البحرين، وهو ذو الثقافة العالية، أن يكون أول من يقرأ هذه الرواية بعد وفاتي، حتى يتعرف على حقيقة ما خفي عليه من مشاعري في حياتي الخاصة والعامة، ولا سيما أنه قد ولد وأنا في الثامنة عشرة من عمري، وأنا الآن في بداية السادسة والثمانين من العمر، أي أنه قد عرفني ما يقارب الثماني والستين عاماً حتى الآن. طلبت منه أن ينشر هذه الرواية نيابة عني، دون أي تغيير في المضمون أو المحتوى، حتى الأخطاء في قواعد اللغة العربية، طلبت منه أن يتركها كما هي؛ وذلك بهدف عدم حدوث أي تغيير غير مقصود في المعاني الدقيقة للأحداث. أخبرت ولدي البكر أنه سوف يجد الرواية بعد وفاتي في درج مكتبي في منزلي بالدوحة العامرة، وقد أسميتها "ملحمة الجلمود".

الفوائد التي جنيتها أثناء كتابة هذه الرواية

مرت عليّ أعوام عدة وأنا مستغرق في الكتابة، اكتشفت خلالها أني في شخصي الظاهر للعيان مجرد تاجر، وكما قال أرسطو: "نحن نمثل فقط ما نكرر فعله دون توقف"، أجل لقد قامت مظاهر حياتي الخارجية على تكرار العمل بالتجارة في كل يوم، لكن تفاصيل ذاتي كانت مُخبّأة بداخلي، ولم ألتفت إليها إلا في ثنايا البوح والإقرار بأخطائي أثناء هذه الكتابة الصادقة؛ ذلك أني سبرت أغوار نفسي الدفينة، وسار عقلي في تجاويف نفسي وروحي كي يستخرج منها كل ما كان غامضاً عليّ من قبل. قمت بمراجعة أخطائي السابقة والحالية وبدقة شديدة حتى تم الإقرار بها يقيناً وكتابة؛ ذلك أن الاستغفار يستلزم الاعتراف بالذنب أولاً، ثم التحوط من تكراره، وأخيراً تُستخلص العبرة والعظة للذات وللآخرين، لو كان هناك من معتبر؟ ولن ترتقي النفس إلا بمعرفة العبرة والحكمة من أحداث الحياة التي عاشتها، كذلك لن تتحصل النفس على الثواب الوفير والأجر العظيم إلا بالعفو والتسامح، وكما قال الله تعالى:

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الشورى: ٤٠].

تمهّلت في كتابة روايتي هذه رويداً رويداً، فلم تزل عندي الفرصة حتى يومي الأخير في الحياة، كي أفرغ كيس حياتي كله، وأقلبه رأساً على عقب، وبذلك أُقيّم مسارات حياتي جميعها. هكذا أصبحت الذكريات تباغتني في كل حين، وتخرج هواجسي بروائحها الطيبة والمنتنة، تلك التي خزنتها على مدى أزمنة متفاوتة، وفي أمكنة مختلفة. تمكّنت من الرجوع إلى الوراء لأنظر إلى أعمالي من الخير والشر بالنوايا الحقيقية لها، لأجد في النهاية أنني لم أظلم أحداً من الناس كما ظلمت نفسي! بل كثيراً ما ضبطت نفسي متلبساً بجرم التقصير في حقها، وفي حق من أعول من عوائل ثلاث. وأنا من البداية حتى النهاية رجل أهلكه الكفاح، وأضناه الجري في جمع المال لهذه الدنيا الفانية، حتى ضاع عمره دون راحة ثابتة، أو مسرة حقيقية، أو حتى تحصيل كنز كبير من الأعمال الصالحة للحياة الآخرة. لكن لا بد من استثناء وحيد، فقد كانت مسرتي الحقيقية هي رؤية أولادي وأحفادي بصحة جيدة، وهم يكبرون ويتعلمون على أحسن ما يكون.

لم تختلف أحداث حياتي كثيراً عما يحصل للآخرين من مصاعب ومسرات وغرائب ومفارقات، لكنها اختلفت في نهج التفكير وحديث النفس، وقد كتب المتصوف الكبير ابن عربي هذه العبارة الذهبية: "إن مقياس تقواك مع ربك، هو نوعية حديثك مع نفسك"، ومنذ اكتشافي واقتناعي بتلك الكلمات أصبحت جملتي المفضلة لأي شخص هي: "اتق الله في نفسك".

وكم قبضت على نفسي متلبسة بالرغبة في إذلال الآخرين، أو البدء في عداوتهم لأي سبب من الأسباب، سواء كانت مهمة أو تافهة، فحرصت على نهيها عن ذلك، كي أجنبها الظلم والطغيان.

ولطالما حدثت نفسي أن لدي أجمل هبة قد يهبها الله للإنسان، ألا وهي ذلك المزاج الداخلي الشاكر المتفائل الهادئ المطمئن، لكن وللأسف لم تنعكس هذه الهبة الإلهية على طباعي الخارجية، بل أظهرت بعض الشدة والعصبية والتقتير على نفسي وعيالي. لكني عودت نفسي بمرور الأيام على التيسير في الصرف والبذل في الإنفاق، كذلك حاولت دوماً كبت غضبي الأرعن، وتوقع الخير من الآخرين بدلاً من سوء الظن، والصبر الجميل على سلوك الآخرين، كما تعلمت عدم التعجُّل في الحكم عليهم أبداً.

وعند وقوع الكوارث الشخصية لم أتحسر كثيراً، بل تقبّلتها بالثبات والصبر ورباطة الجأش، كما كان يفعل والدي، رحمة الله عليه، والذي كان له بالغ الأثر في مسيرة حياتي بكل تفاصيلها. كذلك كان لي في البحرين المدرس والصديق المسيحي، مثل المرآة التي تعكس لي أخلاقي الحسنة والسيئة على حدٍّ سواء، ثم تواجهني بعيوبي وتحاول إصلاحها؛ وهكذا ساعدني النقاش معه على تسجيل انطباعاتي عن صراعات نفسي مع الحياة، كما ساهم قربي منه في شرح بعض الغموض وحل الألغاز التي كنت أعيشها في ذلك الوقت. وقد وجدت في الدوحة الشبيه المماثل له وهو صديقي (الصميدح) الصادق الصدوق، الذي واجهني بعيوبي وشكر لي ميزاتي، وزوّدني بالكثير من حقائق العلم والمعرفة، كما قوى علاقتي بأهلي وأقاربي؛ ولهما أوجه خاص الشكر وعظيم الامتنان.

ندمت كثيراً على بعض ما فعلت، كما هنّأت نفسي على النجاح والإنجازات، وتأسفت على عدم تحقيق بعض الأماني، لكن العبقري المتنبي طلب منا عدم التأسّف إذا تأخّر الزمان في تحقيق الأماني، حيث قال:

مـا كـلّ مـا يَتمنّـى المـرءُ يُدرِكـه * تَجـرِي الريـاحُ بِمَـا لا تَشـتَهي السـفُنُ
لا تَلْـقَ دَهْـرَكَ إلّا غَـيرَ مُكـتَرِثٍ * مـا دامَ يَصْـحَبُ فيـهِ رُوحَـكَ البَـدن

أما الشاعر نضال جابر فقد عارض تلك الأبيات بقوله:

تجـري الريـاح كـما تجـري سـفينتنا * نحـنُ الريـاحُ ونحـنُ البحـرُ والسـفنُ
إنّ الـذي يَرتَجـي شـيئاً بهِمّتـه * يلقـاهُ لـو حارَبَتْـه الإنـسُ والجـنُ
فاقصـد إلى قِمـم الأشـياءِ تُـدرِكْها * تجـري الريـاحُ كـما أرادتْ لهـا السـفُنُ

وأترك لك عزيزي القارئ حرية الاختيار بين تلك النصائح الشعرية.

*****

الفصل الأول من الملحمة

بين مرابع ومراتع واحات الأحساء

ولوج الروح إلى المضغة، ثم الخروج للعالم المادي في العاشر من مارس عام ١٩٣٢م

في ذلك الزمن الموغل في القدم، كنت روحاً مُعلّقة على عمود النور في حجب الغيب، روحاً أبدية شفافة هانئة حامدة شاكرة، لكن حدث أنه في ذات فجرٍ منير مليء بالبهجة والسعادة، كشف الله لي الحُجُب، فاطلعت على حياة عجيبة مليئة بالتعب والنصب تارة، وبالراحة والهناء تارة أخرى؛ تتقلب ما بين الألم والحزن، ثم المتعة والسعادة، رأيت تفاصيل ست وثمانين سنة في لمحة عين واحدة، وفي خطف البصر، أجل لقد أُختزل لي الزمان والمكان، ثم سمعت هاتفاً يقول: "تلك تفاصيل حياتك الدنيوية وهذا قدرك الذي قدره الله عليك، لكن يبقى تفكيرك حراً، وعقائدك تحت اختيارك، وعملك أنت المحاسب عليه، فانطلق الآن". فكان أن ولجت رحماً طاهرة، وتخللت روحي المنطلقة ما بين حنايا وخلايا جنيناً مضغة، فشعرت بالحبس بعد الحرية، لكن ما إن نظرت حولي حتى تبددت وحشتي، فها هو جنينٌ آخر يقبع بجانبي، وتملّكني الحدس بأنها أنثى وأني ذكر. تسعة أشهر كاملة ونحن نتقاسم الزاد، ونتحمل هزّات العالم الخارجي في أحزانه وأفراحه، حتى آن لي أن أرى النور قبلها بدقائق معدودة، ثم ما لبثت أن لحقت بي، أنا الجلمود وهي الطاهرة، هكذا سُجلت أسماؤنا في العاشر من مارس عام ١٩٣٢م في مذكرات أبي، الذي دأب على تسجيل المواليد والمتوفين من عائلتنا العريقة؛ ذلك الحدث الجلل تم في مدينة المُبَرز من محافظة الأحساء في المملكة العربية السعودية.

حياة التوأم في البيت الكبير بين الأعوام ١٩٣٢- ١٩٣٥م

أخبرتني جدتي لاحقاً أن أبي قد فرح بالتوأم فرحاً شديداً، وكذلك سُعدت بنا أمي الهادئة جداً، والتي لم تضجر يوماً ما من مشقة العناية بنا وتربيتنا التربية السليمة، على الرغم من نحول جسمها وضعفها الشديد. كانت جدتي تتحدث بحزن وأسى، وهي تشرح لنا أوضاع العناية بالطفل الرضيع في ذلك الزمان البعيد: "في زمن ولادتكم، كانت المواليد تموت بكثرة؛ لذلك بذلنا جهدنا في حفظكم من حسد العين بقراءة المعوذات، وعلى الرغم من ظروف الحياة البسيطة جداً، وقلة توفر الأدوية في ذلك الزمن الغابر، فإننا اعتمدنا على الطب الشعبي الذي يجعل مناعة الأجساد قوية من الطفولة حتى أرذل العمر. وقد أوشك الجلمود الصغير على الموت ذات ليلة بسبب الحمى الشديدة، التي لم ينفع معها منقوع الأعشاب أو الكمادات، ولولا أن نحر أبوك خروفاً ووزعه صدقة على الفقراء، لما نجوت من الموت. كما أصابت الطاهرة الحصبة التي نجت منها بأعجوبة أيضاً؛ لأن أمكم قد وفت بنذرها في تفصيل ثلاثة من الفساتين وإعطائها لليتيمات الصغيرات".

كانت أمي يتيمة الأب والأم وليس لها إخوة، وقد ورثت من أهلها المال الكثير، لكنها تُوفِّيت ونحن بالكاد قد جاوزنا الثالثة من العمر، وهكذا ورث أبي منها كل أموالها بعد وفاتها. أحبتها جدتي حُباً جماً، وكم تحدثت عنها بالخير ومدحت أخلاقها ومزاياها، وقد كانت أثيرة لديها من بين كل نساء البيت الكبير، حدثتنا جدتي عنها قائلة: "أهملت أمكم كل شيء يخصها فيما عدا رعاية التوأم، ولم تسمح لأحد بمعاونتها في ذلك المجهود الكبير غيري أنا، لكن عند الضرورة القصوى فقط، وقد لامها كل فرد في بيت العائلة الكبير. لم توجد المربية الخاصة في ذلك الزمان، ولا "حفاضات" الأطفال المصنعة، ولا حتى للمراضع الزجاجية أو اللهاية البلاستيكية، لا شيء كان يعين الأم على تلك التربية الشاقة غير إيمانها وصبرها اللامحدود. أما حبها وتدليلها لضناها فيظهر عند هدهدته بالغناء الشجي، وهو شرط ضروري لإسكات بكاء الرضيع، تسريع نموه، ولكل وقت أغنية، فعندما تهدهده للنوم مساءً تقول: "هلولو يا بعد عمري هلولو، نام يا وليدي نومة الهنية، نومة الغزلان في البرية، نومة اميمتك يوم هي بنية (الفتاة قبل الزواج)، بنطرك (سوف انتظر) يا وليدي تغسل شقى عمري، بك أنت بشد الظهر لين انحنى ظهري". وما زلت أتذكر تلك الصباحات الهانئة حين غنت أمي وجدتي لنا:

"صباحك صباح الخير، قبل ما يطير الطير، والطير له جناحان، وأنت ملقاك الخير، صباحك من الغبشة (بداية طلوع الفجر)، مثل الذهب في البقشة (الصرة)، والحنة ذي من نقشه، نقش الحبيب الغالي، صباحك يا صباحك، لؤلؤ البحر مسباحك، والبين (الفراق أو الموت) ما يندلك (لا يستدل على مكانك)، ولا يسمع صياحك (بكاؤك)، صباحك ألف مهرة وجَمال وراعي، وأُبيك فوق صهوة، يراعي في المراعي" أو تقول: "وأُبيك مع الغاصة يجيب لأمك لؤلؤ، وللعدو رصاصة".

كم وكم ترقصت ونقزت مع توأمي، وجدتي تنشد غناوي الصباح الشجية باللحن الجميل: "صباحك الصباحي، والورد والتفاحِ، وعيونك الزينة سلابة الأرواحِ، صباحك صباحين، صباح الكحل في العين، صباح يطرد الفقر، وصباح يوفي الدَّين (السلفة)، صباحك صباحين، لا مغبر ولا شين، صباح النخلة أم عذقين (عذق الرطب)، والعنزة جابت تويسين (تيس)، وأنا قريت اليوم جزئين من القرآن الكريم، وأكلت اليوم قرصين (قرص الخبز)، صباح الناس مرة، وأنت صباحك ألفين، وحلاتك حلاة الكحلة في العين"؛ أما عندما تصحو الأم من منامها، على بكاء طفلها فما أجمل أن تقول له: "يا عمري من نام وقعد، والنوم في عيونه بعد، بالخير صبحنيه، من المرقد نهنيه، من الأول أنا في الحوش دواره، والحين يمك قعدنيَه"، أو تقول: "حبيبي يا حبيبي، يا بعد مسكي وطيبي، يعل المسك يعدم، ويسلم لي حبيبي".

وإذا جاء المولود بنتًا، تغني الأم عليها قائلةً: (بنية على بنية، ولا قعود بطالي (دون ذرية)، بنية تطبخ الغدا، وبنية تعاون الجارِ، وبينة تقول يابويا، اليوم لفانا خطارِ (جاءنا ضيوف).

كما حدثني أبي عن عناية أمي وجدتي بنا قائلاً: "عندما يستيقظ أو يبكي التوأم معاً، تهرع جدتك لتحمل أختك، وتتركك لأمك حتى تفرغ من إرضاعك وتنظيفك، فالصبي له الأولوية في كل شيء. كان يتم الغسل بالماء ومسحوق أوراق السدر، ثم تطييب كل منكما بمسحوق أوراق الغَسِل (تُؤخذ من شجر الآس أو الياس وهي أوراق طيبة الرائحة ناعمة الملمس). ولأن أمك ضعيفة البنية، فعادة ما يقل أو يتوقف إدرار الحليب لديها، عندها يتم

البحث عن مرضعة أخرى، وأظن أن لديك الكثير من إخوان وأخوات الرضاعة في الأحساء، لذلك وجب علينا التذكر والحذر الشديد عند البحث عن عروس لك".

وحيث لم يظهر في الأحساء الإرضاع بالزجاجة المثبت عليها مصاصة بلاستيكية، إلا في نهاية أربعينيات القرن العشرين، فقد كان الرضيع في زمننا يُسقى الحليب أو الماء بالفنجان الصغير، أو يُستخدم كوب زجاجي له قمع طويل ينتهي بفتحة ضيقة مخصصة للإرضاع، وربما استخدم البعض جراباً جلدياً صغيراً يشبه القربة ينتهي بعنق ضيق جداً. بالتأكيد لم توجد اللهاية أو المصاصة البلاستيكية، بل كان يحل مكانها قطعة صغيرة من قماش رقيق أبيض شبيه بالشاش، في وسطه تمرة أو حلوى لينة، ثم يربط القماش على شكل عقدة صغيرة توضع في فم الرضيع، بينما تمسكها المرضعة من الطرف الآخر، حيث يمصها الرضيع هنيئاً مريئاً. وفي ذلك الزمان كان يتم إطعام الرضيع بعد إكماله ستة أشهر، بالحمص المطبوخ والمدقوق جيداً كبديل عن السيريلاك الحالي، كذلك كان يستخدم دقيق الأرز الناعم المطبوخ بالحليب وقليل من دبس التمر، وعند بداية ظهور الأسنان اللبنية، يُقدم للرضيع جميع أنواع الطعام، بشرط أن تكون مطبوخة ومهروسة جيداً.

ما الذي يحويه البيت الكبير؟

ضم البيت الكبير أبي وجدي وجدتي وعمة واحدة شقيقة لأبي، وهي أرملة لها ولد واحد يكبرني بعدة سنوات، كما عاش في ذلك البيت ثلاثة أعمام وزوجاتهن وما لهم من بنين وبنات. البيت يضج بالحركة وبمرح الصغار وصراخهم، ويتعاون الجميع على تنفيذ أشغال البيت التي لا تنتهي، وأحياناً يتشاجر البعض على أتفه الأسباب، ويتوسط جدي في إصلاح ذات البين بين الرجال، أما جدتي فقد تركنا لها مهمة تأديب البنات والنساء، وكنا ننادي عليها بـ (أمي الحجية) تمييزاً لها عن أمهاتنا اللاتي ولدننا.

وأذكر أنه في زمن الطفولة والصبا، كانت الحياة اليومية تبدأ بالصحو باكراً، البعض يصلي الفجر ولا يرجع إلى النوم ثانية، بل يقضي الوقت في قراءة الأدعية والقرآن الكريم، حتى يحين وقت الفطور. أما بقية أفراد الأسرة فتصلي الفجر ثم تواصل النوم، ومع خيوط الشمس الأولى، أي حوالي السادسة صيفاً والسابعة شتاءً، يستيقظ الجميع، ومن يستغرق

في نومه أكثر من ذلك لن يجد له طعاماً يفطر به. بعد ذلك يقوم كل فرد بعمله الخاص به والمناط إليه مسبقاً، يكون أولها حلب الماعز أو البقرة التي تعيش غالباً في مكان خاص بها يسمى السمادة (الزريبة)، وعادة ما تكون في طرف الحوش القصي عن غرف النوم والمعيشة. وبالقرب منها يوجد قفص الدواجن، حيث تتم تربية الدجاج الذي يؤكل طازجاً في كل بيت، ولا بد من جمع البيض في كل صباح، لكنه يؤكل عادة عند الغذاء أو العشاء. ولا بد من زعب الماء بالدلو أي جلب الماء العذب من الجليب (البئر) الذي يشترك فيه عادة معظم سكان الفريج (الحي)، وتتفرد البيوت الكبيرة فقط في حفر بئر خاص بها، في ركنٍ من حوش منزلها، وهذا ما كان متوافراً في بيتنا الكبير. يُصب الماء العذب في جرار كبيرة مصنوعة من الفخار تسمى الجحال (مفردها الجحلة)، وتوضع على حوامل خشبية مصممة لحملها، وتتوزع في أركان من حوش المنزل، ومن الجحلة تُملأ القلل الصغيرة (مفردها قُلة) وتسمى في الأحساء (المسخنة)؛ ربما لأنها تسحب السخونة من الماء، وعادة ما تُوضع واحدة منها في كلّ من غرف النوم والمعيشة، كما يُعلق أو يربط بكل منها كوب معدني صغير يُصنَع عادة من الألومنيوم، له عروة ويُسمى (البالدي أو الدولجه)، ويستخدم للشرب أو لغرف الماء. كما كانت تستخدم (البرمة) وهي إناء من الفخار له فم واسع يسمح بتخزين كمية كبيرة من الماء، أو حفظ بعض الأطعمة الطازجة أحياناً. وفي إحدى زوايا المنزل وبالقرب من البئر يتم بناء المغتسل وهو مكان الاستحمام السريع، كما يتم بناء (العسيلة) وهي خزان للماء يُستَخدم في مد المغتسل بالماء، وقد يوجد خارج أو داخل المنزل، وهو عبارة عن فجوة عريضة منبثقة من الجدار الخارجي للمنزل متصلة بجدار داخلي له مصب داخل المغتسل مع سدادة خشبية لقفل المصب من الداخل، ويتم إعادة ملئها بالماء كلما أراد أحدهم الاستحمام السريع أو الغسل. وعادة ما يوجد في حوش المنزل ركن صغير مبلط لغسل الأواني والمواعين ويُسمى (جباية)، وقد يستخدم لغسل اليدين والقدمين أو للوضوء.

كل المياه الوسخة المستخدمة تتدفق بعد استخدامها إلى خارج المنزل؛ وذلك لانعدام أنابيب الصرف الصحي والمجاري العامة، ولا يتم الاستحمام الكامل إلا حيث تتواجد عيون الماء الساخنة بين النخيل في المزارع، أو حيث تُبنى برك الماء بين البساتين، وعليها لا بد من

تهيئة أماكن خاصة للنساء فقط، كما جرت العادة على أن يُنظف البدن والشعر، باستخدام الليف الطبيعي مع مسحوق أوراق شجر السدر (النبق أو الكنار).

يُبنى المرحاض (التواليت) في ركن قصي من كل بيت، وعادة ما يكون ملاصقاً لسور المنزل، يأخذ حيزاً صغيراً من الأرض التي يُبنى لها ثلاثة جدران من الطين، ويكون له باب خشبي خاص، لكن ليس له سقف مُحكَم، وذلك بغرض التهوية؛ المرحاض عبارة عن حفرة عميقة ضيقة المساحة تُحاط بالحصى الكبير أو بالطابوق، وله عدة أسماء منها: المستراح، المختلى، السنداس، والشائع منها مُسمى (الأدب) في الأحساء؛ وفي بيتنا الكبير بُني منها ثلاثة؛ واحد للنساء وآخر للرجال، والثالث للأطفال وذلك لكثرة أفراد الأسرة.

فرحة بالأخت في بداية عام ١٩٣٤م، ثم تتابع الأحزان حتى نهاية عام ١٩٣٤م

ما لبثت أمي في غضون عامين من ولادتنا، أن أنجبت بنتاً جميلة نحيلة ضعيفة، لكن لم يمهلها القدر فماتت وهي لم تكمل العام الأول من العمر. ولم تزل أمي منذ ولادة تلك الطفلة وحتى وفاتها تعاني من حمى النفاس، ثم عانت من داءٍ لم يُعرف له دواء، فلحقت بالطفلة سريعاً، وكنا نحن التوأم بالكاد قد أكملنا الثالثة من العمر. وكل ما أذكره من أطياف أمي سرير المرض الذي نامت عليه قرابة السنة، وحرصها على أن نكون بجانبها في معظم الوقت. يا لها من فاجعة ما زالت عالقة في نفسي، دموع أبي المدرارة التي بللنا بها وهو يحتضن التوأم معاً، عويل جدتي التي كانت تحب أمي حباً شديداً، وصراخ كل من كان في البيت الكبير على وفاتها. لقد ساعدت قوة إيمان أبي على إعطائه صبراً تعجز عنه الجبال الرواسي للعناية بنا، وذلك لمدة عام كامل، لكن بعد تخطينا الرابعة من العمر لملم أبي جراح قلبه وبدأ في البحث عن امرأة أخرى.

كان أبي رقيق الحاشية، هادئ السلوك، منخفض الصوت، يبتسم ولا يقهقه، طويل القامة نحيل الجسم، أبيض البشرة مشرب بحمرة. وعندما كبرت وجدت أني لم أرث من أبي أي صفة من تلك الصفات الراقية، بل كنت أحمل من كل صفة له عكسها تماماً! وكنت أظن

أنه لا يحبني بسبب صفات جسدي المناقضة له تماماً. أما الطاهرة فقد ورثت منه جُل صفاته، ما عدا كثرة الضحك والقهقهة التي ورثتها من جدتها على الأرجح.

نشأنا في بيت العائلة الكبير، حيث كانت والدة أبي التي يشبهها لا تزال نشيطة وبصحة ممتازة، وعند ولادتنا كانت قد أكملت الأربعين من عمرها، جميلة مبتسمة ضحوك، هي مدبرة البيت في كل شؤونه، وهي المكلفة بإعطاء الأوامر لجميع نساء وبنات المنزل، كذلك كان عليها التأكد من توفر مؤونة المطبخ كاملة، ولن يبدأ إعداد أي نوع من الطعام إلا بإذنها، ولا يتم الطبخ إلا تحت إشرافها، لكن يا ويلها من جدي لو نقص شيء من الطعام الذي لا بد أن يكون متنوعاً وكافياً للجميع. تكفلت جدتي برعايتنا بعد موت أمي، وأغدقت علينا من عطفها الكثير، بل فاقت رأفتها بالتوأم اليتيم حنان الأم الرؤوم وحب الأب المكلوم. جمعتنا مأساة اليتم أنا وأختي معاً وبشدة، حتى إننا لم نفترق عن بعضنا طرفة عين، وكان لكلٍّ منا في الآخر عزاء وسند في ذلك المصاب الأليم.

<u>نبذة عن سيرة والدي بين الأعوام ١٩١٠ - ١٩٣٥م</u>

كان والدي يحدثني كثيراً عن تاريخ العائلة العريق، ويمدني بالكثير من المعلومات عن منطقة الأحساء، وقد طلبت منه تسجيل كل تلك المعلومات الدقيقة على شريط كاسيت في أواخر عمره، فسجل لي ما يلي: "ولدت في مدينة المُبَرز من عام ١٩١٠م، في أسرة كبيرة مثقفة متدينة محافظة، عريقة في أصولها حيث يمتد نسبها إلى علي بن الحسين زين العابدين حفيد رسول الله (ص)، وكنا نتوارث شجرة العائلة أباً عن جد، ونفتخر بالنسب المبارك الشريف جيلاً بعد جيل. هكذا نشأت معتداً بنسبي وثقافتي الفريدة، لكن الطيبة والوداعة والتقوى طغت على شخصي قلباً وقالباً. هاجرت عائلتي التي تعمل بالتجارة، من المدينة المنورة إلى واحات الأحساء منذ زمن بعيد، ولأن لديها ما يكفي من المال فقد تمكنت من شراء العقارات والمتاجر في الأحساء، ثم ما لبثت أن شاركت مجتمع الأحساء بالعمل في زراعة النخيل أيضاً. ومن ميزات تلك الأيام أنه لا وجود لأي عمل خاص بالفرد وحده، بل لا بد من عمل جميع أفراد العائلة في التجارة والزراعة معاً، وعادة ما يكون الجد الأكبر هو مالك المال كله، ومدبر شؤون المعيشة بأكملها، وبعد وفاته يكون الولد البكر خلفاً له. كذلك لا بد للعائلة من

المساهمة في كافة شؤون المجتمع، في المناسبات العامة والأعياد، وكذلك المشاركة بالمال والجهد في الأفراح والأتراح للجيران والأقارب مهما بعدت أراضيهم. وعندما قدمت أسرتي من المدينة المنورة كانت الأحساء كبيرة جداً تضم مئات الآلاف من البشر، غالبيتهم عربٌ قحاح جاؤوا من مختلف أنحاء الجزيرة العربية أو من اليمن، ولم يكن في الأحساء متسعٌ لغير أهلها، فلا وجود للأعاجم أو الأجانب إلا فيما ندر؛ لذلك تعلم رجال الحساوية كل الحرف وخدموا بها أنفسهم، عملوا بها وعلّموها لأبنائهم جيلاً بعد جيل، وعليها تُطلق ألقابهم وأسماء عوائلهم، نحن نلقّب بعائلة التاجر نظراً لانشغالنا بالتجارة، أما غيرنا يُسمى على سبيل المثال؛ عائلة الحايكي وهم من يحيكون الثياب والبشوت والبسط وغيرها، وعائلة الحواج وهم من يبيعون الأعشاب الطبية والبهارات، ثم عائلة الصفار وهم من ينظفون ويلمّعون أواني النحاس والحديد المستخدمة في الطبخ في ذلك الوقت، كما يعتنون بأواني الفضة التي يستخدمها الأغنياء في تقديم الطعام، أما عائلة الصايغ فهم المختصون بصنع المشغولات الذهبية والفضية، وعائلة الخراز هم أصحاب الحرفة الخاصة بتصليح النعل والأحذية، كذلك توجد عوائل كثيرة أخرى مثل النجار والحداد والخياط، وكل حسب مهنته.

الهفوف هي المدينة الأكبر في المساحة وعدد السكان بالنسبة لمحافظة الأحساء؛ لذلك تعتبر العاصمة، وتليها في الحجم والأهمية مدينة المبرز التي تبعد حوالي ٤٠ دقيقة بالعربة التي تجرها البغال. والجدير بالذكر أن كلتا المدينتين فيهما الكثير من واحات النخيل والمزارع وعيون الماء العذبة. وبالرغم من ذلك فإن مدينة الهفوف كانت محاطة بصحراء قاحلة تكثر فيها الذئاب والضباع، وكنا نسمع عواءها من بعيد جداً، مما يمنع الناس من الخروج ليلاً في كلتا المدينتين.

وُلدت وعشت في مدينة المبرز، وهي مدينة وادعة ذات أسواق متنوعة، وزرع كثيف وغابات من النخيل؛ لذلك كان جُل أهلها يزاولون العمل بالزراعة أو الإشراف على المزروعات في الفترات الصباحية، ثم مزاولة الحرف المختلفة والتجارة بعد آذان العصر وحتى صلاة العشاء. في تلك المدينة السعيدة، يتزوج الشباب ما بين الثامنة عشرة والعشرين من العمر، ولا يؤجل الزواج إلا الفقير جداً أو من يُتهم بعدم الرجولة، كذلك تتزوج البنات ما بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة، ومن تتأخر لما بعد ذلك توصم بالعنوسة".

لطالما تباهى والدي بأهمية المملكة العربية السعودية في العالم العربي والإسلامي، وكثيراً ما حدثني عن تاريخ الأحساء ودورها في الحربين العالمية الأولى والثانية، وقد سجل لي تلك الأحداث على شريط كاسيت كما يلي: "كانت الأحساء تحت سيطرة الدولة العثمانية التي سقطت نهائياً في عام ١٩٢٤، أجل لقد كان سقوطها مدوّياً بعد مواجهتها للكثير من الثورات والمشاكل السياسية الداخلية والحروب الطائفية والانفصالية. لكني لا أذكر شيئاً من حكم العثمانيين إلا فرقة الموسيقى التابعة للفرقة العسكرية التركية، وهي تعزف الموسيقى في مناطق متفرقة من الأحساء، حيث كنا نلاحقهم نحن الصبيان في كل مكان لنستمع إلى معزوفاتهم العسكرية وأناشيدهم الوطنية الجميلة، والتي لا نفقه منها شيئاً. زعم أولياء الأمر آنذاك تأييد الخلافة العثمانية الإسلامية، حتى فضحتهم الحرب العالمية الأولى التي (بدأت في الثامن والعشرين من يونيو من عام ١٩١٤م، وانتهت في الحادي عشر من نوفمبر من عام ١٩١٨م)، وقد عشت تلك الفترة بقلق شديد مع كل أهالي الأحساء، ففي بداية الحرب كنت طفلاً أخطو إلى الرابعة، وفي نهايتها بلغت الثامنة من العمر، لكني لا أذكر من أهوال الحرب العالمية الأولى شيئاً غير حرص أهالي الأحساء على توفير المؤونة الغذائية، والتقتير على أنفسهم إلى حد الجوع، وإلى درجة أن الناس قد لعقت أكياس التمور بعد أن فرغت من محتواها، كما أكل البعض بقايا الثمار التي كانت سابقاً تُوضع للماشية؛ حدث ذلك لأن الحكومة فرضت على الأهالي التبرع بالتمر والفواكه المجففة وكافة أنواع البقوليات والحبوب لصالح عتاد الحرب ودعماً للإنجليز. وبسبب الخوف من التفتيش والنهب، تم إخفاء بعض المحاصيل في مخازن سرية تحت الأرض في الحقول أو البيوت؛ ثم ما لبث المخزون أن قارب على النفاد، وهكذا انتشر الجوع وأصبحت المدينة شبه خاوية من الناس الذين قبعوا في بيوتهم. وعليها توقف الناس عن العمل الجاد في المزارع؛ لأن محاصيلهم سوف تصادر على أية حال، بينما عمل بعض المزارعين على العناية بالزرع بعيداً عن أعين الشرطة والجواسيس؛ حيث كان اجتياح الجلاوزة أو الفداوية (حراس الحكام) للمزارع والحقول، معتاداً عليه في أي وقت من الليل، كما قد يحدث فجأة أثناء النهار، حتى يتم تسجيل أنواع المزروعات وكمياتها، ثم تفتيش المنازل بعد الحصاد وأخذ ما فيها، هكذا أصبح النهب والسلب عادة لهم بذريعة تزويد عتاد الحرب، وأصبح ظلم الناس متوقعاً في أي زمان ومكان من أحسائنا العزيزة. ولم

يعد الموت غريباً علينا، بل أصبح مألوفاً جداً فهو يمر في مدينتنا كل يوم ويلتقط أطفالاً وعجائز ومرضى وجوعى.

ظهر انحياز أولياء الأمر للإنجليز جلياً واضحاً، وقد بذلت الحكومة البريطانية كافة الجهود مع محاولات متكررة، ومارست الضغوط على شعب الأحساء كي يعلن التمرد على الخلافة العثمانية قبل سقوطها، وطلب فرض الحماية البريطانية عليهم، إلا أن كافة الأهالي تمسكوا بالخلافة الإسلامية السنية، بالرغم من أن قسماً كبيراً من شعب الأحساء كان على المذهب الاثنى عشري الجعفري. وأمام ذلك الصمود والتمسك بدولة الخلافة، لم يجد الإنجليز بُداً من إعطاء الضوء الأحمر للقيام بالمحاولة الثالثة من طرف قبيلة (آل سعود) للسيطرة على الجزيرة العربية كاملة في عام ١٩١٣، ومنذ ذلك الوقت صارت الأحساء تحت الحماية البريطانية، وكان ذلك ضد إرادة الشعب. وفي عام ١٩١٥م وقّع آل سعود معاهدة دارين مع الإنجليز، وتنص على الاعتراف بهيمنة بريطانيا على كل إمارات الخليج مقابل اعتراف الحكومة البريطانية بحكم آل سعود على الجزيرة العربية فقط، وضمان الحكم لذريتهم أيضاً، وهكذا بسط آل سعود حكمهم على الجزيرة العربية بأكملها في عام ١٩٣٢م، وهي السنة نفسها التي وُلدتَ فيها يا بُني.

وقد سجل التاريخ أن آل سعود حكموا الجزيرة العربية بعد طرد والي مكة حينذاك، وهو الشريف الحسين بن علي الهاشمي إلى الأردن، ثم قاموا بتنصيب ابنه عبد الله والياً على عاصمتها عَمان. ولهذا الشريف قصة تاريخية طويلة أسردها عليك كما يلي: في العاشر من يونيو عام ١٩١٦، اندلعت الثورة العربية الكبرى بقيادة شريف مكة (الحسين بن علي)، والذي هدف إلى تأسيس خلافة دائمة له ولأبنائه من بعده، وعلى ذلك خطط مع الإنجليز على دحر الخلافة العثمانية، وكانت إمبراطوريتهم الكبيرة قد تفتتت إلى دويلات صغيرة. وللأسف فقد صدّق شريف مكة وعود ملك إنجلترا آنذاك، في إعطائه السيطرة التامة على الجزيرة العربية والشام وفلسطين. وقد أمده الجنرال الإنجليزي (إدوارد لورانس) بالمال والسلاح (واحد وسبعون ألف بندقية وأربعون مليون طلقة)؛ كي يقاتل العثمانيين. وقد تمكّنت قوات الشريف من القيام بغارات مدمرة على ممتلكات وجنود العثمانيين، وكذلك تخريب سكة القطار التي تصلهم بالحجاز.

كان هدف بريطانيا وفرنسا الأول والأخير إلغاء دين الإسلام وجعل المسلمين ضعفاء غير متماسكين. وقد فرضت بريطانيا انتدابها على فلسطين وقامت بتوطين اليهود وتسليح عصابات الصهاينة فور انتهاء الحرب العالمية الأولى. وعندما رفض الشريف توقيع معاهدة "فرساي" التي نصّت على تقسيم الوطن العربي، انتهز أمير نجد (عبد العزيز بن سعود) الفرصة، وتحالف مع الإنجليز ضد العثمانيين وضد شريف مكة، حتى يتمكّن من السيطرة على الحجاز كاملاً، فحاصر شريف مكة حتى فر إلى العقبة، لكن لم يُسمح له بالبقاء، وتم طرده إلى قبرص، بعد استخدامه معول هدمٍ للخلافة الإسلامية. كما تم لاحقاً طرد ابنه من سوريا التي احتلتها فرنسا، ولم يجد له بداً من اللجوء إلى الأردن، حيث نصب ولده حاكماً عليها. وقد تقاسمت بريطانيا تركة العثمانيين بقيادة (الجنرال مارك سايكس) مع فرنسا بقيادة (الجنرال فرانسوا جورج بيكو) حسب الاتفاقية المعروفة باسم (سايكس بيكو) في عام ١٩١٦م. أجل يا بُني سقطت الخلافة الإسلامية العثمانية عن الجزيرة العربية بفضل معاونة حكام العرب للإنجليز، ومساندتهم لهم طوال فترة الحرب العالمية الأولى. وقد عم الحزن والأسى على جميع أهالي الأحساء بعد سقوط الدولة العثمانية الإسلامية، ومن أجل ذلك كان أبي يردد علينا أبيات الشعر التالية:

ومـا فَتِـئَ الزمـانُ يـدورُ حتّـى * مَضَـى بالمَجْـدِ قَـوْمٌ آخَرُونَـا
وأَصـبَحَ لا يُـرى في الرّكْـبِ قَـومِي * وَقَـد عاشُـوا أَئِمَتَـه سِـنِينَا

طفولتي و ذكرى الحرب العالمية الثانية

وقعت الحرب العالمية الثانية في الفترة ما بين سبتمبر ١٩٣٩م إلى سبتمبر ١٩٤٥م، ظلت ذكرى الحرب العالمية الثانية باهتة جداً في مُخيّلتي، لأني كنتُ في السابعة من عمري وقت نشوبها، ثم انتهت وأنا في سن الثانية عشرة على وجه التقريب. وأتذكر وفاة الكثير من أهل الأحساء في تلك الفترة المؤلمة من الجوع أو من المرض، وإن لم يشاركوا في الحرب بالقتل والدمار. ويشهد التاريخ أن بعض الشباب سُحبوا غصباً عنهم إلى ساحات القتال؛ للمساعدة في نقل المؤن والعتاد، وغير ذلك من لوازم الحرب، ومات بعضهم من التعب والإجهاد. ولا شك في أنه عندما تدق الحروب أبوابها فإنها تؤثر سلباً على من حولها، وقد مرت علينا سنوات

صعبة في ذلك الزمن؛ حيث ألقت الحرب بظلالها السوداء علينا رغم بعدنا عن مواقع الصراع. لم تعد القوافل العادية أو حتى السيارات الخاصة تخاطر بالسفر لجلب البضائع من بلاد الشام والعراق وغيرها، وهكذا كسدت التجارة، ولم يبقَ للناس من المؤن الغذائية إلا مخزون التمور والحبوب والمزروعات الموسمية، لكن ذلك المخزون كان يقل تدريجياً. وأتذكر كيف عشنا تلك الأيام العصيبة بقهر أليم وبؤسٍ شديد، وقد فُرض علينا التبرع بالتمر والحبوب لصالح عتاد الحرب، ثم ما لبثت أن أُغتصبت معظم المحاصيل قهراً من المزارعين، بأمرٍ من المسؤولين، وكانت تُصدّر إلى الحلفاء، مقابل وعودهم لولاة الأمر باستمرار السيطرة الكاملة على الجزيرة العربية. أجل لقد حلّت علينا المصائب العظمى بسبب تعاون بلدنا مع الحلفاء آنذاك.

<u>والدي والتفكير في الزواج مرة ثانية عام ١٩٣٦م</u>

لا شك في أن عشق والدي لأمي كان حقيقياً، حتى ظن الجميع أن العلاقة بينهما لن تنتهي بالموت، وذلك بسبب الحزن الذي ظل بادياً عليه لأكثر من عام كامل، لكن للحياة مطالب وواجبات، والزمن كفيل بتغيير وتبديل كل شيء. وقد وجدت في دفتر مذكراته التي اطّلعت عليها بعد وفاته ما يلي: "كنت في بداية العشرين من عمري، عندما تزوّجت من فتاة سمراء رقيقة نحيلة من أسرة ثرية، عشت معها حياة هانئة يُغلفها الحب والوداد، ثم ما لبثت أن وضعت لي توأماً بعد معاناة شديدة أثناء مخاض الولادة، مما أصابها بالضعف الشديد وفقدان الشهية. وازداد الأمر سوءاً عندما أنجبت طفلة بعد قرابة عامين من وضعها للتوأم، تلك الطفلة ما لبثت أن تُوفِّيت بعد سنة من ولادتها. عانت زوجتي من المرض بعد وضع الطفلة مباشرة، حيث ظهرت عليها آثار حمى النفاس ومرض آخر لم نعرف له دواء أو علاجاً. انتهت الحياة الهانئة وبدأت المعاناة الشديدة، ومع كل ذلك كانت أمك تُظهر لي الحب، كما كنتُ أكن لها عشقاً لا هوادة فيه، وقد أسبغت على توأمها من الحب والحنان أنهاراً جارفة. وبعد زمن قصير لكنه مر علينا كدهور طويلة من الآلام والأوجاع، لفظت حبيبتي أنفاسها الأخيرة، فما أمر الحياة بدونها وما أصعب تربية الأيتام. لكن ولله الحمد والمنة، ما زالت أمي بصحة جيدة وقد احتضنت الأيتام بنفس راضية بالقضاء والقدر، وبذلت أقصى جهدها في رعايتهما. كان والدي شيخاً كبيراً جليلاً، وقد مرت عليه حالات غريبة عجيبة من مُسببات الموت، حدثت

لبعض أزواجه وأقربائه. وسمعت أنه لم يكن يصبر إلا أربعين يوماً على فقدان الزوجة، حتى يتزوج بأخرى، وهكذا كان والدي يلمّح لي بالزواج ثانية بعد مرور أربعين يوماً فقط على وفاة زوجتي! لكنه بعد أن لاحظ إفراطي في حالة الحزن التي ألمت بكياني كله، أسر لي قائلاً: "هون عليك يا بُني، فالنساء من حولنا كثير، تزوج يا بُني، فإني أخاف عليك الفتنة، أنت كثير الأسفار والتنقلات لأمور التجارة، وتبدو عليك آثار التعب والنصب بسرعة، وإني أقدر حاجتك الشديدة لزوجة تحنو عليك وتواسيك". لكنه بعد ذلك التزم الصمت، فقد وجد أن عشقي للحبيبة لا يزال قابعاً في أعماق عيني. ثم أعاد عليّ القول ذاته بعد ثلاثة أشهر، وقد لاحظ نحولي الشديد، فقلت له: "أظن أني لن أتزوج الآن يا أبتي، إلا بعد مرور عامٍ كاملٍ على الأقل، التوأم في حاجة شديدة لكل حناني واهتمامي، ولن يشتد عودهم قبل إتمامهم الخامسة من عمرهم، وعندها أعدك بالتفكير في الزواج ثانية".

وقد حفظ والدي وعده لجدي، ففي نهاية عام ١٩٣٦ بدأ بالتفكير الجدي في الزواج ثانية، وكان لا يزال شاباً قوياً ينضح بالعاطفة، وقد كتب في مذكراته بخط يده ما يلي: "لقد آن الأوان للبحث عن زوجة لي، إن حاجتي إليها ملحة، وليس لي إلا التقدم لخطبة واحدة من الأرامل أو المطلقات كونهن يطلبن اليسير من المهر ومن تكاليف العُرس. أجل يوجد حولي الكثير من المطلقات والأرامل، لكن كيف لي أن أتزوج ثانية أو أتدبر تكاليف العرس، والتجارة غير ميسرة والناس تشكو الجوع والفاقة، ومن العجب العجاب أنه خلال ثلاث سنوات (١٩٣٦- ١٩٣٨) وفي فترات متقطعة منها، أجدبت أرض الأحساء الخصبة جداً! وقد شحّ سقوط المطر، وغارت عيون الماء العذبة، حتى الآبار المالحة قد قل ماؤها! وكأن المدينة قد فقدت الخير والبركة بعد موت الزوجة الطيبة المؤمنة الصابرة المحتسبة. وبعد ذلك بسنة واحدة قامت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥)، فكسدت تجارتنا بسبب شُحّ المؤن التجارية، ومرت علينا أيام كدنا نتضور فيها جوعاً، ولم يكن لدينا المال الكافي للبدء في أي عمل جديد فما بالك بالزواج؟ كما أني أخاف كثيراً على التوأم، وأتساءل دوماً هل سوف ترحمهم زوجة الأب يا ترى أم تعذبهم؟ لقد اشتد عود أطفالي حتى أعطى الناس الجلمود أكبر من سنه، يظنه الناس في السادسة بينما هو يتجاوز الرابعة بقليل. ابنتي الطاهرة نشطة

وبصحة جيدة، وها هي تحاول المساعدة في أعمال المنزل، فلماذا أخاف عليهما وأمي تساندهم وترعاهم".

وفي صفحة أخرى من المذكرات كتب والدي ما يلي: "فرحت أمي بنهاية حزني واعتكافي، وتهلل وجهها عندما سألتها عن إمكانية البحث عن زوجة لي. لكن ظهر فجأة الإشكال الأكبر، ألا وهو أن أمي تدقق جيداً في المواصفات الأنثوية، وفي كل يوم تصف وتمدح لي واحدة منهن، وعندما أوافق عليها، تتراجع أمي وتذكر بعض العيوب فيها، ولا تستقر على قرار. وقد حدث ذات يوم، أن ذكرت لي أمي تلك الأرملة الخبازة، التي جاءت مع زوجها العجوز من مدينة المنامة في البحرين، لزيارة أقرباء لهم، ثم حدث أن مات الزوج فجأة في الأحساء، ولم تتمكن المرأة من العودة إلى بلدها، بل قضت فترة العدة في بيت قريبتهم في الأحساء، وكانت تجد في البحث عن عمل ما، لتسد رمق يتيميها الاثنين، ولم تجد غير أن تمتهن مهنة الخبازة في المنزل الذي تقضي فيه عدتها. وعندما ذهبت أمي لشراء الخبز منها، أعجبت بالأرملة التي بدت هادئة مستكينة (وما أشد خداع المظاهر)، وجميلة جداً، كما وجدت أمي أن سنها مناسب جداً لي. لم أتجاوب مع أمي في البداية، كوني لا أحب أن أتزوج إلا من بلدي، وقد حدثت لي حادثة مؤلمة في زيارة للبحرين قبل فترة من الزمن، فلم أزل متشائماً من ذكر تلك البلاد. لكن أمي تتردد على الأرملة في كل يوم لشراء الخبز، وتلك تتودد إليها بالحيلة والمكر؛ كونها علمت ترملي وبحث أمي الدؤوب عن زوجة لي.

عندما حدثتني أمي ثانية عن حديث العروس المعسول وجمالها الآخّاذ، كانت على شفتيها ابتسامة وفي عينيها فرح، لكن ذلك أثار لمحة غضب على وجه جدي الذي يعرف أني لا أحب ذكرى البحرين وساكنيها، بيدَ أن أمي أقنعته بقولها إنها جميلة جداً، ومهرها سوف يكون قليلاً كونها أرملة، ولنا فيها أجر كبير؛ لأن في رقبتها طفلين هما بنتٌ في مثل سن الطاهرة، وولدٌ أكبر من الجلمود بثلاثة أعوام، وقد يتسلون باللعب مع بعضهم، كما أننا سنجد خبزاً طازجاً في بيتنا في كل يوم. أُعجِب أبي بفكرة توفر الخبز الطازج في المنزل؛ لأن ذلك يعني توفير عناء خروجه باكراً من المنزل كل صباح، وتفكّر قليلاً في حيلة ما، ثم قال لأمي: "كي تقنعي وَلَدك بالزواج منها، رتبي له موعداً كي يراها خفية بين النخيل دون أن تشعر هي بذلك". وقد كان أن واعدتها أمي في إحدى مزارع النخيل التي نملكها، لزيارة خاصة ووجبة إفطار، وكان لا بد من

تواجدي كي أنظر خفية من وراء الأشجار، أجل كانت تلك الحيلة كفيلة بإيقاع قلبي في شرك ذلك الجمال الأنثوي الذي لا يُقاوم، بهرتني تقاسيم وجهها الدقيقة، وشدة بياض بشرتها مع تلك العيون العسلية الواسعة، فكان أن وافقت على خطبتها دون أدنى تردد".

دخول زوجة الأب إلى البيت الكبير في بداية عام ١٩٣٧م

ذات يوم عندما كنت في الخامسة من عمري، تسرّب إلى علمي ومن خلال مرافقة أبي في المتجر، بحثه عن امرأة للزواج منها، عرفت ذلك بسؤاله المتكرر لبعض الأقارب عن المُطلّقات والأرامل في منطقتنا، لم أنزعج كثيراً لهذا الأمر، لكن انزعجت أختي التي كانت تتنصت إلى أحاديث النساء، وتعرف منهن القصص الكثيرة الواقعية المؤلمة التي تُجسّد قسوة زوجة الأب تجاه أبناء زوجها. تتبّعت أختي الأخبار من جدتي التي كانت تَجِدّ في البحث عن زوجة لأبي أيضاً، تُبلّغني أختي بكل تطور جديد في هذا الأمر، وهي في أشد حالات الكرب والحزن، بينما أبدو أنا متفائلاً، وكم ذكرتها أن زواج أبينا معناه ظهور إخوة لنا من صلب والدنا، نلعب معهم ونسامرهم، ويكونون لنا سنداً عندما نكبر في السن، وقد نجحت بتلك الأفكار في أن أخفف ما بها من مخاوف ووساوس، وأجعلها تتفاءل قليلاً.

وأخيراً وجدتْ جدتي المرأة التي تراها مناسبة لوالدي، لقد كان زفافاً سريعاً ووليمة بسيطة فرحنا بها جميعاً. لكن المرأة الجميلة سيطرت على أبي من أول يوم، وقد لاحظت تدريجياً قلة اهتمامه بنا، وتوجيهنا للجد أو الجدة كلما مررنا به، أو طلبنا منه شيئاً؛ بينما كانت مجاملاته الواضحة منصبة على الزوجة الجديدة وأولادها. أجل يوم تزوج أبي بتلك الأرملة جاء الفأس في الرأس؛ لأنها جلبت معها طفلين يتيمين آخرين، وبعد مجيئهم حوى البيت الكبير من الشجار الكثير ومن الفرح القليل، ولولا حماية جدي وجدتي لكنا من المستضعفين.

جاء الطفلان من بيئة فقيرة جداً، وكادت الحيرة أن تقتلهم والتعجب يستحوذ عليهم، نظراً لسعة البيت الكبير وكثرة محتوياته، كما لاحظوا جمال ملابسنا وكثرة ألعابنا، وبالتحايل علينا نجحوا في اكتساب ودنا وبتنا نلعب معاً. لكن أين مراعاة أبي وحنانه علينا؟ لقد ذهبا إلى الا بد، وكلما أشارت جدتي نحونا، رد عليها قائلاً: "هما يتيمان أيضاً". زوجة الأب جميلة

وقاسية ولم ترحم جدتي أيضاً؛ وقد كثر الشجار بينهما على أتفه الأسباب. وعندما كنتُ أتذمر من الوضع الجديد، كانت الجدة تدافع عن موقف والدي قائلة: "عندما يبحث الأرمل عن زوجة رخيصة المهر، لا بد أن تكون مطلقة أو أرملة، الأرملة أم الأيتام لا تطلب مهراً يُذكَر غير تربية أطفالها في بيت زوجها الجديد، علهم يجدون ما يقتاتون به، كما يرتجي الزوج الجديد وأهله الأجر والثواب في الآخرة، مقابل الاهتمام بتربية الأيتام". اقتنعت بالعذر والأجر، مما خفف الحزن عني في تلك الفترة المؤلمة، وجدتُ أبي وقد طبّق أعظم تطبيقات التكافل التي أوصى بها الإسلام، والتي مارسها المسلمون الأوائل بصدق وإخلاص.

كتبت أختي لي عن تلك الفترة قائلة: "في بيتنا الكبير استمر الحزن مخيماً على جدي وجدتي رغم مرور ما يقارب السنة على وفاة أمي الحبيبة، وليس كفالة وتربية التوأم هو ما يرهقهما، لكنها وحدة أبي الأرمل، حزنه وتذكره لأمنا في كل حين. أمي، تلك الرقيقة الصافية ذات الصوت الدافئ الحنون، لقد فُجعت بوفاتها حقاً؛ كونها وفرت لي الحب والرعاية والطمأنينة في هذه الحياة. وما زلت أقول في كل حين، حمداً لله على وجود أبي والجد والجدة في ذلك الوقت العصيب، وقد كوّنوا فريقاً لإنقاذ اليتيمين المفجوعين. ولله الحمد والمنة، لا شيء حببني في هذه الحياة مثل وجود أخي وتوأم روحي إلى جانبي، الجلمود مرح ضحوك قادرٌ على تخفيف مُصابي. نعم كان أخي التوأم يُمثّل لي البهجة الوحيدة بعد وفاة أمي، قلبي يتحد مع كل ما يُعبّر عنه من أحاسيس ومشاعر، لم أعرف السعادة في طفولتي إلا معه؛ استمتعت بكل ما يقترحه عليّ من ألعاب ومُزاح، ولن أنسى مواقفه دوماً للدفاع عني وقت المشاجرات مع أولاد عمومتي. ويوم أن جاءت زوجة الأب كنت بالكاد قد جاوزت الخامسة من عمري، توجست خيفة منها، كرهت نظراتها وابتعدت عن أبنائها، لكن أخي طيب القلب، سمح لهم بالمشاركة في ألعابنا. وفي غضون أيام معدودات من وجود زوجة الأب بين ظهرانينا، وجدناها تتطاول علينا بالزجر والنهر، كما ميزت أبناءها علينا في المأكل والمشرب، بل كانت تنهب ملابسنا الجديدة وتضعها في الصناديق الخاصة بملابس أبنائها. بل لم تتوانَ في السخرية مني لأني أجمل من ابنتها، وبالغت في إذلالي وتسخيري لتلبية مطالبها داخل البيت الكبير، مما أغضب أخي وجدتي. أما أبي الهادئ جداً في جميع الأحوال، فلم تظهر منه أي دلائل معبرة عن

تعاطفه مع التوأم، وغالباً ما يكون صامتاً غير مكترث، لكن كي أكون منصفة، أحياناً أراه يبدي شفقته على الجميع دون استثناء أو تمييز".

الكد والعمل هو ديدني فوربلوغي السابعة من العمر:

في ذلك الزمان لا قيمة لأي فرد إلا بالكد والعمل، حيث تنتهي مرحلة الطفولة في السابعة من العمر لكلا الجنسين، ويبدأ الطفل بالتدرج والتدرب على الأعمال البسيطة أولاً، وعندما يشتد عوده يقوم بممارسة الأعمال الشاقة. وبالرغم من انعدام المدارس النظامية في ذلك العصر، لكن والدي حرص على تعليمنا، وجعلني أذهب إلى المطوع أو المعلم (الكُتاب) في ثلاثة من الأيام صباحاً، بينما تذهب أختي إلى الكُتاب عصراً، حيث نتعلّم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم. لكن في جميع الأيام كان لا بد لي من مرافقة أبي في متجره مساءً، أو صباحاً حيث لا كُتاب. وبعد فترة وجيزة ظهرت المدرسة الأولية النظامية التي أسسها الأتراك في الهفوف، ثم انتشرت المدارس في باقي مدن المملكة. كنت أرافق والدي في متجره حتى أتعلم منه أساليب التجارة مبكراً، وتلك مدرسة الطفل الحقيقية، ألا وهي تعلم حرفة أبيه والمساهمة في العمل معه، وفي تلك السن المبكرة كان غالباً ما يبتعثني مطراش (مرسال) أو حمّالٍ للبضائع من وإلى المتاجر الأخرى، كنتُ أهرع إلى مرافقته حتى أنال بعضاً من حنانه، وأهرب من زوجته القاسية.

كذلك عملت أختي الطاهرة في بعض الأشغال المنزلية الكثيرة جداً، وذلك كي تكف زوجة الأب عن معايرتها بالكسولة، كما أقنعتها جدتي أن العمل واجب عليها حتى تستعد لبيت الزوجية، لكن أعمال المنزل مجهدة ولا تنتهي أبداً، حتى إننا لا نكاد نلعب معاً.

بعض ذكريات الطاهرة بين الأعوام ١٩٣٨-١٩٤٢م

تملك أختي ذاكرة دقيقة عن أحداث ذلك الزمان، وكانت تحدّث أبنائي وأبناءها قائلة: "عشنا في ذلك الزمان طفولة مرعبة حقاً، فلا يكاد يخلو أي شهر في السنة من إطلالة الموت وحصدٍ للأرواح في نطاق المدينة التي نعيش فيها أو في غيرها من المدن والقرى. أما الأسباب فهي كثيرة جداً، متعددة ومتنوعة، منها البرد القارس أو الحر الشديد، كثافة هطول الأمطار التي

تهدم البيوت والمزارع وتغرق البشر في بعض المواسم، أو قلتها في مواسم أخرى مُسببة القحط والجوع، ناهيك عن موجات الأمراض الموسمية القاتلة والتي ليس لها علاج. للموت أسبابه الأخرى غير المعروفة أبداً، بل قد تكون مجهولة المصدر مثل تلبس الجن للإنسان كما يعتقد البعض، أو عين الحسود حتى قيل في المثل الشعبي (لولا الحسد ما مات أحد). أجل لقد كانت حياتنا غالباً ما ترتبط بالخوف من أسباب الموت، أكثر من الموت نفسه. وهكذا كانت لنا الطقوس الخاصة بدرء المسببات السيئة بعيداً عنا، وفي المقابل كان لا بد من المحاولات المستمرة لتوفير أسباب الحياة السليمة البسيطة.

أثناء شهور الربيع وحتى بدايات الصيف تكثر الولادات، وحيث إن الناس وقتها كانوا ينامون فوق أسطح المنازل التي كانت متلاصقة، كنا نسمع من معظم الأسطح صياح المواليد ليلاً حتى لا نستطيع النوم، لكن تلك الأصوات تخفت وتقل تدريجياً من حولنا بين نهاية الصيف ومنتصف الشتاء، مما يدل على أن المواليد قد مات بعضهم، ومن تبقى منهم قد يكون عليل الجسد أو معاقاً، أما المواليد الأصحاء الأحياء فعددها قليل جداً. تخاف الأمهات على المواليد الأصحاء من سطوة العين والحسد، وعليه يقمن بتحصينهم يومياً بقراءة القرآن الكريم والأدعية، كما يلجأن قبل أذان المغرب إلى تبخيرهم بالشبة والحبة السوداء، ولا بد من حرق بعض الرمل من الدهاليز التي يمشي عليها الحُسّاد، وهكذا تُحرَق النظرات الحاسدة كما يظنون. ومن الطقوس المتبعة لدرء الروع والحسد، كسر البيض الطازج في وقت أذان المغرب، على زوايا المنزل أو عند مدخل البيت مع قراءة المعوذات. أجل لقد اعتاد الناس الموت وتقبلوه بنفس راضية، سواء كان المتوفى كبيراً أم صغيراً في السن، لكن الطفل اليتيم يكسر الخواطر ويُدمي القلوب الرحيمة؛ لأنه يظل في حاجة ماسة لمن يرعاه ولمن يصرف عليه، وعادة ما يتنافس الأقارب من الأهل أو حتى من سكان الحي الواحد في كفالة الأيتام. لكن على الدوام يبقى اليتيم يتجرّع علقم فراق أحد والديه أو كلاهما، ومن ثمَّ مغبة إذلال الكفيل في بعض الأحيان".

كما كتبت لي أختي عن أكثر مشكلة واجهتها وهي طفلة يتيمة ما يلي: "من فضل الله علي أني وصلت إلى سن البلوغ بعد سن العاشرة مباشرة، وأمي الحجية لا تزال حية ترزق، فأرشدتني إلى ما ينبغي عمله، ولولا اهتمامها ولطفها بي لكنت من العاجزات التعيسات. لكنها كررت لي تلك المقولة صباحاً ومساءً وهي فرحة جذلة: "لقد أصبحت مرية (تصغير امرأة)"، وعلى ذلك ألبستني (البخنق) وهو غطاء جميل يكسو الرأس والصدر معاً، تتزين أطرافه بخيوط مذهبة ذات تطريز

جميل، ويعتبر البخنق الحجاب الكامل للفتاة الصغيرة في ذلك الزمان. وفي تلك الفترة حذرتني جدتي من اللعب مع أبناء عمومتي داخل غرف المنزل المغلقة. شعرت بالخجل الشديد من الآخرين، وربما لاحظت يا أخي العزيز تغيّر نظراتي وسلوكي في ذلك الحين، شعرت بأنوثتي مبكراً وتوقفت عن اللعب، لكني ما زلت أنتظر مزاحك معي بشوق ولهفة. ومنذ أن ماتت أختي الطفلة الصغيرة وتبعتها أمي، وأنا أفكر كم هي تعيسة هي الأنثى التي تتحمل آلام الحمل والولادة، ثم التربية الشاقة للوليد، وقد يموت وليدها بعد عنايتها الكاملة به، وقد تموت هي أيضاً بسبب حُمى النفاس أو غيرها، بينما الرجل سليم ومرتاح من ذلك الأذى كله. والآن جاء دوري كي أعاني بعض آلام النساء أثناء دورة الحيض، تكتمت على آهاتي أثناء المغص الدوري، وحتى لا يراني أحد كنت أقوم في الليل البهيم حتى أغسل الطفارات (قماش خاص يستخدم لامتصاص دم الحيض)، وكم تحيرت كيف وأين أنشرها كي تجف في فصل الشتاء؟ أجل لقد كانت حيرتي شديدة حينذاك، ولم تظهر المشكلة في فصل الصيف حيث تقوم شمسنا الحامية بتنشيفها في بضع دقائق. كم كرهت نفسي أثناء دورة الحيض التي تستمر خمسة أيام تقريباً، ولولا وجود جدتي التي ترشدني وتتستر علي لكنت من أتعس البنات".

أتذكر غرام أختي الشديد بالحلويات المصنعة، وقد كتبت لي عنها ما يلي: "كنا نسمّي الحلويات المغلفة بالقرطاس (حلاوة)، ولو كانت بنية اللون أو مخلوطة بالكاكاو تُسمى (شوكليتة)، أما لو كانت غير مغلفة تُسمى (بيض الصعو) أو(البرميت) أو غير ذلك. لكن جميع أنواع الحلويات كانت غالية جداً بسبب غلاء السكر في ذلك الزمان، وبسبب ندرة المصانع الخاصة بها، وأظن أن غالبيتها المتداولة في الأسواق لم تكن محلية الصُّنع بل مستوردة من إيران أو تركيا أو الهند أو غيرها من البلدان. ولا توزع الحلويات علينا إلا في المناسبات الدينية الشعبية مثل القرنقعوه (ليلة منتصف رمضان)، والناصفة (ليلة منتصف شعبان)، وأحياناً أثناء عيدي الفطر والأضحى. وأتذكر أني في طفولتي كنت ألتقط كل ما يشبه الحلوى من الحصى الصغيرة وأحاول مصها، وكثيراً ما أنقذتني أمي وجدتي من بلعها، وذات يوم ذهبت إلى جدتي والنمل يملأ فمي ويفيض حول شفتي وذقني؛ وذلك لأني التقطت حلاوة ساقطة على الرمل في بيتنا، وكان النمل قد تجمّع عليها، وقد أحسست بقرصاته بعد أن مصصتها، صرخت وبكيت كثيراً، ومن يومها أسماني الأطفال في البيت الكبير بـ"آكلة النمل".

كيف كانت حياة الجدة الضاحكة الحزينة حتى عام ١٩٤٥م؟

بفرحة كبيرة تلقفتنا الجدة (أمي الحجية) منذ ولادتنا، وغمرتنا بحنانها غير المحدود أثناء حياة أمي وبالزيادة بعد وفاتها. وكان من صفاتها التبسّم دوماً والضحك لأسباب واهية وذلك لأنها تتميز بروح الدعابة دون غيرها من أفراد العائلة، ولا أدري لماذا كانت تضع باطن يدها على فمها عندما تقهقه؟ هل هو نوعٌ من الحياء، أم تظن من العيب أن يرى الآخرون باطن فمها. لكن بعد وفاة أمي أطلق جدي على جدتي لقب (الضاحكة الحزينة)، دمعتها قريبة جداً وسريعة الانحدار خاصة عندما تحضننا وتتذكر أمنا، أو يذكرها أحدٌ أمامها، وكم نهرها جدي قائلاً: "إنك تكسرين خاطر الأيتام بدمعتك هذه، حاولي حبسها في محجرها، وكُفّي عن التنهّد والتأوّه عندما تجلسين معهم"، لكن كم من المرات رأيناها تبكي وهي وحيدة بعيدة عن العيون. كانت امرأة فذة الذاكرة، تتلو معظم القرآن عن ظهر قلب، وتحفظ الشعر، تلقي الحِكَم والمواعظ، وتسرد القصص والحكايات التي تشيع بيننا الفضول والدهشة والحزن، ثم تنتهي دوماً بالبهجة والسرور. أنجبت جدتي ستة من المواليد، لكن لم يبقَ منهم على قيد الحياة إلا أبي وعمّتي الأرملة التي تعيش معنا، أما باقي أعمامي وعماتي الأحياء فهم من زوجات أخريات لجدي.

عندما يكون الصيف على أشده، يتسرب سلهوب أو سرسوب هواء السموم (لواهيب الهواء الحار) من النوافذ الخشبية المغلقة، وحينئذٍ لا بد لنا من الاختباء في غرفة الطعام الصغيرة التي لا نوافذ فيها، وهكذا لن يتمكّن الذباب والغبار والسموم من الدخول إلينا، وعادة ما يحل محل الدريشة (النافذة الصغيرة) ما يُسمى بالروشنة، وهي فجوة في الجدار تستخدم كالرف وتوضع عليها العطور وأدوات الزينة أو غيرها. عادة ما تخاطبني جدتي وهي تفرش سفرة الطعام المخصوفة (المصنوعة من سعف النخيل)، استعداداً لوجبة الغداء قائلة: "يا وليدي اذهب لأبيك وجدك في متجريهما، وبلِّغهم ضرورة الحضور للغداء قبل اشتداد السموم، فما أشد حبهم للبيع والشراء"، كنت صبياً مشاغباً وعنيداً لا أتحرك إلى أي مكان إلا بصحبة أختي، لكن أبي كان لا يسمح بحضورها إلى المتجر خوفاً من الأعين الغريبة الحاسدة. حينها أرد على جدتي قائلاً بحدة: "لا لن أذهب إلا مع أختي"، تقطب جدتي حاجبيها ثم تقول: "الله يقطع شرك يا وليدي، إذن ما رأيك أن نذهب جميعاً، وسوف أقف معها بعيداً

عن المتجر تحاشياً لغضب أبيك، بينما تدخل أنت المتجر وتحادثه؟"، تصفّق أختي فرحة بالفكرة فلم تكن بالكاد تغادر المنزل، أما اللعب فهو مُتاح لها مع بنات أقاربي لكن داخل المنازل فقط. الصبيان يخرجون في كل يوم لحضور دروس المطوع أو لقضاء بعض الحوائج لأهاليهم من السوق، أو للتجمع واللعب مع أولاد الجيران في السكة (وجمعها سكيك وهي دروب الحي الضيقة التي تفصل بين المنازل). وعادة ما يُكلَّف الصبي بمبادلة الطعام والحاجات الأخرى مع الجيران، أو حسب ما تطلبه منه ربة البيت؛ أما البنات فقليلاً ما يخرجن، وإن حدث فلا بد أن يكون مع أحد من ذويهن.

أجل لم تكن جدتي الحبيبة مُقصّرة معنا أبداً في الرأفة والرحمة، أو تلبية احتياجاتنا، سواء أثناء حياة أمي أو بعد وفاتها، وكثيراً ما كانت تقص علينا القصص المسلية أثناء الليل، وتجمعنا في فراشها أيام البرد والمطر، فأشم من مفرق شعرها روائح الزعفران والخزامى، ثم يذوب قلبي من البهجة والسرور عندما تضمني إليها، فاشتم فيها روائح دهن العود وخلاصة زيت الورد العالق في ملابسها. كانت دائماً ما تقرأ القرآن الكريم بعد الفراغ من صلاة الفروض، كما كانت تحفظ عن ظهر قلب أجزاءً كثيرة منه، وقد تقضي معنا الوقت الطويل لتعليمنا الصلاة والدعاء وتلاوة القرآن، وكثيراً ما تتجمع بنات الأقارب من حولها حتى يحفظن منها القرآن مُجوداً، لم تكن تطلب الأجر المالي، بل الدعاء لها بالصحة والعافية. كم كنت معجباً بتلك الجدة المؤمنة الصابرة، وقد سألت الله -عز وجل- أن أنجب في المستقبل بنتاً بمثل ملامحها وطباعها، ولا بد من تسميتها على اسمها العجيب. ومع ذلك لم أنسَ صفات أمي أبداً، أجل قد لا أتذكر ملامحها جيداً، لكن أتذكر حرصها الشديد على الترتيب والنظافة. ولله در تلك الأم، فبالرغم من كونها نحيلة ومريضة، فإنها لم تفتأ عن الاعتناء بنا، والحرص على تلبية كافة مطالب أبي. وما فتئت جدتي تذكر لأختي كيف كانت أمي ربة بيت نظيفة وماهرة، وذلك لتشجيعها على التدرّب على أعمال البيت الكثيرة، وهذا مثال مما كانت تقوله جدتي لأختي وهي في السابعة من عمرها: "يا بنيتي إن مهارتك في الأعمال المنزلية سوف تكون من أسباب سعادتك واستقرارك في منزل الزوجية في المستقبل، ولا بد أن تعاملي أفراد أسرتك دوماً باللطافة والظرافة والرأفة والرفاهة" وكانت تقصد بالكلمة قبل الأخيرة (الرأفة أي: الرحمة)، أما الكلمة الأخيرة فتقصد بها (الرفاهية والتدليل).

تلك الجدة المثابرة لم تُقصّر في تعليم أختي كل شيء يتعلق بأمور البيت الكثيرة، بل جعلت منها طفلة نشيطة دؤوبة على العمل ومُحبّة له. لقد اكتسبنا من جدتي طلاقة المحيا وطريقة المزاح الظريفة، وهذه الأخيرة كانت شائعة جداً بين الناس في ذلك الزمان، كبديل عن الضحك على النكات التي لم تكن متداولة حينذاك.

كان عيب جدتي الوحيد هو عدم تفهُّم سلوك الأطفال ومقاصدهم الشريفة البريئة، وقد تكون حازمة شديدة معنا في ممارسة الطقوس الدينية، مثل إتمام وإسباغ الوضوء، والأداء الصحيح لأركان الصلاة مع إظهار الخشوع، كذلك الحرص على الطهارة في جميع الأوقات، وقراءة القرآن بكثرة، خاصة في شهر رمضان الكريم. وما زالت الجدة محتفظة بتقواها وإيمانها الشديد حتى توفاها الله عام ١٩٤٥م. وقد ظلت الحرب العالمية مشتعلة بعد موتها بشهور، وكذلك الحرب مع زوجة أبي، وتكالبت عليّ الأحزان، عندما تزوجت الطاهرة ورحلت عن البيت الكبير، ولم تعد الأمور كسابقتها أبداً.

<u>بعض ما كتب والدي في مذكراته عن الأعوام ١٩٣٦-١٩٤٥م</u>

"يا لقسوة الحياة على رجلٍ ترمل في عز شبابه، وبات يحمل عبء تربية طفلين يتيمين، بينما تتطفل الحروب القاسية عليه متسببة في قلة الزاد والمتاع. بعد وفاة زوجتي الحبيبة، كنت كثيراً ما ألجأ للصلاة والدعاء عند منتصف الليل، ولا أنام إلا بعد صلاة الفجر، أفعل ذلك فراراً من وسوسة الأفكار؛ حتى أصبحت الصلاة أحب إلى قلبي من كل شيء، بل أدمنت عليها لما لها من تأثير إيجابي في إدخال السكون والطمأنينة إلى قلبي. ولا شك في أن مناجاة الله في جوف الليل مستراح للقلب المجروح، وراحة للروح المحزونة، ألا ما أجمل دقائق التوجه والانكسار بين يدي الله -عز وجل- بالخشوع والدعاء، في تلك الدقائق المعدودة حين تتخلص النفس من آلام الحياة وتحلّق في صفاء السماوات العلا. لكن عندما يشرق الصباح أعود إلى روتين هذه الدنيا البائسة، وما بين مشاغل البيت والتجارة تمزقني أنياب القلق على أبنائي وأهلي من ويلات الحرب، وتجرفني تيارات الأفكار والوساوس. وبرغم تلك الظروف الصعبة تم إلحاق أطفالي بالمطوع (الكُتاب)؛ ذلك أن القراءة والكتابة إرث دائم التوارث في جذور عائلتي

الشريفة، ولا يمكن التخلي عنه مهما كانت الظروف. وكان يوم الخميس مميزاً لأنه يوم الدفع للمطوع في الكُتّاب، وقد قيل لنا: "من لا يدفع يوم الخميس يخيس"، وهو مثل شعبي معروف لمن يحصل على أجره مرة في الأسبوع. وقد يتم الدفع للمطوع بالبيض أو السكر أو الحبوب، عندما لا توجد القروش.

منذ ظهور الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية، ظهرت الكتاتيب في الأحساء لتحفيظ القرآن الكريم، وقد تم التحاقي بالكُتاب منذ نعومة أظفاري، تعلمت الكتابة والقراءة سريعاً، بل أصبحت مغرماً بالقراءة، ولطالما بحثت كثيراً عن بطون الكتب التراثية والدينية والتاريخية والفلسفية، ثم تمكّنت من اقتناء الكثير منها في صباي المبكر أثناء رحلاتي مع أبي للتجارة، لقد جمعتها من بلاد الشام ولبنان والعراق والكويت والبحرين وغيرها، وكنت أقرأها بشغف عارم، وأعتني بتغليفها جيداً، ثم أضعها في مكتبة العائلة داخل البيت الكبير. وما زلت أذكر الرعب الذي أصابني عندما اجتاحتنا الأمطار فجأة وبكميات غزيرة، حتى غرقت البيوت والمدارس والمساجد، وسميت تلك السنة ١٩٢٥ سنة الطبعة (أي تطبّعت أو تشبّعت الكتب والملابس وغيرها بالرطوبة)، وقد حدثت تلك الواقعة في كافة أقطار الخليج العربي. كنت لا أزال في السادسة عشرة من العمر، لكني تمكنت من جمع الكثير من الكتب والمخطوطات، وهكذا تركت كل شيء مهم في تلك الليلة الليلاء، وسارعت بوضع الكتب كلها في أكبر صندوق معدني عندي، بعد أن أفرغته من ملابسي وأشيائي الخاصة، وتركتها فوق الرفوف الخشبية تنتظر قدرها من البلل. وعندما أصبحت سارعت إلى تفقّد صندوقي المعدني الذي حفظ كتبي في حالة ممتازة، كنت أسمع سخرية الأهل كلهم، وضحكهم على تصرفي، بما فيهم أبي الذي كان مغرماً بالقراءة مثلي تماماً. أجل كثيراً ما كنت أجد سلوتي في ليالي الشتاء الطويلة في القراءة ليلاً على ضوء السراج، وقد نهتني أمي عن إطالة فترة القراءة ليلاً، زاعمة أن ذلك سيفقدني بصري، ولم أجد رداً سوى ما يلي: "الكتاب المؤنس يا أُماه، خير بديل عن الزوجة المؤنسة"، وكان ذلك الرد كفيلاً بالبحث الدؤوب، عن زوجة لي لإنهاء ترملي، وبالتالي منعي من الإدمان على القراءة، المسببة للعمى على حد قولها.

يتهمني بعض أقاربي بالإسراف في القراءة، ولا أعتب عليهم، فهم يجهلون أن القراءة والكتابة هي من صنعت التاريخ والحضارة والتقدم والازدهار، نعم أنا أقرأ في كل المجالات،

وأفخر باللجوء إلى التفكر العميق لكشف أسرار النفس والدين والكون. إن الشغف بالعلم متوارث في جذور عائلتنا، وقد حثني أبي على متابعة العلوم كافة، إلا أنه ما فتئ يُحذّرني من الضلالة التي قد تحتوي عليها بعض الكتب، تلك التي لا تستند إلى مفاهيم الإيمان الروحاني العميق في عقيدة الإسلام، بل تلجأ إلى العقل الذي قد يخدع الروح ويُضل النفس التقية. لكن هل نهى القرآن الكريم فعلاً عن اللجوء إلى المنطق والعقل؟ إنها لعمري تهمة باطلة، فقد حث القرآن الكريم على التفكّر والتأمّل في مظاهر الكون. وكم تفكّرتُ في الطبيعة بكل تجلياتها، وكيفية خلق الكائنات وفق منطق العقل العجيب، وبميزان دقيق، كما هو الحال في سُنة الله في خلقه دوماً وأبداً.

ومن الآيات التي أتفكّر فيها دوماً هي: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ١٩ ﴾ [الحجر: ١٩]. كما تحدث القرآن الكريم عن فطرة الله التي فطر الناس عليها، ووجوب التمسّك بها، وآيات الله الكثيرة التي تجب ملاحظتها. لكن جُلّ ما أقلقني تساؤل عقلي الدائم عن المفاهيم الكونية، وعن دور ترتيبات القدر في أحداث الحياة. لكن كيف يمكن لعقلي المحدود ببضعة خلايا أن يفهم النظام الضخم المُعقّد الكامن في الكون؟ وكيف يتمكّن العقل وحده من الغوص في جواهر الأشياء؟ تُرى هل يأتي يوم يتمكن فيه الفرد من الدراسة المفصّلة لتركيبة الكائنات؟ ومن ثمّ معرفة صفاتها الثابتة والمتغيرة بوسائل البحث العلمي التي تتطور في كل يوم؟ وهل يمتد بي العمر للتواصل مع تلك المعرفة والتفكّر فيها؟ الحمد لله ليس لدي الأفكار الباطلة أو الكافرة، بل إني أؤمن بعدم إمكانية العقل وحده في إدراك ماهية الأشياء، وعلى الفرد أن يصدق الإلهام الروحاني أيضاً؛ لأن للروح قوة فهم عُظمى تفوق قدرة العقل، ولها اتصال سريع جداً كالبرق مع جميع الكائنات، وقد توصلت أثناء مراقبتي للكائنات أن لها جميعاً إيقاعاً واحداً ومنظومة واحدة وتواصلاً دائماً.

أما بيت الشعر الذي يُضحكني كلما تذكّرته، والذي ظل أبي يردده لأولادي الجلمود والطاهرة على الدوام فهو: تعلم العلم تكن أمير* ترى الجهال كلهم حمير

كان أبي عاشقاً للأمثال الشعبية وأبيات الشعر تلك التي تنطق بالعلم والحكمة، ولأنه حاضر البديهة فقد كان ينشد الشعر للاستشهاد به في أمور الحياة الدنيا، لكنه يُحذّر دوماً من تداول أبيات المجون والغرام، إلا أنه كان مُحباً للضحك والمزاح البريء.

بعد وفاة زوجتي كان والدي يحثني على الزواج في كل حين، بل أرغمني عليه، حين دبر لأمي تلك الخطة الجهنمية، ومن ثمّ أوقعني في حبائل الجمال، وكل ما كنتُ أرجوه أن تكون تلك المرأة حنونة على عيالي، لكن كم خاب رجائي، وقد زاد الطين بلة على اليتيمين بعد موت أمي، التي كانت أماً حقيقية لهما، وكم كنت مطمئناً عليهما في حياتها، لكني اليوم شديد القلق عليهما بسبب تلك الزوجة الجميلة، بل تأكدت أن قسوة القلب مرتبطة غالب الأحيان بجمال الشكل".

هل يعادل المال الذي ورثناه من أمي قيمة البيت الكبير؟

كان جدي يكبر أبي بخمسة وثلاثين عاماً، وقد أنجب الكثير من الأبناء والبنات من زيجات مختلفة، لكن مات أغلبهم وهم مواليد أو أطفال صغار، وكذلك توفى الله جميع أمهاتهم ما عدا جدتي أم أبي، ولم يبقَ لي على قيد الحياة إلا ثلاثة أعمام. أما أبي وعمتي الوحيدة، تلك الأرملة التي تعيش معنا في البيت الكبير مع ولدها، فهما أصغر أبنائه من آخر زوجاته ألا وهي جدتي الحبيبة. ولا شك في أن أبي كان الفتى الأصغر المدلل، وقد خصص له والده متجراً كبيراً وبضاعة كثيرة، كما سجل البيت الكبير باسمه حتى غضب منه أبناؤه الآخرون وهجروا المنزل واحداً تلو الآخر. لكن جدي لم يكن ظالماً لهم، وما عرفته لاحقاً أن أمي قد ورثت من والديها بستاناً كبيراً وعقارات كثيرة، والتي ورثها أبي والتوأم بعد وفاتها، وما لبث أن باع أبي الميراث كله، ثم وضع المال كله تحت تصرف تجارة العائلة التي يترأسها جدي؛ ولذلك كافأه أبوه بعد سنوات من المتاجرة بذلك المال؛ أن قام بتسجيل ملكية البيت الكبير له، حتى نرثه نحن منه بالتالي بعد عمر طويل، ويكون بمثابة ميراثنا من أمنا. وعندما شعر جدي بدنو منيته (أجله)، جمع أولاده من حوله، وأخرج لهم صكوك بيع البستان والعقارات وهي ميراثنا من أمنا، وما تحصلت عليه من الأموال، ومن ثمّ أرباحها من خلال المتاجرة بها

طوال تلك السنين، وكيف أنها جميعاً معادلة لقيمة البيت الكبير؛ لذلك لا بد من تسجيله لأبي حتى يرثه الأيتام من بعده، وهكذا يرجع الورث إلى مستحقيه. بعد ذلك الاجتماع قام جدي بتوزيع الأموال الأخرى بالتساوي بين أبنائه جميعاً، وهكذا أقنعهم أن قسمة المال عادلة، مما جعلهم راضين مرضيين. جاءت وفاة جدي فجأة وهو في السابعة والستين من عمره في بداية عام ١٩٤٤، إنها فاجعة الموت الثالثة التي تحدث في بيتنا، لقد حزنا عليه أنا والطاهرة وبكينا عليه كثيراً، فقد كان جدي المؤنس لنا دوماً، والذي لم يتخلَّ عنا أبداً، بينما تخلى أبي عنا بعد زواجه من تلك الغادرة. جدي هو راوي الحكايات الطويلة والحزاوي (القصص القصيرة) المثيرة، وهو من يصحبنا إلى الأسواق في ليالي الأعياد والمناسبات السعيدة ليشتري لنا الأثواب والأحذية الجديدة. كم حملنا بين ذراعيه في أيام الصيف الحارة خوفاً علينا من حرارة الأرض، وكم خبأنا تحت بشته (البشت هو عباءة رجالية قد تكون من الصوف للشتاء، أو قماش خفيف للصيف) في أيام الشتاء خوفاً علينا من البرد القارس، وكم أسعدنا بشراء الحلويات اللذيذة، والألعاب الحديثة غالية الأثمان، والتي كُنا نفاخر بها رفاق الحي. كان له دعاؤه الخاص الذي يلهج به دوماً ألا وهو: "يا ولي العفو والعافية، ارزقني توفيق الطاعة وبُعد المعصية". كان يرحمه الله قمة في الكرم والسخاء، متحمساً للعطاء؛ كونه يبلغ به غاية السعادة، فكان يلاطف الفقير ويُقبل على المسكين، ويكثر من العطاء بإصرار وولع، ويقوم بإكرام الضيف بكل محبة ومودة. وينطبق عليه بيت شعرٍ وُصف بـ «أسخى بيت قالته العرب» وهو كالتالي:

تلقـــاه إذا مـــا جئتَـــه مُـــتهللاً ❋ كأنّـك مُعطِيـه الـذي أنـت سـائِلُه

أجل وضع الشاعر في هذا البيت وصفاً عجيباً للشخص الممتلئ بشغف العطاء، وكأنه هو المستقبل لا المعطي. كما أنشد الشاعر أحمد أبو الطيب المتنبي، وهو في ظني أعظم شاعر أنجبته العرب على مر العصور، شعراً مشابهاً حيث قال:

إنَّ في المـــوج للغريـــقِ لَعُـــذراً ❋ واضـــحاً أن يفوتَـــهُ تعـــدادُه

مــا ســمعنا بمــن أحــبَّ العطايــا ❋ فاشــتهى أن يكــونَ فيهــا فــؤادُه

وفي حديث ابن العميد وصفٌ وشرح لأبيات المتنبي تلك كما يلي: (هو الشخص الكريم الذي أحب العطايا وألفها، وأفرط في شدة الشغف بها، حتى اشتهى أن يكون قلبه وما تضمنه من سعة الإحاطة، واشتمل عليه من ثاقب الدراية، مما يهبه لمن يطرقه، ويتفضل به على من يقصده).

عندما اشتدت على جدي آلام المرض قبل وفاته بيوم واحد، جمع أفراد عائلته وأوصاهم قائلاً: "الكرم صفة أصيلة في علية القوم، خاصة عندما يتعلق بالعطف على المساكين والفقراء، فاجعلوه صفة ملازمة لكم أنتم السادة؛ أما البخل فهو أسوأ أنواع انحطاط الأخلاق، وإن من يمارس البخل بعد منتصف العمر فهو يمارس أعلى درجات الغباء؛ لأن ليس للمرء من ماله إلا ما ينفقه على نفسه وأهله أو ما يتصدق به، أما الباقي فيكون للورثة يصرفونه ويلعبون به كما يشاؤون، يا أولادي احرصوا على الإنفاق والرحمة بالفقراء كلما وجدتم إلى ذلك سبيلاً، جِدوا في البحث عنهم وتفقُّد أحوالهم، صلوا أرحامكم الضعفاء، وأعينوهم على الحياة أعانكم الله، وسوف ينالكم الخير في الدنيا والأجر في الآخرة".

لبست جدتي عليه السواد لمدة أربعة أشهر وعشرة أيام، بكت كثيراً على فراقه، وكم كانت تلجم طبعها في الضحك والمزاح، بل تبدل مزاحها إلى أنين، وغابت البسمة عن شفاهها التي ذبلت واصفرت، بعد أن كانت تدق عليها الديرم (لحاء شجر الجوز يُدق على الشفاه بعد أن يبلل بالماء، حتى يصبغها باللون الأحمر القاني). وقد عرفنا مقدار حبها له وتعلقها به، بعد موته فقط، فقد كان من العيب أن تظهر المرأة حبّها لزوجها أثناء حياته، ولم تتحمل الحياة بعده إلا بضعة أشهر، حيث توفاها الله في عام ١٩٤٥.

عملت في مدينة بقيق بداية من عام ١٩٤٤ وحتى إشعار آخر

بعد سبع سنوات من زواج أبي كنت قد بلغت الثانية عشرة من العمر، وأدركت أن أبي مشغول عني تماماً بالأبناء الجدد، فقد أصبح له ولدان من الذكور، لكنه فقد ثلاثاً من البنات وهن مواليد، وفي كل مرة تموت له أنثى تقوم قائمة زوجته، وتتهم جدتي أو أختي بالتسبب في موتها بطريقة ما! تنقهر جدتي من تلك الاتهامات الباطلة وتبكي كثيراً، بينما تشمت أختي قائلة: (جزاءً وفاقاً). أما أنا فقد كنت منبهراً بجمال كل واحدة منهن، كن كفلقة القمر وكم

دعوت الله أن يبقيهن على قيد الحياة، لكن الموت هو السائد في ذلك الزمان، ولا حيلة لنا فيه. أما الجدة الحبيبة فقد تأثرت وحزنت كثيراً بعد وفاة جدي، لكن داءها الأكبر كان لسان زوجة أبي السليط، واتهاماتها الظالمة التي لا تنتهي، وذلك أكبر من أن تحتملها نفسيتها المؤمنة التقية، أجل لقد تلهى أبي بعياله الجدد ولم يبقَ لي وأختي نصيرٌ إلا الجدة التي تعبت من الصراع والعراك، فتسللت إليها الأمراض واحداً بعد الآخر. حاول أبي حل مشاكل زوجته معنا بصرفي وإبعادي عن البيت ما أمكنه إلى ذلك سبيلاً؛ ذلك لاعتقاده أنني من أشعل الصراع بين الجميع. كان يرسلني للمبيت في بيوت أعمامي في بعض الأحيان، بينما أفر أنا بنفسي لأبات بين النخيل أحياناً أخرى. وعندما أكملت الحادية عشرة من العمر بلغت الحُلم وازدادت عصبيتي، بل جن جنون مراهقتي، ولم يعد الجميع يتحمل نزقي وصراخي، حينها أصبح أبي جاداً بالبحث عن عمل لي في مدينة أخرى؛ كي يرتاح من شروري، كما كان يقول، بينما كنت أقول في سريرتي: "يا رب أرحني ونجني من شرور زوجته عاجلاً غير آجل".

وأخيراً عثر أبي على عمل لي، في مدينة بقيق التي ظهر فيها النفط فجأة والتحق للعمل بها بعض شباب المبرز، تلك المدينة كانت بحاجة إلى عمالة شابة بأعداد كبيرة، وكانت تدفع أجوراً جيدة، حوالي ريال كامل في اليوم الواحد، وهو مبلغ يُعتد به في ذلك الزمان، فضلاً عن المسكن والمأكل والمشرب. تقع مدينة بقيق شمال مدينة الهفوف، وليس بعيداً عن مدينة الظهران التي تعتبر الميناء الأول لتصدير البترول في المملكة العربية السعودية، وقد استقطب العمل في بقيق والظهران الكثير من أبناء الدمام والهفوف والمَبَرز وما جاورها. كانت المشكلة الوحيدة هي عدم توفر باصات النقل بشكل كافٍ، كما أن السفر بالسيارة الخاصة مكلف في التنقل إلى أماكن بعيدة، وعليه ما زال الناس يستخدمون عربات البغال والحمير للركوب آنذاك. كان عليّ السفر من مدينة المبرز إلى الهفوف أولاً، فركبت عربة تجرها البغال لمدة نصف ساعة، ثم واصلت مع الباص لمدة الساعة والنصف حتى وصلت إلى مدينة بقيق. كانت رحلة شاقة على تلك الطرق الصخرية غير المرصوفة، ومررت بالكثير من المدن الصغيرة، مثل: الدغيمية والعيون وغيرها.

أثناء الرحلة شعرت بمزيج متناقض من المشاعر، مبتهجاً لابتعادي عن زوجة أبي، وحزيناً لمفارقة أختي وجدتي، لكني كنت ممتلئاً بالإثارة والفضول فمعظم أقراني قد ذهبوا إلى

هناك، ثم عادوا إلينا في العطلات بأخبار مثيرة للعجب والدهشة، معبرين عن سرورهم بالرغم من بعدهم عن ذويهم. ولا أنكر بأن العمل كان شاقاً في الصباح، لكن الأمسيات التي يتجمع فيها الشباب كانت مسلية ومبهجة جداً. ولحسن حظي وجدت لي مكاناً في المدرسة الابتدائية المسائية الخاصة بعمال "أرامكو"، حيث التحقت بالصف السادس الابتدائي، وكنت واحداً من التلاميذ النجباء، وكم لجأ إليَ البعض في مراجعة الدروس وحل الواجبات. لكن ما أقلقني هو صعوبة تعلم اللغة الإنجليزية، حيث كان طلاب الصف الذي أنا فيه قد سبقوني في تعلمها بمراحل عديدة.

في تلك المدينة وجدت العجب العُجاب، خليط من البشر من كل جنس ولون، ولأول مرة تعرفت على جنسيات عربية كانت خافية عليّ أشكالها ولهجاتها مثل العراقيين والسوريين والعمانيين وغيرهم. كذلك رأيت لأول مرة الأمريكان والإنجليز والعجم والهنود وغيرهم، سمعت لهجاتهم ولكناتهم الغريبة التي كانت تضحكني كثيراً، كنا نحاول تقليدهم ونتمازح بتلك اللهجات أنا وزملائي العرب.

اختارني رب العمل للمساعدة في نقل البراميل المليئة بالماء أو الزيت إلى الشاحنات، وذلك لقوة بنيتي وكوني جاداً وسعيداً في عملي. لكن أكثر ما أقلقني هو النوم مع ثلاثة آخرين من الهنود في غرفة واحدة، انزعجت من حديثهم المتواصل الذي لا أفقه منه شيئاً، كذلك وجدتهم لا يحرصون على النظافة والترتيب، ولم أستسغ رائحتهم الغريبة الناتجة عن استخدامهم زيوتاً خاصة لدهن شعورهم وأجسادهم. شكوت انزعاجي منهم إلى رئيسي في العمل الذي كان راضياً عني، فطلبني بعد عدة أيام لمقابلة المسؤول عن توزيع الأفراد في الغرف، وقد رجوته السكن مع أشخاص من العرب، فضحك كثيراً وقال: "لا بأس في ذلك، لكنك سوف تندم كثيراً فالعرب كثيرو النزاع والصراخ".

صدق المسؤول لكني كنت متعوداً على الضجيج في البيت الكبير. لكن ما أزعجني في الغرفة الجديدة أن واحداً (يكبرني بثلاث سنوات) كان يتقرب إليَ كثيراً، يلاطفني في الكلام ويعطيني بعض المأكل والملبس الذي يزيد عن حاجته.

ثم أصبح تدريجياً يحدثني عن العلاقة الجنسية بين الذكور، قائلاً إنها علاقة طبيعية جداً ! كان يشرحها لي بالتفصيل الممل ويبالغ في وصف المتعة الناجمة عنها! أجل لقد كان يتعمد إثارتي، ويراقب عيني وقسمات وجهي بشوق وفضول شديدين؛ كنت أخجل من ذلك الحديث، لكن فضولي لمعرفة المزيد منعني من مقاطعته.

ومن الغريب جداً أن أوصاني وحذرني والدي من أمور كثيرة، لكنه لم يحدثني عن ذلك الأمر؟! أوجست في نفسي خيفة، وددت لو أتحدث في ذلك الأمر مع شخص آخر لكنني خجلت، واستغربت من انعدام خجل ذلك المراهق، الذي ظل يترصدني. لاحظت أنه يتعمد إثارتي بإلصاق جسده بجسدي ثم التحديق في عينيَ لمعرفة ردة فعلي، ولما كنت أتحاشى نظراته، كان يبتسم بخبث وأرى وهجاً في عينيه. ذات ليلة كنا في الغرفة وحدنا، وكان يتعمد خلع ملابسه أمامي بحجة الحر الشديد، وقد كشف لي عن عورته بقصد الإثارة، بل بالغ فى تركيزه عليّ حتى انتصب عضوه الذكري أمام عينيّ، حينها قمت بالفرار من الغرفة فقد نجح في اثارتي وهيجان مشاعري. تحيرت في كيفية معاملته حتى تاقت نفسي الخبيثة إلى تجربة ما يقوله لي! لكني استشعرت الخطأ في ذلك بفطرتي النقية، شعرت أن الله يمنعني منه ويصدني عنه بطرق عجيبة. كدت أنجذب له، ولم أجرؤ على وضع عيني في عينيه خشية أن تبوح بمشاعري نحوه، بل لجئت إلى البعد عنه ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وكنت أتمسك بالصلاة في وقتها وأنصحه بها، لكنه لم ييأس مني. وذات ليلة مقمرة تجمع العمال من العرب في بقعة بعيدة عن السكن بقصد السمر واشعال النار، وكان أحدهم يعزف العود، شعرت بالمتعة والإسترخاء، وقد لاحظ صاحبي ذلك، فاقترب مني وعندما قام البعض وذهبوا بعيداً عنا، غمزني صاحبي مبتسماً وهمس لي: "هل تعرف لماذا ذهبوا بعيدا ٍأزواجاً أزواجا؟" وظل محدقاً في الجزء ِالأسفل من جسدي، ثم أمسك يدي وجرني بعيداً عن القوم. لا أعرف كيف طاوعته وقمت معه كنت كالمسحور أو المخدر، وحيث كنا بعيداً عن العيون احتضنني وقبلني على فمي ثم على وجنتي، استسلمت له فأنا أفتقد الملامسة والعطف والحنان، لكن عندما أمرني بخلع ملابسي ارتعش جسدي وامتغص قلبي، وثارت حميتي، احسست بعزة نفسي تتفوق على غريزتي، وشعرت برحمة من الله تداركني فصرخت وفررت منه، كنت أجري دون وعي مني. ولم أجد نفسي إلا وجهاً لوجه مع الفورمان (المراقب الرسمي للعمال) الذي جاء فجأة لتفقد

المجموعة، وقد لاحظ اضطرابي وخفقان صدري فسمى الله عليّ وطلب مني الجلوس. أحسست بحنانه فلم أتمالك نفسي من البكاء، طبطب على كتفي وسقاني شربة من الماء، ثم طلب مني أن أحكي له ما حدث معي، فقلت له كل شيء كان يحدث من ذلك الشخص سابقاً، وما حدث مؤخراً مما أصابني بالقشعريرة، بعدها رد عليّ الفورمان متعاطفاً معي: "لا بأس عليك، ذلك الولد الملعون سوف يُعاقب، نحن نقلق بشدة من حدوث ذلك بين الشباب، ونحرص على المراقبة والتقصي، لا تخف يا بني لن تبات معه الليلة، وسوف أُغير مكان سكنك غداً".

وقد تم ما كان قد وعدني به، ثم أصبح هذا الفورمان بمثابة الأخ لي، وكان يتفقد أحوالي النفسية وأوضاعي الاجتماعية بين الفينة والأخرى. تلك العلاقة الطيبة زادت من ثقتي بنفسي، وأثبتت لي الكثير من المودة والاستلطاف بين العمال، وتأكدت أن لدي الكثير من الملاحة وخفة الدم مما يجذب النفوس إليّ. وبالرغم من ذلك لم يطب لي المقام في بقيق بعد ذلك الموقف الذي ترك أثراً سيئاً في نفسي، كما أنني اشتقت لبلدي وأهلي كثيراً. وبعد ستة أشهر من العمل كان يحق لي طلب الإذن بالإجازة ولمدة أسبوعين فقط، ثم لا بد من العودة لاستكمال عقد العمل. رجعت إلى الأحساء ووجدت جدتي عليلة وأختي ذليلة، وقد أثر فيهما فراقي كثيراً، فوددت البقاء بينهما وعدم الرجوع إلى بقيق، لكن ما باليد حيلة فقد كان عقد عملي يجبرني على إكمال السنة كاملة في بقيق، حتى أتسلم كافة مستحقاتي المالية، رجعت مرغماً ولم تفلح محاولاتي للاستقالة قبل إكمال السنة. بعد ثلاثة أشهر من رجوعي إلى بقيق ثانية، جاءني مرسالٌ عاجل من أبي يطلب مني الرجوع في اليوم نفسه؛ لأن جدتي تحتضر وتطلب رؤيتي. وعلى إثر مرسال أبي ختم لي رب العمل إذناً خاصاً بالرجوع، للاطمئنان على أسرتي، لكن لبضعة أيام فقط ثم لا بد لي من العودة إلى العمل. وطوال طريق العودة كنت أفكر بأن جدتي قد حزنت لوفاة جدي لكنها لم تمرض، وأغلب الظن أنها مرضت حسرة على فراقي، وتأثرت به نظراً لقلقها المتواصل عليَّ، بالإضافة إلى سوء معاملة زوجة أبي لها، أجل لقد تجمّعت عليها المصائب كلها مرة واحدة.

وفاة الجدة الرؤوم في بداية عام ١٩٤٥م

قالت لي أختي عندما رجعت إلى الأحساء: "لقد اشتد حزن جدتي بعد موت جدي، لكنها مرضت عندما سافرت أنت إلى بقيق، كما كان عذابها مع زوجة أبي شديداً، ولم نعرف لها تسلية على وجه التحديد، مرضت ولم ينفع معها أي دواء وظل أنينها يقطع نياط القلوب".

عندما رأتني جدتي قادماً من بقيق تهلل وجهها وصفقت بيديها كعادتها عندما تفرح، دبت فيها العافية وقامت من فراش المرض، لكن بعد أيام معدودة وذات صباح مشؤوم نهضت من النوم، ولم أجدها في الحوش أو الليوان حيث كان مجلسها، بحثت عنها في أماكن تواجدها الأخرى، ثم ناديت عليها ولما لم أسمع لها رداً، دخلت غرفتها وجدتها منكبة على مصحفها بلا حراك، صرخت صرخة شقت أعماق الفضاء ووقعت مغشياً عليَّ. واهٍ لي من بعدها، ها أنا ذا أذوق اليتم للمرة الثانية، لكن لي في ذكرى تيتم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عزاء وتخفيف من الألم. ها هو القدر يفجعنا بالموت في بيتنا للمرة الرابعة، أجل إنها فاجعة عجيبة غريبة، أن تموت الجدة وهي بكامل عقلها ولا تزال في أوائل الخمسين من عمرها، لقد رأيت الكثير من معمرات النساء اللواتي وصلن إلى حد الخرف والمرض المزمن، لكن جدتي الذكية العاقلة ماتت في وقت مبكر من عمرها؟

أثناء دفنها مباشرة صرخت أختي في وداعها: "ادفنوني مع أمي الحجيه أرجوكم، لا أريد العيش بعدها"، بينما كنت أردد: "رحمك الله يا بديلة أمي رحمة واسعة، وأدخلك فسيح جناته فأنت تستحقينها بلا منازع".

بعد دفنها مباشرة تفردت بنا زوجة أبي وقالت لنا بالحرف الواحد: "لقد ذهبت من تسند ظهركم إلى غير رجعة، وأنا الآن سيدة هذا المنزل بلا منازع، وسوف تفعلون كل ما آمركم به بحذافيره"، ولم يكن لنا إلا الخضوع والاستسلام، أجل لقد رحلت الجدة التي حمتنا وناضلت من أجل حقوقنا، تلك المرأة العطوفة الطيبة المؤمنة التي ترحم عليها كل من عرفها ما عدا زوجة أبي الشريرة.

لم أقدر على المكوث في البيت الكبير أكثر من ثلاثة أيام، فقد كنتُ أتخيلها في كل زاوية منه، وأبكيها بحرقة شديدة تفوق حرقة أبي. كما أن نحيب أختي ليلاً ونهاراً قد قطّع نياط

قلبي، وحيث إن إجازتي العارضة قد انتهت، فلا بد لي من الرحيل إلى بقيق، ودّعتُ أختي واعداً إياها بالعودة في أقرب فرصة ممكنة. أعطيتها عنواني وطلبت منها مراسلتي كلما أُتِيحت لها الفرصة، وعدتني بذلك أمام أبي الذي كان في أشد حالات الحزن والعجز، فلم يعترض، ووعد بإرسال مكاتيبها إليّ.

زواج الطاهرة في نهاية عام ١٩٤٥

بعد عشرة أيام من وصولي إلى بقيق، وصلني من أختي خطاباً كان الحزن يقطر منه، ونظراً لشدة تأثيره فما زلت أحتفظ به حتى اليوم، وهو كما يلي: "يسوؤني أن أخبرك يا أخي العزيز وتوأم روحي أن الوضع متوتر جداً في البيت الكبير، سيطرت زوجة الأب تماماً على كل شيء، وبعد رحيل أعمامي من البيت الكبير، عزل والدي عمتي الأرملة بعد أن نالها من الذل نصيباً كبيراً، في ملحق خاص بها يفصلها عنا، وكان لها مطبخها الخاص الكائن أيضاً ضمن البيت الكبير. لم يتبقَّ لزوجة أبي إلا أنا تتسلى بتعذيبي، لقد أهانتني بالسباب والطلبات التي لا تكاد تنتهي وبشكل لا يُحتَمل، وفي ساعة من الصباح عندما رفضت أن أغسل لها ولابنتها طفارات دم الحيض، حملتني إلى السمادة (الزريبة)، وملأت فمي بالتراب القذر، ثم حبستني طيلة النهار هناك، حتى رجع أبي من المتجر ظهراً وسمع صراخي، وحررني من الحبس غصباً عنها. أنت تعرف أنه لا يوجد من يساعدني، فأنا أحمل على كتفي أعمال البيت كاملة، فيما عدا الطبخ وتخزين المؤونة التي تفردت هي وابنتها بهما، وذلك حتى لا يأخذ أحدٌ من الطعام شيئاً دون إذن منهما".

لم أتحمل أن يقع كل ذلك الشر على كاهل أختي، وهي الطفلة النحيلة ذات الثلاثة عشر عاماً، فأرسلت رسالة استجداء وتعاطف إلى أبي حتى يدفع عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. لكن أبي كان يلوم أختي لو اشتكت قليلاً، ويخرسني لو تذمرت من هذا الوضع المزري في رسائلي. فقرر منع التراسل بيننا، وحرمني حتى من الاطلاع على أحوال أختي.

دون أدنى شك، كانت زوجة أبي وابنتها تكرهان وتغاران من أختي التي تتفوق عليهما في الجمال والذكاء، وعلى ذلك لم تتحملا وجودها معهما، بل بحثا عن حجة لطردها من البيت،

ثم الاستعانة بخادمة بدلاً منها. كان يعيش في البيت الكبير مع عمتي ابنها الذي يكبرني ببضع سنوات، طويل اللسان وشقي السلوك، وقد تطور الأمر به أن حاول تصيد أختي ومضايقتها مراراً، وكم تعاركنا أنا وهو بسبب ذلك الأمر قبل سفري إلى بقيق وبعد ذلك. وكلما تكررت مضايقة أختي من طرف ابن عمتي، أعادت زوجة أبي القول مراراً وتكراراً على مسامعنا جميعاً: "الحل الجذري للطاهرة سهل وبسيط ألا وهو أن تتزوج سريعاً"، وهكذا أصبح أبي يتمنى لها الزواج بأي شكل وهي لا تزال في الثالثة عشرة من العمر. شاع خبر معاناتها بين الأقارب كلهم، وسرعان ما تقدم لها رجل أرمل يكبرها بثلاثين عاماً على أقل تقدير، وله ابن متزوج يكبرها بعشر سنوات! وعليه فسوف تعيش معهم في المنزل نفسه، وتخدمهم جميعاً، خاصة أنه يترقّب حفيداً من ابنه البكر. وصلتني تلك الأخبار من قريبي الذي كان لتوه قادماً من الأحساء، تألمت لموافقة أبي السريعة، وظننت أن أختي سوف تعيش الجحيم بعينه مع ذلك الزوج المرتقب. كانت علاقتي بأختي عميقة جداً، حتى إنه لا يمكن قصم العروة بين روحينا بأي شيء ولأي سبب كان؛ لذلك جننت عندما علمت بتفاصيل الحياة التي سوف تعيشها أختي مع ذلك الرجل العجوز، وقد كنتُ في مراهقتي حاد الطباع، شرس الأخلاق حتى إنني تعمّدت التسبب بالمشاكل مع العمال في بقيق، ثم طلبت إجازة عاجلة من عملي متحججاً بمرض أصاب أبي. وصلت دياري ودخلت عليهم فجأة وكانوا مجتمعين على الغداء. صرخت بأعلى صوتي على أبي وشتمت زوجته وابنتها. ثم خططت للفرار مع أختي إلى بيت عمنا الأكبر، وكان قد انفصل عنا في منزل خاص به بسبب تسلّط زوجة أبي على أسرته، وعليه فقد كان يكرهها كرهاً شديداً. نجحنا في الهرب لكن أين المفر من القدر، وكما يقول المثل: "أين تفر من قضائي، والأرض أرضي والسماء سمائي"، فما هي إلا عدة أيام حتى أقنع عمي الكبير أختي بالزواج من ذاك الرجل لحسن أخلاقه وسمعته الطيبة، وأعطاها المواثيق أن يخلصها منه لو أساء معاملتها. جاء أبي وأخذها ليلاً وأنا نائم، ثم تم كل شيء بهدوء وأنا غافلٌ عنه. وكم كنت غاضباً منها لموافقتها على ذلك الزواج، لكنها صرحت لي، فيما بعد، أن عمي قد أقنعها بالزواج؛ لأنه الفكاك الوحيد من قبضة زوجة الأب القاسية، وها أنا أرى اليوم أن قرار عمي كان صائباً، وأن الزوج قد غمرنا بعطفه وحنانه نحن الاثنين. أجل إن الزمن كفيل بتصحيح أفكارنا وتكذيب ظنوننا.

العودة إلى مدينة بقيق والعمل فيها حتى نهاية عام ١٩٤٨م

أصبح البيت خاوياً عليّ بعد وفاة جدي وجدتي، ثم زواج أختي وخروجها إلى بيت الزوجية. لم أطق المكوث في المنزل مع زوجة أبي المناكفة لي على أتفه الأمور؛ فعدت إلى بقيق سريعاً وجددت عقد عملي. كنت أقضي معظم السنة في العمل الشاق، ثم أقضي إجازتي القصيرة في بيت أختي، أو بين العشش في النخيل والبساتين. في تلك الظروف حالكة السواد بالنسبة لي، كان أبي متماسكاً بالرغم من طول فراقي وبعدي عنه؛ بل بدا سعيداً ولاهياً بزوجته وأبنائه منها. ولم يعمل حينذاك بوصية أبيه في نقل ملكية البيت للتوأم دون سواهما، لكن سوف تعرف يا قارئي العزيز، كيف تطوّر هذا الأمر لاحقاً.

عندما أكملت أنا السادسة عشرة من العمر، كذلك كانت اليتيمة ابنة زوجة أبي، أجل لقد كبرنا جميعاً في بيت واحد، لكن لم تحدث بيننا المحبة أو التآلف، ابنتها عادية الملامح، لم ترث شيئاً من جمال أمها، بالإضافة إلى رمد مزمن في عينيها، حيث تتراكم تحتهما أكياس دهنية. لم يتقدم أحدٌ لخطبتها، وكانت تلك مسبة كبيرة للبنت في ذلك الزمان. ولم تجد أمها لرفع تلك المسبه غير قولها لأبي في حضوري ذات يوم: "ابنتي هدية مني إليك، لن أطلب لها مهراً أو جهازاً خاصاً، وخطوبتها من الجلمود باتت قريبة"! صحت أنا في وجهها: "لا، إن عرضك مرفوض، وطلبك بعيد جداً كبعد النجوم"، قطعت إجازتي في حينها ورجعت إلى مدينة بقيق. قلقت طوال الطريق، ثم حمدت الله كثيراً في أنها لم تجبر أختي الطاهرة على الزواج من ولدها البكر، الذي لقبناه بـ "البهلول" لكثرة ضحكه ومزاحه. عاش معنا في البيت الكبير حتى بلغ السادسة عشرة من العمر؛ وكان كثير العناد والمشاكسة لأمه بالذات، ثم فجأة قرر الهروب بعد أن سرق المال والذهب من خزينة أمه، ولم يعد إلى البيت الكبير أبداً، قُطعت عنا أخباره لسنين طويلة حتى ظننا أنه صار من الهالكين. ثم وصلت لنا الأخبار أن البهلول يعيش في البحرين عند بعض أقاربه، بعد أن فر من تسلط أمه وقسوتها.

أما أنا فقد قررت الفرار منها بالعمل في مدينة بقيق، كنت أقضي هناك الشهور الطويلة، ولا أعود إلا أسابيع معدودة لرؤية أختي التي أنجبت صبيين واحداً تلو الآخر، وقد أصبحا فرحتي وتسليتي الوحيدة في هذه الحياة. وبمرور الأيام رتبت لي أختي غرفة بسيطة، أشبه

بالعشة، في المزرعة الخاصة بزوجها، وكنت أقضي فيها أيام إجازتي من العمل في بقيق، مما أراح أبي وأراحني كثيراً من مشاكل زوجته. لم يكن لي صبر على تحمل المشاكسة، ولا أناة على العدوان، ولم أتعلّم الصبر والأناة إلا بعد أن دهستني الأيام، وواجهت أصعب الظروف والمحن؛ لذلك تحمّلت هوام الأرض ولدغات البعوض بين المزروعات حتى لا أرضخ لحكم زوجة أبي. لكن من قبيل بر الوالدين كنت أمر مرور الكرام على أبي في متجره، وأرفض العودة معه إلى البيت الكبير الذي أصبح مكروهاً لدي. قدّر أبي مخاوفي من إمكانية إلحاح زوجته على التقدم لخطبة ابنتها، لكنه لحرصه الشديد على صلة الرحم، أصبح يجلب أخوي إلى المتجر لرؤيتي وحتى لا تنقطع العلاقة بيننا نهائياً.

شعرت بالراحة وأنا أعيش وسط بستان أختي، كنت كمن يملك الدنيا بأكملها، ولم يعكر صفو حياتي شيء ما. كنت أنصت بفرح إلى هسيس أوراق السدرة التي تظلل على سقف تلك العشة، وكم أطربني صوت الشحرور في صباحاتي الهانئة، لقد كانت تلك الأصوات بمثابة الوصل بين لغة السماء والأرض، مما ربط روحي مع الكل العظيم المحيط بي، فلم أكن عنصراً معزولاً عن الطبيعة، بل اندمجت معها بطريقة تفوق الوصف. قضيت الساعات الطوال في مراقبة الطيور التي تتنقل بحرية وأمان من غصن إلى آخر بين النخيل، لا رقابة عليها ولا خوف من أن يسألها أحدٌ عن سر سعادتها، هي تمارس غرائزها دون مراقبة أو تنغيص من أحد، يا لحظها الوفير في امتلاك السعادة غير المحدودة والحرية التي لا نملكها نحن البشر. أجل لقد كذب من قال إن الإنسان هو أسعد الكائنات؛ بل هو أتعسها وأشقاها على الإطلاق. اليوم كلما أتذكر تلك العيشة الهنية، أردد في نفسي ألا ما أجمل العزلة عن البشر في عشة ما بين النخيل، وليتني أدفع نصف أموالي اليوم من أجل الحصول على مثل تلك العشة، التي سوف تعطيني بعض الراحة من مشاغلي وهواجسي التي لا تكاد تنتهي. وكم سهرت الليالي الطويلة أراقب النجوم في الليل، حتى كنت أراها قريبة جداً، بل أكاد ألامسها بيدي، أو أقطفها بأصابعي، ولم أكن أعلم أن تلك النجوم سوف تكون مرسال غرامي البعيد في يوم ما.

علاقتي بالنخيل شديدة العروة ولن تنفصم أبداً

كم تمتعت في طفولتي وصباي بالطبيعة الخلابة خاصة في نهاية فصل الشتاء، حين تتزيّن الحقول والبساتين وواحات النخيل بصفرة زهور النوير، وتظهر شجيرات أو أحراش الرمث والعرفج والعلندة والثمام وغيرها من نباتات الربيع، على أطراف الأراضي غير المأهولة. في بداية الربيع ينتشر عبق الخزامى (اللافندر) في كل مكان من الأحساء، وعندما تختلط تلك الروائح مع رائحة لقاح النخل، يصيبني الخدر والاسترخاء والسكينة النفسية. أصحو فجراً على سيمفونية عذبة هي خليط من كركرة الطيور وزقزقة العصافير، وربما نقيق الضفادع التي تعيش في الجداول، فأنصت لها أثناء تأملي لتلك الطبيعة الساحرة، ثم أبدأ في العبادة والتسبيح حتى تخشع معي كل المزروعات والنخيل والأشجار. وأحياناً أطلق آهات على حالي الذي يشبه حال المشرد الغريب، وأردد قول الشاعر:

ونيت ونة في الحشا مستكنة *** صارت لها خضر الورق يابسات

في الأحساء يُسمى الفلاح المختص بشؤون النخل بالنخلاوي، وجمعهم نخلاوية، ولديهم الخبرة الكاملة في كيفية العناية بالنخل ومنتجاته، ومنهم عرفت الكثير عن الطريقة المثلى لزراعة النخيل. هؤلاء الطيبون شاركتهم همومهم وتفاصيل معيشة أيامهم الهانئة. كما أصبحت لدي حصيلة ثقافية عالية عن كيفية زراعة معظم المزروعات، بل وتعلّمت منهم أسماء جميع أنواع المحاصيل ومواسم زراعتها. في الليالي المنيرة حفظت منهم أسماء النجوم ومواسم الرياح والأمطار. وفي الربيع شاهدت بأم عيني تعشيش أنواع عديدة من الطيور المهاجرة، تلك تسمى طيور الفلاة تمييزاً لها عن طيور البحر، وتعلّمت بعض أسمائها مثل طائر المدقي، القحافي، الصعوة الرماني. وقد كان من دواعي سروري مشاركة الفلاحين في صُنع فزاعات مخيفة للطيور حتى لا تأكل محاصيلهم، وكم تفننت في صنعها حتى عرضوا عليّ شراءها بثمن جيد. كذلك سَعدت برؤية أنواع من الحيوانات التي ألفت العيش بين ثنايا البساتين والحقول، مثل الثعالب والقنافذ وغيرها.

في فصل الصيف الطويل تهب رياح السموم وتتميز بالهواء الجاف والحار جداً، وقد سُميت بذلك لأن تأثيرها المخدر على الجسد مشابه لتأثير السم، وعادة ما تشتد في وقت الظهيرة وحينها يختبئ الناس في المنازل، ولا يخرجون إلا حين يؤذن لصلاة العصر. ولحسن

الحظ لا يعاني سكان الأحساء من الرطوبة إلا فيما ندر، حيث إن المناطق السكانية بعيدة تماماً عن البحر؛ ولذلك في فصل الشتاء القصير لا يهطل المطر كثيراً، وربما يهطل قليلاً في فصل الربيع؛ لذلك يرتبط المطر بأحاسيس البرودة ويبشر بالخير الوفير.

تُرسل مواسم الأمطار الفرح للجميع، وعادة ما ينشد الأطفال مع صوت تدفق الماء من المرازم (جمع مرزام وهو قطعة خشبية طويلة ومجوفة تصل بين السطح وخارج البيت، لتصريف مياه الأمطار المتجمعة في سطوح المنازل)، ومن الأناشيد الشائعة عند سقوط المطر (يا غيم ارزم، ارزم، وخلي المرازم ترزم) أو (طيح يا مطر طيح، بيتنا جديد، ومرازمنا حديد)، (ياربِ زيده، زيده، وارحم عبيده). وفي الأيام المطيرة، وبالذات أثناء دخول فصل الوسمي، فرحت معهم؛ لأن هذا المطر هو ما ينتج الفقع (الكمأة) في باطن الأرض، ألا ما أجمل الإثارة والمسرة أثناء تباري الربع (الزملاء والأقارب) في جمع الفقع، وكذلك كان الحال في الرحلات الشتوية الجماعية لجمع الجراد. أحببت صوت الرياح وعزف سيمفونية الأشجار عندما تثيرها الزوابع، ولم يخفني صوت البرق والرعد في ليلة ما.

وعند اضطراب الروح وفقدان السكينة ألجأ إلى تأمّل شجر النخل، ذلك الوحيد من الشجر بلا أغصان أو فروع، بل له عروش من السعف الجميل المتدلي من جذوعه القوية، تلك السعفات الرقيقات المنبثقات من الجذع، والتي تشبه تفجر المياه من ينبوعٍ ماءٍ صافٍ، يداعبها النسيم، ويمنحه رقة ورونقاً لا مثيل له. أما جذع النخلة فلا شك أنه متفرد ليس له مثيل بين جذوع الشجر الأخرى، تبرز منه قواعد السعف المقطوع (الكرب) فتعطيه شموخاً وقوة استمرارية الحياة، أحياناً أتخيل أن لجذوع النخل شبهاً معنوياً بأعمدة المساجد، مما يعطي قلبي عند تأمل النخل استكانة وخشوع المتصوف العابد، وكم أثرى ذلك التأمل وجداني الداخلي، كما أنضج تفكيري وجلب السكينة لنفسي. ذلك التأمل للنخل المحمل بعذوق البلح الأخضر والذي لا يمكن عده أو تعداده، يساوي في نفسي قراءة مئات الأذكار، ويثري عقلي بالأفكار النقية الصافية، وإني لأمتّع ناظري بجلال الله وعظمته في تلك الأكوام الكثيرة من الثمر الأخضر الناشف، الذي لا يلبث أن يتحول إلى الرطب الأصفر أو الأحمر الناضج الحلو الشهي، وكما قال الله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وفي عز الصيف يأتي النخلاوي، ليجمع الرطب الناضج فيملأ الزبيل (سلة الخوص الكبيرة) بتلك الرطيبات الشهيات المشبعات اللاتي يخففن من حدة اللهيب الحارق في فصل الصيف. وكم ابتهج ناظري وسُرّ خاطري بمراقبة الكيفية التي يقوم بها النخلاوي في تسلق النخلة بطريقته الخاصة، ثم قيامه بقص عذوق البلح الناضج، وتُسمّى تلك العملية بـ"خرف الرطب"، وتتم أثناء موسم الصيف وبداية الربيع. وتعتبر مهمة تجميع عذوق النخل الناضجة شاقة خاصة عندما تكون النخلة طويلة جداً. ويُسمي النخلاوي الجزء الواحد من العذق شمروخاً وجمعها شماريخ، وكثيراً ما يجاملني أحد النخلاوية بقوله: "خذ هذه الشماريخ أيها السيد هدية مني، كرامة لجدك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم".

<u>بعد رحيل الطاهرة إلى مدينة العمران لم أجد بُداً من الرحيل بدوري</u>

أصبحت الحياة كئيبة ومُملّة بعد رحيل أختي وزوجها إلى مدينة أخرى تسمى "العمران" تبعد حوالي ٢٤ كيلومتراً عن مدينة المبرز، وها أنا ذا أجد مشقة كبيرة في الذهاب إليها. وبالرغم من حب زوجها لي ولأبي، فإنه لا يُحضرها لزيارتنا في البيت الكبير إلا مرة واحدة في الشهر. وهكذا اضطررت للعودة للمبيت في البيت الكبير، بعد أن باع زوج أختي البستان بالعشة الهانئة التي فيه. وللأسف الشديد لم تتغير طباع زوجة أبي معي، بل كانت تزداد معي سوءاً كلما نظرت إلى ملاحة وجهي ونموي السريع، وبنية جسمي المتناسقة مقارنة بأبنائها البدناء، وهي تصبحني وتمسيني بأنواع من الدعاوى عليّ، بسبب رفضي الزواج بابنتها. تحسدني على حسن شهيتي، ثم تقوم بتخبئة الجيد من الطعام لأبنائها، مما يثير في قلبي المزيد من الحقد عليهم، أجل إن لهم أُماً تعطف عليهم وتبرهم، بالإضافة إلى احتلالهم قلب أبي واهتمامه. وباستمرار ذلك الحال المزري لم أطق صبراً، ووددت الفرار من الأحساء كلها.

في ذلك الوقت كانت جزيرة البحرين قبلة الأسماع وبهجة الأنظار ومطمع التجار، وكان لها السبق في اللحاق بركب التطور الحضاري، فضلاً عن أنها أصبحت المركز التجاري العالمي للخليج العربي كله. وقد أقبل عليها الناس من كل حدب وصوب بسبب تنوع بضائعها التجارية وسرعة كسب المال فيها، ورغد العيش بها. بل إن كل مَن زارها تحدث عن جمال طبيعتها وغنى تربتها ورخص المعيشة فيها. وقد تجاوز القول فيها، بأن حلف أحدهم بأن جدران البيوت هناك مصنوعة من حبيبات السكر والقند (كريستال السكر)! وعليه فقد اتخذت قراراً مفاجئاً بالسفر إليها لبدء تجارتي الخاصة هناك، ولحسن حظي عرفت أن جماعة من أقاربي يودّون التوجه إلى البحرين للعمل، ولا يمانعون في أخذي معهم.

كنت في نهاية عامي السابع عشر، لكني بدوت في العشرين بسبب اعتدال قامتي وامتلاء جسدي؛ ولأني تدربت على البيع والشراء منذ الصغر تشجعت وقلت لوالدي: "طلبتك طلبة يا والدي، فلا تردني بحق رسول الله وآله الكرام"، كان ذلك القسم نقطة ضعفه فرد عليّ: "اللهم صلي على محمد وآل محمد"، قلت بسرعة: "أريد المتاجرة على أرض البحرين، وقد وافق بعض التجار من أقاربنا على أخذي معهم، وأريد منك بعض السلع والبضائع، وأعدك برد المال مضاعفاً إليك"، تفاجأ أبي وزاغت عيناه، وقد كان من عادته التأني قبل الرد، سكت هُنَيّة ثم قال: "أمهلني بعض الوقت كي نتحقق أنا وأعمامك من سلامة هذا الأمر". وبعد إلحاحي الشديد اضطر للموافقة، لكن بعد التشاور مع أقاربنا جميعاً، وتلك هي عادة العوائل في ذلك الزمان، فلا يقرر رب الأسرة أمراً مهماً حتى يأخذ الموافقة من أهله المقربين، فيطمئن قلبه على صحة قراره. وإنما تخوّف والدي من ذهابي إلى البحرين لتشاؤمه منها، وقد حدثت له حادثة مؤلمة منذ زمن بعيد على أراضيها. وزاد من تخوفه أن البهلول ابن زوجته يعيش في البحرين عند بعض أقاربه، وذلك بعد أن سرق ذهب والدته وهرب من البيت الكبير منذ سنوات عديدة، ولم يرجع بعدها إلى الأحساء أبداً. وقد حذرني أبي بشدة عن البحث عنه، أو مصاحبة ذلك السارق العاق الأفّاق كما وصفه، وقد أثبتت لي الأيام صدق قوله، لكن الإنسان لا يُصدق أمراً حتى يُجرّبه بنفسه.

*****

الفصل الثاني من الملحمة

ما بين الأحساء والبحرين تجارة وزواجان

الاستعدادات للسفر إلى البحرين في أبريل عام ١٩٤٩م

استخرجت وثيقة السفر وهي بديل عن الجواز في زمننا هذا، لكنّي نقصت فيها ثلاث سنوات من تاريخ ولادتي الحقيقي؛ وذلك حتى أبدو وكأني في العشرين من العمر، وإني حقاً لا بدو كذلك. وساعدني على ذلك التزوير انعدام وجود شهادة الميلاد في ذلك الزمان، وإنما يتم تقريب العمر حسب حجم الجسم، بل ربما حسب ما يقوله المسافرعن تاريخ ولادته. أما استخراج الصور الفوتوغرافية فلم يكن سهلاً أبداً حيث تزايدت أعداد المسافرين في تلك السنة، ولم يوجد إلا استوديو واحد فقط في مدينة المبرز. انتظرت طويلاً في ذلك الطابور الطويل، ولم تكن نتيجة الانتظار سعيدة البتة، فقد ضحكت أختي كثيراً على صورتي الكئيبة المبهمة، والتي كان لا بد من كتابة علامات فارقة للشخص تحتها، حتى يتم التعرف عليه كون الصورة غير واضحة تماماً. تأمل الموظف في مكتب استخراج الوثائق وجهي طويلاً، ثم كتب تحت الصورة في وثيقة السفر: العلامة الفارقة سمار البشرة، واتساع حدقة العينين السوداء جداً.

حملت وثيقة السفر وطرت بها فرحاً مسروراً إلى والدي، الذي لا يزال قلقاً بشأن سفري، لكنه طرح عليّ الكثير من الوصايا في التقوى، والصلاح، والحفاظ على الصلاة في أوقاتها، وحلّفني على ضرورة تذكر نسبي الشريف في كل أمر أنوي العمل به، وذلك حتى ألتزم بعمل الخير في كل زمان ومكان. كما أوصاني بعدم البقاء هناك أكثر من ستة شهور، ولا بد أن أخط له الخطوط (الرسائل) كلما أمكن وأرسلها له مع القادمين من هناك. لكنه وللأسف لم

يحذرني من ارتكاب الرذيلة، أو يتحدث معي في أي شأن بخصوص الجنس، وكأني شاب غير طبيعي! وتلك هي للأسف الشديد غلطة معظم الآباء، اللذين يتركون أبناءهم يحترقون بنار الشهوة دون دليل أو مُعين. وضع لي والدي بعضاً من السلع المتنوعة الغالية في صندوق خشبي كبير وأعطاني بعض المال، ثم احتضنني طويلاً مما نزع كل ما بداخلي من عتبٍ عليه، ثم شد على يدي مما زاد من ثقتي بنفسي. وقال لي متأثراً عند الوداع: "في أمان الله"، ورددت عليه بفرح كبير: "في أمان الله الكريم".

لم أعرف البحر ولم أره وأنا في الأحساء أبداً، رغم أنني قد سمعت عن شاطئ العجير المطل على الخليج العربي، والذي يقع على الطرف البعيد جداً من منازلنا في مدينة المبرز. كان يوجد في منطقة العجير أقدم مشفى لعلاج المسافرين إلى أو القادمين من قطر، والبحرين، والكويت وغيرها. وحدث أن روى لي والدي ما يلي: " عاد أحد أقاربنا من البحرين بعد فترة طويلة من الغياب، لكنه كان مريضاً واضطر للتوقف في مشفى العجير، ثم لبث هناك إلى أن توفاه الله، ولم يعلم أهله برجوعه أو تواجده في المشفى، لكنهم سمعوا بوفاته عن طريق أحد العابرين على هذا المشفى، وكان ذلك للأسف بعد فترة وجيزة من دفنه، حدث كل ذلك نظراً لبعد المشفى عن مدينة المبرز".

تقع الفرضة (ميناء العجير) على شاطئ الخليج العربي، وكانت تُستَخدم للسفر إلى البحرين، لكنها توقفت من أجل الصيانة قبل الوقت الذي قررتُ السفر فيه. وعلى ذلك كان لا بد لي من التوجّه إلى فرضة الخبر، التي تقع شمال مدينة الهفوف وبالقرب من مدينة الظهران.

استغرقت الرحلة من مدينة الهفوف للوصول إلى مدينة الظهران وقتاً طويلاً، فقد سافرنا باستخدام العربات التي تجرها البغال. ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه يقع على طرف مدينة الظهران ميناء كبير، مواجه لجزيرة البحرين وهو الأول في تصدير النفط، لكن لا يمكن للعامة من الناس السفر من خلاله؛ لذلك اضطررت إلى مواصلة الرحلة مع سيارة الأجرة لمدة نصف ساعة أخرى للوصول إلى فرضة مدينة الخبر، وهي الوحيدة المعتمدة للسفر إلى البحرين آنذاك. ذُهلت لرؤية البحر لأول مرة في حياتي، إنه عالمٌ رائع من الماء الحر الطليق

تعوم فيه المراكب الصغيرة والسفن الكبيرة. وعلى ظهر المركب كنا ثمانية عشر فرداً، بالإضافة إلى الربان ومساعده، وظننت أن ذلك اللنج (المركب الصغير) لن يتحملنا، بالإضافة إلى صناديق البضائع وقد يغرق سريعاً. وبالرغم من كوني فرحاً جداً بتلك الرحلة، فإني شعرت بدوار البحر بعد ساعة فقط من تحرّك المركب، أسندني الربان قائلاً: لا بأس عليك يا بُني، سوف نصل خلال ساعات معدودة. وما لبثت أن هبت علينا عواصف شديدة حتى مال بنا المركب يمنة ويسرة، لم أكن جباناً لكن دوار البحر أصابني ثانية، وأغمي عليّ غصباً عني، لم أستفق حتى اقتربنا من المياه الإقليمية للجزيرة، وذلك بعد حوالي خمس ساعات من تلك الرحلة الطويلة الشاقة التي تخيلت أن لا نهاية لها. تسليت بمراقبة تقلبات الموج حتى نهاية الرحلة، واكتشفت أن البحر عالمٌ ساحر من الماء الرقراق الذي لا يكاد ينفد أو ينتهي، سحرتني زرقة البحر وأمواجه المترامية الأطراف، أمواج هائلة مهيبة كأنها قطع من السماء تتراقص فوق أديم الأرض، وتفرش بساطاً أزرق متألقاً ليس له آخر، يمتد من الأفق القريب، ويرتفع إلى حدود السماء حتى لا يصل النظر إلى منتهاه أبداً.

عندما وصلنا إلى سواحل البحرين، وبعد رسو مركبنا الشراعي الصغير في فرضة المنامة، وقفت على طرف المركب وكأني أقف على تخوم الكون، فقد تهيّأ لي أن البحر يحيط بكل دولة على حدة، ويمكن رؤيته من كل حدب وصوب. لكن بعد فترة قصيرة من وجودي في البحرين، وكما تحيط المياه بتلك الجزيرة أحاطت بي الكآبة والملل، ولم يكن أمامي إلا البحر، فكنت أزوره ليلاً كثيراً، أحببت تأمل الشواطئ الطويلة، كما فتنت بمراقبة الأمواج وهي تأتي مداً وتذهب جزراً أثناء سكون الليل، وكم جلست على ضفاف ذلك الماء المالح ذي الرائحة الرطبة الزفرة، بينما يزعجني نجيخ (صوت) البحر العظيم، وكنتُ أسمع أنفاسه المتلاحقة أثناء نومي بقربه في الليل. تذكرت وأنا أسبح في تلك المياه الزفرة، عيون الماء العذبة في الأحساء، بل وتخيلت أن لها رائحة ماء الورد والزعفران، فكيف لم أنتبه لتلك الروائح الطيبة أثناء الاستحمام فيها؟! أجل إن البعد عن الوطن يجعله جنة المأوى التي لا مثيل لها في الكون، وصدق أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال:

وطني لو شُغِلت بالخُلْد عنه ❋ نازعَتْني إليه في الخُلد نَفْسي

كما صدق الشاعر قتادة بن إدريس حين قال:

بـلادي وإن جـارتْ علـيّ عزيـزةٌ * وأهلـي وإن ضَـنُّوا علـيّ كِـرامُ

أما أثناء النهار فلم أكن أحب ضجيج الملاحين والصيادين، ولم أتدخل في صراع السفن والقوارب التي تحدث على أطراف البحر، ولم أعشق ثرثرة المياه المالحة، بل كنت أكتفي بالتجوال حوله ليلاً فقط، لأستمتع بالهدوء العذب دون الضجيج. أصبح البحر حبيبي الذي ألجأ إليه، وكنت كثيراً ما أتأمل قوة الحاضرة البحرية الواضحة في كل أنحاء المنامة، القوارب والشباك والصيادين والأسماك العجيبة في أشكالها وأسمائها بما لم أعهده من قبل في حياتي الماضية. وجدت المدينة رطبة زفرة، وسكانها يشبهون بيئتهم تماماً، إنهم ثرثارون تسبح الكلمات في أفواههم كما يسبح السمك في الماء، لكن نفوسهم رحبة واسعة، كرحابة البحر العميق، وقلوبهم صافية كموج البحر، حقاً أن صفات البيئة لا بد أن تنعكس على من يقطنها من الناس والنبات والحيوان.

ركبنا الباص من فرضة المنامة، وكان المرسى الوحيد المعتمد لرسو السفن والمراكب آنذاك، ويقع بالقرب من منطقة باب البحرين. انطلقنا إلى منطقة النعيم حيث يوجد خان (فندق صغير) يُسمى "خان بورمضان"، وذُهلت لرؤية الكثير من الحساوية هناك، أما صاحب الخان فإن لقبه ليس غريباً عليَّ، بل تذكرت وجود عائلة البن رمضان في الأحساء. وبالقرب من الخان وجدنا الكثير من المخازن ذات الأقفال المحكمة، كانت متفاوتة الأسعار حسب بعدها أو قُربها عن الخان، اخترنا مخزناً كبيراً للبضائع التي لم تكن كثيرة جداً، ريثما نجد لنا سكناً دائماً. وأثناء بحثنا عن السكن الدائم مررنا بمبنى كبير ذي فخامة، وعرفنا أنه خان يُسمى "الشيخ عبد الله"، ولشدة إعجابي بشكل المبنى، خطر لي التجوال فيه لاحقاً. ولشدة الزحام بالمهاجرين من قطر والأحساء وغيرها، قضينا يومين ونحن نبحث عن السكن المناسب ونجوب معظم الأحياء تقريباً، وخلال تلك الجولة بحثنا عن جدران السكر والقند، التي تحدثوا عنها في الأحساء، فلم نجدها للأسف الشديد، بل وجدنا الكثير من جدران الملح! أجل في كثيرٍ من الأحياء كنا نرى جدراناً قديمة متهالكة عليها بقع كبيرة بيضاء اللون، فقالوا لنا إنها ترسبات من الملح، وقد حدث ذلك نتيجة استخدام حصى للبناء مستخرج من على سواحل

البحر، وهكذا سرعان ما تظهر ترسبات الملح على الجدران، نتيجة رطوبة الجو العالية هناك. قارنت ذلك بموطني، فوجدت أن الجدران المتهالكة قليلة جداً هناك؛ ذلك لأن شعب الأحساء لا يحب ظهورها بين مساكنهم، بل يسارع ذوو الخير في ترميمها عملاً بالآية الكريمة: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ ﴾ [الكهف: ٧٧]، وذلك طمعاً في الأجر والثواب.

لكني سررت جداً عندما تبدت لي الكثير من رؤوس النخيل في تلك الجزيرة، وقد تخيلتها وكأنها قِطَع منفصلة من نخيل الأحساء. وما بدا لي غريباً هي برك الماء المتناثرة هنا وهناك؛ ثم علمت أن هذه الجزيرة ممطرة جداً على عكس الأحساء، ولا شك في أن تلك البرك تجمع مياه الأمطار، لاستخدامها لاحقاً في سقي الزروع والبساتين واستحمام الأطفال وغسل الملابس والمواعين وغير ذلك؛ والعجيب أني عرفت لاحقاً أن عيون الماء العذبة توجد بكثرة لكن فيما حول المنامة وليس في داخلها.

وأخيراً وفي وسط المدينة وبالقرب من السوق المركزي، وجدنا منزلاً متهالكاً مكوناً من غرفتين وحمام واحد ومطبخ، استأجرناه مؤقتاً، ولم أرتح نظراً لمشاركتي شخصين في غرفة واحدة، وكانوا يريدون الاحتفاظ بالعفش القديم الموجود في المنزل. أما أنا فتذكرت نصيحة أبي بضرورة التخلّص من أي فرش قديم خشية نقل القمل والأمراض، وكان لزاماً عليّ الذهاب إلى السوق وشراء الفراش الجديد ولوازم المطبخ، ولدهشتي الشديدة وجدت أن الأسعار أقل كثيراً من مثيلاتها في الأحساء، ثم عرفت أن السبب هو وصول مختلف البضائع من كل حدب وصوب، وعلى ذلك يظهر التنافس الذي يكون على أشده في خفض الأسعار من قِبل التجار، وبدا ذلك واضحاً من طريقة النداءات المغرية على البضائع، خاصة تلك التي تُباع بالجملة.

السوق يمور بالبشر الذين هم خليط متنوع من الأشكال والألوان واللغات، تتعالى تلك الأصوات الفجة وغير المفهومة أحياناً، وتتداخل مع الأغاني القديمة المنطلقة من الراديو أو من الفونوغراف (الغرامافون أو الحاكي). أصحاب الدكاكين البسيطة في صراع دؤوب لجذب الزبائن، ولا يجاريهم في نداءاتهم وصراخهم، إلا طرقعة أكواب الشاي والصواني القادمة من

المقاهي المتناثرة هنا وهناك. فوجئت بأهل البحرين لا يعرفون الريال السعودي، وإنما يتم التعامل بينهم بالروبية الهندية التي تساوي مائة آنة، وأظنها كانت سائدة في دول الخليج العربي آنذاك، لكني وجدت الكثير من العملات المختلفة القابلة للتداول أيضاً، مما أدى إلى إنشاء الكثير من مصارف المال في البحرين.

دهشت جداً من وجود مئات البسطات الممددة على أرض السوق، والتي نُشرت عليها آلاف البضائع المتنوعة، لاحظت كذلك العشوائية في توزيعها على أماكن متفرقة من السوق. كما تظهر الكثير من اللافتات والملصقات، فالويل لمن لا يقرأ أو من لا يجد له دليلاً يقرأ له. أما مئات المحلات التجارية المصفوفة على الجانبين فتحوي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وهي تصطف في خطوط طويلة بجانب بعضها البعض، وقد تجد المحلات الشعبية البسيطة النظيفة جداً أو الوسخة جداً. أما المتاجر الفخمة ذات الديكورات الجميلة، فهي متناثرة في الأسواق بين المحلات الأخرى، ولم أرَ لها مثيلاً سابقاً في نوعية البضائع وجودتها وألوانها وأشكالها المتعددة.

في وسط السوق تظهر الكثير من القهاوي (المقاهي) لكنها قد لا تبيع القهوة وإنما الشاي والطعام البسيط فقط؛ كما تقوم بإعداد القدو (يشبه الشيشة)، وذلك لتدخين التبغ الناشف من خلال الجمر والماء، وهي عادة كان يتميز بها الفرس دون العرب، ولكنها انتقلت ثم انتشرت في المقاهي الخليجية أيضاً، لكن ليس في الأحساء.

حان وقت العشاء وجلسنا جميعاً في أحد المطاعم الهندية المتناثرة في أرجاء السوق، والتي عادة ما يخدم فيها عمال من الأعاجم (عجم اسم يطلق على من أصولهم غير عربية)، ونادراً ما تجد العرب في الخدمة هناك. وحيث إن تلك المطاعم رخيصة جداً، فقد طلبت الجماعة الكثير من الأطعمة المتنوعة الدسمة، التي لم أسمع بها من قبل في الأحساء، مثل "الجباتي" وهو فطائر مقلية في الدهن أو الزيت وقد تذوقتها لأول مرة في ذلك المطعم، وعادة ما تُؤكل مع "الكيما" وهي مرقة ثقيلة تتكون من اللحم والبقوليات. كذلك تناولت "السمبوسة المقلية" أيضاً، وهي مثلثات من العجين الناشف محشوة بالخضراوات وحبوب الماش أو البطاطس، وعندما ذقتها لأول مرة أُغرمت بها كثيراً حتى إنني أصبحت أتناولها في كل يوم

تقريباً؛ كما أكلت الكثير من رقائق البطاطس المقلية. وحيث إننا لم نكن نمارس القلي كثيراً في الأحساء، شعرت بالتخمة المفرطة نظراً لتراكم زيوت القلي في معدتي. ولم أتناول في اليوم التالي غير "الكماج" (البقصم اللين وهو نوع من المخبوزات الفارسية). كما تنتشر في البحرين المخابز التي تطبخ "الباقلاء" (الفول الناشف وقد يُسمّى الباجلا) و"النخي" (الحمص الناشف) واللوبيا البيضاء، ويمكن شراؤها مع الخبز بشرط إحضار الماعون الذي سوف تحملها فيه معك.

والجدير بالذكر أنه في حينها لم تكن البطاطس متوفرة في الأحساء، لكنها ظهرت لاحقاً بواسطة تاجر اسمه (علي) جلبها عن طريق شخص أجنبي اسمه (ويليام)، فأطلق عليها أهل الأحساء اسم "علي ويلم"، وما زلنا نسميها كذلك، مما يُضحك باقي الشعوب علينا. نعم دائماً ما تظهر لي الذكرى جميلة لكل ما هو مرتبط بالوطن، لكن ما أدراك ماهية عذابات البُعد عنه؟ ما لم تجربها بنفسك؟ حينذاك سوف تتخيل كل شيءٍ عذبٍ مرتبط بالوطن فقط؛ أجل كنت أبالغ في الخيال والتصور، ثم أتنهد قائلاً: ألا ما أجمل وأغلى كل ما يتعلق بوطني دون سواه، هناك كانت مراتع الطفولة حيث بهجة السمع والنظر بل متعة كل الحواس، وحيث وجدت لمسات الحب والحنان الأولى التي لن أنساها أبداً.

مظاهر الحياة اليومية وأشكال لباس النساء في البحرين

إن أول ما لفت نظري في المنامة هو كثرة حركة النساء في الأزقة الضيقة بين بيوتهن، مغطيات أجسادهن كاملة بالمشمر (رداء قطني ملون فضفاض يستخدم لستر الجسم كاملاً) وقد وجدته سائداً في أرجاء البحرين كافة. لكن الغالبية منهن كاشفات الوجوه، ونادراً ما تجد كبيرات السن يلبسن "البوشية" وهي غطاء أسود للوجه له فتحات صغيرة يشبه الشاش. بنات المنامة خفيفات الظل سريعات الحركة، ويا عذابي من جمالهن، أجل هن يظهرن كثيراً خارج البيوت، يتنقلن بخفة بين الأحياء وحول عيون الماء والبرك لابسات "المشمر". ولو ظهرن في الأسواق أو في الطرقات العامة بين الرجال، فلا بد أن يلبسن الرداء الذي يغطي الجسم كاملاً ويُسمى (الصيبعي)، وهو قماش ثقيل أسود اللون قد يكون مخططاً بالأحمر أو بالخيوط

الذهبية (الزري) من الجانبين، وكم كان ذلك الرداء الفخم يزيدهن هيبة ويعطي وجوههن جمالاً وإشراقاً.

أما داخل البيوت حيث تسكن العوائل الكبيرة معاً، فتلبس النساء "مشمر المنزل" وهو قماش مُشجر ملون خفيف يُفصل بطريقة تغطي كافة الجسم ويكون واسعاً فضفاضاً. ظهرت العباءة السوداء في البحرين في نهاية الثلاثينيات، وذلك عن طريق التجار الحساويين، وانتشرت انتشار النار في الهشيم في كافة أنحاء البحرين، بسبب سهولة خياطتها، وعدم بهرجتها، ورخص ثمنها. وعلى ذلك استوطن العديد من المخايطة الحساوية (بالذات صُناع العباءات والبشوت)، مدينة المنامة، حيث كسبوا الكثير من الأموال؛ لأنهم أصبحوا التجار المختصين في بيعها بكافة أشكالها وأحجامها وأنواع أقمشتها، وعلى ذلك ازدادت أعدادهم في البحرين بداية من عام ١٩٤٠ حتى اليوم. وكان الأكثر انتشاراً والأرخص من العبايات يُسمى "الشامبو"، وهو مصنوع من النايلون الصيني الأسود الخفيف، وله لمعة خاصة به، كما ظهرت أثقل العبايات وأفضلها والمصنوعة من قماش إنجليزي الصنع يُسمى "المَبرد"، وغالباً ما تلبسه النساء كبيرات السن، كما توجد العباءات من الحرير الياباني الخالص غالي الثمن، وتشتريه الثريات من النساء.

وأكثر ما أثار دهشتي في الأسواق هو ظهور البدويات لابسات النقاب أو البرقع، وهو قماش أسود خفيف يغطي الجبهة والوجه والرقبة ويُظهر العينين فقط، وغالباً ما تلبسه نساء البدو، وكنت أراه لأول مرة، كذلك رأيت بعضهن يلبسن "البشت" الأسود المشابه لما يلبسه الرجال مع اختلاف واضح في النقوش والتطريزات الذهبية، وكثيراً ما يكن جالسات على البسط لبيع بعض ما تحتاجه النساء من أغراض تجميلية، وكذلك لبيع بعض الأغذية الناشفة، مثل: السمن والأعشاب والجراد الناشف وغيرها. كما رأيت الفلاحات وهن يعرضن ما يحصدن في كل يوم من الخضار والفواكه الطازجة، وهن يتميزن بلباس المشمر المخطط المشابه لغطاء السرير (اللحاف) عندنا في الأحساء، وكأن الواحدة منهن قد هبت من نومها وسحبت اللحاف معها حتى تتغطى به، مما أضحكني كثيراً في أول مرة رأيتها بهذا الزي. وبعد فترة قصيرة جداً من وجودي في البحرين، ازداد عدد النساء اللاتي يظهرن للتسوق في الأسواق وهن يلبسن العبايات على الرأس، دون لبس البوشية أو غطاء الوجه.

تسلب الروائح القوية لبي وتسد مسامات أنفي، ويحدث ذلك كثيراً عندما أدخل الأسواق المسقوفة المخصصة للخضار والفواكه، والتي كانت غاية في النظافة والترتيب، ربما لأن ذلك عماد الأعمال عند الكثير من أهل المنامة، ممن يملكون البساتين والمزارع أو يعملون فيها. وأول ما أكاسر (أفاوض في الثمن) بائع التمور، ولا أمشي عنه إلا وقد اشتريت منه كمية ليست بالقليلة حتى آكل منها في الطريق، ثم أكملها عند تناول الطعام في منزلي، فعادة ما يُؤكل التمر مع وجبة الغداء في الأحساء، حيث إن التمور ورائحة دبسها الشهي تفتح الشهية. وقد وجدت أن أسواق البحرين هي أرض الروائح بامتياز، وكثيراً ما كنت أتشمم ضوع ثمار الكنار (النبق) الطري والمجفف الذي يذكرني بغرامي به في طفولتي، وعند الخَضار تفعمني روائح النعناع والبقل (الكراث) والرويد (الفجل). لكن عند وصولي إلى منطقة المطاعم تصك أنفي روائح السمبوسة والجباتي، وهو ما يذكّرني بروائح المخبوزات الشهية التي كانت تصنعها جدتي في البيت الكبير، ثم زوجة أبي بعد وفاة الجدة، وحْدَه الاغتراب يمنحك الشوق لبعض ما كنت تكره في موطنك.

في أسواق البحرين شاهدت الكثير من البدو الرحل، وهم يبيعون أنواعاً عديدة من الأعشاب الطبية، وغيرها من نباتات الصحراء مثل العفرج والحميض والفقع (الكمأة الطازجة والناشفة). كما أن لديهم الكثير من أنواع السمن وحليب النوق الطازج، وأصواف المواشي المتنوعة؛ كذلك تجد الجراد الناشف والحي، واللحوم المقددة. وعادة ما يحضرون للبيع والشراء في مزايدات الماشية والإبل، ولطالما اشتريت منهم اليقط (اللبن الحامض المجفف) في الأحساء وأهديته لأختي التي كانت مغرمة بأكله. أما كلمة الحضر فتُطلق على أصحاب التجارة الذين يملكون أو يعملون في المحلات، وكذلك على جميع الحرفيين الملازمين لحاضرة المدن. والجدير بالذكر أن المزارعون هنا يُطلق عليهم اسم (النخلاوية) وهي تسمية مشتركة بين كلٍّ من الأحساء والقطيف ومسقط.

وفي أسواق المنامة، تعرفت إلى غير العرب، أو من يطلق عليهم لفظ الأعاجم، وأغلبهم على وجه الخصوص قادمون من بلاد فارس والأهواز والهند وباكستان وغيرها، وهم أُناس لطيفون جداً، ويظهرون بكثرة في الأسواق إما لممارسة التجارة، أو للعمل في المحلات والمطاعم، بل إن منهم الكثير من الحرفيين والصناع الماهرين. كما قد يقوم بعضهم بحمل

البضائع للتجار والمتاع للزبائن ويُسمى "الحمالي أو العتال". تعودت على التفاهم معهم بلغة عربية مكسرة في البداية، ثم تعلّمت منهم بعض الكلمات التي قد تكون أصولها أعجمية، لكنها أصبحت متداولة في الأسواق، وكثر استخدامها بين العرب والعجم على حدٍّ سواء، مثل كلمة: استكانة (كوب الشاي الصغير)، إبريق (وعاء لحمل الماء)، لجن (صحن كبير من المعدن توضع عليه الذبيحة في الولائم)، طشت (وعاء كبير من المعدن للغسيل)، روزنامة (التقويم الورقي وهو للتذكير بالتوقيت وتاريخ اليوم والشهر والسنة)، تخت (سرير)، دروازة (بوابة كبيرة)، خوش (ممتاز)، نمونه (نوع)، كسيف (وسخ)، دولجه أو دولكة (أبريق الزجاج).

والعجيب أني وجدت أعداداً كبيرة من الهنود في مهنٍ متنوعة، ومن أهمها صياغة الذهب، وقد يعملون أطباء وزوجاتهم ممرضات، كذلك هم بارعون في الطبخ وإدارة المطاعم؛ لكن معظمهم لا يختلط بالعرب وذلك لاختلاف دياناتهم. بينما يحب القادمون من إيران الاختلاط بالعرب ومصاهرتهم، ويمتلكون أغلبية المخابز والمقاهي الصغيرة، كما يعملون في البناء والتصليحات المنزلية. كذلك تعرفت على أعداد من الجنسيات العربية، فبعض شرطة البحرين قادمون من اليمن والكويت، أما عمال البناء والفلاحون فبعضهم من مسقط والأهواز؛ أما العراقيون والمصريون فيعملون أطباء ومدرسين في المدارس والمعاهد. وقد وجدت أن غالبية أثرياء البحرين هم من البحارنة العرب، لكن يوجد بينهم بعض الفرس والهنود؛ بينما يمتلك الإنجليز رؤوس الأموال ولهم اليد الطولى في التجارة وتأسيس الشركات المالية.

ومن كثرة استماعي إلى اللغات الفارسية والهندية، استطعت التقاط وفهم تلك اللغات، ثم بعد فترة وجيزة استطعت التحدث بهما، أجل ليس ذكائي محدوداً، كما كان يظن أهل الأحساء وبالذات زوجة أبي. ولطالما تأثرت باللهجات المختلفة حتى إنني اكتسبت لهجة البدو لاحقاً، وصارت لهجتي المفضلة للتحدث بها مع الجميع، بينما يتحدث أبنائي أنواعاً مختلفة من اللهجات الخليجية، وذلك تبعاً للطريقة التي تتحدث بها أمهاتهم.

<u>أحاديث وقصص عجيبة سمعتها لأول مرة في منامة البحرين</u>

قبل خروجي من الأحساء، أوصاني أبي بالذهاب فور وصولي لمساومة أحد معارفه من التجار في المنامة، وذلك لبيع ما لدي من بضائع بالجملة، ذهبت إليه لكني لم أجد عنده ما أطمح إليه من الربح الوفير. وعلى ذلك تشاورت مع أصحاب الخبرة في السوق، فنصحوني بالذهاب إلى تاجر معروف وهو شيخ جليل صادق وأمين، ومن عاداته المقدسة توقير "السادة"، أي من ينتهي نسبهم إلى آل الرسول -صلى الله عليه وسلم- والاهتمام بهم. ذهبت إليه في متجره، وعرضت بضاعتي عليه، وكنت محظوظاً؛ إذ استقبلني بفرح شديد وقبلني على رأسي احتراماً لنسبي، ثم طلب مني البقاء معه أجيراً كي أساعده في الحفيز (المتجر الكبير). قال لي والفرحة ترقص في عينيه: "سوف تحل علينا البركات لو وافقت على العمل معنا. أما بضاعتك فأقترح عرضها في الحفيز وبيعها بالقطعة الواحدة حسب شطارتك، وبذلك تكسب من المال ما تريد"، لكنه اشترط أن تكون له نسبة بسيطة من الربح عند كل بيعة، وافقت مسروراً وشاكراً له، فقال لي: "إن خير من استأجرت القوي الأمين"، مما زاد من ثقتي في نفسي، وضاعف فرحتي.

قبل قدومي إلى هذا التاجر الكريم اللطيف، لم أسمع في حياتي كلمة واحدة عن رحلات الغوص لكني سمعت منه الكثير عن تلك الرحلات العجيبة؛ وهذا بعض ما أخبرني به:

"كان (السردال) هو أمير مراكب الغوص الذي يقود أسطول السفن (السنيار) إلى مغاصات اللؤلؤ في الخليج ثم يعود بها إلى بر الوطن؛ وتكون سفينته في مقدمة السفن وهو الذي يعطي إشارة رحلة الخروج إلى البحر كما أنه يأمر بالقفال (رحلة العودة بعد انتهاء شهور الغوص في بحر الخليج)، ويظل السردال يوجه باقي السفن طوال رحلة إلى الهورات (ومفردها هورة وهي موقع تجمع الأصداف التي تحمل اللؤلؤ)، ولا بد أن يكون السردال ذو ذا خبرة واسة في م عرفة تقلبات الجو والأنواء والرياح وعمق المناطق المختلفة في البحار ومواسم الأمطار ولا بد أن يرافق السردال في سفينته مدفعًا قديمًا حتى يعطي إشارة ساة القفول لباقي السفن بطلقات من ذلك المدفع. وهكذا يُعلن عن انتهاء موسم صيد اللؤلؤ بعد أربعة أشهر من العمل الشاق المضني، وعندما يرتد راجعًا إلى الوطن تلحقه باقي سفن السنيار. أما النوخدة (وجمعها النواخدة) فهو قائد السفينة الواحدة، وقد يسمى النوخدا أو الربان، وهو المسؤول عن جمع

اللؤلؤ المستخرج من المحار أو (أصداف البحار) في الغبة العميقة من البحر، ثم يبيعه إلى الطواشين (جمع طواش وهو من يشتري ويبيع اللؤلؤ). ونظرا لموقع واحات الأحساء البعيدة جدا عن البحر، لم يعرف أهل الأحساء مهنة الغوص وجمع اللؤلؤ، إلا البعض القليل ممن خاطر وغامر بنفسه وذهب إلى الكويت أو قطر أو البحرين، حيث يوجد بالقرب من سواحل هذه الدول إلفشت البحري وهو البيئة المناسبة لنمو محار اللؤلؤ. كان البعض يذهب إلى هناك طمعًا في كسب المال المجزي من مهنة الغوص لكنهم يعودون في نهاية الموسم شوقًا للاستجمام في واحات الأحساء المزدهرة بالزروع والماء العذب".

ذلك التاجر العفيف لم يكن له حديث إلا عن ذكرياته القديمة، عندما كان صبياً وشاباً نشيطاً مشاركاً في رحلات الغوص وجمع الأصداف التي ينمو اللؤلؤ بداخلها، ثم استخراج تلك الكريات الثمينة وجمعها عند النوخذة الذي عادة ما يرافقهم في الرحلة ويصرف عليها. أما التاجر الطواش فيشتري اللآلئ من النوخذة، لكن بأسعار متوسطة، ثم يقوم ببيعها بأغلى الأسعار في الهند وبريطانيا، وغيرها من الدول التي كانت غنية آنذاك. أجل كان الغوص سائداً في كل الدول المطلة على الخليج العربي ما عدا الأحساء، وعليه لم يكن لي علم مسبق عن تفاصيله المثيرة. ذلك الرجل ذو الذاكرة القوية روى لي الكثير من التفاصيل الدقيقة عن بعض الغواصة الحساوية، من قبيلة الشواف وكيف شاركوا في الغوص على سواحل قطر والبحرين، وكان يشكر الله على حسن حظه الذي أتاح له التمتع برفقتهم الجميلة.

كما وصف لي أهوال أعاصير الدالوب ذات الرياح الشديدة والأمطار الغزيرة، والتي عانت منها جميع دول الخليج حتى غرقت البلاد والعباد، ومات بسببها حوالي ثمانية آلاف من البشر. حدثت تلك العاصفة في عام ١٩٢٥ وتسمى سنة الطبعة (الغرق) عندما هبت العواصف الشديدة، وسقطت الأمطار الغزيرة على جميع شواطئ الخليج العربي، مما تسبب في غرق ٨٠ % من المراكب الشراعية والسفن الكبيرة، وتدمير معظم المراكب الراسية على السواحل. هكذا عم الفقر في دول الخليج، مات الكثير منهم، وهاجر البعض في تلك السنوات الصعبة، حتى أصبح عدد سكان بعض الدول ١٦ ألف نسمة فقط. وقد كان صيد السمك وتجفيفه، ثم الغوص من أجل جمع اللؤلؤ هي المهن المعتادة. لكن في عام ١٩٢٩ حلّ الكساد

العالمي، وتأثرت دول الخليج به كثيراً حتى هاجر سكانها إلى الدول المجاورة، مثل سواحل إيران، والهند، ومسقط، وغيرها.

وقد وصف لي رب عملي ألواناً من العذاب والأخطار التي عانى منها هؤلاء الغاصة (مفردها الغيص) ممن يمتهنون الغوص في أعماق البحر لجمع اللؤلؤ؛ كذلك كان السيب والرديف وهم من يقف على ظهر السفينة من أجل سحب الغيص من البحر، بالإضافة إلى القيام بغيرها من الأعمال الضرورية للعيش على ظهر السفينة. أما النهام فهو من ينشد الأناشيد الشعبية، ويغني المواويل بصوت عذبٍ شجي، حتى يشجع الغيص ويخفف التعب عن الجميع، كما أنه الوسيلة الوحيدة للطرب في ليالي السمر على ضوء القمر. كان ذلك الرجل الطيب يردد لي: "ألا ما أجمل تلك الرحلات البحرية رغم مشاقها الشديدة، وأنا عادة ما أتذكر تلك الأيام الجميلة في بساطتها وتعاون أهلها بفرح وسرور".

كما أوضح لي أن ظهور اللؤلؤ الصناعي في اليابان في أوائل عام ١٩٣٠، والمتاجرة به رخيصاً في أسواق البحرين والهند وإيران وغيرها، كان السبب الرئيسي في كساد اللؤلؤ الطبيعي والعزوف عنه لغلاء سعره وكثرة مخاطره. وعلى ذلك توقفت رحلات الغوص تماماً في عام ١٩٤٠، وقد كانت مصدر الرزق الأوحد لكثير من الناس باختلاف مقاماتهم وأعمارهم. في تلك الحقبة العصيبة من الزمان، توقف الغوص الذي انشغل به معظم سكان الخليج، وتوجه الناس البسطاء إلى العمل في الوظائف الحكومية البسيطة، التي لا تحتاج إلى شهادات مثل: وظيفة ساعي البريد أو سائق السيارة والباص. كما قام البعض بمزاولة الأعمال الأخرى مثل اقتلاع الحجارة من سواحل البحر من أجل البناء، أو توفير الجص (الجبس أو حجر الجير) من أماكن تواجده في البراري لأغراض الصباغة والديكور، كذلك ظهرت الكثير من الأعمال الحرة، مثل استصلاح المزارع والحقول، وصيد السمك والروبيان وتجفيفه للمتاجرة به، وكذلك ازدهرت تربية الحيوانات الأليفة والخيول. أما ربابنة السفن والنواخذة والطواويش (جمع طواش)، فقد عملوا بتجارة البضائع المختلفة عن طريق البر والبحر، وذلك لخبرتهم الطويلة في السفر والترحال؛ وهم اليوم من كبار الأغنياء في المجتمعات الخليجية، وتسمى تلك العوائل بأسماء لها علاقة بالغوص، مثل: (الطواش، النوخذة، الربان، الغيص، النهام وغيرها).

كما كان يُحدّثني عن أهمية بلاد الهند في التجارة مع العرب آنذاك، كان العرب يأخذون إليها اللآلئ والتمور وجميع خيرات البحر المجففة، وكذلك أصواف المواشي، والألبان المجففة، والدهون الحيوانية، ثم يشترون منها السكر والأرز والأقمشة وبعض أثاث المنزل والأواني، وربما يتزوجون النساء من هناك لرخص مهورهن. كذلك لم ينسَ أن يقول لي: "إن للهند أهمية قصوى في صياغة المسكوكات الذهبية، وكذلك في بناء السفن فهناك توجد ألواح الخشب المتينة والحبال القوية". كما ذكر لي قبسات وطرائف من رحلاته الكثيرة إلى قرية القطيف القريبة من مدينة الخبر في المملكة العربية السعودية، وكذلك إلى مدينة الكويت العامرة، ثم الانتقال منها إلى حاضرة البصرة في العراق، وقد كانت حينذاك قبلة الأنظار في تجارة الخضار والفواكه والتمور ومختلف البضائع المنزلية. لكني رأيت بعض أهل البصرة يتوجهون إلى البحرين لكسب لقمة العيش! وهكذا نرى أن الأيام تتداول بين الشعوب. ذلك الشيخ اللطيف كان يبدأ ويختم حديثه الشيق بتقديم فنجان من قهوته الطازجة التي يحتفظ بها في دلةٍ شعبية تسمى دلة رسلان، وهي إناء ذو شكلٍ متميز يستخدم فقط لحفظ القهوة الخليجية؛ تلك التي لا تبارحه أينما حل، مع منقلة الفحم الصغيرة التي يُسخن القهوة عليها؛ وكذلك لم تبارحه طاسة الحلوى البحرينية الشهية الطازجة، والتي لم أستغنِ عنها منذ تذوقتها لأول مرة في ذلك الحفيز (المحل الكبير). وقد علمت منه أن العوائل الفقيرة قد توزع الخبز والحلوى في الأعراس وذلك للتفاؤل بها، بدلاً من الولائم التي لا يملكون ثمنها.

كما حدثني عن فترة الحرب العالمية الثانية، حيث تمكن اليهود من احتلال فلسطين، وعلى إثر ذلك قامت المظاهرات العارمة في البحرين؛ لدرجة أن هاجم البعض محلات اليهود الكبيرة ونهبوها، ثم وزعت الغنائم على عامة الشعب، ومنها الأقمشة والتحف التي لا يزال يحتفظ هو ببعضٍ منها. وكان يهمس لي سراً بوجود بعض المحاولات الثورية الشعبية لطرد الإنجليز من البحرين في ذلك الوقت.

كم أحببت هذا الرجل واستأنست بحديثه، وكم كنت محظوظاً أن استمعت لنصائحه واتبعت خطاه في طرقات التجارة الوعرة. وقد حذّرني ذات مرة قائلاً لي: "قد يتصف التاجر الغني بالصلف والكبر، والسطوة على المساكين، مما يجعله مكروهاً لدى الناس. لكن عندما يسيطر عليه الجشع والطمع، تكون في ذلك نهايته ويمحق الله تجارته محقاً، ولا بد أن يخسر

يوماً ما ويقع في شر أعماله". أما أعظم نصيحة قالها لي فهي: "كن رحيماً بخلق الله من نبات وحيوان وبشر، ذلك أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يرحم عبداً من عبيده أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يعذّبه نزعهما من قلبه، وأبدله عنهما الغلظة والقسوة؛ وفي الحديث الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تُنزع الرحمة إلا من شقي"، و"من لا يَرحم لا يُرحم"، ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم كان أرحم الناس بكل من وما حوله".

كان ذلك الحكيم يُكرر لي دوماً القول المأثور: "تباركوا بالنواصي البقاع والأقدام"، وقد شرح لي أن معنى النواصي جمع ناصية وهي رأس الشخص المبارك، ذلك الذي قد تحل بركته عليك كلما رضي عنك، بل إن بركته قد تحل في أي مكان يحل به ويرتاح فيه. ويعتقد أن ناصية الشخص المبروك تبدو على هيئة نور في وجهه، ويظن أنني واحد منهم. وقد تعلمت منه التركيز وتمييز نوعية الذبذبات الصادرة من الأشخاص من حولي، ولاحظت أنه كلما كان الشخص طيباً وخلوقاً وكريماً، كلما صدرت عنه ذبذبات رقيقة طيبة يرتاح لها كل من حوله، أما بركة البقاع فتعني توفر الخير والبركة في بعض بقاع الأرض دون غيرها، وبركة الأقدام هي كما قد نقول: "قدوم ذلك الشخص قد تسبب بالبركة لنا".

<u>سيول القلق وأمواج المخاوف تتدفق عليّ في غربتي</u>

من الطبيعي أن تلازمني الوحشة عندما أخلو بنفسي، فلم يكن لدي صديق يؤنسني، حتى أكاشفه بمكنونات قلبي التي يلازمها إحساس دائم بالظلم؛ وذلك لظني أن أبي يفضل أبناءه عليّ، بالإضافة إلى تذكري قسوة زوجة أبي الشديدة، والتي على إثرها رميت بنفسي إلى بقيق. وقد شجعني أبي على ذلك القرار حتى يرتاح من شري كما يقول، بينما قلقت أختي وجدتي عليّ كثيراً عندما رحلت إلى بقيق. أجل مع كثرة آلامي ضاقت بي الدنيا وتساءلت إلى أين أذهب يا ترى؟ وأي بلد أختار؟ وفي ذلك الزمان كان الكثير من شباب الأحساء يهاجرون إلى سوريا أو البحرين للتجارة، وقد يعمل المراهقون منهم كعمال في بقيق والخبر والظهران، حيث تدفق النفط أو الذهب الأسود كما كان يُسمى آنذاك. تشاورت مع أبناء عمومتي، فلا بد من الذهاب إلى حيث يوجد لنا أقارب، فأنا ما زلت في نظرهم صغيراً في الثانية عشرة من العمر ولم أبلغ مبلغ الرجال بعد، لكن دمي كان ثائراً بفضل هرمونات البلوغ. تعجلت السفر إلى

بقيق خاصة بعد أن سمع أبي بوجود قريب لنا يعمل هناك. بكت جدتي وأختي ساعة الوداع بكاءً مراً، لكنهما تفضلتا عليّ ببعض المال. أما أبي فلم يتأثر كثيراً، لكنه أمدني ببعض النصائح العامة والبضائع الصغيرة التي يسهل بيعها بين العمال هناك، واشترط عليّ إرجاع المبلغ مضاعفاً. ثم طلب مني الزيارة كلما سنحت لي الفرصة، مما أعطاني شعوراً بأنه قد يشتاق لي، كما طلب مني الاحتفاظ بورقة كتب عليها الآية التالية: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١ ﴾ [الرعد: ١١]. تلك الغربة الأولى شجعتني على الإقدام والقيام بالغربة الثانية، خاصة بعد وقوع الطامة الكبرى وهو زواج أختي غصباً عني، ثم انتقالها إلى مدينة بعيدة عن البيت الكبير. أجل لقد كان ذلك هو الحدث الجسيم بالنسبة لي، فقد انكسر الظهر الذي ألجأ إليه، وعليه قررت ترك البلد برمتها إلى بلاد أخرى، واخترت البحرين لأن الكثير من أهل الأحساء قد كسبوا منها الربح الوفير، وهكذا كان لي.

ولا شك في أنني قد سعدت بالاختلاط مع أنواع كثيرة من الناس، وعشت زمناً نقياً صافياً هانئاً في المنامة، لكنني كلما أخلو بنفسي تتماوج بي ذكريات الطفولة وتعذبني كثيراً، تعود بي الذاكرة إلى أحداث البيت الكبير وتفاصيل العلاقات هناك، تجتاحني الذكريات المؤلمة عن كوارث الموت، وأحياناً أتذكر ضيق ذات اليد أيام الحرب، مما يزيدني حرصاً على نعمة المال. وفي وقت فراغي أو سهادي أبدأ باجترار الذكريات الحلوة والمرة، ذكريات مؤلمة وخليط من مشاعر الخوف والصرامة والقسوة. أحياناً أتحسس ومضات السعادة التي جمعت أبي وأمي، والهناء الذي غمر جميع أفراد الأسرة آنذاك. وقد أتذكر لحظات البهجة التي كانت بين أحضان الجد والجدة، وحنان الأب الذي لم يدم طويلاً. أما ولادة أختي الثانية فقد كانت فرحاً كبيراً شاركت فيه كل أفراد الأسرة، أجل كانت أختي كالدمية الجميلة المتحركة وقد تسلينا بها جميعاً. لكن الفزع الذي لحق بي نتيجة موتها، كان مقدمة فزعي الأكبر حين ماتت أمي، ثم حدث الفزع الأعظم حين دخلت زوجة الأب بيتنا وقامت بالسيطرة علينا جميعاً. أحياناً أتذكر تفاصيل الصراع بين الأعمام، إضافة إلى المشاكل التافهة بين الزوجات، ثم صراع الأبناء مع

بعضهم داخل البيت الكبير، وعندما نحلل تلك الأحداث، قد نندهش من تشابه جميع الناس في مسببات وأشكال الصراعات واستمرارها، سواء كان ذلك بين الأقرباء أم الغرباء، الأغنياء منهم والفقراء. وأكاد أجزم أن غالبية الناس تعرف جيداً عن تفاهة الدنيا وأنها لا تستحق البدء في تلك الصراعات، فضلاً عن استمرارها؛ لكن تفسيري الوحيد في إثارة الفرد للصراعات الهشة، هو احتياجه للتغيير والإثارة كي يستمر في حب الحياة، بل ربما اخترع الإنسان الحرب لأول مرة عندما شعر بالملل فأراد كسر الروتين اليومي بالتحديات والحروب.

في الأحساء كنت أهرب من ذلك الصراع إلى أحلام اليقظة، وكل ما كنت أحلم به في فترة المراهقة هو الزواج، أولاً كي تهدأ ثورة الهرمونات التي تحرق دمي، وثانياً كي أنجب الكثير من الأبناء والبنات، كم كنت بريئاً وساذجاً حينها، كنت أتأمل شجر السدر كثيف الأوراق، وأتمنى لو يكون لديّ أبناء وبنات بعدد تلك الأوراق التي لا تُعَد ولا تُحصى. لا أعرف كيف نبتت تلك الأمنية في قلبي وعقلي، ربما كانت نتيجة موت أختي ثم أمي، وقد أرادت نفسي أن تعوض عن هاتين الفقيدتين بكثير من ضجيج الحياة.

كثيراً ما وقعت في فخ الكوابيس أثناء النوم، تلك التي تظهر على شكل أحلام تعبر عن مشاعر الخوف المضخمة لأحداث قد تكون عادية على أرض الواقع، والبعض الآخر ربما يكون تعبيراً عن مشاعر الحزن والألم العميق في الماضي، مثل فقدان أمي وصراخ النسوة عليها، أو مشاهد من قسوة زوجة أبي أثناء مرحلة الطفولة، كما ينتابني خليط من مشاعر الخوف والصرامة والقسوة تلك التي عانيتها من بعض أقاربي ورفقائي. أما الجاثوم أثناء النوم فهو أشبه بكتلة من الحديد تقع على جسدي فجأة، فأشعر بثقل شامل ولا أستطيع الحركة قيد أنملة، ولا أتمكن من الصراخ أو حتى الهمس، أتمتم في نفسي بما تعلّمت من آيات وأدعية، محاولاً التنفس بحرية، أو التحرك ببطء. عندما كنت طفلاً، كثيراً ما كنت أفز من فراشي إلى جدتي لتحميني من الجاثوم ومن تلك الكوابيس، ولا أعرف كيف تستشعر هي بما ينتابني من ألم، فتهمس في أذني بأسماء الله الحسنى، وتقرأ الأدعية، مما يعطيني بعضاً من الراحة.

كم ابتهجت نفسي لرؤية البحر لأول مرة، وكم كنت فرحاً بجمال المنظر، ومسروراً بترقق المياه، لكني في الوقت نفسه كنت خائفاً من الأمواج الهائجة والتي لها هيبة ورهبة وجبروت،

وقد زاد دوار البحر من رهبتي حتى أغمي عليّ في المركب. وفي الليالي الأولى التي قضيتها في البحرين، كانت تنهشني الكثير من الرؤى المفزعة، مثل ذلك البحر الذي يفور بالنيران كأنه تنور يقذف بالجمر والحمم الحمراء، ومياهه التي تمور على شكل دوامات كبيرة، أبدو واقفاً مراقباً للموج على شاطئ البحر، ثم ما يلبث البحر أن يبلعني؛ فأقوم من النوم فزعاً منهكاً أسبح في عرقي، وأقضي بقية الليل مسهداً لا يعرف النوم طريقاً إلى جفوني، ولا أزال أكرر "سلامٌ قولاً من ربٍ رحيمٍ". وقد لاحظ رب عملي آثار سهدي وتعبي، فسألني عن السبب فشكوت له حالي ليلاً، فنصحني بقراءة سورة الفاتحة وإهدائها إلى روح والدتي قبل النوم في كل ليلة. فعلتُ ذلك وتبدّلت الكوابيس إلى رؤيا شفافة حانية ألا وهي رؤية طيف أمي، وقد تبيّنت ملامحها في المنام بوضوح شديد، أكثر دقة من ذكراها في اليقظة، كانت تشعّ إشراقاً ومحبة، تقترب مني وتضع يدها على رأسي متمتمة بالدعاء وقراءة المعوذات، وكم تمنيت لو تضمني إلى صدرها، لكنها لم تفعل ذلك أبداً.

كثيراً ما كنت ألجأ إلى أحلام الخيال واليقظة كي أتحرر من محدودية الزمان والمكان، وأعيش أجواء جميلة بيني وبين نفسي. ومن محاسن الغربة أنني ازددت قوة ومقدرة على حل مشاكلي النفسية ومواجهة مشكلات الواقع الأليم، وما فتئت أردد بيني وبين نفسي قول الشاعر:

وما عشت من بعد الأحبة سلوة ❋ ولكنني للنائبات حمولُ

هل كانت حياتي الخاصة مثيرة وممتعة على أرض البحرين؟

تتلون كل بلد على سطح الكرة الأرضية بلون أخلاق ساكنيها، كما تتزيّن أراضيهم بزينتهم وأزيائهم، وهكذا كانت البحرين جميلة لطيفة، وكانت حياتي فيها مثيرة وممتعة، بالذات أثناء عملي في النهار، كما أن حظي في كسب المال قد ابتسم لي ابتسامة عريضة. أجل لقد طاب بي المُقام في البحرين بعيداً عن زوجة أبي الشريرة، كما شعرت بالفخر لقدرتي على الاستقلال بنفسي، وتحمّل معاناة الحياة وحدي وأنا في هذه السن المبكرة. حرصت على كسب المزيد من ثقة رب العمل، وعلى أساس تلك الثقة كسبت رضا كافة الزبائن، ولا شك في أنني قد تعلّمت

كيفية التعامل بالكلمات اللطيفة والمجاملات الحلوة من أحاديث أهل البحرين، الذين لهم قدرة كبيرة على استخدام معسول الكلام تفوق قدرة الحساوية.

كانت البحرين تحت الحماية البريطانية، وقد رأيت الإنجليز بأعدادٍ كبيرة لأول مرة في حياتي، يجوبون الأسواق يومياً، بالرغم من أن لهم سكنهم الخاص في مناطق خاصة بهم بعيدة عن مركز المدينة، هم قوم طوال القامة نحاف الأجسام، قد يشوه النمش وجوههم البيضاء جداً، حتى ظننت أن في جلودهم نوعاً من البهاق، ولم أعجب إلا بأنوفهم الحادة والمستقيمة جداً؛ وذلك لندرة تلك الصفة بين أنوف من أعرفهم من العرب أو العجم على السواء. الإنجليز أغنياء في هذا البلد ولهم الوجاهة والسلطة، ولا شك في أنهم يفتتحون الكثير من المشاريع والمحلات في كل يوم، وهم يلاقون النجاح التجاري السريع، بسبب ثقة العرب فيهم، فهم الأذكياء المتعلمون، ولديهم السطوة على الجميع. وكما قيل لي فإن ميزة الإنجليز أنهم قادرون على التخطيط السليم، وهم يعملون على تحقيق أهداف مفيدة للبلد، ربما تكون الإنجازات بعيدة المدى، لكنهم يؤدونها بصبر وحكمة. ولشدة الرطوبة في البحرين وانعدام طهارة الإنجليز، كذلك لتناولهم الخمر والبيرة بكثرة، فإنه تفوح منهم رائحة غير مستحبة؛ لذلك كنت أكره التعامل معهم، وقد لاحظ رب عملي أنني أعاملهم بجفاء، فقال لي باستياء: "يا وليدي نحن التجار علينا مجاملة جميع الزبائن دون استثناء واستقبالهم بوجه بشوش، وتلك صفات التاجر الناجح، واذكر يا وليدي دوماً سماحة الإسلام في المساواة بين الناس"، كان ذلك أهم وأفضل درس تعلمته في حياتي، وأسباب تيسير أمور تجارتي، كما كان أيضاً مصدراً لراحة فكري وطهارة قلبي ورضا نفسي.

كنت أتساءل عن الأسباب الرئيسية في تواجد الإنجليز والأجانب بكثرة في البحرين؟ وعرفت أن منها توفر الخمر والبيرة لهم بصورة خاصة في أماكن كثيرة متفرقة من أنحاء البحرين؛ كما تتوفر لهم دور البغاء بصورة غير رسمية، لكن أماكنها معروفة جيداً لديهم؛ بالإضافة إلى كل ذلك، تتوفر حرية اللباس لنسائهم السافرات. أجل لقد رأيت بدهشة شديدة ولأول مرة في حياتي المرأة كاشفة بعض مفاتنها مما أثار غرائزي المكبوتة؛ يا إلهي عندما كنت في الأحساء طمعت فقط في رؤية وجه امرأة لا تحل لي أو بالأحرى محرمة عليّ! لكني لم أرَ إلا نساء مغطاة بالقماش الأسود من قمة الرأس حتى أخمص القدمين، بل إن غطاء الوجه كان

محكماً عليهن منذ أن تصل الفتاة التاسعة من عمرها حتى دخولها القبر، ومن تتهاون في غطاء الوجه تُنعت بالفاسقة والسفور، وكثيراً ما حدّثت نفسي: "إنني أعتز بنساء قومي العفيفات الطاهرات المُتسترات ولن أتزوج إلا واحدة منهن"، لكن للأسف الشديد لم أحفظ وعدي لنفسي، وسوف تعرف قارئي العزيز كيف حدث ذلك رغماً عني. كنت في أوج الشباب وثورة الهرمونات الجنسية العارمة تجتاح جسدي الفتي، عانيت من التهيج الجنسي أثناء عملي في المتجر، بسبب رواد المحل من النساء. عندما ألامس بالصدفة يد امرأة دون قصد أو بالقصد أحياناً أخرى، تصيبني رعشة وقشعريرة تسري في جسدي كله، وقد أظل أتخيل تلك المرأة حتى أستجلب تلك الرعشة اللذيذه ثانية، وقد أشعر بها حتى في الأيام التي تليها. لقد أثارني وجود النساء السافرات وأشعل شهوتي وأنا المراهق المفتون؛ ولم أجد حلاً لمشكلتي إلا الممارسة فى الخيال وإتخاذ عشيقة ممن أراهن في النهار لإسكات شهوتي ونزواتي، فهل تعذرني يا قارئي العزيز، وهل يغفر لي ربي وهو من وضع تلك الغريزة فينا جميعاً؟ استغفر الله وهو غفار الذنوب كلها.

صديقي العزيز جداً على قلبي وفكري كان مُدرساً مسيحياً

لطالما حيرتني الأسباب التي أدت إلى تعدد الديانات في العالم، بل وكثرة الطوائف التي تتفرع منها، يا تُرى كيف تستمر تلك العقائد المتضادة في التفاعل مع البشر وكيف يتعايشون معها؟ كيف تحيا تلك العقائد المتنوعة آلاف السنين في قلوب المؤمنين بها، ثم يحملونها معهم في كل زمان ومكان. وقد ينشرونها بحماس شديد بين الناس، حتى يتبناها البعض الذي كان يرفض تلك العقائد المضادة للعقل والمنطق؟ لكن قد تموت الديانة بموت معظم أتباعها، كما حدث مع ديانة الفراعنة وغيرها. وقد لاحظت أن أولئك الإنجليز لا يهتمون بديانتهم كثيراً، ونادراً ما يذهبون إلى الكنيسة الكبيرة التي رأيتها في المنامة.

كانت الجالية المسيحية كبيرة في البحرين، وبالرغم من تمركزها في منطقة الدير في المحرق، فإنها انتشرت أيضاً في أرجاء المنامة، حيث توجد كنيسة كبيرة حديثة البنيان تسمى "القلب المقدس"، وتتبع لها مدرسة تعليم للصغار هي الأفضل من نوعها في البحرين، وربما في الخليج كله. لم يتحسس المسلمون من وجود تلك الكنيسة، بل ألحقوا أبناءهم بالمدرسة

لتعلم اللغة الإنجليزية على أصولها السليمة. وحيث إنه كثيراً ما ينقطع التيار الكهربائي فجأة في المنامة، فقد قامت الكنيسة بشراء مولد كهربائي خاص بها؛ لضمان استمرار الضوء فيها، وقد استغل تلك الميزة بعض العزاب، وكذلك نحن الطلبة، فكنا نلجأ للضوء في الليالي المظلمة حتى نقرأ أو نستمتع بالتجمع معاً في ظل سريان الكهرباء. وعادة ما يأتي القسيس للترحيب بنا جميعاً، ثم يقوم بالتبشير الجاد بالديانة المسيحية فنستمع إليه، لكن فور سريان التيار في المدينة، حيث تتلألأ الأنوار عن بُعد، نضج كلنا بالصلاة على محمد وآله، فيفزع منا القسيس، ويعرف أن جهوده ذهبت هباءً منثوراً، والمضحك أنه لم ييأس منا، بل استمر في التبشير في كل مرة تنطفئ الكهرباء، ونأتي إليه فيها.

في ذلك الزمان كانت دولة البحرين متقدمة على دول الخليج كافة، في إنشاء المدارس الإلزامية لمن بلغ سن الدراسة، وكانت أول مدرسة عندهم قد بدأت في عام ١٩١٩م، وتسمّى "الهداية الخليفية"، وتدريجياً قامت الحكومة بتهيئة المدارس المسائية لمن يفوتهم التعليم أثناء النهار بسبب العمل أو غيره، وكانت تُسمى بالمدارس المسائية أو مدارس محو الأمية. وحيث إنني قد بدأت المرحلة الابتدائية في الأحساء وأكملتها ثم تجاوزتها إلى الإعدادية في مدرسة أرامكو في بقيق، فقد نجحت في اختبار الفحص الأولي من أجل بدء الصف الأول من المرحلة الثانوية في مدرسة النعيم في المنامة. كان التعليم يبدأ في الساعة السادسة والنصف ويمتد حتى التاسعة والنصف مساءً، وكنت حريصاً على متابعة الدروس بانتظام، فقد كان شغفي بالتعلم شديداً. حتى بعد أن تزوجت لم أنقطع عن التعليم إلا بعد إكمال المرحلة الثانوية. كانت تلك السنوات غنية بالعلم والثقافة، ومن حُسن حظي أني صاحبت مجموعة من الشباب متفاوتين في الملل والأعمار، لكننا اشتركنا جميعاً في حب العلم والتعلّم، لدرجة أننا كنا نستأنف تعليم بعضنا بعضاً خارج المدرسة.

في الفترة القصيرة التي قضيتها قبل انضمامي إلى المدرسة المسائية، كنت فيها وحيداً في تفكري ولم أجد من يشاركني فيه، حتى عبثت بي الوساوس وملأت التساؤلات رأسي الصغير، ما هو الله؟ كيف تبدو الهيئة المقدسة؟ أحياناً أتخذ له مثالاً من هولاكو الجبار الذي رأيته في فيلم سينمائي قصير، كان ضخماً مهيباً وشديد العظمة والجبروت! لكني ما ألبث أن أطرد تلك الصورة القاسية، وأستبدلها بصورة أخرى رقيقة رحيمة تمثل آلهة الهنود، التي رأيتها

معلقة في متاجرهم، ولها أشكال جميلة رائعة. وعندما قرأت قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى: ١١]، تفكّرت في أن عقل البشر مرتبطٌ بالأشكال، فلا شك في أن أي شكلٍ أتخيّله ليس له علاقة بالله عز وعلا، إذاً لا بد لي من ترك تخيّل الأشكال، والتحول إلى الأنوار، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ﴾ [النور: ٣٥]، وقد أراحتني تلك الفكرة تماماً. كذلك كانت تقاذفتني الشكوك عند التفكير في ماهية الرب، ونوعية عمله؟ يا ترى ماذا كان يفعل الله والملائكة قبل وجودنا والانشغال بنا نحن البشر؟ لا بد من وجود عوالم أخرى سابقة عنا انشغلوا بها. هل خلقنا الله بتلك الغرائز المختلفة ليتسلى بذنوبنا ثم يطلب استغفارنا؟ أظن أنها ابتلاء واختبار لنا حتى ندخل الجنة بجدارة. هل ملأ الله سبحانه وتعالى فراغ هذا الكون الشاسع بأنواع لا تُحصَى من الكائنات، كي يظن البعض أنها تعمل كمرآة يتجلى فيها الرب؟ أجل إن كل ما نراه على أرض الواقع هو انعكاس لله ﷻ.

لقد كان في علم الله عصيان إبليس الرجيم، فهل خلق الله الشيطان للغواية فقط؟ وحتى يجد بني آدم الشيطان الذي يغريهم بارتكاب الذنوب والتمتع بهذه الدنيا الفانية، إذن كيف ولماذا يعذبنا الله بعد ذلك الإغواء الذي خلقه لنا بنفسه؟ ولماذا يُجهز النار والجحيم لمن أذنب بسبب غرائزه التي خلقها الله فيه؟ أم إن النفس البشرية هي الشيطان بذاته؟ ولكل منا شيطانه الذي يسكن فيه. هل نحن فعلاً مخيرون أم مسيرون في كل ما يحدث لنا وعلينا؟ لماذا أخفى الله علينا بعض الحقائق التي لم تضع الأديان فيها رأياً واضحاً؟ ربما لأنها سوف تكون مفزعة ومؤلمة لنا لو اكتشفناها على صورتها الحقيقية.

بعد ذلك التوهان وتلك الهرطقة الفكرية، توصلت إلى أن الإيمان الصحيح السليم يتلخص في حالة اللاسؤال وكفى، أو الاكتفاء بممارسة البساطة الفطرية في التفكير، ثم التسليم لكل ما يحدث لنا وعلينا. وعلى ذلك فإني بعد تلك التساؤلات الشائكة أهيم في لجة الاستغفار، شاعراً بالخشوع والسكينة وكأن الله قد غفر لي فعلاً.

وقد أقضي جزءاً طويلاً من الليل في التفكّر ثم الاستغفار، حتى أتدبر لطائف الله في حياتي فأتوجه إليه بالشكر والثناء، ثم تهدأ نفسي وتشعّ كما يشع الفجر بنوره. وعندما يستبد بي الندم على ذنوبي الكثيرة، أتذكر رحمة ربي الواسعة، وقوله ﷻ:

﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١ ﴾ [النساء: ٣١]؛ كما امتدح المؤمنين في آية أخرى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢ ﴾ [النجم: ٣٢]، ولم أزل منذ قراءتي لتلك الآية حريصاً على تجنب الكبائر، والتدقيق في معنى اللمم. كما كنت أتذكر حديث الرسول ﷺ: "لولا أنكم تذنبون فتستغفرون، لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون"، إذن لا بد لي من الإكثار من التوبة والاستغفار حتى أصل إلى رضا الله، وهو المراد والمطلوب. وكم تمنيت لو أجد صديقاً صدوقاً، يساعدني على تهدئة التشوش الذي يصيب عقلي وقلبي، ويناقشني فيما أشك فيه من عقائد دينية ودنيوية.

بعد انتقالي إلى المحرق، ومن حُسن حظي أن غيرت مدرسة (النعيم) التي تقع في المنامة، إلى مدرسة مسائية أفضل منها تقع في رأس رمان قرب المحرق، وفيها تعرّفت على مدرس للعلوم، وهو رجل في منتصف العمر هادئ ولطيف جداً، يبدو وكأنه من أهل الخليج المسلمين، لكن تبين لي لاحقاً أنه مسيحي من العرب المتواجدين أجدادهم من قديم الزمان في البحرين، وقد عاملني معاملة ممتازة، خاصة بعد أن تأكد من اجتهادي وتفوقي. لكني تخوفت منه قليلاً كونه مسيحياً مختلفاً في فكره عن عقائدي التي تربيت عليها، والتي تنص على أن المسلم فقط هو الشخص الذي تجب الثقة فيه! لكني أعجبت بشخصيته فسألت عن سيرته، فشكروا لي صدق طويته وحسن معشره، وأنه مؤمن بيوم الحساب، ويخاف عواقب المحرمات والشرور. كما وجدت أنه دمث الأخلاق، مترفعاً عن الصغائر، ولعلّ هذه الأخلاق السامية هي التي طبعت سلوكه بطابع الحكمة والرصانة، وعلى ذلك ارتحت لكلامه وحرصت على صحبته. وكان من عادته المحببة أن يجلس مع الطلاب في قهوة معروفة في رأس الرمان؛ كي يتسامر معهم بعد انتهاء الدروس، ثم يقوم بطرح مواضيع مفيدة للنقاش في أمور الحياة الكثيرة، كنت أراقب لمعة الذكاء المتطايرة من عينيه، وأتمنى أن أكسب من علمه ولو قليلاً.

ومن خلال تلك الجلسات الغزيرة والعميقة في النقاش، تعرفت على العديد من العلماء والحكماء والفنانين الأجانب، مثل غاندي الذي حرر الهند، وبوذا حكيم الدين في الشرق

الأقصى، والأم تريزا البولندية، تلك الراهبة القديسة المكافحة من أجل المشردين والعجزة. كما تناقشنا عن ثورة لوثر كينج الشجاعة في أمريكا، وأهمية عبقرية الرسام بيكاسو في فرنسا، والفن الخالد لدافنشي في إيطاليا، والأداء التمثيلي الرائع لشارلي شابلن، ولم ننسَ عبقري الفيزياء آينشتاين وغيرهم كثير. كنا نناقش سر المواهب المختلفة وأنماط النجاح المتنوعة حتى نتخذها أمثلة يحتذى بها. أجل كانت حينذاك البحرين مهداً للثقافة العامة في الخليج العربي، ومركزاً للتجمعات السياسية مثل الناصرية (محبي سياسة جمال عبد الناصر)، والتيارات الفكرية الأخرى مثل الليبرالية والشيوعية والبعثية، وبالرغم من وجود تلك التشعبات الفكرية، فإن غالبية الشعب كانت متمسكة بمظاهر الدين، ومستمتعة في الوقت ذاته بمناخ الحرية الفكرية العام، وتعدد البيئات الاجتماعية. وبسبب هذا المناخ الثقافي العالي، قامت بعض المحاولات الثورية الشعبية لطرد الإنجليز من البحرين لكنها لم تنجح.

أما ذلك المدرس المسيحي، وبعد أن عرف سر اجتهادي ووضعي الاجتماعي، ترأف بحالتي، ورحم صغر سني ووحدتي، وأصبح يرافقني في وقت فراغه وفراغي، وكلما شكوت له من التعب وبذل الجهد في العمل، قال لي حكمته المفضلة: "تذكر أنه بالصبر والمثابرة تتحول أوراق التوت إلى خيوط الحرير الغالية". وذات أمسية وبعد أن أرقني فكري الثائر، اضطررت لأن أشكو لصاحبي كثرة شكوكي في بعض عقائد الإسلام، فما كان من صديقي المسيحي إلا أن طمأنني قائلاً: "الإسلام أعظم دين على الإطلاق، لبساطته وكماله في الوقت نفسه، وكم أنت محظوظ كونك ولدت مسلماً، وعلى سبيل المثال، أنت لا تحتاج للجلوس على كرسي الاعتراف أمام القسيس كما يفعل المسيحي؛ لأنك تستغفر الله مباشرة دون وسيط، وفي اعتقادك أنه سوف يغفر لك، ثم تنام مرتاح الضمير بكل بساطة وعفوية. وقد أتمكن في يوم ما من اعتناق الإسلام، لكن جميع أفراد عائلتي تصدني عن ذلك".

وقد سألته عن مدى تمسّكه بعقيدته المسيحية فأجابني باستياء واضح: "إنني أسخر ممن يتشدد في ممارسة العقائد والطقوس الدينية، ظاناً أنه يصل إلى كمال الأخلاق بفضل ذلك، فقمة الكمال عنده هو التعصب لمذهبه وتعذيب نفسه ومن حوله، من أجل أن ينشر ذلك المذهب. نحن نظن مثلاً أن المسيح قد خلصنا من العذاب الا بدي عندما سمح لأعدائه

بتعذيبه وصلبه، وتلك هي قمة اللاعقلانية والتناقض؛ لأنه في نظرنا ابن الإله الذي لديه كل القدرات التي لا يقدر عليها بشر، فلماذا يعذب الإله ابنه وهو قادر على غير ذلك؟"، ثم أردف قائلاً: "المضحك في عقائد البشر أن كل واحد منهم يعتقد أن عقيدته هي الأفضل، وأن عقله هو الأذكى، وأنه عندما يتبع هوى عقله يصل إلى قمة الكمال! لكنك في الواقع تجد بعض جهالة العقل عند الأمي كما تجدها عند المُتعلّم، كذلك تجد بعض الحكمة والمعرفة عند كليهما، وقد تظهر بعض المواقف الغبية المضحكة عند بعض العباقرة أيضاً". وأذكر أني قد فغرت فاهي من شدة تعجبي من قوله، حتى بدوت أمامه كالطفل المندهش من غرائب ما يسمع ويرى في جنة المأوى.

ولكون صديقي متخصصاً في مجال العلوم، سألته عن النظريات العلمية في نشوء الكون، ومقارنتها بما تقوله الأديان؟ فأجابني بدقة شديدة عن التشابه في ذلك، كما وصف لي رأيه في نشأة الزمان والمكان بتفصيل علمي جميل: "لا شك في أنه بعد الانفجار العظيم وُلد كوننا المرئي، وربما وُلدت معه أعداد كبيرة من الأكوان الأخرى؛ ومما لا شك فيه أنه وُلد مع كوننا، توأم له مكون من المادة المضادة المنعدمة تقريباً في كوننا المرئي، ثم بدأ الكون المرئي بالتوسع، وفجأة تعرّض لحالة من التضخم الفجائي الهائل بأسرع من الضوء لكي يبلغ حجمه الحالي وفي فترة زمنية قصيرة". أكملت نقاشي معه مستعرضاً عضلاتي، وذلك بالاستشهاد بآية من القرآن الكريم، فقلت له: "لقد ذكرتني بالآية الكريمة التي تشعرني بعظمة الله في الكون، ألا وهي: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر: ٢١]، مما يعني أن الكون يدور وفق نظام ثابت، وله قواعد مفصلة دقيقة". ثم سألته في حينها: "لماذا خلقنا الله؟ وهل أنا ثمرة صدفة ليست بالضرورة محتملة الوقوع؟ أم نتيجة تصميم عظيم وذكي؟"، أجابني بعد لحظات من التفكير: "ليس في عقيدتنا المسيحية أن خلق البشر كان بهدف العبادة فقط، بل أظن أنه قد تم خلق أجسامنا وحواسنا بحيث تكون مهيّأة للمتعة الكاملة الشاملة، بالإضافة للعبادة أيضاً، ألم تلاحظ أن الله قد وضع في كل الكائنات، بما فيها النباتات، جهازاً عصبياً حساساً يتداخل مع الجسد بأكمله، ويتمركز في الحواس الخمس، حتى يستقبل الجسم كل تلك المتع ويتجاوب معها. بل وتفنن جل وعلا في صنع

الجمال من حولنا، وإحاطة الفرد بجميع الألوان والأشكال الجميلة والنكهات والروائح والأطعمة اللذيذة، حتى يحقق له أنواعاً عديدة من المُتع والملذات في هذه الدنيا البديعة، كما هيأ لنا سبل الاستمتاع بها لو كانت حلالاً، ولم يحرم علينا إلا ما خبث منها. لكن وللأسف فقد حرم البعض الحلال واستكثر المتع على نفسه، وربما استبدل ذلك بالتعذيب والحرمان له ولمن حوله. انظر إلى الجسم البشري إنه آية عجيبة دقيقة الصُّنع، بل أروع ما خلق الله؛ إن التأمل في خلق جسم الإنسان لهو مثير للإيمان والعبرة. وقد خلق الله لنا العقل حتى ندرك نعمة الحياة وجمال الكون، لكن وللأسف فقد جعل البعض العقل مصدراً للشك والحيرة والقلق، ثم الكفر والإلحاد؛ كما خلق الله النفس البشرية رقيقة هينة لينة، حتى يتبادل البشر الرحمة فيما بينهم، لكن وللأسف فقد استبدل بعض الناس الرقة بالقسوة، كما استخدم الأولون أسلوب القسوة مثالاً جيداً للتربية الصالحة، حتى قال شاعركم وأظنه كان جلاداً:

وقسا ليزدجروا ومن يك * حازماً فليقسُ أحياناً على مَن يرحم

ضحكت من قوله ورددت عليه: "أجل في الجاهلية كانت غالبية العرب قساة القلوب، تغلب عليهم العنجهية، وحب التسلط والتفاخر بالنسب والمال والعيال، وذلك سلوك طبيعي نتيجة معيشتهم في الصحراء قاسية المناخ لدهور عديدة، وأنت تعلم أن غالبية طباع الفرد مشتقة من البيئة التي تحيط به. وقد تجد عند بعض العرب قديماً التسرّع في الحكم على الناس، وسرعة الغضب مما ألصق بهم صفة التهور. لكني أحمد الله على توفر نعمة الإسلام لأسبابٍ كثيرة، ومنها أنه جعل الناس كلهم سواسية، وحثّهم على الأخلاق الحميدة كالصبر، والحلم، والكرم، والتراحم، وغيرها، مما أصلح من أخلاق العرب بشكل عام. وعلى عكس بيت الشعر سابق الذكر، فقد ورد عن رسولنا الكريم -ﷺ- ما يلي: "ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نُزع من شيء إلا شانه"؛ كما أن الإسلام قد أراح العقل من مشقة التفكير في أحكام الدين، وما على المسلم إلا التسليم بما في الإسلام كله أو تركه كله". أجابني الرجل بعد تفكّر: "إن راحة الفكر أمر مستحيل، فالعقل مشاغب جداً، مُلحٌ وفضولي، محبٌّ للتحدي، ويبحث عن

المجد والعظمة بأي شكل، على عكس النفس التي غالباً ما تكون مسالمة هيّنة لينة، وكل ما تطلبه هو المتعة واللذة".

وعندما سألته عن ماهية الفكر؟ أجابني: "يتشكّل فكر الفرد منا تدريجياً من المفاهيم التي يتلقاها في البيت والمدرسة ووسائل الاتصال والأقران والناس من حوله، بالإضافة إلى المنهجيات التي يتعلمها، والتدريبات التي يتلقاها، ثم الرؤيا التي يُشكّلها بظنونه وخياله وأحلامه، ويحاول كل فرد وحسب ذكائه أن يجعل من ذلك كله وحدة مترابطة، أو نبراساً يهتدي به، يتميز بقيم ومبادئ لا يحيد عنها، بل يستخدمها لتحليل الأحداث من حوله، وفهم العالم الخارجي بكل تعقيداته".

بالطبع إن للعقل وأحكامه المنطقية فوائد كثيرة، لكن صاحبي كان يؤيد آراء المفكر والفيلسوف الكبير "ايكارت تول" في معظم ما كتبه عن شرور العقل وشدة سيطرته وهيمنته على البشر، وقد قرأ بعض كتبه مثل: "قوة الآن، السكون والأرض الجديدة". وعلى سبيل المثال: كان يشرح لي كيف أن البشر قاموا بتنفيذ أوامر العقل القاسية في إشعال الحروب، كما تفنن العقل في إعداد السموم القاتلة وأدوات القتل والتعذيب، مثل: المسدسات والبنادق والقنابل وأسلحة الدمار الشامل، دون الرجوع إلى الضمير، ثم يضحك ويقول: "ربما يريد العقل الانتقام من ذرية آدم الذي أخرجه من الجنة؟ فلا يزال العقل يبحث عن الفردوس المفقود، باختراع أنواع من المتع الجسدية، حتى لو كانت مخالفة للطبيعة، بل بالغ العقل في إنتاج المجلات والأفلام الإباحية المحرمة وغيرها. كذلك بالغ العقل في إنتاج روايات الخيال غير المنطقية، تأمل مثلاً متاهات المتع الفكرية الحالية، كالقصص الغريبة والروايات الخيالية العجيبة التي تغزو المكتبات. وهل لاحظت كيف تفنن العقل في صناعة الآليات المعقدة، كوسائل للوصول إلى الإنجازات السريعة في المطبخ والمكتب والسيارة والمصنع وغيرها؛ وذلك بغية الحصول على اللذائذ والمتع السريعة، كما أتاح له ذلك توفير الوقت، والحصول على الراحة الطويلة، لكنه بذلك أضاع على النفس متعة التفكير والتأني والهدوء في تجهيز ما يحتاج إليه".

ذلك الرجل الحكيم أصبح صديقي المفضل والعزيز على عقلي وقلبي، حيث دأبت على تلقي الحكمة والنصح الرشيد منه، كما تعلمت منها أن أعامل الناس حسب أخلاقهم فقط، و أن لا أكره أحداً بسبب جنسه، أو لونه، أو طائفته الدينية، بل من الواجب عليّ إسداء النصح ومحبة الناس ومساعدتهم جميعاً. وعندما أشدت له بحظي السعيد الذي وضع لي أسباب لقائه، قال لي: "بل حظي هو الأجمل الذي أرسل لي ولداً ذكياً مثلك، لقد عشت قسطاً من عمري متزوجاً أنتظر الولد، ثم اكتشفت لاحقاً أن زوجتي عقيماً، ولن يكون لي ولد. لكن الحياة تفتح لنا الأبواب الحلوة فجأة، وقد ترسل لنا أمواجاً نخاف منها ولا ندري إلى أين تحملنا، ثم نجد أنها تحملنا إلى حيث الخير الوفير، تماماً كما حدث لك"، فرددت عليه بسرعة: "الحمد لله على كل حال، وبالرغم من أني أعاني من القلق والملل، فإن أشد ما يزعجني هو البُعد عن موطني وأهلي، الشوق لهم يجعل الوقت يمر عليّ ببطءٍ شديد كمَن يحرث الأرض بالإبرة الصغيرة، أما وقت السعادة فيتسرّب بسرعة كامتصاص الرمل للماء"، كان يتعجب من أمثالي الشعبية الكثيرة، التي أُتحفه بها خلال أحاديثنا، وكنت أقول له إني تعلمتها من جدي وجدتي فيضحك طويلاً.

وقد كانت له عادة محببة إليَّ، ففي كل مرة يُنهي فيها حديثه عن أمر له علاقة بالمحرمات الثلاث (الدين والجنس والسياسة)، يقوم بمسح أنفه ثم يشبك يديه خلف رأسه ويهمس لي قائلاً: "لا تأخذ حديثي كله مأخذ الحقيقة، فلست متأكداً من أي شيء يا عزيزي الصغير"، ثم يرنو إلى الفضاء طويلاً وهو يقول: "يعلم الله كل شيء منذ زمن بعيد، وقد خطط له بما فيه صالحنا، فلا تقلق".

<u>الكتاب صديقي الوفي القريب ثم تلك السينما البعيدة:</u>

للكاتب عباس محمود العقاد عبارة خالدة مُبجّلة ألا وهي: "أنا أقرأ كثيراً لأن حياة واحدة لا تكفيني"، وأظن أن تلك المقولة تنطبق عليّ، كوني هربت من حياتي الحالية المملة إلى حياة أخرى زاخرة، وجدتها في ثنايا الكتب. وقد صدق العبقري أبو الطيب المتنبي حين قال:

أعــز مكــانٍ في الــدنى ســرج ســابح ❊ وخيــر جلــيس في الزمــان كتــاب

وقد طبقت تلك المقولة بحذافيرها، حيث أصبح الكتاب خير جليس وأنيس لي في غربتي. أحببت القراءة كثيراً وكنت أتمنى لو أجد وقتاً أطول، حتى أقرأ تلك الكتب الفلسفية والدينية التي كان يقبل عليها أبي، وأظنه اهتم بقراءتها؛ لأنه وجد فيها إجابات عن تساؤلاته، كما كشفت له عن أسرار الحياة الشائكة. أليس من العيب أن يكون والدي العجوز قارئاً نهماً وأكثر ثقافة مني، وأوسع فهماً واطلاعاً على أسرار الحياة والأديان والمجتمعات؟ حتى إني كنت ألجأ إليه لأجد عنده الأجوبة الشافية لأسئلة كثيرة. وعندما سألته كيف أعرف إبليس اللعين حين يوسوس لي؟ أجابني: "إنه يتسلل إلى فكرك بالوساوس والشكوك، فيضلك عن طريق الله المستقيم، ثم يدخل إلى ثنايا جسدك فيثيرها ويحثها على الشهوات المحرمة، ثم يغويك بالإكثار من ملذات الطعام والشراب حتى تصاب بالتخمة والمرض، ويظل يشعل في قلبك الوساوس والظنون. إنه لديه الآلاف من طرق الإغواء المتنوعة في الشكل واللون والكلمات. وعندما يسيطر على مشاعرك ويجبرك على عمل المنكرات، قد تفرح النفس الخبيثة بذلك، وتستمر في ضلالتها، يا بُني تعوّذ من الشيطان الرجيم بمجرد إحساسك بقدومه عليك، وإنك لتعرف دخوله عليك من دلالتين اثنتين: الأولى تهييج شهوات البطن والجسد. والثانية إثارة الشكوك والظنون في عقلك ونفسك".

أجل لقد افتقدتك يا أبي، واشتقت إلى تلك الكلمات الحكيمة التي كانت كالترياق الشافي للنفس الشاكة الموسوسة، أما أفكاره فهي كالنسمات الباردة التي تهب فجأة في لهيب الصيف، فتريح الجسد والعقل المتعب. وقد تعلمت منه قطع تلك الأفكار الخبيثة بالتعوذ مراراً وتكراراً من الشيطان الرجيم، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾

[الشمس: ٧-١٠].

وكما ذكّرتني القراءة عن تساؤلاتي الملحة وأجوبة أبي عليها، كذلك اشتركت المشاعر الصادرة من القلب في إثارة عواصف العواطف نحو أحبتي، وآلمني الاشتياق إليهم كثيراً، وعلى ذلك المنوال سهرت الليالي الطوال أراقب وأعد النجوم من فوق سطح منزلي المتواضع، حيث كنت أنام في الصيف الحار، وتقلق منامي رطوبة البحرين المقيتة. لكني تعلمت قطع ذلك كله

بقراءة كتاب علمي ثقافي، أو الانغماس في قراءة رواية طويلة تحت ضوء السراج أو على ضوء القمر. وإذا تمكن الفراغ الليلي من إثارة مكامن العواطف والذكريات المريرة، لا أجد بداً من الفرار إلى دور السينما.

أجل إنها من تجاربي الجميلة في المنامة، حيث دخلت قاعة السينما لأول مرة في حياتي. وأظن الإنجليز هم أول من أحضر لفائف وشرائط السينما إلى دول الجزيرة العربية قاطبة، وقد كانت البحرين على رأس تلك القائمة. في نهاية عام ١٩٤٩ كانت السينما لا تزال على شكل قاعة عرض بدائية جداً، ويوم رأيتها من الخارج لأول مرة كانت مجرد صندقة متوسطة الحجم، أي بناء من الأخشاب مغطى بصفائح الألومنيوم، ولشدة فضولي قمت بالتلصص على الفيلم المعروض من خلال شقوق الألواح الخشبية للصندقة، ألا ما أجمل تلك الممثلات! هل هن الحور العين اللاتي ذكرهن الله في القرآن الكريم؟ لكن كيف يتمتّع بهن هؤلاء الكفار دوننا نحن المسلمين؟ وكيف يظهرن بالصوت والصورة؟ لقد حيّرتني تلك الأسئلة التي لم أجد لها جواباً أبداً.

كررت التلصص عدة مرات، لكني لم أفهم من تلك الأفلام شيئاً؛ كونها مترجمة من لغتها الأصلية إلى اللغة الإنجليزية، ثم تمنيت لو حضرت فيلماً عربياً وشاهدته بالكامل داخل تلك الصندقة، سألت كثيراً وبحثت عن مكان شراء التذاكر، قيل لي: انتظر حتى موسم العيد، وسوف يظهر فيلم جديد لـ "فاتن حمامة"، وقد قيل لي إنها أجمل جميلات ذلك العصر، وقد لُقبت لاحقاً بـ "سيدة الشاشة العربية". وبالرغم من غلاء التذكرة فقد انتظرت ذلك الموسم بفارغٍ الصبر. لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد علم صاحب المتجر بنيتي فغضب مني، بل هدّد بطردي من متجره لو دخلت تلك الصندقة الملعونة، وقال لي بغضب شديد: "ذلك لا يليق بولد من السادة، إن ذلك المكان أشبه بدارٍ للدعارة"، وكان ذلك كافياً لوأد أحلامي جميعاً. أجل فإن معظم المسلمين في ذلك الزمان قد حرّموا دخول السينما؛ لذلك لم تنتشر في أنحاء الخليج العربي، بالرغم من أنها تطورت فيما بعد، وأصبحت تعتبر من الدور الفخمة التي يرتادها الجميع. لكني دأبت على البحث عن صور الممثلات في الجرائد، ثم جاء الإعلان عن الفيلم على شكل ملصقات ضخمة، وُضعت على باب الصندقة، طار عقلي عندما رأيت وجه فاتن حمامة على الملصق، يا إلهي كم هي جذابة، أجل يظل الرجل يبحث عن المرأة

الأجمل طوال حياته وقد وجدتها، إنها مَثلي الأعلى في مقاييس الجمال وهي اسمٌ على مسمى. الحقيقة أنني في حياتي الواقعية كنت أبحث عن أي امرأة حتى لو كانت غير جميلة؛ إنه تدبير إلهي في كيفية جذب الرجال للنساء، مهما كان شكلهن، أو مقدار نظافتهن، وهي غريزة أزلية في جميع ذكور البشر والحيوان والنبات، وتُفسر تلك الرغبة بأنها من أجل استمرارية التكاثر الذي هو هدف الحياة.

عندما تقتلني الوحدة والملل ليلاً، تزداد بي الرغبة في الذهاب إلى السينما، فأذهب إلى صاحبي المسيحي أطلب مرافقته، فيؤكد لي أن الإدمان على رؤية الممثلات ليس بالأمر الطيب، وينوّه برأي رب عملي في ذلك الأمر. لكنه نصحني بريادة دور السينما عند عرض الأفلام الوثائقية فقط؛ وذلك لرخص تذاكرها ولما فيها من التسلية وزيادة المعرفة، وقد سمعت نصيحته وحضرت في دور السينما الكثير من الأحداث التاريخية والوقائع العالمية التي ناقشناها معاً. وقد كرهنا الحروب ومسبباتها؛ ذلك لأن أياً من الأسباب لن تكون منطقية أو كافية للتخلّص من الناس بالقتل أو بالتعذيب؛ ولذلك لم نحب مشاهدة ما يحدث في الحروب من التمثيل بالجثث والسلب والنهب، وتشريد النساء والأطفال، وكم وددنا لو حاسبنا المسؤولين عنها. وفي إحدى الليالي شاهدت فيلماً بالأبيض والأسود، يتناول تطورات الحرب العالمية الثانية وأهوالها، مُركّزاً على ظهور شخصيات من دول الحلفاء مثل: رئيس وزراء بريطانيا (تشرشل)، ورئيس أمريكا (روزفلت)، ورئيس روسيا (ستالين)، وزعماء آخرون من دول المحور مثل: زعيم ألمانيا (هتلر)، والرئيس الإيطالي (موسوليني)، ورئيس وزراء اليابان (كونويا). وأثناء عرض الفيلم كان يحدث خطأ متعمد في كتم الصوت، فيبدو هؤلاء الجبابرة هزليين تماماً، خصوصاً أن الأفلام القديمة تكون مهزوزة وباهتة. وتعجبت من عاصفة الضحك الذي أثارها الجمهور على هؤلاء الذين كانوا يظنون أنهم عظماء. أجل إن هؤلاء المجرمين لا يستحقون العظمة، وقد انتقم الجمهور بالاستهزاء والضحك عليهم، مما شفى غليلي منهم. بعدها بأيام سردت لصاحبي ما شاهدته في دار السينما فصفق وضحك كثيراً.

وعلى ذكر الحروب سرد لي صاحبي تلك القصة الإنسانية كما حدثت تماماً: "ما بين الأعوام ١٩١٤و١٩١٨م جن جنون الحرب العالمية الأولى، وحتى بعد توقيع الهدنة سقط عشرات الآلاف من القتلى؛ ذلك لأن المتحاربين كانوا مليئين بحب الانتقام. وحدث على سبيل

المثال أن هجم جندي أميركي يحمل حربة على فرقة جنود ألمانية، بينما كانت الناس تصرخ عليه: "توقف لقد انتهت الحرب"، لكنه ظل مهاجماً لهم إلى أن أردوه قتيلاً! وبعد هدنة الحرب انتهت الإمبراطورية العثمانية بعد حكم دام خمسة قرون للعالم الإسلامي، كما ظهر الاتحاد السوفييتي مكان روسيا الخاسرة. كذلك برزت الولايات المتحدة الأمريكية كقوة كبرى قادرة على حسم النزاعات العالمية. كما ظهرت مئات الكتب التي وصفت القتل الوحشي والمجاعات أثناء تلك الفترة. وقد كشفت أوزار الحرب أنه بسبب النقص في الغذاء، صار أطفال ألمانيا في عام ١٩٢٠م أقصر قامة مما كانوا عليه في عام ١٩١٤م! وبرغم أن ألمانيا قد وقّعت على هزيمتها المدوية، لكن الحصار الأوروبي والأمريكي على ألمانيا ظل قائماً، وتعثر نمو الأطفال إلى أن قال الرئيس الأميركي هربرت هوفر: "نحن لسنا في حالة حرب مع أطفال ألمانيا"، ثم قام فوراً بإرسال ١,٣ مليون طن من المواد الغذائية إلى الأطفال في ألمانيا. تلك اللفتة الإنسانية جعلت لأمريكا السيطرة والهيمنة على العالم كله، وقد تعلّم الجميع من تلك الأحداث أن لتطبيقات قيم الخير والسلام دور كبير في بناء صيت الأمم".

كيف عالجت لهيب شوقي الذي فضحني بين الناس؟

حقاً إن غض النظر هو الدليل الحاسم على الإيمان الصادق، وكم كان ذلك صعباً على مراهق مثلي، فقد كانت نظراتي تتابع النساء السافرات في كل مكان، بما فيها ملصقات السينما المثيرة، وبالرغم من من تهيجي الجنسي ومعاناتي الشديدة معه، لم أجرؤ على الحديث مع أي إنسان في ذلك الموضوع، لكن لمشيئة الأقدار رأياً آخر في ذلك الموضوع الحساس. فقد حدثت لي مفاجأة شديدة الغرابة، ففي ذات يوم نحس أطل عليّ ابن زوجة أبي (البهلول) في المتجر الذي أعمل فيه، لم أتعرف عليه حتى قال لي بمكر مع ابتسامة صفراء: "يا ناكر الماء والزاد، لماذا لم تبحث أو تسأل عني؟ بينما أنا لم أستطع صبراً وهرعت للبحث عنك فور سماعي أنك في البحرين؟ أجل لقد بحثت عنك كثيراً، بل اجتهدت في البحث عنك حتى وجدتك"، لم أستطع التهرّب من الترحيب به، بل فكّرت في لحظة خاطفة أنه ربما كان الشخص المناسب للشكوى من حيرة أفكاري وعذابات جسدي؛ فسرعان ما أخذته جانباً،

وتجاذبت معه أطراف الحديث، ثم بُحت له بما يعتمل في جسدي وقلبي وكأني قنبلة موقوتة تهيأ للانفجار في أي لحظة؛ ضحك كثيراً ثم قال لي جاداً: "في المنامة بيوت لقضاء تلك الحاجات الملحّة، يديرها الأجانب"، قلت: "معاذ الله أن أدخلها". لكن غلبني شيطاني، فواعدته بعد أيام وذهبت معه، وقلت لجماعتي أنني معزوم لدى بعض معارفي. وقد كان ذلك الوقت مناسباً لي وكذلك المكان، فالبيت بعيدٌ عن العيون، ويقع في زقاق ضيق، طرقنا الباب ففتحت لنا عجوز أعجمية متصابية، تلك العجوز التي حفرت السنون في وجهها أخاديد كفعل الشمس في الأرض اليابسة، ولم تنفع مواد التجميل في إخفائها. تمايلت بجسدها المنفوخ ورحبت بنا، ثم قدمت لنا الماء وطاسة معدنية خالية لوضع النقود فيها مقدماً، وضع صاحبي المبلغ المطلوب، ثم طلب مني وضع نقود مساوية لما وضع هو تماماً، حملت العجوز الطاسة، ثم أدخلت علينا فتاتين سافرتين وكأنهما من غير العرب، همس لي صاحبي: "ابدأ أنت وتخير إحداهما"، نظرت إليهما فإذا هما في مثل سني فتذكّرت أختي، ولم أتحمل مشاعري الجياشة، شعرت بالذنب والخطيئة، وليست هي إلا هنية حتى هربت من المنزل دون عقال أو لجام. جلست في ركنٍ من الزقاق وأنا ألهث، ثم تجمّعت عليّ أوجاعي وتذكّرت شريط حياتي فبكيت كثيراً. بعد عدة أيام صادفت البهلول في السوق، فلما لمحني أرفق نظراته الهازئة بضحكة ماجنة كما هي عادته وقال: "لقد أضعت نقودك دون أن تطول مرادك، إذا كنت جباناً فلماذا ذهبت معي إذن؟"، قلت له: "أنت سرسري (غير مستقيم السلوك) بطبيعتك، وقد تعودت على السرسرة طوال عمرك، أما أنا فلا قدرة لي على تحطيم فتاة صغيرة"، ضحك كثيراً وقال: "لا، لا تخف على مشاعرها فقد حطمها المئات من قبلك"، رددت عليه بالمثل الشعبي الشهير: "كل من يرى الناس بعين طبعه".

لم أجد حلاً للتخفيف من مشكلتي الجنسية غير الإدمان على سماع وترديد الأغاني العاطفية، وكنت أختار منها ذات الكلمات العذبة، كما أحببت غناء الشعر الموزون وكلماته التي تشجّع على الصبر ومغالبة الشوق. وقد نفعني ذلك وخفف من حالتي كثيراً، ومنها عرفت أن الغناء الراقي والموسيقى لهما تأثير مخدر على غرائز الجسد، وبالذات الأغاني العفيفة الطاهرة ذات الكلمات السلسة البسيطة.

الزواج المفاجئ والانتقال إلى مدينة المحرق في أكتوبر عام ١٩٤٩

مرت عليّ ستة أشهر وأنا أتقلّب على لهيب من الشوق لأهلي، وأدعو ربي أن يرحمني ويخفف عني تلك الشهوة بقدرته. لم أعلم بتصاريف القدر العجيبة إلا حين زارني البهلول فجأة في مسكني ذات مساء، وأخبرني بعزمه على الزواج، لم أصدقه في البداية ولم أسأله عن التفاصيل، وقد كنت أعرف أنه يعيش مع العزاب. وبعد أسبوع من ذلك الحديث، عزمني على العشاء في أحد المقاهي الرخيصة، وسرد لي قصة تعلقه بفتاة جاءت حديثاً من مدينة مسقط، رآها فوق السطوح تنشر الغسيل، وقد ضبطها وهي تقوم بالتلصص على الرجال من خلال الوارش (سور السطح ذو الثقوب الصغيرة)، ثم أسهب لي في الشرح قائلاً: (لقد لاحظت هي أني أراقبها في كل يوم، وفهمتها بالإشارة أنني أطلب منها اللقاء خارج البيت، فنزلت وهي شبه مستترة عن العيون، ولما طلبت منها أن تتبعني رفضت وقالت: تنالني بالحلال فقط. تكررت لقاءاتنا وفهمت منها أن أصولهم بحرينية، لكنهم هاجروا إلى سلطنة عمان لتزويج أختهم الكبرى، وللبحث عن أعمال تخص الأب وأولاده، لكن الحظ لم يحالفهم هناك، واضطروا للعودة إلى البحرين مع أختهم التي لم تجد لها نصيباً من الزواج في مسقط. لكن الحظ لم يحالفهم هنا أيضاً، ولا يزال أبوها فقيراً جداً وذا عيال، وقد زاد عليه الكيل بعد أن تزوجت أختها من رجل عجوز فقير في البحرين، ثم ترملت سريعاً". واستطرد في الحديث قائلاً: "هذه الفتاة قد كسرت فؤادي عندما قالت لي: لم نعد نملك شيئاً وكدنا نهلك من الجوع، لدرجة أن باع أبي أواني المطبخ النحاسية لشراء بعض الطعام في الأسبوع الماضي، فهل تجد من يتصدق علينا في هذا الأسبوع؟ لقد أحببت تلك الفتاة ورأفت بحالها وسوف أخطبها لتؤنس غربتي وتشاركني حياتي البائسة"؛ ثم أردف لي قائلاً: "هل تريد الزواج بالحلال؟ إذن تعال معي لرؤية أختها الأرملة، فمهرها قليل جداً وليس لديها عيال"، لقد فهمت اللعبة التي يخطط لها، إنه يطمع في دفع أقل مهر ممكن لو تزوجت الأختان في وقت واحد! وفكرت في أن الرأفة بالفقراء ليست هي الدافع المبرر للزواج منهن، فالفقر منتشر في الخليج كله كانتشار النار في الهشيم، لكن لهيب الغريزة هو ما يدفع بالمرء إلى فعل أي شيء، لكني لا أعذر من يتجاهل الحلال لو كان قادراً عليه، وها أنا أكسب من المال الكثير، وقد خفت على نفسي من

الفتنة ثم الوقوع في جريمة الزنا، خاصة أنني بشبابي وملاحتي قد لفت أنظار بعض المشاغبات من النساء في الأسواق.

لكن يا إلهي ما الذي سمعته من البهلول! هل يُغرر بي للزواج وهو يعرف صغر سني؟ ها قد مضت عليّ ستة أشهر هنا وقد أوصاني أبي بالعودة سريعاً، لكني لا أرغب بالرجوع إلى الأحساء، بل أرغب بكسب المزيد من المال، كما أن لي رغبة قوية فعلاً بالزواج! لقد جاوزت السابعة عشرة من عمري بستة شهور، لكني أبدو أكبر من سني بكثير، وعلى الرغم من هول الموقف وصعوبته أقدمت على أعجب تصرّف يمكن أن يقدم عليه مراهقٌ في مثل هذه الظروف، فقد سألته بشغف: "كم عمر الأرملة؟" رد عليّ بفرحة شديدة: "رأيتها برفقة أختها الأصغر التي سوف أتزوجها وهي في العشرين من عمرها، أما الثانية فلا أعرف عمرها على وجه التحديد، لكنها حسناء جميلة أيضاً"، ترددت كثيراً لكنه شجّعني بحلو الكلام عن تلك المرأة والفرصة الذهبية التي أتيحت لي للزواج بها، لكني تمهّلت وطلبت منه فرصة للتفكير. الأخبار تنتقل إلى الأحساء بسرعة الريح مع الذاهبين والعائدين منها، لم أريد البوح لأحد عن هذا الزواج، بل تمنيت لو أستطيع الزواج في جزيرة معزولة حتى لا يعلم عني أحد، بل سوف أموت رعباً لو انتقل الخبر إلى الأحساء، ووصل إلى أحد من أفراد أسرتي. لم أتحمل فضولي في رؤية الأرملة ومناقشة الأب في المهر. حددنا الموعد وذهبنا لرؤية الأب في السوق، فوجدته رجلاً متوسط العمر مهلهل الثياب، يبيع أغراضاً مستخدمة قديمة على بسطة صغيرة، رحّب بنا كثيراً لما عرف مقصدنا، بل طار من الفرحة عندما سألته عن الأرملة، إنها فرصته الثمينة كي يوفر لقمة اثنتين من أفراد أسرته دفعة واحدة، ثم حدد لنا موعداً قريباً للنظرة الشرعية. فكان أن وجدت الأرملة ممشوقة القوام، ربما تكون أقل جمالاً من أختها البيضاء خطيبة البهلول، لكنها سمراء حسناء على أي حال. وعندما سألني والدها عن عمري قلت له إنني في العشرين حسبما أبدو عليه وحسب الهوية المزورة. فقال: "لا بأس يوجد فرق في العمر لكنه لا يحسب فرقاً، إنها في الثانية والعشرين من عمرها فقط"، وقد أثبتت لي الأيام أنه كان كاذباً، فهي أكبر مني بسبع سنوات على أقل تقدير. وما علينا؟ فقد كان كلانا متلهفاً لإتمام هذا الزواج، أخبرته بظروفي وناقشته في كيفية كتمان الخبر عن جماعتي في البحرين، فأنا لا أريد أن يتسرّب الخبر إلى أبي في الأحساء، وقد كان رضا الأب مقدساً في ذلك الزمان، فتفهّم الأب

وضعي وتخوّفي من علم أهلي؛ ذلك لأنه يريد إتمام الزواج بأي طريقة، وبأقصى سرعة ممكنة، فقال لي: "أعدك بإخفاء الخبر، وسوف يتم عرسكما في مكان بعيد عن مكان سكن جماعتك في المنامة، اسمح لي أن أقترح عليك العيش في جزيرة المحرق فهي بعيدة عن هنا، ولا توجد بها جالية من الأحساء، وهكذا يكون من الصعب الاستدلال على مكان سكنك في المحرق، كما يمكنك المتاجرة فيها بسهولة، والحصول على الربح الوفير، وأظن أنه يوجد نقصٌ كبير في نوعية بضائعك في أسواق المحرق، كما سمعت من البعض". أعجبتني الفكرة، وقررت الذهاب إلى المحرق لتقصّي الأوضاع قبل الزواج؛ شجعني البهلول فقد زار المحرق سابقاً، وله بعض المعارف هناك، وحدثت نفسي بأن هذا الرجل ليس شريراً بالرغم من كونه سرسرياً بالفطرة، ربما قام ببعض الأعمال الشائنة، لكنه مفيدٌ لي على أية حال.

رافقني البهلول في تلك الرحلة المتعبة التي استغرقت حوالي الساعة والنصف على عربة تجرها البغال، وقد تقطعها السيارة في أقل من نصف ساعة على الطريق المرصوفة، لكن أجرة السيارة كانت غالية على كلينا. تحركنا من وسط المنامة ومررنا ببلدات وقرى كثيرة يانعة مخضرة، يجرى بين ثنياتها مياه متدفقة تُسمى " تشعبات عين عذاري"، تلك التشعبات تنحدر من عين عذاري الأم، التي تقع على مرتفع عالٍ في وسط المنامة، لكنها لا تسقي ما حولها من الأرض، بينما النهر الذي ينبع منها ثم يتشعب، يسقي خطاً طويلاً يصل إلى أكثر من ثلاثة كيلومترات من المزارع والبساتين خارج المنامة. وقد تذكرت أننا في الأحساء نضرب بها المثل عند قطع صلة الرحم مع القريب، واستمرار وصل الغريب، فنقول: "أنت مثل عين عذاري تسقي البعيد وتترك القريب"، ومن وسط المدينة تمشي النساء مسافات طويلة، واضعات على رؤوسهن الطشت المعدني أو الجفير (سلة واسعة تُصنع من خوص النخل، تُحمل فيها كل ما يحتاج إلى تنظيف)، حتى يتجمعن حول موقع تدفق المياه، ويقمن بغسل الملابس والأواني المنزلية وغيرها، وتوجد حول مسار النهر غرف خاصة لاستئجار الناس من أجل الاغتسال فيها، وخاصة للعروس والعريس قبل ليلة الزفاف، كما بنيت الكثير من العشش والاستراحات للمصطافين على ضفتي النهر. وبالرغم من ذلك رأيت أثناء الطريق الكثير من البرك والأحواض التي تتجمع فيها مياه الأمطار، حيث إن الزراعة هي عضد الحياة في المنامة. وقد توقفنا للاستراحة في أحد البساتين، حيث وجدت تشابهاً كبيراً بينها وبين بساتين الأحساء،

من حيث نوعية التربة الخصبة، ومن حيث ما تنتجه من محاصيل. وفهمت أن اقتصاد البحرين يقوم على التجارة أولاً، ثم على الإنتاج الزراعي الكثيف ذي المحاصيل المتنوعة. وفي تلك المزرعة رأيت أشجار اللوز البحريني لأول مرة، ثماره في حجم البرقوق الأحمر، لها شكل لوزي مميز، يبدأ باللون الأخضر ثم يتحول إلى الأحمر القاني عندما ينضج، فيعطي الطعم الحامض السكري لمن يتذوقه، وقد أعجبني شكل شجرة اللوز المميز، حيث تحيط أوراقها الكبيرة الخضراء المحمرة بجذع الشجرة على شكل دوائر متراكبة، بينها فواصل من الجذع خالية من الأوراق، مما يعطيها منظراً فريداً بين الأشجار الأخرى. وبالرغم من أن الماء المالح يحيط بالجزيرة من كل جانب، فإني وجدت الكثير من عيون الماء الطبيعية العذبة ومنها: أم شعوم، القصاري، الدوبية، الوكيل، لكن من أشهرها وأكبرها عين عذاري، فسبحان الله العظيم القادر على كل شيء.

معظم الأراضي في المنامة منبسطة، لا وجود للجبال ما عدا بعض التلال المتناثرة هنا وهناك، تذكرت جبل القارة المهيب العجيب في الأحساء، وكم افتقدت رحلات الأهل والأقارب إلى هناك، فهل يا تُرى هم قد افتقدوني؟

من حسن حظي أن الوقت كان شتاءً مما خفف من تعب الرحلة، بل كانت نسمات آخر النهار الباردة من على الشاطئ الآخر، تزيل التعب من أجسادنا. وبالرغم من وجود جسر خشبي متين وطويل يصل بين الجزيرتين، فإننا عبرنا البحر إلى الجزيرة في قارب صغير؛ ذلك أن الجسر كان مخصصاً فقط للسيارات والباصات، وليس لعبور المشاة. ركبنا بعدها عربة صغيرة تجرها البغال إلى أن وصلنا إلى وسط مدينة المحرق حيث توجد الأسواق.

وإن أول ما لفت نظري هو الاختلاف في ملابس النساء هنا عن المنامة، فأغلب نساء المحرق كن يلبسن العباءة السوداء ويقمن بتغطية الوجه كنساء الأحساء بـ "البوشية". أما البقية فيلبسن الرداء المخطط بالأحمر (الصيبعي)، بدلاً عن العباية ويغطين نصف وجوههن فقط، وذلك بجر الرداء على الرأس وحول جانب من الوجه، وقد يظل الوجه مكشوفاً تماماً لدى بعضهن. رأيت لأول مرة في حياتي ما يُسمى "البطولة" وهي غطاء للوجه يشبه القناع ويصنع من ورق سميك يتميز باللون البني الغامق أو الأسود اللامع، تظهر العينان من

البطولة فقط، لكنها تغطي كافة الوجه حتى الفم، وكانت غريبة على ناظري، وتختلف تماماً عن (البرقع) الذي شاهدته في أسواق المنامة، لكني شاهدته في المحرق أيضاً، وغالباً ما تلبسه نساء البدو.

لكن ما أثار استيائي هو عدم رؤية الكثير من المزارع أو النخيل من حولي، ربما لأن المحرق جزيرة صغيرة، والمياه المالحة تحيط بها من كل جهة بحيث تتداخل على أرض الجزيرة الخلجان الكثيرة، ومما يزيد من صعوبة الزراعة فيها نوعية أراضيها، حيث تميل معظم الأراضي فيها إلى التصحر، لكني اكتشفت لاحقاً أنه بالقرب من جزيرة المحرق توجد شبه جزيرة تسمّى (الحَالة) خضراء وفيها من الزرع الكثير، وكذلك توجد مناطق مثل عراد وسماهيج والدير، وهي كلها مناطق صالحة للزراعة، وغنية بالمزارع والحقول، وكثيراً ما كنت أتنزه فيها وقت الضيق والضجر.

كما لاحظت أن ذلك المناخ وتلك البيئة شبه الصحراوية قد أثرت على لهجة أهلها، فأصبحت حادة جافة وسريعة في نطق الكلمات، كذلك تتميز اللكنة بالضغط الشديد على حرف الدال. أجل إنها تختلف تماماً عن لهجة أهل المنامة ذات الغنة اللطيفة جداً، لكن العجيب في الأمر تشابه اللهجات في كلّ من المنامة والقطيف ومسقط؛ ذلك لأن أغلبية الناس في تلك المناطق مزارعون، وهم يتنقلون بين تلك البلدان كثيراً، ويحملون لهجتهم معهم، بل ويعطونها لمن يمر بهم. بينما تختلف عنهم اللهجات المتعددة في قرى ومدن منطقة الأحساء، وهي تتفاوت أو تتقارب حسب بُعد أو قرب المناطق الزراعية من بعضها. أجل لا يوجد شبيه لموطني الجميل ولا حتى شبيه لهجاته في أحسائي المحبوبة.

وبعد عدة جولات في الأسواق المتفرّقة، وجدنا أن السوق المركزي في المحرق يفتقر فعلاً إلى نوعية البضائع التي أتاجر بها، كما أن الأسعار هنا أغلى قليلاً من أسواق المنامة، مما سوف يُكسبني المزيد من الأرباح. تجوّلنا في المدينة، ثم سألنا عن إيجار السكن القريب من السوق المركزي فوجدناه معقولاً، وقد كان عندي ما يكفي من المال لإتمام عقد الإيجار للمنزل والمحل معاً. شعرت بالتفاؤل أثناء طريق العودة، وظننت أن الحظ والسعادة سوف يبتسمان لي في المحرق. لكني ما زلت أحمل حزن مفارقة ذلك التاجر الطيب الذي أحببت

العمل معه، كما شعرت بالقلق بشأن أبي، بل تصورت أنني أغدر به وأخرج عن طاعته، وهو الذي ما فتئ يُرسل لي المراسيل ويأمرني بالرجوع سريعاً، وأنا أرد عليه في كل مرة بأنني لم أنتهِ من بيع البضائع بعدُ، والحقيقة أنني بعتها بثمن غالٍ جداً، ثم اشتريت غيرها بثمن متوسط وبعتها بالغالي مرة ثانية، وهكذا حققت الربح الكثير، واعتبرت نفسي تاجراً محنكاً وذا مهارة عالية في البيع والشراء. فرح والد العروس على موافقتي السريعة، لكن غلطتي الكبرى أنني تسرعت في الطلب، ولم آخذ هذه الزيجة على محمل الجد، لم أتريث حتى أتعرف بدقة على أخلاقيات تلك العائلة، ولم أسأل عن مقدار تديّنهم وطباعهم الاجتماعية، وقد كان بإمكاني سؤال جيرانهم على الأقل. لكن لم أسأل بسبب هاجسي أن ينتشر الخبر في المنامة، وكل ما حرصت عليه هو سرية عقد النكاح، وقد أوصيت عليه البهلول كثيراً فكان يقول لي:

مَـن يَفعَـلِ الخَيـرَ لا يَعـدَم جَوازِيَـهُ ❋ لا يَـذهَبُ العُـرفُ بَـينَ اللَـهِ وَالنـاسِ

وكأنه يتصدق عليّ بإيجاد تلك الزوجة وكتمان خبر الزواج! ومع ذلك فقد كان كثيراً ما يبتزني بعد زواجي بسلفة من المال ولا يردها إليّ، وأخاف أن أطالبه بالمال فيفضح سري عند جماعتي من الحساوية.

ولشدة توتر أفكاري لم أكن مبتهجاً بالعرس تماماً، على أي حال، تم الزواج في بيت بعيد عن مركز مدينة المنامة، بأقل التكاليف وبسرعة البرق. وقبل ذلك بيومين تعللت لجماعتي ولرب عملي بأسباب قوية عن أسباب هجرتي من المنامة إلى المحرق، ولم أعترف أبداً بزوجة الغفلة التي جاءتني بالفعل على غفلة وعجلة. الشهوة الملحة جعلتني أطرح رداء الخجل، ولن أنكر أن الدخول بها كان ممتعاً جداً، كنت أسبح في عرقي وأكتشف جسدي بدهشة وغرابة، ولأول مرة تصيبني تلك الرعشة اللذيذة التي لم يكن مصدرها الخوف بل تلك المتعة الجامحة، وأظنها شاركتني في تلك المتعة ولم تكن خجولة البتة! بل طلبت المزيد من القبلات وبالذات الإطالة في قبلة العنق مما ضاعف اللذة لي ولها.

غادرنا المنامة أنا وزوجتي بعد يومين من زواجنا، وقد رافقنا أخوها بعِلة البحث عن عمل له أيضاً في المحرق. لأول مرة استخدمنا "البست" وهو باص كبير يحوي مقاعد متصلة طويلة، تمتد بطول الباص الذي له بوابة للركوب في نهايته، بينما نضع المتاع بين أرجلنا، وبعد

أن يقفل السائق الباب الخلفي، يمر علينا كي ندفع له أجرة الركوب البسيطة. وكان أن عبرنا الجسر الخشبي بواسطة ذلك البست، الذي توقف في مركز مدينة المحرق حيث استأجرت البيت والمحل.

اضطررت إلى تغيير هيئتي في اللبس، والتكثيف من شاربي ولحيتي، كما وضعت كنية جديدة لي، تختلف عن كنيتي في المنامة، حتى لا يتعرف عليّ أحد، ومع ذلك لازمني الخوف من وصول الأخبار إلى والدي في الأحساء وافتضاح أمري. لكن ما أسعدني أن تجارتي كانت على ما يرام، وقد طاب لي العيش والمكسب الكبير في المحرق.

ماذا عن زوجة الغفلة؟

كانت زوجتي امرأة نشيطة نظيفة، وطباخة ماهرة، ومدبرة بيت ممتازة، بارعة في الاقتصاد والتوفير نظراً للبيئة الفقيرة التي عاشت فيها. لكنها كانت نهمة أكولة، طماعة في طلب جميع متع الحياة، بل تريد المزيد من كل جديد، سليطة اللسان تتهمني دوماً بالبخل والتقتير، بل ناكرة للجميل وما فتئت تردد لي دوماً: "لم أذق معك يوماً واحداً حلواً". والعجيب أنها كانت تقول لي: "قد أنقذتني من الوقوع في الحرام، فكم تعرضت للإغراءات المالية، وقد كنا أنا وأسرتي تحت وطأة الفقر الشديد"، كرهت هذا القول منها فربما وقعت في الإغراء فعلاً؟ وكيف لي أن أعرف الحقيقة وقد كانت أرملة فقيرة. لم يشفع لها عندي أي من سلوكها، خاصة أني لم أجد منها الالتزام بالصلوات الخمس أو قراءة الأدعية والقرآن الكريم. تمنيت ألا أنجب منها، وعندما شعرت هي بذلك قالت لي: "لا تخف فلن ترزق مني بأية ذرية، فبعد أن ظن أهلي أن فاتني قطار الزواج، وقد بلغت التاسعة عشرة، زوجني أهلي في مسقط من رجل كبير في السن، ذي عيال من الشباب، وقد سحروا لي حتى لا أنجب من أبيهم، وكلما أنجبت مات الوليد صغيراً حتى دفنت ثلاثة أبناء من الذكور، وقد خاف الرجل أن أكون شؤماً عليه فطلقني بعد خمس سنوات من العشرة التي لم يصنها، ولم يعطني إلا القليل من المال كنفقة عدة الطلاق؛ وعندما رجعنا إلى البحرين كنت قد بلغت الرابعة والعشرين من عمري، فاضطر أهلي إلى تزويجي ثانية في المنامة من رجل عجوز، لم يلبث أن توفاه الله ولم يورثني إلا اليسير من المال"، صُعقت من هذه الأخبار، هي شؤم فعلاً فقد فقدت أبناءها الثلاثة وتم

طلاقها، ثم مات زوجها البحريني بين يديها خلال ثلاثة أشهر كما سمعت! كذبت أختها على البهلول عندما ذكرت له أنهم لم يوفقوا لها بالزواج في مسقط، بل ذكرت له فقط ترملها في البحرين كي تكسر خاطره عليها، لكن لماذا أخفت عنه طلاقها في مسقط؟ ربما كي لا يفترض البهلول أنها سيئة الأخلاق؟ يا ويلي لقد بدأت حياتي بكذبة كبيرة وخدعة ربما تكون من خيال البهلول نفسه. كما تأكدت أن أباها قد كذب عليّ بشأن عمرها، فقد قال لي إنها في الثانية والعشرين من العمر، لكن بعد أن سردت لي تاريخ حياتها حسبت سنوات عمرها، فعرفت أنها في السادسة والعشرين على الأقل، أي أنها تكبرني بسبع سنوات! تحيرت كيف أصنع، كتمت غيظي وسكتّ على مضض، فليس باليد حيلة.

وكانت الصدمة الثانية أنها كثيراً ما رددت الألفاظ البذيئة أمامي، وقد سمعتها تطرد قطة اقتربت من طعامٍ في البيت بلفظ قبيح جداً، جُنّ جنوني وعنّفتها طويلاً، ثم هدّدتها بالطلاق لو سمعت تلك الكلمة ثانية منها. طوال عمري وأنا أحتقر السباب والشتائم، وقد سمعت تلك الكلمة لأول مرة من البهلول، ولما سألته عن معناها استغرق في الضحك قبل أن يجيبني. كم أكره الكلمات البذيئة وكنت نادراً ما أسمعها في الأحساء، أجل لقد كانت أمنا الغولة قاسية في سلوكها نحونا، ولسانها يحمل بعض السباب الخفيف، لكنها لم تتلفظ بمثل تلك الكلمات أبداً.

أما والدي فكان أقصى ما يقوله عند الغضب الشديد ثلاث تشبيهات بالحيوان وهي: يا التَرَس وهو ذكر السلحفاة البطيء جداً في المشي، أو يا الهيس الأربد وهو الأسد البليد الكسلان، وعندما أتمسك برأي يُشبّهني بالتيس العنيد، ولم أسمع منه أي كلمات من الشتائم الأخرى. وكثيراً ما كان يذكرنا بقول الله تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾ [النساء: ١٤٨]، وما فتئ يقرأ علينا قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحج: ٢٤]. وعن أنس -رضي الله عنه- قال رسول الله ﷺ: "ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه"؛ لذلك لم تزن زوجتي في عيني أو وجداني أبداً.

كيف تم فضح حقيقة تلك الأسرة الفاسدة؟

في ذات يوم صرّح أخوها، وكان يعيش معنا، أنه يود الرجوع إلى المنامة ظهراً لزيارة أهله، بينما خرجت أنا مبكراً من المنزل لأفتح متجري، لم أدقق في أمر ذهابه، لكن حدث ما أثار وساوسي فيما بعد. كان من عادتي تخزين بعض البضائع في مستودع بالمنزل، كما حرصت على تسجيل الوارد والصادر منها في كل حين كما علّمني أبي. وفي نفس يوم خروج أخوها، عدت إلى المنزل متأخراً بعد يوم متعب وشاق، فاجأتني زوجتي بقولها: "إن لصاً دخل المنزل وسرق بعض الطعام؛ لأنها نسيت الباب مفتوحاً أثناء زيارتها للجيران، وربما يكون قد سرق شيئاً من بضائعك أيضاً"، دخلت مخزن البضائع فوجدتها ناقصة قليلاً؛ لماذا لم يسرق اللص كل شيء؟ شككتُ في كلامها، خاصة بعد أن تكررت نفس الحادثة بعد أسبوع تقريباً. شكوت إلى أحد الجيران من تلك السرقات المتكررة، فقال لي مندهشاً: "في المناطق المأهولة بالسكان، لا يحدث ذلك أثناء النهار أبداً! لكن اجعل من نسيبك مراقباً للمنزل في غيابك حتى يُمسك باللص"، فأجبته: "لقد تركنا النسيب منذ أسبوع وقفل راجعاً إلى المنامة"، ضحك الرجل وقال: "كيف يكون ذلك؟ لقد رأيته نهاية الأسبوع الماضي في الجوار، وكان يهرع مستعجلاً ويحمل بقشة "صرار كبير من القماش يُستخدَم لحمل الأغراض"، وكذلك رأيته أمس يبيع نفس بضائعك على بسطة في سوق يقع جنوب المحرق بعيداً عن هنا، وقد ظننت أنك أعطيته بعض البضائع كي يبيعها لصالحك".

يا إلهي! هل كذب أخوها عليّ بدعوى السفر إلى المنامة؟ ولماذا حدثت السرقة في يوم ادعائه بالسفر؟ ثم لم نره ثانية، وفي هذا الأسبوع حدثت ثانية! لا بد أنها سرقة وخدعة بينها وبينه! جُن جنوني لتلك الشكوك لكني ضبطت أعصابي، وكان لزاماً عليّ التحقق من هذا الأمر، واتتني فكرة ونفذت ما خططت له فوراً، ذهبت إلى المكان الذي وصفه لي جاري وكنت ملثماً، فوجدت أن أخاها يبيع بضائع جديدة، وهي من أنواع بضاعتي التي لا توجد في السوق إلا نادراً! لم أنبس ببنت شفه فليس لديّ البينة الواضحة لتوجيه التهمة إليه، لكني سألت من حوله عن فترة تواجده هنا؟ فكان الجواب: أنه ظهر في نفس اليوم الذي ترك فيه بيتنا. فتّشت المنزل في أثناء غيابها عند الجيران، فلم أجد نقوداً أو أي ملابس جديدة، ثم توجّهت فوراً إلى صاحب البقالة قرب منزلنا، وسألته عن مشتريات زوجتي، فأخبرني بأنها تمر عليه في

كل يوم تقريباً، وتشتري منه الكثير من الأطعمة، ثم همس لي أن الباعة المتجولين كانوا يشكون له منها سابقاً، فهي تشتري منهم القليل، ثم تسرقهم أيضاً بالحيلة والتلاعب، بعد أن تستدرجهم إلى باب المنزل. يا إلهي ها هي الوساوس تلعب بي وتتقاذفني الأفكار، إذن لا شك في أنها تسرقني وتتقاسم المال مع أخيها، ثم تنفق المال كي لا أجده في حوزتها، هي تشتري وتأكل ما لذ وطاب أثناء غيابي عن المنزل، وربما تحتفظ بجزء من نصيبها في المال مع أخيها؟ ذُهلت وصُدمت من هذا الأمر! إذن هي أسوأ من زوجة أبي بكثير، يا لها من مصيبة لم تكن على البال والخاطر. لقد كدت أجن لولا أن علمني أبي الهدوء عند وقوع المصائب تمثلاً بقول أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: "إذا جاءتك المصائب فاقعد لها فإن قيامك زيادة لها"، ربطت جأشي وفكّرت في حالي، وأيقنت أن ما أصابني هو نتيجة عقوقي لوالدي، ولا بد لي من العودة إلى الأحساء بعد التخلّص من تلك الزوجة اللعينة، لكن لا بد من مواجهتها بالحيلة، فهي شديدة النكران، وقوية البأس، وقد اكتشفت مؤخراً أنها مصابة بنوبات من الصرع البسيط التي تظهر عليها من حين إلى آخر، وبالذات حين أغضب منها أو أُعنفها. وقد راجعت معها طبيب الأعصاب في مستشفى المحرق، وسردت له تاريخ حياتها معي ومع من قبلي، فحصها ثم أكد أن سبب الصرع نفسي بحت، ألا وهو سلسلة الأحزان والمصائب التي ألمت بها في حياتها قبل زواجها مني. وعندما تخيّلت ما جرى لها من حزن جراء فقدان أطفالها الثلاثة من زوجها العماني، ثم الطلاق الفجائي منه، ثم الزواج السريع من عجوز في البحرين، والترمل الأسرع بعد ذلك؛ تعاطف قلبي الرقيق معها، وأوشكت على حبها ومعاملتها بلطف ومودة؛ لكن ذلك كان في الماضي وليس بعد اليوم الذي عرفت فيه خيانتها.

تأخرت في العودة إلى المنزل، ثم تصنّعت التعب الشديد، ونمت باكراً حتى أتحاشى الحديث معها. في الصباح الباكر رأيتها تستفرغ ما في جوفها، ربما مما تناولته من الطعام الكثير والحرام في غيابي. أخبرتها بأن عليّ التوجه إلى المنامة، ثم الأحساء، لإحضار بعض البضائع، وهي فرصة لها كي ترى أهلها، لكن الماكرة رفضت الذهاب معي، وتحججت باللوعة والتقيؤ، وخفت أن يكون ذلك من مؤشرات الحمل. قضيت اليوم وأنا ساهم مشغول الفكر، مر عليّ شريط ذكريات سلوكها وردودها عليّ، وكم كان فيه من القسوة والأنانية، فهي بالتأكيد لا تُكن الحب لي، أو لأحد من أهلها أبداً، وكم وصفت معيشتهم بأنها معيشة الشؤم

والفقر، وأظنها تتوجس مني شراً، جزاءً ووفاقاً لأفعالها. تصنّعت الهدوء وقلت لها: "لا يمكنني تركك وحيدة فقد أتأخر في الأحساء لبضعة أسابيع، لكن لا بأس يمكنني تأجيل سفري إلى الغد حتى ترتاحي وتستعدي"، فرضيت بذلك على مضض.

طوال سفري لم أكن مرتاحاً، جاذبتني الأفكار والوساوس السوداء، وأكثرت من التدخين الذي عودني عليه البهلول فلعنته في سري، أجل إنه سبب كل مصائبي، لكن هل أطلّق زوجتي وأطلّق البحرين معها؟ لكنني أحب البحرين والتجارة فيها، وتلك المرأة الخائنة الكذوب قد تحمل بكري في بطنها الآن؟ هل أكتفي بتأديبها هي وأخيها أمام أبيهم؟ أم هل أتركها معلقة "غير متزوجة أو مطلقة" وأذهب للزواج في الأحساء ثم العودة إلى البحرين ثانية مع زوجتي الجديدة. لكني فور وصولي إلى المنامة، أجلت كل تساؤلاتي، وذهبت إلى البهلول كي أشرح له كل ما حدث، فأجابني بلا مبالاة أو تعجب: "لا بد لك أن تخبر أباها بكل تلك التفاصيل، فهو كفيلٌ بتأديبها وأخيها، وقد فعلت ذلك لأن زوجتي تسرقني وتسرق من الآخرين أيضاً، وتتطاول عليّ وعليهم بالنكران واللسان السليط، إنهم عائلة فاسدة للأسف، لكن زوجتي حاملٌ الآن ولا أستطيع تطليقها"، رددت بدهشة: "هل تظن أن لهم صلة وثيقة بالسحر، انظر كيف تزوجناهما في ليلة واحدة، ثم تورطنا بحملهما وقد لا نتمكن من تطليقهما أبداً"؛ قهقه بصوت عالٍ وقال: "إنه نداء الجنس ما يقلقك يا صاحبي وليس السحر"، قلت في سري لقد صدق أبي عندما حذرني منه، ليتني لم أشكُ له منذ البداية، فقد أثبت لي أنه بئس الخليل وشر القرين.

أنا الآن في غياهب الجب أنتظر من ينقذني كما حدث ليوسف عليه السلام، والحيرة تكاد تقتلني، بل تلاحقني بنات أفكاري المتشائمة أينما ذهبت، أغرق في طلاسم وهلاوس العقل الأولى، ولا أدري ماذا أصنع؟ أنا المغلوب على أمري، آه من حرقة قلبي التي لن تطفئها غير رؤية أختي وأولادها. لقد مرت عليّ سنة كاملة وأنا في غربتي، كم اشتقت لموطني ولأهلي، قفزت في المركب فرحاً بعودتي إلى الأحساء، داعياً الله في سري أن خبر زوجة الغفلة لم يتسرب مطلقاً إلى أبي وأصحابه، أو إلى أي فرد من أهلي وأقاربي.

<u>إلزامي بخطبة الشريفة في الأحساء في مارس عام ١٩٥٠م</u>

أردت أن أطمئن بأن السر لم يتفشَّ في الأحساء، كما كنت في أشد الشوق لرؤية أختي بعد غياب سنة من الزمان، فذهبت إليها أولاً، ومن شدة فرحتها أطلقت الزغاريد أول ما دخلت عليها بيتها. كانت قد أنجبت سابقاً وأنا في الأحساء صبيين، لكني رأيت عندها أيضاً في ذلك اليوم توأماً صبياً وبنتاً، ففرحت كثيراً وتذكرت طفولتنا الجميلة قبل دخول زوجة الأب إلى منزلنا. وازدادت فرحتي عندما أخبرتني أنها سعيدة في بيتها، مطيعة لزوجها الذي يحبها حباً جماً، وقد لبى طلبها بعد انتقال أسرته كلها إلى مدينة العمران، وخصها بالسكن في بيت وحدها، وهكذا انفصلت عن البيت الذي كانت تقطنه مع عوائل أبنائه المتزوجين، وتخلّصت من خدمتهم إلى الا بد.

سررت كثيراً عند سماع هذه الأخبار، لكن أختي شعرت بأن فرحتي ليست كاملة، وكونها حساسة في استقبال ذبذباتي وتلقي مشاعري، فقد شعرت بقلقي وتشتت فكري فقالت لي: "الحمد لله لقد تزوجت ابنة زوجة أبينا، وارتحنا أخيراً من إلحاح أمها في تزويجها لك. وعلى ذلك طلب مني أبي البحث عن زوجة تناسبك، وقد وجدنا فتاة من الأشراف كاملة مُكمّلة، وقد تكلمنا مع أهلها فوافقوا على خطبتها لك"، ذُهلت من تلك الأخبار المفاجئة، فلم أفرح أو أحزن، بل تجمّدت في مكاني فاغراً فاهي. إن لأبي حدساً قوياً وحكمة وحنكة، فهو يريد ربطي هنا بالزواج كي لا أعود إلى البحرين إلا وزوجتي معي، ولا شك في أن أحداً من الجماعة هناك جاء إلى الأحساء، وأبلغه بأني قد تركت تجارتي بالمنامة، لأكسب المال أسرع وأكثر في المحرق، لكنهم ربما أبلغوه أيضاً بشكّهم في أني قد تزوجت هناك؟ قلت لأختي: "إنني سعيدٌ في حياتي بدون زواج، وعندما أريد ذلك سوف أطلبه من أبي، تذكري أنني بالكاد قد أكملت الثامنة عشرة، ثم أنني أكسب من المال ذهباً هناك"، قالت: "ما شاء الله عليك تبدو أكبر من سنك بكثير، تذكر أن الزواج ستر واستقرار، ويمكنك أخذ زوجتك معك". لم أستطع مجاراتها في الحديث، قطعت كلامها وتحججت بالذهاب إلى أبي في المتجر، قالت: "تعال في الغد لتناول الغداء، ولا بد أن نستكمل حديثنا معاً"، أجل أريد البوح لها بكل شيء، ولكن ليس اليوم لن أدمر فرحتها برؤيتها لي.

تهلل وجه أبي عندما رآني وقام من مجلسه لاحتضاني، شعرت بالعار والخجل منه عندما عاتبني عتاباً مراً لتأخري في الرد على مراسلاته، واتهمني بتفضيل البقاء هناك على رؤيته، فذكرت له حصيلتي من الأرباح كي أسعده، وأعطيته معظم المال الذي كان معي، وقلت الباقي لا يزال في البضائع التي تركتها في البحرين. قال لي: "أموالي هنا قد كثرت أيضاً، لكن صلة الرحم هي الأهم، قد لا يعرفك أخواك فقد كبرا في غيابك، وأريد تزويجك من فتاة شريفة لها صلة قرابة معك، أتمنى بقاؤك هنا مع أهلك، حتى تزيد رابطتك مع أخويك، وتعينني على تربيتهم"، فلما وجدني ساكتاً مطرقاً برأسي، أردف قائلاً: "لقد وجدت الفتاة المناسبة وخطبتها لك، وها قد أصبحت اليوم تاجراً كبيراً، وقادراً على تكوين العائلة والصرف عليها من حر مالك". قلت: "يا أبتِ، أرجوك لا يمكنني الزواج الآن، فعلي الرجوع سريعاً للبحرين فما زالت لي مصالح في بيع الكثير من البضائع، كما أني أطالب البعض بالديون التي يجب استرجاعها سريعاً منهم"، رأيت الشك والريبة في عينيه، ففاجأني قائلاً: "أظنك وقعت في حب أهل البحرين، لماذا استقر عملك في المحرق وانقطعت عن جماعتك في المنامة؟"، أصابتني انتفاضة، وصرت ضعيفاً أمام نظراته، لكني تماسكت وضحكت وفركت أصابعي كناية عن كسب المال، ثم لُذت بالصمت وتظاهرت بالتعب؛ حينها طلب مني الذهاب إلى البيت للراحة، وقال لي: "لا بد من إكمال هذا الحديث لاحقاً".

لم أذهب إلى البيت فليس لي طاقة على رؤية التقطيبة والتجهم على وجه زوجة أبي، وكان ذلك ديدنها عندما تراني، أجل لم أشتق لرؤية أمنا الغولة أو إخواني منها البتة. ذهبت إلى مزارع النخيل، فلاحظت تقلّص مساحتها، حيث تمت إبادة بعضها، كي تبنى البيوت والمنازل من حولها، أجل لقد انحسر النخيل كمثل انحسار ماء البحر أثناء الجزر، لكن كيف حدث هذا خلال عام واحد فقط؟ كيف هان عليهم نخيل الخير المليء ببركة الأجداد؟

انطلقت أجري حول امتداد حقول الأرز الحساوي، كالأسير الذي قد فُك قيده للتو، احتضنت بكلتا يدي ما تبقى من شجر النخيل، وغفوت قرب شجرة الرمان، ثم نمت نوماً عميقاً تحت تعريشة العنب، وعندما حان موعد عودة أبي إلى البيت الكبير، هرعت إلى هناك كي ألقاه، فوجدته واقفاً عند الباب يسأل عني، أجل لقد بدا متشوقاً إليّ أكثر مما ظننت.

في اليوم التالي جلست مع أختي وأبنائها جلسة مرحة جميلة، مما أسعد وجداني وأبعد عني التوتر والقلق. وعندما ذكرت لي موضوع الزواج قلت لها: "هل تصدقين لو أخبرك أحدهم أنني قد تزوجت في البحرين؟"، فصكت وجهها وقالت: "وهل فعلتها حقاً؟"، قلت: "المثل يقول: الكلمة التي تستحي منها، ابدأ بها"، فغرت فاها وجحظت عيناها وهي تردد: "هل خرجت عن طوع أبيك؟ لا، لا أصدق أن ذلك قد حدث بالفعل". شرحت لها حاجتي لذلك الزواج وظروف معيشتي الصعبة هناك، لكني تحاشيت ذكر البهلول كي لا أثير حنقها أكثر. بكت كثيراً وهي تقول: "لقد حرمتنا من الفرحة بك، وعصيت أباك يا أخي الحبيب"، توترتُ بشدة واضطررت إلى تدخين سيجارة. ولما رأتني على تلك الحال، غضبت وقالت: "تدخين السجائر محرم هنا، لقد خرجت تماماً عن سلوكك المستقيم، لا بد أن لأهل البحرين تأثيراً سيئاً عليك"، قلت في سريرتي مؤنباً نفسي: "يوجد هناك شرير واحد وشريرة واحدة فقط، آه لو تعرفين ورطتي الحقيقية يا أختي الحبيبة". انتابني شعور مبهم من الغيظ والغضب والإحباط، بل إن جميع المشاعر السلبية أحاطت بفكري وقلبي. ومما ضاعف من مشاعر الندم والحسرة، وجود بجانبي شخص مخلص في حبي وتقديري. قلت بانكسار شديد والدمع يغالبني: "لا يغلب القدر المحتوم إنسانٌ". سادت فترة من الصمت المليء بالبكاء المكتوم لكلينا. ثم قالت لي: "سوف يغضب أبي غضباً شديداً فاحذر ثورة الحليم إذا غضب، فلو كشفت له عن زواجك، ورددت خطبته لك في الوقت نفسه، تكون قد عصيته مرتين، وتلك كارثة الكوارث؛ لأنها فرصة أمنا الغولة كي تؤلبه عليك، ثم تؤجج غضبه حتى يطردك ويحرمك من الميراث". شعرت بتعقد الأمور ولم أتمكن من التفكير، فطلبت منها الرأي السديد، قالت بعد تفكير عميق: "أرى أن تكتم أمر زواجك في البحرين، وأن تقبل الخطبة من تلك الفتاة، فهي من الأشراف وعلى جمال وخلق ودين، يمكنك تأجيل زواجك منها، حتى ترى ما الذي يمكن فعله بشأن زوجة البحرين، وإني أنصحك بتطليقها لاحقاً".

وافقت مكرهاً على إتمام الخطبة بعد أن أقنعتني أختي برأيها، وكان هدفي الحقيقي هو كسب رضا أبي أولاً، حتى يسمح لي بالرجوع إلى العمل في البحرين، وثانياً كي يعطيني من البضائع الممتازة المتوفرة لديه بكثرة، ثَم كسب المال الوفير ولو لفترة وجيزة. وكي تخفف أختي من توتر الموقف قالت: "سوف أذهب غداً إلى الفتاشة (قارئة البخت)؛ كي تفتش لك عن

حظك مع النساء، وقد تبشرنا بقرب الافتكاك من زوجة الغفلة تلك التي تورطت بها". تمنيت ذلك من صميم أعماق قلبي، وقلت لأختي: "لك البشارة بمبلغ كبير من المال لو أخبرتك الفتاشة بذلك". تبسّم كلانا بعد ذلك التوتر المزعج وتحدّثنا في أخبار الأهل والمعارف. لم تعاودني أختي في خبر تلك الفتاشة، ولم أعرف في تلك الفترة ما كانت نتيجة التفتيش عن حظي مع النساء، لكن الطاهرة اعترفت لي في فترة زمنية متأخرة، بأن الفتاشة رأتني بين ثلاث نساء واحدة ممسكة بيدي اليمنى، والثانية بيدي اليسرى، والثالثة واقعة تحت قدمي. هل يعاكسني القدر؟ أستغفر الله ولكنها سلسلة من الأحداث المتشابكة التي تجعل لكل منا حصة من تلك الأحداث رغم أنوفنا حتى تكتمل الصورة الكونية. والحقيقة أن تغيرات أحداث الحياة بصورة عامة لا بد أن تغير شيئاً من حياتك، إما إلى الإيجابية أو إلى السلبية حسب وجهة نظرك، وطريقة تفكيرك وحسب نوعية الناس من حولك، إن لكل واحد من البشرية نصيبه من التغييرات حسب موقعه من سلسلة الأحداث.

في اليوم التالي أيقظني أبي مبكراً وطلب الجلوس معي منفرداً، فعرفت أنها ساعة إجباري على قبول الخطبة، كان أبي مثقفاً فصيحاً يجيد الحديث المنطقي المتناسق، وبدأ بخطبة طويلة عن أهمية الزواج اجتماعياً وفضله دينياً وفائدته جسدياً، ثم أردف قائلاً: "أشد ما أخافه عليك أن تضطر إلى الزواج من إحدى بنات البحرين، احذر السافرات منهن يا بني، فقد سمعت أن بعضهن منزوعات الحياء، وأن الشحاذة والسرقة قد توجد بينهن، وهن على غير تربية بنات الأحساء العفيفات نفساً وجسداً، اللاتي تربين على عزة النفس والحشمة والحياء، وهن المحجبات، فلا تغتر بنازعات الحياء ولو كن في قمة الجمال. فقد قال رسولنا الكريم: "إياكم وخضراء الدمن". لقد لطمني أبي مرتين بأقواله، اللطمة الأولى عندما عبّر بحدسه الصادق عن احتمال الزواج في البحرين، واللطمة الثانية بوصفه الدقيق الصادق للمرأة التي قد تزوجت. وافقت على خطبة الشريفة لكن طلبت من أبي تأجيل الملجة (العقد الشرعي)، فلم يوافق وأصر على ربطي بها شرعياً، وفي ظنه أن ذلك سوف يسرع بي بالعودة إليهم ثانية، وقد كان له ما أراد، وفي الحقيقة أنني لم أكن جاداً أو راغباً في الارتباط، بل أردت المهادنة في سبيل أن أحصل منه على كمية كبيرة من البضائع. في ذلك الزمان لا يشترط

الخاطب النظرة الشرعية لإتمام العقد، ولا يرى الرجل زوجته حتى بعد الملجة، وإنما يراها لأول مرة في ليلة العرس.

هكذا غادرت الأحساء بعد أربع أسابيع من زيارتي لها، دون رؤية زوجة المستقبل، وكانت وصية أبي أن لا أتأخر أكثر من ستة شهور، وقد وعدته بذلك. لكني أحسست بفرحة حقيقية لعودتي إلى عملي المربح. أقبلت إلى زوجتي في المنامة مبتسماً، وقد نسيت ما كان منها، وتهلل وجهها من الفرحة حين رأتني، لكنها بشرتني بحملها، فلم تبدُ عليّ الفرحة كما توقّعت هي، بل ساورتني الشكوك، وبدا ذلك جلياً على وجهي وفي سلوكي. تذكرت في طريق عودتنا إلى المحرق كل ما كان منها، وكيف أني عندما أخبرت أباها بتفاصيل السرقة، شتمها وضربها حتى أقرت واعترفت، كما عنّف أخاها وحذره من السفر خارج المنامة، لكني تلفتّ كثيراً في الطريق، خوفاً من رؤيته يسير خلفنا. التزمت الصمت معها حتى وصلنا إلى بيتنا في المحرق، وكأنها فطنت إلى شكوكي فقالت: "أنا حاملٌ وفي نهاية الشهر الثاني، وأنت لم تقضِ في الأحساء إلا أربعة أسابيع فقط". تنهدت وكأني اقتنعت بكلامها ثم قلت في نفسي: "بئساً لهذه الحياة التي أعيشها معك، تلك المليئة بالظنون والقلق والتوجس". لم ألبث في المنزل إلا قليلاً، وخرجت لأشتري قفلاً متيناً للمستودع، هكذا ستكون بضاعتي في أمان. صادفت بعض التجار في الطريق إلى السوق فتحدثنا طويلاً، وتأخرت عن الرجوع إلى المنزل، وبعد أن رجعت قفلت على البضاعة، ربطت المفتاح بخيط وعلقته في رقبتي، فالمؤمن لا يُلدَغ من جحر واحد مرتين، ورقدت في أمان.

في اليوم التالي أخرجت بعض السلع من المستودع وسجلتها في سجل الصادر والوارد، لكني لاحظت النقص فيها عن التسجيل السابق للسفر مباشرة، أحصيتها ثانية وثالثة، وذهلت، فقد تكرر النقص في البضاعة! إن الشيطان شاطر، لا شك في أن تلك الحية الرقطاء سرقتني أمس عندما ذهبت لشراء القفل، هل غادر أخوها المنامة ولحق بنا؟ لا ،، لا أظن ذلك، أين خبّأت تلك اللعينة البضاعة المسروقة إذن؟ كانت تتظاهر بالدهشة بينما أنا أنبش المنزل نبشاً سريعاً، لم أجد البضاعة المسروقة فهاجت أعصابي ولم أعد أتمالك نفسي، هجمت عليها وضربتها ضرباً مبرحاً، وضعت يدي حول عنقها فكادت تموت، وظهرت عليها نوبة الصرع، رششت عليها بعض الماء وقيدتها من يديها، وبعد أن أفاقت تماماً، لم أفك قيدها حتى أقرت بأنها قد خبأت البضاعة عند صاحب البقالة. هرعت إلى صاحب البقالة فقال:

"أجل لقد جاءتني زوجتك أمس وقالت إنها مسافرة للتو، وتركت عندي كيساً كبيراً كأمانة لواحدة تدعى فلانة، وقالت إن فلانة سوف تحضر لاحقاً لأخذ الكيس مني"، لكن لحسن الحظ أن لم تحضر فلانة التي لم أسمع باسمها من قبل. أخذت الكيس منه، ووجدت بضاعتي كاملة فيه، لكن جنّ جنوني من هي تلك الفلانة؟ هل هم عصابة إذن، لم أستطع العودة إلى المنزل، فقد كنت في هيجان شديد وربما أقتلها من شدة غيظي. تشاورت مع أحد أصحابي في أمر تطليقها فرد عليّ : "لقد قفلت على البضاعة في المخزن وانتهى الأمر، ولن تستغني عن هذه المرأة بعد أن تعودت عليها، وقد ذكرت لك أنها حامل، وسوف تلتهي بالطفل فيما بعد".

قلّبت الأمر على كل جوانبه فوجدت أنه لا مجال لي إلا الرضوخ للواقع المرير. لكني عندما رجعت في المساء لم أجدها في المنزل، طرقت باب الجيران وسألت عنها فوجدتها هناك، وكان جيران ذلك الزمان يتناصحون فيما بينهم؛ لذلك دعاني رب الدار للدخول إلى مجلس بيته، وألقى عليّ موعظته قائلاً: "إن زوجتك قد هجرت أهلها في المنامة من أجلك، وهي أمانة عندك، وأنت سيد من الأشراف، وذلك يعني أنك مثلنا الأعلى، ولا يجوز لك ضربها وهي حامل، كما أنها مصابة بمرض الصرع، كما قالت لنا، وعليك واجب الرحمة بها"، قاطعته في كلامه قائلاً: "أنت لا تعلم ما حدث بيننا ولا أريد الشرح والتفصيل، لكني أعدك بعدم ضربها ثانية".

أجل لقد أحسست بالذنب كوني تربيت في كنف أسرة عريقة طيبة، لم يمد أحدهم يده على امرأة يوماً قط؛ وقد عذرتها كونها تربت في بيئة خسيسة، جلست معها وأقسمت على القرآن بعدم ضربها، لكني عاهدتها على الفراق بالطلاق وبسرعة، لو كررت هي ما حدث أمس، وكاشفتها بما أخبرني به البقال من إدخال البضاعة المسروقة من الباعة المتجولة إلى بيتي، ولو سمعت بذلك ثانية فسوف يتم الطلاق سريعاً دون ضربٍ أو فضائح. وهكذا طويت تلك الصفحة إلى الا بد، وأظنها تابت إلى رشدها، بعد أن وجدتني جاداً في تكرار ذكر الطلاق الذي يرعبها ذكره.

طوال فترة حملها تساءلت عن مصير ذلك الجنين في رحمها، وهل سوف يطاله ذلك السحر القديم الذي ذكرته لي أم لا؟ وتمنّيت في قرارة نفسي ألا أُنجب منها، وأن أنهي قصتي

معها يوماً ما. ولكن ما إن حضر الوليد حتى تعلّقت به، إنه صورة طبق الأصل مني، وفي أول أيامه تبسّم لي بعذوبة فائقة، فدق قلبي بعنف، وفرحت به فرحة لم أعرفها منذ زمن طويل. سميته باسم أبي، ثم حملته إلى مطوع معروف بفك السحر، وهو شيخٌ يفهم في أمور الدين أيضاً، شرحت له قصة السحر القديمة، وطلبت منه الرقية والتعويذة؛ رد عليّ وهو يبتسم مشجعاً: "لا تخف عليه، أنت سيدٌ من الأشراف؛ لذلك تكون نطفتك محمية من السحر دوماً وأبداً، بل سوف يبارك الله لك في هذا المولود كونه سُمي باسم والدك"، وقد سجلت في دفتر مذكراتي ما يلي: "خرج إلى النور ولدي البكر في التاسع من أكتوبرعام ١٩٥٠"، دمعت عيناي من الفرحة، وتذكرت أسرتي في الأحساء، تمنّيت لو شاركتني فرحتي أختي الحبيبة ووالدي، لقد مرت عليّ سبعة شهور، وأرسل لي أبي المراسيل يستعجلني بالعودة، وكان لا بد لي من العودة، وحمل صورة المولود معي، فلعل قلب أبي يرق عليه وعليّ.

ألا ما أبهج عرسي في موطني

لم أنم تلك الليلة التي قررت فيها السفر إلى موطني، وتناوشتني الوساوس كما تتناوش الذئاب الفريسة الميتة، تخيلت ولدي البكر وقد كبر لكنه أخفى أمر زواجه عني! فكيف أتقبل ذلك وما هي ردة فعلي؟ شعرت بتأنيب الضمير المرير، ماذا لو غضب عليّ أبي غضبة لم يرضَ عليّ بعدها أبداً؟ لكن ربما يشفع لي أني لم أتكبر عليه أو أعصي له أمراً أبداً، ورغم استقلاليتي بعملي التي لم تعجبه أيضاً، أرادني شريكاً في المال مع إخوتي طوال عمري، وذلك بوضع أرباح المال الذي أشقى وحدي في جنيه في رأس المال عنده، وهو لا يفتأ تذكيري بأن المال كله حقٌّ لجميع أفراد العائلة. كيف يكون ذلك وأخواي لم يعملا معه، بل قضيا الوقت بين المدرسة والبيت، أكبرهم الآن في سن الثانية عشرة ولم يقم إلا بتقديم بعض المساعدة لوالدي في المتجر أيام العطلات! طمأنت نفسي وقلت لها: قد يشفع لدى والدي أنني كنت ساعده الأيمن منذ دخلت السابعة من العمر وحتى اليوم. وكنت طوال الليل أردد لنفسي:

إن الأمـــورَ إذا التـــوتْ وتعقّـــدت ❋ نـزلَ القضـاءُ مـنَ السـماءِ وحلّهـا
فاصــــبرْ لهـــا فلعلّهـــا ولعلّهـــا ❋ ولعــلّ مَــن خلـقَ الفضـاءِ يحُلّهـا

لم أتأخر طويلاً في المنامة، وحرصت على أن أحمل معي الهدايا مما خفّ حمله وغلا ثمنُه، وكعادتي بادرت إلى أختي الطاهرة أولاً، فوجدتها قد نضجت وازداد جمالها، خاصة عندما رأتني وتهلل وجهها، وفرحت كثيراً عندما تفحصت الهدايا الثمينة، عانقتني وشكرتني. قلت لها هديتي الكبيرة جداً لم تظهر بعد، وكنت متأكداً من أن ردّة فعلها هو البكاء من الفرحة عند رؤية صورة وليدي، لكنها خيّبت ظني، قطبت جبينها وقالت: "ظننت أنك أعقل من ذلك، كيف تُنجب منها وقد ذكرت لي كثرة عيوبها، وقد وعدتني بإعادة النظر في زواجك منها؟ وتلك الشريفة التي تنتظرك، ماذا نقول لها يا تُرى؟"، رددت عليها: "أقول كما قال الشاعر الفارس أبو فراس الحمداني:

أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى * ولا فرسي مُهرٌ ولا ربّهُ غمرُ

ولكنْ إذا حَمّ القضاءُ على امرئٍ * فليس له برٌّ يَقيه ولا بَحرُ

سوف أتزوج الشريفة من أجل تطييب خاطرك وخاطر أبي، لكن أرجوك ساعديني على الاعتراف له بزواجي في البحرين"، صرحت لي بإستياء بادٍ على وجهها الجميل: "لقد تسرّبت بعض الإشاعات عن زواجك، فلما سألني والدي لم أنكر ولم أعترف؛ لأني لا أعرف ماذا حصل بالضبط بعد غيابك عني؟ وهل نفّذت وعدك بإعادة النظر في أمر زوجتك تلك أم لا؟"، حولقت كثيراً وقلت: "يا أختي الحبيبة لا تكوني أنت والزمان عليّ، أرجوك كوني حاضرة عندما أعترف له"، ويبدو أنها تأثرت بحديثي فاختطفت مني صورة الوليد وقبلتها وقالت: "يشفع للوليد عندي أن وجهه نسخة مصغرة منك، سأعزم أبي على الغداء بعد الغد، فكن مستعداً فيما سوف تقوله، لكن لوّح له بالقول إنك تفكر في طلاق زوجة الغفلة".

لم أجلس مع أبي في المنزل إلا قليلاً، لكني لمّحت له أن لي عودة إلى البحرين لا محالة، وقد ظنّ حينها أنني سوف آخذ زوجتي الجديدة معي، فطلب مني إتمام إجراءات الزواج سريعاً. ثم أمرني بالذهاب إلى السوق مع زوجته لشراء جهاز العروس من ملابس وحُلي ذهبية وغيرها. وقد وجدت بعض اللين في معاملة زوجة أبي لي، ربما لكونها علمت بكسبي الكثير من المال في البحرين، وقد تأكدت أن معظمه يصبّ في مصلحة أبنائها مستقبلاً. تأمّلت تقاطيع وجهها

الجميلة، وتذكّرت كيف كانت تنقلب كالشيطان الرجيم عندما تصرخ علينا وتعاقبنا نحن التوأم لأتفه الأسباب.

عندما ذهبت معها نجوب الدكاكين، وجدتها تختار الرخيص والبسيط من الملابس، وتتجاهل كل ما هو غالٍ وثمين، فلم أرغب أن أشتري معها شيئاً، طلبت منها تأجيل الشراء إلى الغد، متعذراً بأنه يجب جس نبض السوق والأسعار أولاً قبل الشراء. ثم أكملت طريقي متجولاً وحيداً في تلك الأسواق الضاجة بالحياة وبالحركة السريعة، يا الله كم تشوّقت في غربتي لتلك الدكاكين العتيقة المليئة ببركة الأجداد، وكم وحشتني أصوات الباعة المتجولين، وهم ينادون على بضائعهم باللهجة الحساوية المُحبَّبة إلى قلبي، صرت أتلمس تلك البضائع وأتذوّق الأغذية التي لا مثيلَ لها إلا في أحسائي العزيزة، ولم أرها على الإطلاق في أسواق البحرين، على الرغم من كثرة وتنوع البضائع هناك.

ولما صار الغد لم أتحمل البُعد عن أختي، طرقت بابها باكراً فوجدتها لا تزال مشغولة بتجهيز الوليمة، أبلغتني أنها قد تشاورت مع زوجها فأمرها بالتكتّم على الأمر، حتى يتم زواجي من الشريفة، ويرتاح أبي نفسياً، ثم يمكن تهيئته للصدمة فيما بعد. لم يسرني ذلك الخبر، فمعناه أن عذاباتي سوف تطول، وعندما يعرف أبي فلن يخفي الأمر طويلاً عن والد العروس، كيف يكون حال العروس لو علمت بذلك لاحقاً؟ سوف يتعكّر قلبها عليّ، كذلك قد يحقد أبوها عليّ؛ كوني غششته بعدم التصريح له بزواجي. لم يعرف قلبي الخوف والإضطراب من قبل، كنت مثالاً للشجاعة والإقدام والتفاؤل، لكن خسرت ذلك كله في موقفي الصعب هذا.

حاولت التلهّي حتى يوم العرس المحتوم عليّ، في أوقات الصباح كنت أذهب مع أختي إلى السوق لنشتري "الدزة" (حاجيات العروس من ملابس وحلي وغيرها)، ثم نضعها في صناديق معدنية مذهبة خاصة بحفظ الدزة، وقد تم شراء الصندوق المُبيت الغالي الثمن، الذي يصنع من الخشب المزخرف وفيه مخابئ سرية لحفظ الحلي والنقود. كذلك كان لا بد من تهيئة احتفال خاص بالنساء للنظر وفحص الدزة في بيت العروس لمعرفة ما ينقص منها، وتبليغ أهل العريس لإكمال النقص قبل يوم العرس، وعلى ذلك يجب أن تكون حفلة الدزة قبل يوم العرس بأسبوع. أما باقي وقتي وحتى المساء، فقد كنت أدفن نفسي في البساتين، أشكو للنخيل

همي، وأسرق منها بعض الفخامة والثقة بالنفس، ثم أعانق أغصان شجر الرمان الهفهاف، عسى أن يعطيني بعض الرقة والعاطفة والحنان، وقد أبكي حول أغصان الليمون عسى أن تُخفف عني روائحه الزكية، جلد ذاتي وعتابها. وأحياناً أقضي يومي كله في القراءة تحت تعريشة العنب حتى يغرق اللون الأورجواني للشمس في سعف النخيل، فاقفل راجعاً منكسراً إلى البيت الكبير. كنت أدخن أكثر من علبة سجائر في اليوم الواحد سراً، لكن بعضهم راقبني ثم وشى بي لفردٍ من أسرتي، وذات يوم اقترب مني أبي وتشمم رائحة ملابسي فجأة، وهكذا اكتشف السر الأول، فغضب منيّ غضبة كبيرة فقد كان التدخين موازياً لشرب الخمر في ذلك الزمان، قاطعني ولم يكلّمني يوماً كاملاً، لكن فرحته بقرب يوم عرسي خففت من غضبه قليلاً، وقد طلبت رضاه، وقطعت عليه العهود والوعود بالتوقف عن التدخين.

من العادات الشعبية القديمة في الأحساء وفي بعض دول الخليج، أنه لا بد من قدوم المعرس أولاً إلى بيت العروس في ليلة العرس؛ حيث يزفه الرجال بالصلوات على النبي والأهازيج الخاصة بتلك المناسبة، وذلك بعد تناولهم وليمة العشاء مبكراً في بيت أبيه. ويجلس منتظراً حتى تُزف إليه العروس وهي في كامل زينتها في غرفة خاصة في بيت أبيها تسمى (الخلة)، وهي غرفة خاصة بالعروسين تكون الجدران فيها مغطاة بقماش أخضر، كما تثبت فيها الكثير المرايا بمختلف الأشكال والأحجام، تلك المرايا لا بد أن تكون مزينة برسومات من أزواج الطواويس المتقابلة، أو أزواج من الطيور الملونة تيمناً وتفاؤلاً بدوام السعادة بين العروسين. أما أرضية الغرفة فتكون مغطاة بالزوالي (السجاجيد وقد تُسمى الزل) والتي يوضع فوقها المساند والفرش المزركشة، من أجل جلوس الضيوف القادمين لمباركة العروسين في صباحية العرس. في ليلة الزفة لا بد أن تنثر أم العروس المشموم (نوع من الريحان زكي وقوي الرائحة) الطازج فوق سرير العروسين، كما يتم تبخير الأثاث كله بالعود الثمين طيّب الرائحة. تتجهز العروس قبل موعد العرس بيوم واحد، وذلك بالذهاب إلى عيون الماء بين النخيل لفرك البدن جيداً وغسل الشعر باستخدام السدر المخضود.

في الليلة السابقة للزفاف تكون حفلة الحناء للنساء فقط، حيث تنقش الحناء على كفوف وأقدام العروس وبعض أهلها. والجدير بالذكر أنه في بعض دول الخليج، قد كان يتم الاتفاق على الملجة وموعد العرس دون معرفة العروس! ويتكفل ولي أمرها بشؤون العرس

جميعاً، وربما لا تعلم العروس به إلا في ليلة زفافها! ومن الغريب أنه في تلك الدول تُحمَل العروس إلى عريسها، وهي جالسة على سجادة يمسكنها أربعة نساء من أطرافها، وعندما يدخلن بها على العريس ينفح كل واحدة منهن مبلغاً من المال جزاء حملهن لها إليه! بينما تُزف العروس في الأحساء وهي تمشي على رجليها، دليل على الموافقة والفرحة بالعرس، ومن خلفها تمشي أمها وأخواتها وجميع قريباتها، وهن يلهجن بالصلوات على النبي وبالأناشيد الخاصة بتلك المناسبة، وأتذكر مما قيل ما يلي:

الشريفة في أمانيها... مليحة في معانيها... تجلت وانجلت حقاً... سألت الله يهنيها.

في الأول من ديسمبر عام ١٩٥٠م تم عرسي الثاني، واستمتعت كثيراً بمراسيم هذا العرس وطقوسه الجميلة جداً، شعرت بوجودي في تلك الخلة المزينة وكأنني في الجنة مع واحدة من الحور العين. وبالمقارنة كنت أتذكر وأقول لنفسي: "ما أذلّ وأتعس ذلك العرس الذي صار في البحرين، وتم سريعاً وبسيطاً جداً"، كما أنه لا وجه للمقارنة بين العروستين، وكم أنا نادم بل متحسرٌ على تسرعي في إتمام زواجي الأول، وأظنّ أني سوف أندم عليه طوال عمري. لا أعرف كيف أمضيت مراسيم عرسي هذا متظاهراً بالفرحة والسرور، لكني في باطني كنت شاعراً بتأنيب الضمير الأليم، وكأني خدعت العروس وأهلها. لكن ما خفف مصابي أني وجدت العروس جميلة جداً، أي جمال هذا الذي يختفي تحت غطاء وجهها، إنه العسل يتدفق من عينيها المستديرتين اللتين تطلان عليّ باستحياء كما تطل شمس الشتاء الدافئة من وراء السحب، لها وجه مليء مستدير كما هو القمر في ليلة تمامه، ويكشف اسوداد حاجبيها الكثيفين بياض وجهها النقي من كل شائبة، شعرها فاحم السواد، وفي وجهها طفولية وبهاء خاص بالأشراف دون غيرهم من البشر، إنها آية للا بداع الإلهي في خلق المرأة الخجولة العفيفة. كان عيبها الوحيد هو نحولها وصغر سنها، فقد أتمت لتوها الخامسة عشرة من عمرها، كانت هادئة وحيية (شديدة الحياء)، بريئة وبسيطة، وبالطبع لا تعرف دهاء تلك الحية الرقطاء في البحرين، طباعها وكلامها وحركاتها وسكناتها شبيهة بجدتي وأختي، على عكس طباع تلك الزوجة اللئيمة. في الصباح الباكر وجدتها قد استيقظت قبلي، قمت إليها وضممتها إلى صدري، فوجدت لها عرقاً طيباً كأنه يعبق من شجيرات الورد والياسمين. بعد أسبوع من العرس قضيناه في بيت أهلها، حان نقلها إلى بيت أبي، ولما كانت ترتب حاجاتها

في غرفتنا كانت تدندن بأغنية شعبية، وكان غناؤها الشجي شديد العذوبة، يا لصوتها الحنون الذي كأنه هابط من السحاب، ولفتاتها التي تسحر اللب والقلب. أحببتها كثيراً وشعرت بالانتماء الشديد لها، رافق وجودي معها مشاعر لذيذة من الهناء والسكينة والاطمئنان. تأكدت من أن خطئي فادحٌ وكبير، فالذي يتزوّج من غير موطنه لفي خسران شديد، شعرت بمدى همجيتي وتسرعي في زواجي الأول، وقررت أن أنهيه قريباً. وبالرغم من أنه لم يمضِ على عروستي إلا بضعة أيام في بيت أبي، فقد تأقلمت مع أفراد الأسرة سريعاً، كانت مطيعة لزوجة أبي، لا ترد لها أمراً ولا تناقشها في أي شيء، مما جعل تلك الأخيرة متسلّطة عليها بشدة، لكني لم أستطع الاعتراض والتسبب في المشاكل، فأنا مفارقهم قريباً.

<u>كيف تم الاعتراف لوالدي بزوجة الغفلة؟</u>

بعد العرس بأسبوعين، رتّبت أختي اجتماعاً مغلقاً في بيتها، أوصتني بالحديث الهين اللين مع والدي، ساندتني وأنا أشرح لأبي أنه لا يمكنني ترك البحرين في الوقت الحاضر، لأسباب كثيرة تتعلّق بالديون التي أطالب الزبائن بها، والبضائع التي تركتها هناك قيد البيع، وهو ما سوف يحقق لي الربح الكثير. لم يتعجّب أبي من هذا الحديث، بل رد علينا قائلاً: "إن كان ولا بد من ذلك، فيجب أن تأخذ زوجتك معك"، قاطعته أختي قائلة بشكل فجائي: "يا أبتي، لقد كانت الغربة قاسية والوحدة شديدة عليه، أرجوك تلمس له العذر، فقد تزوج هناك"، تجمّد أبي في جلسته، واصفر وجهه وكأن السقف قد وقع عليه، لكنه كان كعادته رابط الجأش لين العريكة، خفيض الجانب، تنهّد وحوقل طويلاً، ثم قال بحسرة شديدة: "لقد أحسست بذلك لكن منذ متى؟" أخرجت له صورة الوليد، وقلت: " أوشك ولدي أن يكمل الشهرين وهو سِميك" (تمت تسميته على اسمك) فشهق شهقة كادت تودي به، وقرر أن يترك المجلس، فلم تسعفه قدماه تعلقت به وقبّلت رأسه، بينما قبّلت أختي ظاهر كفه اليمنى وقالت: "يا أبتي هون عليك، إنه مجرد زواج عادي وقد نتج منه وليدٌ برئ هو حفيدٌ لك، هون عليك يا أبتي فلم يمت أحدٌ منا"، قلت بانكسار شديد تعمدت أن تظهر آثاره عليّ: " عندما تزوجت يا أبتي واستبدلت أمنا بواحدة أخرى لم تطلب رأينا، لكننا بعد أن كبرنا تفهمنا حاجاتك وعذرناك، أرجوك سامحني، لقد كانت لي حاجاتك نفسها، وشعرت بوحدة شديدة هناك"، روعتني نظرات عينيه المقهورة، بل فزعت من قسمات وجهه المتألمة، لكن أبي لم يكن عنيفاً في يومٍ

ما، أجابني بذل وانكسار: "لقد حذرتك من فعل ذلك، وظننتك دوماً صادقاً معي، واعتبرتك سندي وذراعي اليمين، وقدوة لإخوتك، لكنك خدعتنا جميعاً، ماذا أقول لأهل زوجتك الشريفة"، تدخلت أختي قائلة: "لا تقل لهم شيئاً فهم لم يسألوك إن كان قد سبق له الزواج، أم لا؟ وسوف يتفهمون الوضع لاحقاً". وتكفّلت أختي لاحقاً بعد سفري، بنقل الخبر لهم، ولا أدري حتى اليوم كيف فعلت ذلك؟ أو ماذا كانت ردة فعلهم؟

أما دوري بعد جلسة المصارحة مع أبي، فقد تلخّص في ملاطفة زوجتي والتوضيح لها مع افتعال الحزن الشديد، بأني لن أتمكّن من اصطحابها معي حالياً، وذلك لأسباب تتعلق بالعمل، وتجهيز المسكن المناسب لنا هناك. وعندما خاب ظن العروس، وتحققت بأنها لن تلحق بزوجها في البحرين، لم تشتكِ أو تبكي، وإنما تصبّرت وصمتت طوال فترة زواجنا على أمل اللحاق بي في المستقبل القريب. وفي ليلتي الأخيرة، وقد كان موعد سفري صباحاً، ناحت وبكت وتعلقت بي كالغريقة، ثم شكت من قسوة ألفاظ وسلوك أمنا الغولة معها، وطلبت بحرقة شديدة الذهاب معي. أجل لقد بادلتني حباً بحب، فكان أن تعاهدنا على لقاء النجوم. كان الوقت ربيعاً وكنت أحب ملاعبتها كالأطفال فطلبت منها تسلق ظهري والتعلق برقبتي، ثم حملتها في منتصف الليل إلى سطح البيت وأشرت إلى نجم سهيل الذي كان بازغاً ومتلألئاً في ذلك الوقت كأجمل ما يكون، قلت لها: "هذا هو المرسال بيننا، حدثيه عن كل شيء يخطر ببالك، وهو سوف يحمل لي حديثك كاملاً بكل تفاصيله، كما أني سوف أبلغه في كل ليلة عن أحداث يومي كي يوصلها إليك، أما عن أشواقي فسوف يبثها لك بضوئه البهي، على أكمل وجه وأتمه، وليكن موعدنا بعد منتصف الليل عندما ينام الجميع"، أعجبتها كلماتي وأظنها صدقت حديثي ثم غفت بين ذراعي سعيدة هانئة.

قضيت قرابة ستة أسابيع من الهناء والسعادة مع زوجتي، ودعتها وداعاً مؤثراً مؤلماً لكلينا، ثم قبّلت رأس أبي مودعاً، وتعجبت أنه لم يأمرني بطلاق الأولى بل طلب مني رؤية الحفيد في أقرب وقت ممكن، وقد ظننت أن الجفوة قد زادت بيننا بعد كل تلك الأحداث؛ لكنه قال لي بكل مودة: "وصيتي لك إخوتك الصغار لو أصابني مكروه"، أجبته بحزن صادق: "لك طول العمر بإذن الله يا أبي، لكني أعاهدك على العناية بهم، وربما آخذ كبيرهم إلى العمل معي في البحرين، إنها أرض المال والسكر فعلاً". احتضنني وقبّلني طويلاً، وبالرغم من ذلك لم

أشعر بحبه لي، وفسرت حنانه عليّ بأنه تعبير عن فرحته بضمان مستقبل ولديه معي. ألا ما أشد سوء ظن البعض مع والده، فأنا اكتشفت مؤخراً بأني قد ظلمت والدي، فقد وجدت بعد وفاته أنه قد كتب في دفتر مذكراته عن تلك الواقعة ما يلي: "ودعت ولدي الجلمود اليوم، وبالرغم من استيائي في عدم استئذانه مني وإخفائه زواجه عني، فإنني لم أستطع إلا طلب رؤية ولده الذي في البحرين، لقد منحني أول حفيد لي، فكان ذلك سبباً لبهجتي وسروري، تماماً كما كان هو بكري وأول فرحتي في الحياة. كم أعشق شجاعته وجرأته، وكم أتألم لفراقه وأخاف عليه، لكني أخشى إظهار خوفي عليه حتى لا أقلل من رجولته، كما أني لا أحب إظهار الحزن على فراقه أمام أولادي وزوجتي حتى لا أتهم بالتحيز له، عاطفة الأب تجاه أولاده لا تقل أبداً كلما كبروا بل ربما تزيد، هم قد لا يشعرون بتلك العاطفة، يغطيها عن بصيرتهم اعتزازهم بأنفسهم، وسعيهم المتواصل لإثبات جدارتهم. لقد وافقت مكرهاً على عمله في بقيق حنواً عليه من شجاره الذي لا ينتهي مع زوجتي، تلك التي لا قدرة لي على مجاراة لسانها السليط. وقد تعجّلت في زواج ابنتي الطاهرة كي أعتقها من قسوة زوجتي، كنت أعلم بغيرتها من جمال ابنتي مقارنة بابنتها، وكم كانت تكرهها، لكني لا أستطيع كسر أوامر تلك المرأة ذات الشخصية الحادة حتى مع أبنائها. الناس يظنون أني أحابي زوجتي وأولادي منها على حساب التوأم، لكني أتظاهر بذلك فقط كي أريح رأسي من الشجار معها فهي امرأة لا تقهر، كما أن جمالها آسر. لكن الحقيقة أن أيتامي أغلى على قلبي من أبنائي منها، وعندما كانت أمي تظلهم بظلها كنت أهدأ بالاً، وأشد اطمئناناً عليهم، لكن بعد وفاتها لم أجد بداً من إقصائهم عن تلك المرأة القاسية. وأظنهم أسعد حالاً في بُعدهم عنها وعني، وكما يقول المثل: "عساك سعيد وأنت بعيد". يظن الجميع كما يظن ولدي الجلمود أنني لا أعصي لها أمراً لأنني غارق في حبها، وهذا غير صحيح البتة، وحدها ابنتي الطاهرة التي تفهّمت سلوكي معها، وقد أسرت لي يوماً أن ما أفعله من تحاشي غضب تلك المرأة هو عين الحكمة والعقل، وأن سماحي بسفر الجلمود هو لصالحه، ومفيد له في تقوية شخصه وزيادة علمه. ولن يعرف أحدٌ أن الولد البكر عزيز جداً على القلب، حتى يكون له بكرٌ من الولد، وأظن الجلمود قد تفهّم ذلك مؤخراً عندما أصبح له ولد. وقد يظن ولدي الجلمود أنني أفضّل أولادي عليه وهذا غير صحيح، كما يظن أني أستغل نجاحه في عمله، وأسعى جاهداً لضمان مستقبل أولادي معه هناك، وأن هذا ما يهمني

فقط، آه لو يعرف أنه من يشغل الفكر والقلب في بُعده عني. لكن حديثي الأخير معه قبل سفره أسعدني جداً، فقد أثبت لي أنه نضج تماماً، وأن الصراع مع زوجتي لم يؤثر على تمام مشاعره مع أخويه، وقد كبر في عيني أضعافاً مضاعفة، بل صعقني برجولته الكاملة عندما أظهر لي استعداده لرعايتهم، وربما أخذهم معه للعمل في البحرين في يوم ما.

كم يخدع الناس مظهري الهادئ الوقور، وكم أخفي الهم والضيق والقلق، ثم الخوف من الله أن أكون ظالماً في معاملة أولادي بالعدل وعلى قدم المساواة. ولشدة قسوة تلك المرأة، لم أرغب في إنجاب المزيد من العيال، وصرت أتجنبها، لكن لسانها السليط لم يرحمني وصارت تتهمني بالعجز. لكني وجدت راحتي في تجاهل ألفاظها، وتركها تفعل ما تشاء، وتسيطر على البيت كما تحب. أهرب منها بدفن نفسي في العمل المجهد، وسهر الليل في التهجد والتلاوة والدعاء. لا أحب اللغو معها، ولا ترديد السباب الذي توجه لي، فقد حرصت دوماً على اختيار من القول أحسنه، وأن لا أذكر السباب والشتائم، ولا السيئ من القول أبداً؛ ذلك لأن رسولنا الكريم – صلى الله عليه وسلم- قال: "ليس المؤمن بالسباب ولا اللعان ولا الفاحش البذيء".

أما أنا فقد كان لابد لي من العودة إلى البحرين والسهر مع النجوم وكان ذلك في يناير عام ١٩٥١. جاذبتني الأفكار الشائكة في مركب العودة إلى البحرين، فقد وجب عليّ الاختيار من بين ثلاث خيارات، هل أترك الشريفة مع أمنا الغولة؟ أم آخذها لتعيش مع زوجتي الشريرة؟ أم أفتح بيتاً خاصاً بها في البحرين أو في الأحساء؟ لكن ليس لدي القدرة على فتح بيتين بعد، أنا أعشق زوجتي الثانية وأكره الأولى، ولا بد أن أفكر جدياً في طلاق الأولى، لكن الأمور تحتاج إلى ترتيب وسرية شديدة؛ فهي شديدة البأس والسطوة. عندما عدت إلى البحرين تكتمت على زواجي الثاني حتى عند أقرب الناس لي، لكني وفيت لزوجتي الشريفة بوعدي، وعلى الرغم أن الوقت كان شتاء، فإنني في كل ليلة كنت أصعد إلى السطح وأسامر النجم، أشكو إليه وأسمع شكواه، وأنا أردد أبياتاً من شعر محمود الغنيم:

مَــالِي ولِلــنّجمِ يَرعــاني وأرْعَــاهُ ❋ أمْسَـى كِلانـا يَعـافُ الغمـضَ جِفْنـاهُ
لــي فيــكَ يــا ليــلُ آهــاتٌ أُرَدِّدُهــا ❋ أوّاه لَــو أَجْــدَتِ المَحْــزونَ أوّاهُ

ثم أتخيل صوت المحبوبة العذب يخترق الفضاء ويبوح لي بكل الأسرار، أحاورها ثم أسمع صدى ضحكاتها الرنانة التي تغسل كل جراحي وآلامي في البُعد عنها. أظن النجوم ترقص فرحاً عندما تنظر محبوبتي إليها، وأظنها ترسل مزيداً من الأشعة والضوء فرحاً وبهجة عند رؤياها، لكن دون أن يطغى نورها على نور الحبيبة. لقد أصبحت شاعراً بين ليلة وضحاها، وكتبت في محبوبتي الشريفة الحساوية أجمل عبارات العشق والغزل، كما أحسنت اختيار رونق الكلمات، لقد أوحت لي النجوم بالانسياب العاطفي الغريزي الذي لا حدود له، عوضني التحديق في تلك النجوم عن جوانب عميقة في مشاعري. أجل في سماء الليل يجد العشاق ضالتهم، تسحرهم السكينة والهدوء فتنجلي أحلامهم، وتتجدد رؤاهم فتكون الحقائق واضحة في قلبهم. أما لمعان النجم فيخترق قلب العاشق لشدة ضوئه، ولا يدري أن بريق عينيه يكون أشد لمعاناً من النجم، لكن فقط عندما ينظر العاشق إلى محبوبته.

وذات ليلة كتبت لها ما يلي: "لقد عشقت النجوم لسبب واحد، وهو أنها ترنو إليك وتشاهدك في الوقت ذاته الذي أشاهدها أنا فيه. وفي الوقت ذاته الذي تتمتعين أنت بنورها، أنا أتمتع بضوئها الخلاب، بالإضافة إلى نورك البهي الذي يطغى على نورها، وأظن أن بعضاً من ضوئها هو ضوؤك أنت أيتها الشفافة الرقيقة، أنت يا أجمل ما في الكون، لم ولن تشاركك في قلبي أية أنثى أبداً. أرجوك اغفري لي ما خبّأت عنك، سامحيني بقدر حبي واشتياقي لك؛ إنني أحب النجوم لأنها تنظر إليك الآن، وأرسل لك من خلالها الكثير من القبلات، أحادث نجم سهيل وأوصيه خيراً بك، فهل يا تُرى تصلك تلك القبلات والوصايا، هذه النجوم التي لا تعدّ ولا تحصى قد كتمت أسرار وقوانين الكون والزمن لملايين السنين، وحرياً بها أن تكتم أسرارنا، كما أنها جديرة بأن نبث إليها همنا وشكوانا". ألا ليتني أجد من يوصل رسائلي لها سراً دون أن يفتحها أحد، أنا أعرف أنها تجيد قراءة القرآن الكريم، وقد تتمكن من قراءة رسالتي، لكن المرسال لا بد أن يمر بوالدي أولاً ليعطيه الرسالة وقد يفتحها أبي أولاً، لا لن يحدث هذا، تلك الأسرار العاطفية ليس لها مكان إلا بين قلبين فقط، وسوف أسلمها لها باليد عندما يجمعنا الزمان ويطل علينا بسعده.

في البحرين كنت أكسب الكثير من تجارتي، لكني لم أعش إلا بضع أيامٍ جميلة مع أسرتي الصغيرة، لأنه للأسف عندما تماثلت الأم للشفاء، ظهرت على وليدها نوبات الصرع أيضاً،

أحببت وليدي البريء كثيراً وخشيت من فقده، ولم يخفّف من حزني إلا إمام المسجد الذي كان يقرأ عليه آيات من القرآن الكريم وبعض الأدعية الخاصة، وقد حفظتها منه عن ظهر قلب وصرت أدعو بها على جميع أطفالي فيما بعد. هذا المولود البريء يشعل في قلبي السرور، ويغمرني فرحاً بالحياة، وهكذا كنت دوماً كلما يُولَد لي مولود جديد، أجده مختلفاً عمن سبقه، ويظل يسكب في عالمي بهجة وفرحة مغايرة لكل الأفراح التي عشتها من قبله. وإنني أتساءل اليوم كيف صبرت على زوجتي الأولى، والتي كانت تمارس دوماً التذمر والسب والشتائم حتى مع طفلها الصغير، كم كتمت حزني وآلامي، أحياناً يفيض بي الوجع من سوء ألفاظها، وكم عنّفتها على ذلك، لكن المثل الخليجي يقول: "بو طبيع ما يجوز عن طبعه". لم أتعود على سماع السباب واللعن والشتائم القبيحة من قبل أهلي، ولم أسمعه أبداً من زوجتي الثانية العفيفة المؤدبة. تمنيت لو وجدت الأسباب القوية التي تفكني من تعقيد مشكلتي، لكني وللأسف الشديد كنت أؤجل طلاق الزوجة الأولى مرة بعد أخرى؛ لأنني كلما قررت طلاقها وجدت القدر يتحداني مرة ثانية، فبعد مرور أشهر معدودات على ولادة الطفل الأول كانت حاملاً مرة أخرى، وهكذا تكرر الأمر حتى أصبحت مُلزماً بها قدر التزامي بأولادي. وبعد مرور ستة أشهر كاملة على رحيلي من الأحساء، كدت أموت شوقاً لزوجتي هناك، إن مجرد ذكرى وداعها يفتت كبدي، ويشعل أشواقي لضمها بين ذراعيّ، لكن ما يصبرني على ذلك هو تخيلها معي بين النجوم تفتح ذراعيها فرحاً بعودتي. تركت الزوجة النكدية عند أهلها، وقفزت في المركب فرحاً بعودتي إلى الأحساء، كي أضم الحبيبة بين ذراعي.

العودة إلى الأحساء قبيل منتصف عام ١٩٥١

كم أنا خجلٌ من أبي، لقد وعدته بحمل طفلي الصغير إليه، لكنني لم أتمكن من ذلك بسبب أنه مازال رضيعاً ومريضاً. سرت مسرعاً في دروب الأحساء، ولأول مرة أمر على أبي في المتجر قبل أن أرى أختي، قال لي وهو يضج بالفرح والسرور: "الزوجة الجديدة عجّلت بعودتك هذه المرة، أليس كذلك؟"، ضحكت وقلت له: "وشوقي لك أيضاً يا أبي، لم أعرف قيمة الأب حتى صرت أباً، سامحني على كل ما بدر مني سابقاً، وسامحني لعدم إحضاري ولدي البكر وسِميَك معي، فقد كان مريضاً جداً"، ثم استعجلت العودة إلى المنزل، فقال لي باستياء شديد: "تلطف مع الشريفة فقد عرفت وأهلها بوضعك في البحرين، واستسلموا للأمر الواقع

لكن أباها لا يزال غاضباً"، صمتُ ولم أجد جواباً، ثم وجدت جسدي يتصبب عرقاً خجلاً منها ومن أهلها، عجباً لم تحدثني النجوم إلا بكل خير، ولم أرها في الحلم حزينة أو معاتبة، هل الحب الصادق الذي تكنه لي هو ما يمحو كل أسباب الغضب والجفاء؟ لست أدري بأي وجه أقابلها؟ لكني جلبت لها معي أطناناً من العشق والوله ولعل ذلك يشفع لي. لكن ويا للعجب! فقد وجدت زوجتي بكامل زينتها وقد وصلها خبر عودتي، لم أصدّق عينيّ عند رؤية هدوئها وجمالها الخلاب. بادلتني شوقاً بشوق، ولم تعلّق على أي شيء آخر، ثم ذكرت لها حديث الزوجة الأخرى قائلاً بحزن: "ما كان مني في البحرين حدث غصباً عني، ويشهد الله أنك الوحيدة في قلبي"، سكتت هنيهة ثم قالت في نبرة لا تخلو من الامتعاض والاستسلام في آنٍ واحد: "لقد أخبرتني أختك أن ذلك كان حقك من الشرع والدين، خاصة أنك في بلد بعيد عن أهلك، وقدرت لك أنك لم تذكرها لي حتى لا تحرق قلبي، فالمثل عندنا يقول: عدوك من بلغك وليس من قال فيك".

صمت خجلاً من أدبها في الحديث معي، وعجبت كيف لم تتزعزع الجدران من شدة فرحتي بجوابها وجميل لقائها بي. لكن تلك البهجة طارت مني عندما شكت وبكت من ظلم زوجة أبي لها، واعترفت بأنها تشتكي لأبي وهو يُهوّن عليها أحياناً، وقد أحضر لها قطعة من القماش الغالي لتطييب خاطرها، فاستولت عليها زوجة أبي، وقفلت عليها في صندوقها المعدني، وعندما عرف أبي بذلك، قام بكسر الصندوق بيد الهاون الحديد، وأعاد القطعة إليها، فقد أدرك ما يصيبها من إهانة وظلم، وأظنه أحبها لحُسن أخلاقها، قالت لي وهي تبكي: "ربما تكون زوجتك هناك أرحم منها لو عشت فيما بينكم"، قلت لها بتحدٍّ واضح عليّ: "لا لن أجمعك بها، لكني أفكر بفتح بيت آخر لك هناك"، طارت ورقصت من الفرحة، حبيبتي الصغيرة لم تدرك أنها ستكون وحيدة معظم الأحيان في دار الغربة؛ كوني أعمل من الصباح حتى المساء، ولا أهل لها أو أصحاب تتسلى معهم هناك؛ كذلك لن أتمكن من المبيت معها في كل ليلة؛ كوني رب عائلة أخرى. لكن فرحتها بالسفر والعيش في البحرين التي طارت محاسن العيش فيها إلى كل الآفاق، كانت كبيرة، ولم تفكر جلياً في أن كيفية وضعها هناك لن تكون طبيعية، وبالذات مع وجود أطفال صغار من زوجة أخرى. لكن عند وصول هذا الخبر إلى أبيها الصارم جداً، رفض الأمر رفضاً باتاً، وشكك في مقدرتي على فتح بيت آخر لها، وربما ظن أنني

أعطيها وعوداً كاذبة، ثم استدعاني غاضباً، وأمرني بتطليق زوجتي الأولى قبل أن ترحل ابنته إلى البحرين، وكان للأب في ذلك الوقت السلطة على ابنته حتى بعد زواجها. قال لي بغضب وسخط شديدين: "لقد زعمت أنك سوف تفتح بيتاً خاصاً بها، ولو حدث ذلك كيف تتركها وحيدة فيه، ثم تذهب للمبيت مع زوجتك الأولى، وأظن أن لك عيالاً منها؟ إن ابنتي لا تزال صغيرة ولا تحسن التصرف وهي وحيدة، البحرين كما سمعت مليئة بلصوص المال والمتعة الحرام، وابنتي فتاة جميلة، ألا تخاف على شرفك؟ لا هذا لا يجوز في أعرافنا، وقد سمعنا أن زوجتك شريرة وساحرة، ولا يمكن أن تجمعهما معاً في بيت واحد".

وبالرغم أني لا أحب هذا الرجل، فإنني تفكّرت في كلامه، واقتنعت أنه صحيح وسليم، وصرت ملزماً بالاختيار بين الزوجتين. بعد شهر ونيف من الإقامة في الأحساء ذهبت لتوديع والد زوجتي فقال لي بتنمّر وعصبية: "ابنتي تعاني الأمرين بالعيش مع زوجة أبيك، يجب أن تحضرها إلى بيتي وتبقى مع والدتها خلال فترة غيابك، كما أني أعطيك مهلة بضعة أسابيع فقط لتطليق زوجتك في البحرين، وترتيب سكن مناسب لابنتي هناك، ذلك لو حرصت على أن تعيش معك، لكن لا بد أن أرى ورقة الطلاق قبل أن أدعها تسافر معك"، صدمني كعادته بهذه الشروط الصعبة، إنه مشاكس صعب المراس، مُتسلّط وعنيف حتى مع عياله، لكني لم أقدر على مجادلته وأنا على نية السفر، إن خروج الشريفة من بيت زوجها علامة شؤم طبقاً لعاداتنا وتقاليدنا؛ وكم تفتت قلبي لذلك الطلب، لكني أحضرتها مرغماً إلى بيت والدها قبل سفري مباشرة، ووعدتهم خيراً في طلاق الأخرى.

ركبت المركب عائداً إلى البحرين، وكما كانت الأمواج العاتية تلعب بالمركب وتتجاذبه يمنة ويسرة، كذلك تجاذبتني هزات القلق والأفكار الشائكة، وأصبحت كالتائه الذي لا يعرف إلى أين طريقه. استيائي من البحر يتضخم في كل مرة، فلماذا كُتب عليّ دوار البحر في كل رحلاتي من بلدي إلى البحرين وبالعكس؟ لماذا أتحمّل كل هذا الشتات الأسري؟ أليس بقدرتي أن أسيطر على الوضع؟ نعم يجب عليّ السيطرة على أحداث حياتي، بدأت بالتفكّر بخبث ومكر في هذه المرة ولم أكن معتاداً على ذلك. وصلت إلى المنامة وقد عزمت ألا أصطحب زوجتي معي إلى المحرق، حتى أحزم أمري في شأنها. ولدى وصولي ذهبت للتشاور مع صديق لي، وعلمت منه أن الأخبار قد وصلت إلى أهل زوجتي الأولى أن لي زوجة ثانية في الأحساء، سررت بذلك

فهو يُسهل عليّ ما عزمت عليه من الأمر. وعندما وصلت إلى منزل والد زوجتي، استقبلني الجميع بتجهم واضح، ولم يبارك لي أحد على ولادة المولود الجديد، الذي وضعوا له اسماً على هواهم، فرحت بولدي الجميل الذي يشبهني دون أمه، قبّلته ولاعبته وتصرفت كمن لا يفهم شيئاً عن تجهم وجوههم. لكنّ سليطة اللسان لم تتمكن من السكوت، وما لبثت أن عاتبتني عتاباً مراً أشبه بالشجار بسبب زواجي في الأحساء، وكان أبوها حاضراً؛ فتعجب من هدوئي أمام سبابها، وتوقع أني أضمر لها شراً، فحاول الوقوف إلى جانبي والدفاع عني، قلت لوالدها: "هل شهدت على طول لسانها، وقلة أدبها معي، لقد تحملتها طويلاً، واليوم سوف أتركها عندك ثم أرسل لها ورقة الطلاق"، رد عليّ برجاءٍ بادٍ على وجهه: "لا يا ولدي إنها نفساء، وقد توجّست خوفاً من حضور زوجتك إلى البحرين معك، أما وقد تركتها في الأحساء فذلك خير لكم جميعاً"، ادعيت الغضب وخرجت سريعاً. عندما وصلت المحرق شعرت بوحشة شديدة في المنزل حيث افتقدت وجود ولدي، لم أعرف أن لي قلباً حنوناً مشفقاً على الولد يحمل كل هذه الرقة والحنان! فما ذنب أطفالي فيما يحدث لنا جميعاً؟

لم أستطع النوم تلك الليلة، أجل كانت ليلة ليلاء، حيث استبدت بي الوساوس والأفكار المتضاربة، فهل أطلقها فعلاً وأحرم قلبي من بهجة رؤية أولادي منها في كل يوم؟ هل وجود زوجتي الثانية معي كفيلٌ بأن ينسيني صغاري الأحباء؟ لقد مرت سنة تقريباً على زواجي من الشريفة ولم تظهر عليها بوادر الحمل؟ لكني لم أجتمع بها إلا لفترات محدودة ولمرات قليلة. وجدت أن العقل والعدل لا يتوافق مع طلاق الأولى؛ لأن في ذلك تشتيت لأولادي الأحباء، وعقلي يريد تربيتهم أمام ناظري. أمهم بالرغم من كل عيوبها فلديها مزايا أيضاً، ولا شك في أنها سوف تغيّر طباعها لو أحبتني بصدق، لكنها لم تحبني بصدق، هي تريدني فقط لألبي جميع احتياجاتها، ولا أظنها فكرت في تقدير شخصي وأخلاقي أو غيرها، بل هي ناكرة لكل فضائلي عليها، وقد أوجعتني عندما قالت لي مرات عديدة: "آه لو أستطيع إبدالك بزوج سخي كريم، فلم أذق معك شيئاً طيباً أبداًا!".

ومن خلال تلك الحيرة أطل عليّ الشيطان برأسه، وأوحى إليّ بفكرة خبيثة ألا وهي تطليق الأولى طلقة واحدة لتأديبها وتسجيل ورقة الطلاق في المحكمة، ثم توصيل الورقة إلى والد الشريفة في الأحساء، وبعد إحضار الزوجة الثانية إلى البحرين، أقوم بإرجاع الزوجة الأولى إلى

عصمتي، نويت هذا الأمر وقررت تنفيذه بعد انتهاء فترة نفاس الزوجة الأولى. داومت على عملي في المحرق ونادراً ما كنتُ أذهب إلى المنامة لرؤية أطفالي، وفي كل مرة أراها، أتظاهر بالغضب منها، مع أني أشتاق إليها، لكني أدبتها على نار هادئة، وتركتها تُجن وتتشاجر معي دوماً في كل زيارة لأولادي، ثم أرسلت إليها وثيقة الطلاق بعد أن أتممت شهرين من ولادتها. غضب مني والد الزوجة غضباً شديداً لأول مرة في حياته، بعد أن كان مهادناً لي، جاء إليّ حاملاً في يده وثيقة الطلاق وقال: "أنت السبب في جُنون ابنتي حتى إنها تصرخ وتشد شعرها كل يوم، وقد أصيبت هي وولدك البكر بنوبة من الصرع، أما الوليد فهو يرضع منها مرارة وغيظاً. كنا نعلم من زمنٍ أن لك زوجة في الأحساء، صبرنا وسكتنا على ذلك، وقد قمت بواجبي في تنفيذ جميع أوامرك، حتى ضربت ابنتي من أجل أن ترضى عنا، وكان ذلك إكراماً لنسبك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن اليوم لا كرامة لك عندي حتى ترجع إلى عقلك وأبنائك"، سكتت على مضض ولم أبح له بنيتي في إرجاعها وإلا فشلت الخطة الخبيثة، وحزمت أمري للرجوع إلى الأحساء سريعاً.

عندما وصلت الأحساء انطلقت فوراً إلى بيت والد زوجتي كي أريه وثيقة الطلاق، لكن ولسوء حظي وجدت زوجتي مريضة جداً، لقد أصابتها الكوليرا التي اجتاحت الأحساء في تلك الفترة من الزمن، حذّرني الطبيب المسؤول عن علاجها بقوله: "لقد أُصيبت زوجتك قبل أيام من قدومك فقط، لا تلمسها لمدة شهرين قادمين، وعسى أن تتماثل للشفاء بعد ذلك"، تألمت بشدة وأنا أرى الشريفة نحيلة معلولة، لا تغادر فراش المرض، ذكّرتني بوالدتي فبكيت بحرقة، وخشيت أن تكون لها النهاية نفسها. لم يكن للشريفة قراءات غير القرآن الكريم والأدعية المتوارثة من آل البيت الكرام، ولم تتعود على قراءة غير ذلك. حاولت تسليتها بالنكت والألغاز، لكنها سألتني فجأة عن نوع قراءاتي الشعرية وتأثيرها فيّ، جاوبتها: "أنا مغرم كثيراً بالعبقري في اللغة والحكمة الشاعر المتنبي، فهو أحد الشعراء القلائل الذين نرى سريرتهم بوضوح في شعرهم الجزل، ونتلمس في أبياتهم ما انطوت عليه ذواتهم من السجايا الحلوة والطبائع الراقية. حدثتها عن عذابات ذلك الحكيم العبقري وسقف طموحاته العالية جداً، وأنشدت لها ما قال في ذلك:

إِذا غــــامَرتَ في شَـــــرَفٍ مَـــــرومٍ * فَـــلا تَقنَــــع بِمـــا دونَ النُجـــومِ
فطَعـــمُ المَـــوتِ في أَمـــرٍ صَـــغيرٍ * كَطَعـــمِ المَـــوتِ في أَمـــرٍ عَظـــيمِ

كما شرحت لها إحباطاته المتكررة وتأقلمه معها، وقد بدا ذلك جلياً في قوله:

مَـــنْ يَهُـــنْ يَسْـــهُلِ الهَـــوَانُ عَلَيــهِ * مَـــا لجُـــرْحٍ بمَيّـــتٍ إيـــلامُ

كما كنت أقرأ لها أبياتاً جميلة من غزله العفيف، وأخرى من حماسه الشديد، وبعض الأبيات التي تؤكد تأملاته العميقة، ثم أختم ذلك كله بأبيات له تفور بالزهو الكاذب والغرور الخادع.

وكان مما ذكرته لها شعر حاتم الطائي المشهور بالجود والكرم:

فَنَفسَـــكَ أَكرِمهـــا فَإِنَّـــكَ إِن تَهُـــن * عَلَيـكَ فَلَـن تُلفـي لَـكَ الـدَهرَ مُكرِمـا
أَهِـــن لِلَّـــذي تَهـــوى الـــتِلادَ فَإِنَّـــهُ * إِذا مُـــتَّ كـــانَ المـــالُ نَهبـــاً مُقَسَّـــما
وَلا تَشـــقَيَن فيـــهِ فَيَســـعَدَ وارِثٌ * بِـهِ حـينَ تَخشـى أَغبَـرَ اللَـونِ مُظلِـم

سُرّت الشريفة، وتفتح إدراكها على حبّ الشعر في تلك الفترة المقيتة بالنسبة لكلينا، وكانت تحبّ سماع إلقائي للشعر، وتقول إن إلقائي يخفف عنها شعورها بالمرض. ثم تنوعت في قراءتي الشعرية، وذكرت لها العديد من الشعراء، وأكثر ما أسعدها وحفظته عن ظهر قلب قول مجنون ليلى أو قيس بن الملوح:

أَنيـري مَكـانَ البَـدرِ إِن أَفَـلَ البَـدرُ * وَقـومي مَقـامَ الشَـمسِ مـا اسْـتَأخَرَ الفَجـرُ
فَفيـكِ مِـنَ الشَـمسِ المُنيـرَةِ ضَـوءُها * وَلَـــيسَ لَهـــا مِنـــكِ التَبَسُّـــمُ وَالثَغـــرُ

كما كنت أختار لها أبياتاً تحث على مكارم الأخلاق وتعجبني كثيراً مثل ما قاله السموأل:

إِذا المَـرءُ لَـم يُـدنَس مِـنَ اللُـؤمِ عِرضُـهُ * فَكُـــــلُّ رِداءٍ يَرتَديـــــهِ جَميـــــلُ
وَإِن هُـوَ لَـم يَحمِـل عَلى الـنَفسِ ضَـيمَها * فَلَـــيسَ إِلـــى حُســـنِ الثَنـــاءِ سَـــبيلُ

كما حفظت مني قول الشاعر الجاهلي عمرو بن معد بن أبي كرب:

لـــــيس الجمــــــالُ بمئـــــزرٍ ❋ فـــــاعلم وإن رُدِّيـــــتَ بُـــــردا
إنّ الجمــــــالَ معـــــــادنٌ ❋ وَمَنَاقـــــبٌ أَورَثـــــنَ مَجــــدا

كما كنت أكرر لها قول الجاحظ:

يَطيــبُ العَـيشَ أَن تَلقــى حَكيمــاً ❋ غَــذاهُ العِلــمُ وَالظَــنُّ المُصــيب
فَيَكشِـفُ عَنـكَ حيـرَةَ كُـلِّ جَهـلِ ❋ فَفَضـــلُ العِلـــمِ يَعرِفُـــهُ الأَديـــب
سَـــقامُ الحِـــرصِ لَـــيسَ لَـــهُ دَواءُ ❋ وَداءُ الجَهـــلِ لَـــيسَ لَـــهُ طَبيـــب

وكنت أختم حديثي معها بأبيات الشاعر الحكيم طرفة بن العبد:

سَـتُبدي لـكَ الأيّـامُ مـا كُنـتَ جـاهِلاً ❋ وَيأتِيــك بِالأَخْبَــارِ مَـــنْ لَـــمْ تُـــزَوّدِ
ومَـــنْ لـــم تَبِـــع لـــه بَتَاتـــاً ❋ ولـــمْ تَضْـــربْ لـــهُ وَقْـــتَ موعـــدِ
وَظُلــمُ ذَوي القُربــى أَشَــدُّ مَضاضَــةً ❋ عَلــى المَـرءِ مِـن وَقـعِ الحُسـامِ المُهَنَّـدِ

ولم أعرف حينها أنني سوف أردد البيت الأخير كثيراً فيما بقي من عمري، وسوف يقع عليّ من الظلم المقيت من ذوي قرابتي ما لم أتوقعه بتاتاً.

أهديت زوجتي بعض الدواوين والكتب الدينية والروايات، وشجعتها على القراءة، كانت تفرح بلقائي وتعيد على مسامعي ما حفظته من أبيات شعرية، كما كانت تحاول تسليتي، وكثيراً ما تلقي عليّ بعض النكات والألغاز.

لكن أشد ما أدهشني أن عاتبني أبي، وهو رقيق الحاشية، على تسرعي بالطلاق، فقال لي باستياء واضح: "يا وليدي إن أبغض الحلال عند الله الطلاق؛ ولذلك لم أطلق زوجتي رغم سوء أخلاقها، ولله في خلقه شؤون، أرجع زوجتك الأولى إليك، فلك منها أطفال لا ذنب لهم، وسوف أتفاهم أنا مع حميك في زيارتك القادمة". كم كنت حزيناً جداً لفشل تلك الخطة، وقد تسببت في تعذيب أولادي من قبل أمهم هناك. لكن الغريب في الأمر أن والدي كان متعاطفاً معي، فقد جبر خاطري وزوّدني بكثير من البضائع النادرة، لبيعها في سوق المحرق. في تلك

الظروف المؤلمة لم أطق البقاء في الأحساء إلا أسابيع معدودة، ودّعت الشريفة وأنا أمنيها بالعودة، وأدعو لها بأن تُشفَى من مرضها سريعاً.

في طريق العودة إلى البحرين أحسست أن لا نصيب لي في راحة البال

كنت أفكر في طريق العودة بأن لا نصيب لي في راحة البال، الذي هو السعادة في حد ذاتها، كم يحلم الفرد بالسعادة في الدنيا، لكنه لن يدركها أبداً؛ لأن حاجات الدنيا التي يسعى إليها في كل يوم تتطلب منه التفكير، ولن تعطيه راحة البال مطلقاً، وكما قال الشاعر:

نَــــرُوح ونَغـــــدُو لحَاجَاتِنـــــا * وحاجـــةُ مَـــن عَـــاشَ لا تَنتَهِـــي
تَمـــوتُ مـــعَ المـــرءِ حَاجَاتُــه * وتبقَـــى لـــه حَاجَـــة مـــا بَقِـــي

ثم أستغفر ربي وأرضى بقضائه وقدره، متمثلاً بقول الشاعر:

مشَـــينَاها خُطًـــا كُتِبـــتَ عَلينَـــا * ومَـــن كُتِبَـــت عليـــه خُطًـــا مَشَـــاها

عدت إلى المنامة خالي الوفاض، تكللني المذلة والفشل الذريع، انطلقت فوراً إلى بيت والد الزوجة في المنامة، أبديت له الأسف الشديد لما حدث مني وبينت له نيتي في إرجاع زوجتي إلى عصمتي، قال لي وهو يقطر ألماً: "لقد ظلمت ابنتي ظلماً شديداً وكذلك أطفالك، هي لا تزال مريضة منذ طلقتها، وكذلك الرضيع فقد أسقته لبناً ممزوجاً بالحسرة والألم" كررت أسفي في قلبي من أجل الرضيع فقط، ثم قال والدها مستهزئاً: "هل وافيتهم بوثيقة الطلاق كما طلبوا منك؟ إذن لماذا لم تحضرها معك؟ وليكن في علمك أنك لو طلقت ابنتي مرة ثانية فلن ترجع إليك أبداً"، عاهدته على عدم تكرار ذلك، وتم رجوع الزوجة وهي مبتهجة بذلك، لكن لصدمتي الشديدة، وجدت طباعها تسوء أكثر من السابق، ولم تعد تتحمل الزجرَ والنهرَ مني على سوء معاملتها لي ولأطفالي، بل كانت تداهمها نوبات الصرع كثيراً، وفي نوبة من نوباته حطمت كل ما كان أمامها. تشاورت مع الطبيب فقال: "هذه الحالة النفسية العصبية معقدة جداً، لقد ساءت حالتها نتيجة حدوث الطلاق الأول بينكما، وخشيت من تكرار حدوثه، بل أرعبها أنه حدث فعلاً، ولا شك في أنها تعاني من حالة خوفٍ شديدة من أن تتركها ثانية، بعد أن تعلقت بك". أجل أنا المتسبب في أزمتها وعليّ التعاطف معها، ضغطت على نفسي حتى لانت

طباعي معها، عاملتها باللطف والمودة حباً في أولادي منها. كنت أظن أن دواء المرأة في الكلام اللطيف وإعطائها من المال ما تريد، لكني عرفت بالتجربة أن دواء بعضهن في تلبية احتياجاتهن الجنسية، وصرت متأكداً من أن ذلك يسعدها، فأكثرت من الحميمية معها، لكني حاولت عدم الإنجاب منها قدر المستطاع بممارسة العزل. وقد شرحت لها بكل رقة أن لا قدرة لها على الحمل والولادة مع مرضها بالصرع، لكنها لم تقتنع، بل ازدادت شكوكها حولي، حتى حلفت لها على المصحف أن الطلاق لن يقع أبداً. استتبت الأمور بيني وبينها بعد ذلك، وعرفت أن قدر الحبيبة الشريفة أن تعيش بعيداً عني في الأحساء. ولكن للأقدار مسار آخر ويقول المثل: "إذا وقع القدر عُمي البصر"؛ فقد شاء الله أن يموت الرضيع بعد شهر من استقرارنا، فمنذ أن أرسلت لأمه وثيقة الطلاق اعتلت صحته، وذلك بسبب سوء رضاعتها وعنايتها به، تلك الأم الثكلى تسترسل في العويل والنواح والصراخ، وتجتث نياط قلب من يسمعها، وتغسل وجهها بدموعها؛ إن نشيجها وأناتها كفيلة بتوصيل الحزن والألم لكل من حولها، أجل إنها مشاعر العذاب لمن يُبتلى بفقد الولد. أما أنا فقد تألمت مرتين لفقد ولدي أولاً، ولسوء تخطيطي وما جناه عليّ من ويلات ثانياً. لقد جربت هي فقدان الولد ثلاث مرات من قبل، لكنها أول تجربة لي ويا لها من تجربة مؤلمة مقطعة للقلب والروح والنفس. في تلك الفترة حرصت على أن تحمل زوجتي عسى أن تنسى الرضيع الذي مات وتهدأ طباعها قليلاً، وما لبثت بعد سبعة أشهر أن ولدت لي ولدا خديجاً، لكنه يشبهها كثيراً مما أعطاها نوعاً من التعويض عما فات. وللأسف وبالرغم من كل ما حدث، فإن طباعها لم تتغير! قلت في نفسي: إنها ابتلاء من الله، ليرى قدرتي على الصبر، ولا بد لي من التحمّل كرامة لأولادي منها.

تحمّلت القهر والعذاب حتى تأكدت من حملها الثالث، وبعدها هاجت مشاعري الهاجعة في قلبي تجاه الشريفة، وقررت الفرار بنفسي إلى أحسائي الحبيبة لعلي أجد من يواسيني على وفاة ولدي، وحتى أزف لهم البشرى بقرب ولادة طفل آخر، وتجهّزت لعودتي بما خفّ وغلا من الهدايا. كنت فرحاً بالعودة، كفرحة الجذور المنتزعة عندما تعود ثانية إلى التراب.

وجدت زوجتي الثانية، قد تعافت من المرض، لكنها ذابت تماماً بعد أن كانت نحيلة فقط، فالوجه الطفولي المستدير أصبح بحجم الكف، أجل لقد هالني ما رأيت! بانت عظام قفصها الصدري، وكأنها خرجت للتوّ من مجاعة. لكنها نضجت قليلاً في التفكير، وأصبحت

أكثر جرأة في الحديث، وكأنّ الفراق ولهيب الشوق قد شجعها على البوح فقالت: "نحولي هذا ليس نتيجة المرض فقط، بل هو نتيجة شوقي إليك أيضاً"، قلت: "الأمر مُعقّد وصعب كنت أنوي أخذك إلى هناك في المرة السابقة من قدومي إليك، بعد أن طلقت زوجتي، لكن مرضك كان شديداً. بعدها أمرني أبي بإرجاع زوجتي ولديّ منها طفل صغير ورضيع، ثم مات الرضيع، وصارت أمه مريضة وحزينة جداً، لولا أن رحمها الله بالحمل للمرة الثالثة، أرجوك قدري وضعي الذي يزيد تعقيداً بمرور الأيام والشهور"، وكأني قد عايرتها بأن زوجتي ولود، فلم تنبس ببنت شفة، بل ظهر عليها الاستسلام لأمر الله، وقالت بحنان شديد: "قلوب العاشقين لها عيونٌ، ترى ما لا يراه الناظرون، إن لي قلباً يراك جميلاً حيثما ذهبت، ويضع لك الأعذار دوماً". رددت عليها: "وأنا كذلك أراك دوماً في نومي وصحوي، وأدعو الله أن يلمّ شملنا قريباً بقدرة منه عز وجل"، قالت بحزن شديد: "إن أشد ما أخشاه أن أموت وأنت بعيد عني، هل سوف يفرقنا الموت يا ترى؟". تذكرت الشاعر أيليا أبو ماضي وكنت أحب شعره كثيراً، فأتيت بديوانه وقرأت لها قصيدة الدمعة الخرساء:

قالَت وَقَد سَلَخَ اِبتِسامَتَها الأَسى * صَدَقَ الَّذي قالَ الحَياةُ غُرورُ
أَكَذا نَموت وَتَنقَضي أَحلامُنا * في لَحظَة وَإِلى التُرابِ نَصيرُ
فَإِذَا طَوَتْنَا الْأَرْضُ عَنْ * وَخَلا الدُجى مِنّا وَفيهِ بُدورُ
فَستَرجُعينَ خَميلَةً مِعطارَةً * أَنا في ذُراها بُلبُلٌ مَسحورُ
يَشدو لَها وَيَطيرُ في جَنَباتِها * فَتَهشُّ إِذ يَشدو وَحينَ يَطيرُ
أَو جَدوَلاً مُتَرَقرِقاً مُتَرَنِّماً * أَنا فيهِ مَوجٌ ضاحِك وَخَريرُ
أَو تَرجِعينَ فَراشَةً خَطّارَةً * أَنا في جَناحَيها الضُحى المَوشورُ
أَو نَسمَةً أَنا هَمسُها وَحَفيفُها * أَبَداً تُطَوِّفُ في الرُبى وَتَدورُ
أَو تَلتَقي عِندَ الكَئيبِ عَلى رِضىً * وَقَناعَةٍ صَفصافَة وَغَديرُ
تَمتَدُّ فيه وَفي ثَراهُ عُروقُها * وَيَسيلُ تَحتَ فُروعِها وَيَسيرُ

يَـــأوي إِذا اِشـــتَدَّ الهَجيـــرُ إِلَيهِمـــا * الناسِـــكانِ الظَبـــي وَالعُصـــفورُ
لَهُمـــا سَـــكينَتُها وَوارِفُ ظِلِّهـــا * وَالمـــاءُ إِن عَطِشـــا لَدَيـــهِ وَفيـــرُ
أُعجوبَتـــانِ زَبَرجَـــدٌ مُتَهَـــدِّلٌ * نـــامٍ تَـــدَفَّق تَحتَـــهُ البَلّـــورُ
لا الصُبحُ بَينَهُما يَحول وَلا الدُجى * فَكِلاهُمـــا بِكِلَيهِمـــا مَغمـــورُ
تَتَعاقَـــبُ الأَيّـــام وَهـــيَ نَضـــيرَةٌ * مُخضَـــرَّةُ الأَوراق وَهـــوَ نُمَيـــر

تأثرت الشريفة بالقصيدة تأثراً إيجابياً قوياً، حتى ضحكت وراقٍ مزاجها واطمأنت. وبعد عدة شهور من هذا الحديث، أنجبت لي الشريفة طفلة جميلة أسميتها على اسم أمي، ولم أزل أناديها بـ"يمه"، حتى لحظاتي الأخيرة في هذه الحياة. لكنها كانت معتلة الصحة جداً، ولا تقوى على مشاق السفر بالمركب في البحر، مما زاد في صعوبة أخذها معي إلى البحرين. حينها خففت المصاب على زوجتي بقولي: "إنني أملك اليقين بأن الدنيا لا تدوم على حال، ولا بد لليسر أن يأتي بعد العسر، ولقد أعطاك الله النفس الطيبة كما مُنحت في الحياة أكبر أسباب التفاؤل ألا وهو الإيمان، وعندي رجاء أن تذكري دوماً قول الشاعر الحكيم:

لَا تَيـــأَس فـــإنّ اليَـــأسَ كُفْـــرٌ * لعـــلّ اللهَ يُغنِـــي مِـــن قَلِيـــل
وإنّ العُسْـــرَ مَتبُـــوعٌ بيُســـرٍ * وقَـــوْلُ اللهِ أصـــدَقُ كـــلّ قِيْـــل

وقد كنت بذكر تلك الأبيات أصبّر نفسي قبلها، فكم تمنيت أن أستقر معها في بيت واحد، فهي حبيبتي الحقيقية قبل أن تكون زوجتي. وكم خاطبت ربي قائلاً: إلى متى الصبر على الفرقة والفراق يا إلهي، لقد تشتت نفسي وضاع مني فكري، ولست أرجو سوى رحمتك، وفرجٍ منك لإنقاذي من هذا التشتت الذي يعذبني كثيراً. كنت كل ليلة أدعو بهذا الدعاء الذي رتبت كلماته بنفسي: "اللهم صل وسلم على نبيك محمد وعلى آله الأطهار، كأفضل ما تكون الصلوات وأتم ما يكون التسليم، اللهم لك الحمد والشكر والثناء وحدك منزهاً عن حمد ما سواك، وذلك لنعمك عليّ التي لا تُعَد ولا تُحصى، ولما عرفتني من سبل محبتك ووصالك، ولما مكنتني من الاعتصام بحبل عظمتك وجلالك، اللهم إني أتوجه إليك عارفاً بكل تجلياتك ونفحاتك القدسية التي تجود بها على عيالك، فلا تعطيل لها ولا تأجيل إلا بإرادتك. اللهم إني

أقسم عليك ببهاء عزك ووحدانية صمديتك، أن تعجل أسباب قضاء حاجتي، وهي لم شملي بالشريفة زوجتي، أريد وجودها الدائم إلى جانبي، أنت المقتدر العليم الذي لا يعجز في قدرته على فعل أي شيء. اللهم إني أدعوك وفؤادي لا يستقر إلا بذكرك، وأنا لا أحب تأخير ما عجلت ولا تعجيل ما أخرت، بل أحب أن يكون قلبي بمثل جسد الميت عند إرادة المغتسل، لا يملك لنفسه إرادة أو حركة، اللهم إني أرمي بنفسي في يم قضائك وقدرك، فقدر لي بعطفك ما تشاء، سبحانك ما أعظم إحسانك. إني أستغفرك ربي وأتوب إليك، وأسألك من جودك وكرمك، فقد انقطع الرجاء عمن سواك، اللهم صلِّ على محمد وآله كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد".

قرار السفر إلى الدوحة عاصمة قطر عام ١٩٥٥

نحن الآن في بداية عام ١٩٥٥م، وقد وصلتنا الأخبار أن دولة قطر قد انفتحت بقوة على التجارة مع باقي دول العالم. حدث ذلك التطور تدريجياً بعد اكتشاف النفط في قطر عام ١٩٤٠ من حقل دخان، وتم تصدير أول دفعة منه إلى الخارج في عام ١٩٤٩. وعلى ذلك فقد كان عام ١٩٥٠ عام الخير والعز للدولة الفتية، حيث استلمت الحكومة مبالغ كبيرة من عائدات النفط، فانتعشت البلاد اقتصادياً وارتفعت أجور المواطنين، ثم أصبح الطلب عالياً من قبل الشعب على التجارة الحرة في مختلف البضائع ومواد البناء. تلك الأخبار السعيدة انتشرت في جميع دول الخليج مثل انتشار النار في الهشيم، وقد كنت فضولياً جداً في أمور التجارة، متحمساً ومتحرياً عن تفاصيل تلك الأخبار، ثم استمعت إلى الكثير ممن عادوا إلى البحرين من قطر، بعضهم كانوا أصحابي أو أقارب لي ممن عمل في الدوحة بالتجارة حديثاً، بعد توقف تجارة اللؤلؤ في الخليج. وفي زيارتي التالية للأحساء كنتُ في المتجر مع والدي نتابع الأخبار المثيرة عن تطور دولة قطر من خلال المذياع، كما كان بعض الزبائن ينقلون لنا كيف حقق التجار ومن يتبعهم من العمال الربح الوفير جراء العمل في الدوحة. حينها تحدث لي والدي في شرح وإطالة عن أهمية الاستقرار في بلد جديد وغني لمواصلة التجارة.

وكان مما قاله: "لقد نضج فهمك يا ولدي في أمور التجارة، وأصبح بإمكانك أن تلحق الربح الوفير حيث يكون، أرى أنه قد حان الوقت لتترك البحرين، فما نلت منها غير الربح المتوسط،

مقابل التعب والسفر الكثير. إن بإمكانك الذهاب إلى قطر مع أول فوج ذاهب إلى هناك من البحرين؛ وتقصي كافة الحقائق عن وضع التجارة هناك، فقد يكون المستقبل الأفضل لأبنائك وإخوانك في قطر"، قلت له: "يبه، أنت تقيس بذراعين وتكيل بصاعين (دليل على المبالغة) أنا قنوع وراضٍ بحياتي، وقد حققت الربح في التجارة مبكراً، ثم تذكر يا أبتِ أن في رقبتي زوجتين وثلاثة أطفال فكيف أغامر بنفسي في بلد لا أعرفها"، أجاب أبي: "أنت ما زلت في الثانية والعشرين من العمر نشيط وقادر على الترحال، وقد أمرنا الدين والعقل باغتنام الفرص أينما وحيثما تكون"، ضعفت أمام إصرار والدي فهو يبحث عن مستقبل أبنائه معي، وكان يعلمهم كيفية احترامي وتقديري. كما أن كثرة الحديث عن الربح الوفير قد أثارت فضولي الشخصي، لكن يبدو أن الأمر يحتاج إلى تفكير دقيق وتخطيط مُسبَق، إذن لا بد من الذهاب إلى قطر لجس نبض السوق أولاً، ثم التخطيط للتجارة هناك حسب أصول وحاجة السوق، وقد أفتح متجراً صغيراً وأجعل واحداً من أقاربي يديره لي هناك ريثما أصفي أعمالي التي في البحرين، فلن أستطيع المتاجرة بين ثلاث دول في آن واحد. قبلت التحدي متفائلاً، وتأملت أن يتم لم شملي مع الشريفة في قطر، سحرتني الآمال وبالغت في الأحلام، لكن لا بد من رجوعي إلى البحرين أولاً، والتشاور مع زملائي التجار في أمر التجارة في قطر.

في البحرين تحدثت مع زوجتي عن هذا المخطط، ويا ليتني لم أفعل، فقد حلفت عليّ بأن أصطحبها وعيالها معي إلى قطر، ثم بدأت في جمع حاجاتها بدون إذن مني، وعندما نهرتها عن فعل ذلك ألحت في الطلب، وافتعلت الشجار معي، وأعربت عن خوفها من الزواج عليها هناك. اعترفت بغلطتي بيني وبين نفسي، فقد كان عليّ كتمان الأمر حتى يصير واقعاً، ندمت على إخبارها، لكني تظاهرت بالموافقة اتقاء لشرها وصراخها، وأخبرتها أن علينا الذهاب إلى المنامة أولاً لتهيئة لوازم وطريقة السفر. وهناك أخبرت أباها بأني ذاهب مع مجموعة من الشباب، ولا يجوز أن تكون زوجتي برفقتي، ثم لا بد لي من ترتيب أموري في قطر أولاً، والاطلاع على كافة الأوضاع، وقد لا يطول بي المقام هناك لأي سبب من الأسباب.

لكن وكالمعتاد جنت زوجتي، صرخت وبكت وناحت عند خروجي بدونها؛ استبد بي الغضب ولاحقتها باللعنات والدعاوي عليها طوال مدة رحلتي، وتمنيت أن أعود ولا ألاقيها حية تُرزَق! كانت الهواجس والأسئلة تراودني طوال الرحلة، ما السبب الذي يستوجب عليّ تحمل كل ذلك العذاب منها؟ لماذا لا أطلقها وأتزوج واحدة في قطر وأحقق ظنونها؟ أو قد أحضر زوجتي من الأحساء

وأستقر في قطر لو طاب بي المقام، ثم أجلب أولادي من البحرين إليّ بعد أن يشتد عودهم. ارتاحت نفسي لهذا الحديث، خاصة عندما تذكرت الشريفة، وتخيلت العيش مع أسرتي الصغيرة بسعادة تحت سقف واحد.

طوال رحلتي من البحرين إلى قطر التزمت الصمت مع من حولي، وتركت عقلي يعاتب نفسي، انسقت وراء تساؤلات أفكاري، لماذا تدفع بي الأقدار يمنة ويسرة؟ لماذا لا أتخذ قراري الصارم في أموري المصيرية؟ هل هي المبادئ التي تربيت عليها؟ وهي الالتزام بطاعة الوالد وتجنب عقوقه؟ هل هذا ما جعلني ضعيف الشخصية وعودني على الخنوع أمام والدي؟ والدي لا يعاني من أي مرض ويعيش كالملك، وقد تأقلم مع زوجته وأولاده، وأصبحت أنا المرسال والعامل بين الأقطار الذي يشقى في جمع المال، ثم يعطيه إياه بارداً مبرداً، لماذا لم تكن لي الجرأة قط على الاستقلال المالي أو شراء أي عقار باسمي، مع أن زوجتي الحية الرقطاء لا تزال توحي إلي بفعل ذلك عاجلاً غير آجل، ضماناً لمستقبل أولادها. في ذلك الزمان كان من الواجب اتباع العادات والتقاليد الأصيلة، ومنها أن يعمل الأبناء مع والدهم ولا يستقلون مادياً إلا بعد موته، أجل لا بد لي من تسليم معظم ما أكسبه من المال للوالد، وإلا أصبحت عاقاً مارقاً ملعوناً في نظر الجميع. لكني ما فتئت أُهدئ نفسي اللوامة وأقول لها، لعله يكافئني في نهاية المطاف على كفاحي في العمل معه منذ طفولتي؛ أو ربما يكتب لي عقاراً باسمي قبل موته، خاصة أنه قد ورث من أمي الكثير، ويعلم أن لنا نصيباً كبيراً من ذلك الميراث أنا وأختي، لكن ما علينا إلا الصبر والانتظار. والدي مؤمن وحكيم ويميل إلى العدل والإنصاف، لكنه ضعيف الشخصية أمام زوجته، وقد أنجبت له من الأبناء من يماثلها في حسن الطلعة والجمال، وظللت أنا الوحيد الأسمر بينهم، فكنت حقاً كما يُقال "ابن البطة السوداء"، حيث كانت أمي سمراء اللون، وكم عيرتني زوجة أبي بذلك، فكانت تناديني "يا ابن العبدة السوداء".

وعندما يخرج تفكيري من دائرة أبي، يبدأ في الدوران في ملكوت الله، هل هذا العالم قائم على العدل والإحسان فعلاً؟ وعلى أي مبدأ وبأي كيفية يُكافأ الفرد على كلّ ذرة خير يفعلها، أو يعاقب على كلّ ذرة شرّ يفعلها؟ لو آمن الفرد أن ذلك صحيحاً؟ إذاً لماذا يخاف من المؤامرات أو المكائد التي لا بد أن ترتد على صاحبها ذي النية السيئة. أعتقد بشدة أن كلّ ما يفعله الله هو العدل بعينه، لكن شرور المرء تخرج من نفسه، إذن قد يظلم المرء الآخرين، ثم يعاقب نفسه على ذلك بنفسه وبمساعدة القدر. أجل حدث ذلك لي، عندما ظلمت زوجتي الأولى بطلاقها،

وحاولت الكذب على والد الشريفة في نيتي بإرجاعها لاحقاً. عاقبني الله بوفاة ولدي الرضيع نتيجة خبث نيتي، واليوم أعترف بذنبي مما قد يساعدني على الثبات على الصراط المستقيم في مسار حياتي القادمة. وقد ذكر البعض أن من أصول الدين الإسلامي هو الإيمان بالعدل الإلهي، وعليه لا بد أن يحاول الفرد تطبيق العدل في جميع أمور حياته؛ أنا الآن أؤمن بذلك ببساطة وبصورة تامة؛ لذلك سوف أتحمل زوجتي ولن أظلم أبنائي.

*****

الفصل الثالث من الملحمة

قطر وما أدراك ما قطر

لم أكن أعرف شيئاً عن قطر قبل القدوم إليها، غير شاعرها الشجاع قطري بن الفجاءة، وقد حفظت من شعره ما قاله محدثاً نفسه أثناء مشاركته في الحروب:

أقـولُ لَهَـا وقـدْ طَـارَت شَـعاعـاً * مِـنَ الأَبطـالِ وَيحَـكِ لَـن تُراعـي
فَإِنَّـكِ لَـو سَـأَلتِ بَقـاءَ يَـومٍ * عَلى الأَجَلِ الَّذي لَكِ لَم تُطاعِي
فَصَـبراً في مَجالِ المَـوتِ صَـبراً * فمـا نَيـلُ الخُلـودِ بِمُسـتَطاعِ
وَلا ثَـوبُ البَقـاءِ بِثَـوبِ عِـزٍّ * فَيُطـوى عَـن أَخـي الخَنـعِ اليُـراعُ
سَـبيلُ المَـوتِ غايَـةُ كُـلِّ حَـيّ * فَداعِيَـهُ لِأَهـلِ الأَرضِ داعـي
ومـا لِلمَـرءِ خَيـرٌ في حَيـاةٍ * إِذا مـا عُـدَّ مِـن سَـقَطِ المَتـاعِ

وقد سمعت وأنا طفل صغير أن الحرب العالمية الأولى قد تسببت في القحط لكل دول العالم، لكن الضرر في قطر كان مميتاً، حيث مات كثير من الناس من الجوع، كما تفشى بينهم الطاعون عام ١٩٢٠م، وبسبب ذلك هجرها سكانها وتفرقوا في أنحاءٍ مختلفة من دول الخليج، كما رحل بعضهم إلى بلاد فارس في جمهورية إيران القريبة جداً من سواحل الدوحة.

وهكذا لم يتبقَّ في نهاية الحرب العالمية الأولى غير حوالي عشرة آلاف فرد في جميع أنحاء قطر، وذلك على عهدة الراوي. لكن الكثير من أهل قطر عادوا إليها من دول الخليج وبلاد فارس بعد اكتشاف النفط فيها، وأسموا أنفسهم بـ "الهولة" (أي المتحولون عن قطر في وقت المجاعة)، عادوا يتكلمون العربية لكن بلكنة أهل فارس، وأصبحت لهم بعض العادات الخاصة بهم، ثم ملكوا زمام التجارة والمقاولات والصرافة حتى أصبحوا من الأثرياء ومن الطبقات الراقية، وقد ساهموا بشكل كبير وممتاز في بناء قطر الحديثة، واستحقوا الوجاهة لنزاهة أخلاقهم وكرمهم ونشاطهم.

الوصول والاستقرار في قطر نهاية عام ١٩٥٥

كنت قد أكملت الثالثة والعشرين والنصف من عمري حين وصلت إلى قطر بحراً من البحرين، وذلك يوم الاثنين الموافق الثامن من أكتوبر ١٩٥٥م، وقد كتبت تفاصيل رحلتي تلك في دفتر مذكراتي، فقد كان يوماً مثيراً ومميزاً بالنسبة لي، حيث خرجنا من ميناء المنامة بعد صلاة الفجر، واستغرقت الرحلة في مركب شراعي حوالي الساعتين والنصف تقريباً حتى وصلنا ميناء الرويس، وهو أقرب نقطة على سواحل قطر من جزيرة البحرين، وقد قيل إنه يمكن للمسافرين قطع المسافة مشياً على الأقدام في حالة الجزر، لكنه قولٌ فيه مبالغة شديدة كما أظن. وعند وصولنا إلى الفرضة (الميناء أو المرفأ) وجدنا باصات كثيرة في الانتظار قريبة من الميناء، وذلك لكثرة القادمين من البحرين إلى قطر. ركبنا الباص ووصلنا إلى مدينة الدوحة في غضون الساعتين تقريباً، فقد كانت الطرق غير مرصوفة حينذاك، وكان الجو حاراً مشبعاً بالرطوبة، لكنه على الأقل ليس بمستوى رطوبة البحرين العالية جداً. وأول ما أزعجني أثناء الطريق هو غلبة التصحّر على أراضي البلد وندرة الشجر. وقد توقف بنا الباص للراحة في قرية صغيرة تدعى سميسمة قليلة السكان، نزلنا للتزود بالماء والزاد، وقابلنا بعضاً ممن يقطنها وهي قبيلة تسمى "الحايكي"، يعملون في حياكة شباك صيد السمك وغيرها من المنسوجات، ولاحظت أن غالبية أهل سميسمة يعملون في الصيد البحري، وحيث شاهدت الكثير من الثروة البحرية تُنشر تحت أشعة الشمس، بعد ذلك يتم نقلها إلى الدوحة ومن ثم

إلى سواحل إيران والهند وغيرها، للمتاجرة بها والكسب منها. طوال الطريق إلى الدوحة لم أشاهد إلا قلة من شجر الأثل والسدر وبعض النخلات المتفرقات، لا وجود للزرع الكثيف أو غابات النخيل أو أشجار اللوز كما هو في البحرين. سألت في الباص عن أماكن استراحات النخيل، فلم أجد جواباً غير قولهم دون مبالاة: "إن ذلك شأن البحارنة والحساوية فقط"؛ أزعجني ذلك الرد كثيراً مما لم يرح قلبي طوال تلك الرحلة. أه لو يعلم كل الناس أن نصف نعيم الدنيا مقسوم للحساوية، فلم أذق حتى الآن أفضل من العيش معهم وبهم، ولولا قسوة زوجة أبي لم أغادر موطني لحظة واحدة.

على صوت أذان العصر وصلنا الخان وكان صغيراً ورخيصاً جداً، الطعام كان مقبولاً، لكن ليس في لذة أكل البحرين الذي يُزرع ويؤكل طازجاً. لم يعجبني الحال في ذلك الخان، لكني كنت ملزماً أن أرافق من معي أينما ذهبوا. بعد صلاة المغرب ذهبنا للبحث عن منزل للإيجار، وجدت في الدوحة مساكن قديمة جداً يسكنها العمال، وأخرى حديثة متطورة جميلة جداً يملكها الأغنياء. أما المنازل متوسطة الجودة فقد كان يسكنها عامة الناس من كافة العوائل. وبعد أن عثرنا على المنزل المناسب، ذهبنا لإحضار المتاع من الخان، ثم مررنا على السوق لشراء بعض الحاجات الضرورية، بحثت وسألت عن نوعية البضائع التي كنت أتاجر بها، لكن وسط ذهولي لم تكن موجودة إلا بندرة شديدة في أسواق الدوحة، كما عرفت أن البحث عنها كان جارياً في الدوحة بشدة، لكن للأسف لم يكن معي منها إلا القليل فقط؛ فأرسلت المرسال في حينها إلى الأحساء كي يزودني والدي بالكثير منها.

لا شك في أن مساحة قطر أكبر من البحرين بكثير، وبها العديد من المناطق النظيفة التي يتداول السكان ذكرها مثل: البدع والريان والدوحة والوكرة ودخان وأم سعيد وغيرها، لكن في ذلك الوقت كانت غالبية السكان تتمحور حول مناطق البدع والريان؛ حيث تسكن الأسرة الحاكمة (آل ثاني)، ثم في وقت لاحق أصبحت الدوحة هي العاصمة، حيث تواجدت فيها جميع المؤسسات الحكومية، والمساكن الكثيرة المتفاوتة في المساحة ورقي البنيان، بالإضافة إلى الأسواق المتنوعة والخدمات المعيشية كافة. وقد لاحظت أن البداوة تكاد تطغى على لباس بعض الناس وطريقة حديثهم، وهم يعملون في تجارة المواشي ومنتجاتها. كما توجد نسبة كبيرة من (الهولة) وهم العرب القادمون من سواحل فارس، ويعمل غالبيتهم في

المصارف والتجارة، كذلك يوجد العرب الحضر ممن يزاولون جميع أنواع التجارة، وكذلك الحرف اليدوية والأعمال الفنية الحرة، ولهم كنية تماثل حرفهم كعائلة النجار والحداد والصائغ والخياط والحايكي وغيرهم. ولاحقاً تعرفت على بعض من يُطلق عليهم لقب البحارنة وهم الشيعة القادمون من البحرين، كما تعرفت على بعض العمانيين وأهل اليمن وغيرهم. وربما كنت أنا من أوائل الحساوية الذين حضروا إلى الدوحة، ثم تزايدت أعدادهم بشكل لافت وأصبحت لهم جالية كبيرة. أما الأعاجم (كل من لا ينطق العربية)، فلم أراهم إلا بأعداد قليلة ومتفاوتة، ومنهم البتان والبلوش (بدو باكستان وأفغانستان) والغالبية منهم تعمل في البنيان وكذلك المساعدة في نقل مواد البناء والسمكرة وغيرها. أيضاً وجدت الهنود والإيرانيون وهم من يعمل في المشاغل الدنيا مثل بيع البضائع الرخيصة أو الطبخ في المطاعم وغيرها؛ ومنهم من يُسمى الكولي، أي من يخدم في الأعمال الصغيرة مثل حمل البضائع الثقيلة (العتال) في الأسواق وغيرها. وقد خصصت الحكومة مشكورة مناطق خاصة بالعمال والعزاب، وأخرى خاصة بالعوائل؛ كما بذلت الحكومة الرشيدة جهداً كبيراً في تجميع البدو الرحل في بيوت حضارية فيها كل المرافق اللازمة لضمان حياة نظيفة شريفة.

كانت حياتي منذ أن وُلدت وحتى قدومي إلى قطر بسيطة في المأكل والمشرب ومتاع العيش، ولم أتأفف يوماً رغم زحمة الأعمال اليدوية في صباي، وكثرة مشاغل التجارة في شبابي، لكن حياتي تغيرت جذرياً بعد أشهر من وصولي إلى الدوحة، حيث وجدت الرفاهية في المأكل والملبس، بل وجدت الخير كله فيها؛ لذلك أسمي الدوحة بأم الخير، وقد كنت من أوائل التجار الذين حصلوا على الأرباح الهائلة من بيع مختلف البضائع. تعرّفت ذات يومٍ سعيد مبارك على رجل ناصح أمين من أهل الدوحة، كان لقبه "الدلال"، وهو لقب كل من يعمل في تجارة العقارات وبيع الأراضي، فنصحني بجمع ما كان يفيض من أرباح التجارة، ثم شراء الأراضي التي كانت أسعارها رخيصة جداً، مقارنة بأسعارها اليوم، وقد حققت لي تلك النصيحة مكاسب طائلة فيما بعد. كما نصحني بشراء العقارات التي يمكن تأجيرها بسهولة على العوائل القادمين إلى قطر للعمل في الوظائف الحكومية وغيرها، والذين تتزايد أعدادهم في كل يوم، وقد كان الكسب من وراء ذلك العمل كبيراً. في تلك الفترة من الزمن أتيحت الفرص

الذهبية لكل من يعمل في بيع وشراء العقارات، بل وتداول التجار أنفسهم الدلالة لما تحققه لهم من ربح وفير.

الحمد لله الذي وهبني حباً متواصلاً لعملي، مما جعل في حياتي تحدياً وإثارة وشغفاً، ذلك الشغف الذي يحوّل العمل الروتيني الممل في العادة إلى نشوة لذيذة تغمرني من قمة رأسي إلى أخمصِ قدمي أثناء العمل وبعده، بل ربما بمجرد تفكيري فيه وقبل البدءِ به، تلك النشوة تكسوني بالحماس والنشاط، مما يسهل لي الكسب والربح طوال السنة. وكان من دأبي الصدق والإخلاص في العمل، أنصح الزبائن باقتناء البضاعة الجيدة، وأذكر العيب لو كان في أحدها فلا أغشهم.

علمني أبي الحرص على استخلاص الصدقة والزكاة حتى تزيد البركة في المال والعيال، وهي سمة معروفة لمعظم من يعمل بالتجارة، لاحظتها كثيراً في الأحساء والبحرين؛ حيث تُوزع تلك الأموال على الأقربين في الرحم ثم الغرباء. ومن الغرائب التي فوجئت بها آنذاك في منطقة البدع القريبة من الدوحة، الحرص على توزيع الزكاة من قِبل التجار القطريين على سائر أفراد الشعب، في ما يُسمى البراحة (قطعة كبيرة من الأرض خالية من الزرع والبناء)، ويتم فيها توزيع الزكاة عند مواسم ثابتة (قبل شهر رمضان أو أثناء الأعياد)؛ ولأن المكان معروف لدى الجميع، فغالباً ما يحدث الزحام والتكالب للحصول على القليل من مال الزكاة. وكان البعض يتندر بجملة "تلحق يا ما تحلق، أظن الزكاة توزع هناك" كلما رأى زحاماً في مكان ما.

معاناة الغربة والوحدة بالرغم من الكسب الوفير في الدوحة

استبدت بي مشاغل الحياة في الدوحة، حيث كانت الأعمال مرهقة، والبيع على أشده، فانشغلت به كثيراً، داومت على العمل منذ الثامنة صباحاً وحتى السابعة مساء، لكن أمسياتي بعد ذلك كانت مملة جداً، خاصة عندما يصيبني الجهد والمرض، فأضطر للعودة إلى المنزل مبكراً من السوق فلا أجد من يعطف عليّ أو يُسامرني. وعندما أختلي بنفسي يستبد بي التفكير والقلق، ولا أجد إلا قلمي أشكو إليه، وذات مساء كتبت في مذكراتي ما يلي:

"أتساءل كثيراً عن سببية حدوث التغيرات السريعة في مسارات حياتي؟ ومنها تهيئة الأقدار لي للوصول إلى هذا البلد؟ لقد تغيرت معيشتي تغيراً جذرياً، فهل سأظل كذلك حتى نهاية حياتي؟ يقولون إن البداية والنهاية تكون فقط في الخط المستقيم الذي يظهر في علوم الهندسة فقط، ولن يظهر أبداً في كواليس الحياة فهي ذات متاهات ملتوية وخطوط متعاكسة. ولله الحمد والمنة أنني مؤمن بالفطرة، وقلبي يقر بالمعجزات الربانية التي يعجز عنها البشر، لكن المعجزة لا تكون معجزة إلا إذا وقعت مرة واحدة ولم تتكرر ثانية، وإلا فقدت صلاحيتها كمعجزة، وأظن أن وجودي في دوحة قطر، هي معجزة إلهية وعليّ التمسك بها مهما كانت الظروف".

في غمرة تلك الأيام العصيبة من الوحدة والتشتت، لم أجد لي ملاذاً غير الولع بالراديو، الذي كان يؤنس وحدتي ويجلب لي الكثير من المحطات المتنوعة في أحاديث دينية وثقافية وسياسية لا تنتهي، وقد تابعت من خلاله معظم البرامج والأخبار المحلية والعالمية، مما طور ثقافتي العلمية والاجتماعية. وكان والدي قد حذرني من الاندماج في سماع الأغاني، لظنه أنها محرمة. لكني بحثت في ذلك الأمر كثيراً، ثم ارتحت لرأي شيخ الإسلام أبي حامد الغزالي الذي يقول: "إن حكم الغناء والسماع يختلف بحسب الأحوال والأشخاص واختلاف النغمات، فحكمه حسب تأثيره في القلب، فإن ولد إحساساً بالفرح أو السكينة فهو محمود، وإن أجج الغرائز والشهوات كان مذموماً". كما أقر الغزالي، كغيره من علماء المسلمين، بتأثير الموسيقى في القلب والوجدان، فقال: "من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره، فإنه فاسد المزاج ليس له علاج"؛ وقد أحببت الغناء الشعبي الخليجي في معظم فنونه العفيفة، لكن لم تعجبني من الأغاني الحديثة غير أغنيات فيروز، والقصائد التي تغنيها أم كلثوم وكنت أنتظر جديدها بكل شوق ولهفة، وكم عشقت القصيدة التي غنتها للشاعر الفارس أبو فراس الحمداني، وكنت أرددها دوماً لأنها تنطبق على حالتي ووضعي الراهن ومنها الأبيات التالية:

أَراكَ عَصِيَّ الدَمعِ شيمَتُكَ الصَبرُ ❋ أَما لِلهَوى نَهيٌ عَلَيكَ وَلا أَمرُ

بَلى أَنا مُشتاقٌ وَعِندِيَ لَوعَةٌ ❋ وَلَكِنَّ مِثلي لايُذاعُ لَهُ سِرُّ

إِذا اللَيلُ أَضواني بَسَطتُ يَدَ الهَوى ❋ وَأَذلَلتُ دَمعاً مِن خَلائِقِهِ الكِبرُ

تَكــادُ تُضــيءُ النــارُ بَــينَ جَــوانِحي * إِذا هِــيَ أَذكَتهــا الصَــبابَةُ وَالفِكــرُ
مُعَلِّلَتــي بِالوَصــلِ وَالمَــوتُ دونَــهُ * إِذا مِــتُّ ظَمآنــاً فَــلا نَــزَلَ القَطــرُ
أَسِــرتُ وَمــا صَــحبي بِعُــزلٍ لَــدى * وَلا فَرَســي مُهــرٌ وَلا رَبُّــهُ غَمــرُ
وَلَكِــن إِذا حُــمَّ القَضــاءُ عَلــى اِمــرِئٍ * فَلَــيسَ لَــهُ بَــرٌّ يَقيــهِ وَلا بَحــرُ

وذات يوم كنت في المتجر أستمع لإذاعة الدوحة، وأعلن المذيع بزوغ نجم مطرب سعودي اسمه طلال المداح، ثم أذاع له أنشودة دينية رائعة بعنوان "ابتهال الذنب"، فسارعت إلى كتابتها في دفتر مذكراتي، ثم حفظتها عن ظهر غيب، وصرت أرددها في خلوتي مع ربي وهي كما يلي: "الذنب أنت له بمنك غافر، وتوبة العاصي بحلمك قابل، وإذا دجى ليل الخطوب، وأظلمت سبل الخلاص وخاب فيها الآمل، يأتيك من ألطافه الفرج الذي لم تحتسبه، وأنت عنه غافل، يا موجد الأشياء من ألقى إلى أبواب غيرك، فهو غرٌّ جاهل، ومن استجار بغير ذكرك أو رجا، أحداً سواك فذاك ظلٌّ زائل، وإذا رضيت فكل شيء هيّن، وإذا حصلت فكل شيء حاصل، فاغفر لعبدك ما مضى، وارزقه توفيقاً لما ترضى ففضلك كامل".

كما كنت متابعاً في الراديو لبرنامج يتعلق بانتقاء أجمل الأشعار الحديثة، ثم إلقاؤها أو إنشادها، بصوت عذبٍ شجي. أحببت الشعر الحديث الذي له وزن وقافية فقط؛ ولم يُعجبني شعر النثر حتى لو كان من النوع الرقيق الهفهاف. ومن القصائد التي أذيعت وأعجبتني كلماتها وطريقة إلقائها، كانت للشاعر علي محمود طه بعنوان "المعراج" وسجلتها في مذكراتي كما يلي:

إلى قمة الزمن الغابر سمت ربة الشعر بالشاعر
تبدى لها فانجلى شكها وثابت إلى وعيها الذاكر
هو البعث فاستمعوا واقرؤوا حديث السماء عن الشاعر
مضت حرة من وثاق الزمان ومن قبضة الجسد الآسر
وجود هوى الروح قبل الوجود وماضٍ تمثل في حاضر

ولكثرة استماعي للقصائد الشعرية تفكّرت في معنى حساسية المشاعر؟ وكم يتضارب البشر في نوع وقوة أو رقة المشاعر حتى يظن كل واحد منهم أنه أرق أو أقوى إحساساً من الآخر، وقد سُئل حكيم وشاعر في العصر العباسي من يكون أرق الناس إحساساً ومن هو أشعرهم؟ فقال: "الناس كلهم أشعر الناس" وأظنه كان صادقاً في ذلك. كنت أتأمل كثيراً في أبيات الشعر الجميلة المعبرة، وأحاول تثقيف عقلي بمناقشة معانيها، لكني لم أجد من أحادثه حديث الثقافة، أو أناقشه في أمور الفكر. تشوقت إلى الجلوس مع صديقي المسيحي في مدرسة البحرين، والاستماع إلى أحاديثه الممتعة، حرصت على دوام المراسلة بيننا حتى تستمر المودة، ومن ثم كنا نتبادل الزيارات السريعة بين البلدين. ولم أكن أدري أني على موعد قريب مع صديق قطري، سوف تكون له المنزلة نفسها، والمحبة لذلك الصديق الذي في البحرين.

<u>عن حديث العشق والغرام في الدوحة خلال عام ١٩٥٦م</u>

هل وجود امرأة واحدة في حياتك سبب كافٍ لنشر الشقاء في نفسك، أجل أظن أن ذلك صحيح، فقد نتجت جميع آلامي وعميق أحزاني عند مرض ثم موت أمي، وبسبب موتها ظهرت زوجة أبي في حياتي تلك التي عانيت منها الأمرين؛ وجميع الآلام التي تلت ذلك وعذبتني عذاباً شديداً، كانت نتيجة زواجي الأول من امرأة نذلة شريرة، ثم تعذبتُ بسبب عدم لم شملي وسكني مع زوجتي الثانية بالرغم من أن حبها كان مريحاً ممتعاً. والآن أمر بتجربة حب مؤلمة لأول مرة في حياتي، فتلك الفتاة الجريئة البروع (قليلة الحياء) تقتحم مشاعري عنوة، إنها مثل الإعصار العاطفي الكامن المتخفي في طبقات القلب الداخلية، لا يعطي إنذاراً مسبقاً بل يهبّ فجأة، محطماً كل ما يعترض طريقه من حواجز فكرية وقيم ومبادئ أخلاقية. أجل إني أعتقد أن الفتاة التي ترتاد الأسواق دوماً، إنما هي فتاة عابثة، إذن لماذا أشتاق لتلك الفتاة التي تراودني في متجري؟ ربما لأنها تختلف تماماً عمن عرفت من النساء، زوجتي الأولى تبدو أمامها كساحرة شريرة، أما زوجتي الثانية فتبدو أمامها كدمية ساذجة.

هذه الفتاة لها من الحركات والنظرات ما يسلب اللب والقلب معاً، ففي بداية لقائي معها تسلل حبها سراً إلى جوانحي، وكان يسري لطيفاً ناعماً في داخلي، ثم أصبح كالإعصار في القلب، وعندما ألاقيها في السوق ينطلق ذلك الإعصار لاجتياح الجسد كله فلا أعود أبصر سواها، يدق قلبي بشدة ثم يرتعش جسدي. إن للقلب أحوالاً لا يمكن للعقل أن يفهمها أبداً، وله حدس مميز يخبره عن أحوال من يهوى؛ يميل العقل حينها إلى أن يرفض كل نتائج التحليل المنطقي بل ينكر وجود الإنزيمات، وتقوم آليات الكبت بتحليل الرغبات والدوافع والمخاوف على أساس الهرمونات، أما آليات الدفاع العقلي فتقف عاجزة مستسلمة، ولن يتمكن العقل مهما حاول، من وضع مبررات للقلق والتوتر، ولن تُفسر السيالات العصبية أسباب دقات القلب المتتابعة. وكم تساءلت عن معنى الحب العذري الذي قرأته في سير العاشقين، هل هو انعدام الانجذاب الجسدي، لا أظن ذلك لأن الرغبة في تلبية الغريزة هي رغبة أساسية في كل كائن، وبالذات في البشر، وهي الطريق الأوحد للتكاثر، الذي هو الهدف الأول في حياة جميع الكائنات دون استثناء.

هذا التعلق العاطفي غريب عليّ، بل يقتحم مشاعري لأول مرة في حياتي، بحثت عنه في أمهات الكتب، ووجدت أن قد أسماه العرب بأسماء كثيرة حسب نوعه ومراحله، ومنها: (الهوى، الصبابة، اللوعة، الهيام، الدنف، الوله، الخله، التدله، الكلف، العلاق، الشغف)، وأوجع مراحله تتمثل في العشق؛ أجل إن للحب مراحل وخطوات وقد يُسمى في بدايته الحنين أو الهوى أي مجرد الشوق الخفيف للمحبوب ثم الصبابة أو الجوى وهو شدة الشوق وحرقته، والرغبة في رؤية الحبيب دوماً مما يسبب السهر والسهاد، ثم اللوعة وهي تشبه الشعور بغصة الحرمان التي لا يزيحها إلا القرب من الحبيب، ثم يتحول الشوق غراماً وهو العذاب المستمر، بعد ذلك يكون العشق في مرحلته الأخيرة.

في بداية عام ١٩٥٦م كانت الأسواق القطرية محدودة جداً، والتجارة لا تزال في بداياتها، أما السوق الشعبي الذي أعمل فيه آنذاك، فيتكون من عشرات من المحلات المصفوفة من الجانبين في ممر طويل يُسمى بسوق واقف، وكان أشهر سوق في الدوحة ولا يزال. وقد أسست متجري الصغير في ذلك السوق، بحيث لو وقفت أمام باب متجري من الخارج لرأيت معظم المحلات التي تقع على يميني وتلك التي تقع على شمالي وكذلك التي أمامي، خاصة أن متجري

يقع وسط السوق تقريباً. كانت تأتي عدة مرات في الأسبوع إلى السوق، وقد تمر على متجري مرور الكرام حتى دون إلقاء السلام، وقد تلقي السلام ثم تتوقف لتقليب البضائع ونادراً ما تشتري شيئاً، ليس لها يوم محدد أو موعد ثابت، كأنها تتعمد ذلك حتى تراقب حرقة انتظاري، وعندما تقف على عتبة المتجر تقلّب في البضاعة المعلقة على الباب الخشبي، أرى الضوء يحيط بها وكأنها حورية هبطت من السماء لتكون دليلاً على وجود الله، أجل الضوء يحيط بها فقط فلا أرى شيئاً سواها. كانت واسعة العينين طويلة الرموش بشكل ساحر، بيضاء مثل ندف القطن، شعرها كث كثيف كما يبدو من غرتها التي تتركها حرة طليقة خارج الحجاب. تفضحها نظرات عينيها، وجودها يملأ قلبي حناناً ورحمة كافية كي تغطي جميع الكائنات. وعندما تمشي نحوي بطيئة مختالة في خطواتها أتذكر قول الشاعر إبراهيم ناجي:

وَاثِـــقُ الخُطـــوَة يَمشِـــي مَلكـــاً ❋ ظَـــالِم الحُسْـــن شَـــجِي الكِبرِيَـــاء

ثم تتثنى حين تقترب مني فأتذكر الشاعر بشار بن برد عندما قال:

إِذا قامَـــــت لِمَشـــــيَتِها تَثَنَّـــــت ❋ كَـــأَنَّ عِظامَهـــا مِـــن خَيـــزُرانِ

إن مشيتها الهوينى تزيد من تأجج أنوثتها، وعادة ما ترفع أطراف عباءتها بأناملها الرقيقة حتى لا تتعثر، فما أرق ما تلبس، وما أجمل ما تختار من ملابس وحلي لتؤجج جمالها. كم تسحرني خطواتها وكأنها ترتفع للأعلى فأخشى أن تطير وتبتعد عني. إن قلبي يدق بعنف عندما ألمح تلك الأظافر المصبوغة والمقصوصة بعناية فائقة؛ وهي تنظر إليّ بخبث من طرف عينيها، لكني لم أستطع الغوص في أعماق تلك العيون السود، لأعرف بالضبط ماذا تريد تلك الفتاة؟ وذات يوم أبصرت غمازة خدها الأيسر، وهي تغوص عميقاً في قلب ذلك النور المشع من وجهها البديع، لا شك أنها تبتسم لي، وأظنها أدركت عذاباتي، وسمعت دقات قلبي الهائجة.

أما صوتها وهي تلقي السلام وتسأل عن الأسعار فيسبب لي خدراً يجتاحني، ثم يغوص في داخلي مسبباً لي غصات مريرة، أتلك هي لوعة الحب التي يُحكى عنها؟ لم تقل لي أبداً ما يُحسب في دنيا العشاق غزلاً، لكن كل نظراتها كانت تتحدث عن الحب والهوى، أجل هكذا يبني الحب نفسه دون أن يستشير أحداً بل يخترق القلوب بكل تحدٍّ وكبرياء، وليس له من يقاومه، بل لا بد من الخضوع له عاجلاً أم آجلاً. وعندما تتركني المعشوقة وترحل بعيداً عن

متجري، ألاحقها بناظري حتى تغيب عن شارع السوق بأكمله، ثم أظل فترة أتلمس ما تلمسته من بضائع، وأستنشق ما تبقى من أريج عطرها الزكي، يرحل عقلي وقلبي خلفها، وأظن أنها تشعر بمطاردتهما لها؟ أتوقف عن التفكير وأسهو في طيفها، ثم أتوه في صدى صوتها، حتى يناديني الزبون التالي بصوت عالٍ متكرر ليخرجني من شرودي. أجل إن طيفها يطاردني أينما ذهبت، ويملؤني شجناً وحزناً على أيامي التي عشتها قبلها. كما يؤرق ليلي فأصرخ كما صرخ جميل بثينة:

أَلا أَيُّهـــا النـــوّامُ وَيَحكُـــمُ هُبّـــوا * أُسـائِلُكُم هَـل يَقتُـلُ الرَجُـلَ الحُـبُّ؟

تعوّدت على ترداد ذلك البيت من الشعر في ليالي سهادي الطويلة، والتحليق بخيالي معها في البعيد الذي لا يمكن الوصول إليه، وأظن أنني لو حوصرت في غرفة من صخورٍ صلدة، لانصهر كل حجر فيها بنيران حبي التي تنفث من قلبي المجنون بها. حضورها الطاغي في متجري يسلب عقلي تماماً، ويسحب من عقلي كل ما لدي من روية وحكمة وجلد، خاصة وهي تتعمد النظر إليّ بأطراف عينيها النجلاوين، إن جمالها أكبر من أن يُحتمل وأبعد من أن أصل إليه، أما صوتها فهو الترنيم بعينه، الذي يسلب من السامع لبه وقلبه معاً. لكن لماذا تعبث بي ولا تكون صريحة معي، هل تريدني بالحلال؟ أيكون حالها كذلك مع جميع الرجال غنج ودلال؟ هل تريدني أنا وحدي أم أني أظلمها بالشك في سلوكها؟ هل تنتظر حتى أطلبها بالحلال؟ وهل أفقد عقلي وأفعل ذلك؟

بدأت قصتي معها بعد قدومي إلى قطر بشهرين اثنين، كنت أعيش مع العزاب في بيت مشترك، ثم ضقت بهم ذرعاً، لكثرة الفوضى والجلبة التي يحدثونها، وقد تعودت على الكتابة أثناء الاختلاء بنفسي، إذن لا بد من البحث عن بيت للإيجار أعيش فيه بمفردي، ريثما يتم إحضار إحدى زوجتيّ، إما من البحرين أو من الأحساء. بحثت عن منزلٍ صغير قريب من السوق، فدلني البعض على بيت قديم قليل الإيجار، لكن عندما ذهبت مع الدلال لأتبين موضع ونوعية المنزل، رأينا شابة بيضاء ممشوقة القوام تخرج منه، هالني جمالها فغضضت بصري، لكنها سألت الدلال عن سبب قدومنا قرب باب بيتهم؟ شرح لها الوضع، وأشار إليّ بوصفي تاجراً جديداً أبحث عن بيتٍ قريب من السوق، قالت بصوت يفيض دلالاً: "انتظر

بضعة أيام حتى نرحل من هذا البيت"، دخل صوتها الرنان كالسهم في قلبي مباشرة، وأيقنت حقاً إن صوت المرأة قد يكون عورة شديدة الخطورة. لاحظت أنها ترمقني بنظرات فاحصة، لم أكن غشيماً (قليل الخبرة في النساء) فتلك الفتاة جريئة جداً. وفي اليوم التالي جاءت مع صويحباتها إلى السوق، رأيتها وأنا ذاهب إلى القهوة التي تقع على طرف السوق، كانت تتلفت كثيراً وكأنها تبحث عن شخص محدد، رجعت بسرعة إلى المتجر، ثم رأيتها تمر على طريق متجري وتتعمد النظر إليّ، وكأنها تتأكد من أني الشخص الذي تبحث عنه، عادت في الغد ومرت عليّ مرور الكرام مع إلقاء السلام، وفي اليوم الثالث تجاهلتني تماماً رغم وقوفي أمام مدخل المتجر. هل أنا مغرور؟ بالتأكيد لا، بل أعتقد أنها تظنني غنياً وأعزب في الوقت نفسه مما شجعها على مطاردتي، بالإضافة إلى تأكّدها من إعجابي بها، بل ربما أحست أني غارق في هواها.

أثناء مراحل ذلك العذاب، قمت بالبحث والتحري عنها، حتى أني تتبعتها يوماً حتى أعرف مكان بيتها الجديد، ثم سألت الدلال الذي دلني على بيتي عن اسم المستأجر السابق وأعني أباها، قال وهو يبتسم بمكر شديد: "أعرف المغزى من سؤالك، هو رجل فقير، يعمل لدى أحد التجار بأجر قليل، قدم من باكستان ولديه بنات كثيرات، وتلك الفتاة التي وجدناها عند الباب (غمز بعينه حينها)، ذاقت الترمل في قطر وهي مراهقة صغيرة، وقد تقدم لخطبتها البعض فرفضتهم جميعاً، أظنها تبحث عن تاجر ثري ووسيم (وغمز بعينه ثانية)، هي تجوب الأسواق كثيراً مع أن ليس لديها إلا القليل من المال، وكثيراً ما تقف عند باب بيتهم تستعرض حسنها وجمالها"، تسرعت بقولي: "وهل تقف فوق السطوح أيضاً؟" ضحك كثيراً وقال: "لا، لا أظن، إن الحرارة فوق السطح قاتلة هذه الأيام". آه لقد نسيت أن الوقت كان صيفاً، لكني تذكرت قصة البهلول وكيف سلب العشق لبه من فوق السطوح. لا لن أكون مثله أنا سيد أعتز بنسبي الشريف، ولا بد لي من كسر حلقة الحصار التي تفرضها عليّ تلك الفتاة. لقد مضت عليّ بضعة أشهر منذ قدومي إلى الدوحة، وأظنه قد حان الوقت للذهاب إلى الأحساء، والاحتماء بزوجتي الشريفة العفيفة من لهيب هذا العشق المجنون.

لكن للأقدار شأن آخر، ها هو ذا أبي يرسل لي المزيد من البضائع مع التجار القادمين من الأحساء، فقد وصلته الأنباء أن الربح وفير هنا ولا يقارن بالبحرين البتة. وها أنا ذا أرجع

إلى حلقة العذاب مع تلك الفتاة مرة أخرى، لم يكن لي صديق صدوق أو ملاذ أتشاور معه، إلا إمام المسجد الذي عادة ما أروي له ما يحدث لي من مشاكل في السوق، وكان لا بد لي من الإشارة إلى تلك الفتاة وطلب النصيحة بشأنها. ولأن عدد السكان محدود والأخبار تصل إلى الجميع بسرعة، لم أجده مندهشاً من سؤالي عن تلك الفتاة وكأنه سمع عنها من قبل، تفكّر قليلاً ثم قال لي جاداً: "الحل الوحيد هو أن تبدي لتلك الفتاة جفاءً متعمداً عندما تأتي إلى متجرك، بل عليك أن تمثل عليها عدم الاهتمام، أنت في حالة عدم اتزان بسبب طول بعدك عن أهلك، ولا أظن أنك السيد المحترم المتمسك دوماً بمبادئك وقيمك، تقع في شباك تلك الفتاة التي ترغب بالزواج منك أنت بالذات؛ لأنك غني ووسيم وقد ظنتك أعزب. وفي حال عدم تمكنك من إحضار إحدى زوجتيك إلى هنا، فلتتزوج بمن هي أفضل منها وتستقر هنا في قطر، وأظن أن هذه الدولة هي الأنسب لك من حيث الربح والعمل، وها هي الحكومة تعطي الجنسية لمن يُقدم عليها ويستحقها".

لقد صدمني بذلك الكلام، وعزت عليّ نفسي حتى طفرت الدموع من عيني ولم أحر جواباً، لكنني لم أنم تلك الليلة، فقد كنت تحت ضغط الكثير من الأسئلة، هل أستطيع نسيان هواها؟ هل أطردها من المتجر أم أكتفي بتجاهلها؟ هل أتخذ زوجة ثالثة هنا وأطلق التي في البحرين؟ لماذا يبعث لي أبي المزيد من البضائع؟ ألا يشتاق لرؤيتي؟ ومن العجيب أنني في غمرة هذا العشق اللعين، ما زلت أشتاق للزوجة الثانية في الأحساء؛ إذن لا بد لي من الذهاب إليها عاجلاً غير آجل، وربما أحضرها معي إلى الدوحة، كذلك لا بد أن أطمئن على أولادي في البحرين وأعطيهم مصروفهم. سوف أتدبر من أثق به ليدير المتجر هنا في غيابي، ثم أهج من البلد حتى أقطع حبل هذا العشق المهين. في اليوم التالي بحثت عمن أثق به ليتولى أمر المتجر، وعملت جرداً للبضاعة معه أثناء الظهيرة، ثم تعمدت التغيب عن المتجر في فترات متقطعة أثناء المساء حتى لا ألتقي بها البتة. أجل عندما أعرف الطريق الصحيح يجب أن أسلكه، وأقلع نفسي قلعاً من الطريق الخطأ الذي أسير فيه، تماماً كما يقلع المدمن عن التدخين. في اليوم التالي تأكدت من أن كل شيء على ما يرام وقد تولى الشخص الآخر أمر المتجر، ثم ذهبت أبحث عن وسيلة سريعة للسفر، ولحسن حظي تمكّنت من حجز تذكرة الباص المغادر مساء مباشرة من الدوحة إلى الأحساء، فتنفست الصعداء.

عندما عدت إلى المنزل ظهراً، وجدت من ينتظرني عند الباب، يا لها من مفاجأة، إنه والد الفتاة، وقد عرفني عليه الدلال عندما كنت أتقصى عن أمرها، رحبت به كمجاملة مني فقط، فطلب مني ربع ساعة من وقتي للضرورة، فأشرت إليه بالدخول للمنزل، فتبسم من الفرحة، وعندما تمّ لنا الجلوس، بدأ الحديث بمدحي والإشادة بخلقي، وكانت لهجته تفضح أصوله الغير عربية، لما فيها من عيوب واضحة في نطق بعض الكلمات، بينما لم تكن ابنته كذلك البتة! سكت طويلاً وكأنه ينتظر مني حديثاً خاصاً، اضطررت للقول: "أنا في الخدمة ما المطلوب مني؟" قال وهو يُظهر لي المودة: "سمعت اليوم أنك سوف تغادر الدوحة فجئتك مسلماً عليك"، يا للهول كيف عرف بهذه السرعة؟ ثم تحدث في أمور الاستقرار في الحياة، وكان يتطرق من خلالها إلى أهمية الزوجة في حياة الرجل. ولما أحسست بغرضه الحقيقي، فاجأته قائلاً بجدية: "أنا ذاهب لإحضار زوجتي من الأحساء، وقد أحضر الثانية من البحرين"، وقد كان لكلامي وقع الصاعقة عليه، فاصفر لونه، وظل لدقائق صامتاً مدهوشاً، ضحكت قائلاً: "لماذا الدهشة؟ يعلم الجميع أن لي زوجتين"، حاول استدراك الشديد من حديثه، حك أنفه قائلاً: "ما شاء الله لقد وسع الله عليك، وقد تحصل في الدوحة على الزوجة الجميلة بسهولة ويسر"؛ من الواضح أن الرجل يحاول الضغط عليّ كي أتزوج ابنته، كم هي وقاحة لا تغتفر منها ومنه. وقفت بحركة مفاجأة وادعيت أن عليّ واجباً مستعجلاً، ولا بد من القيام به فوراً. تلعثم الرجل وقال كلمات غير مفهومة، ثم تهيأ للخروج وقد سبقته إلى الباب الخارجي للمنزل.

كانت حادثة لم يصدقها أي عاقل في ذلك الزمان، كيف ترسل أباها لخطبتي؟ لقد ذهب منها الحياء كله، وكان ذلك كفيلاً بطردها من قلبي وإلى الا بد، فلا تساوي المرأة دون الحياء شيئاً. وأخيراً توقّف قلبي عن الهتاف باسمها مذ تم ذبحه على يد أبيها، أجل إن الذبح هو جزاء جرم القلب في التعلق بها. أحسست أنني كالمطارد وعلى ذلك استعجلت في ترتيب أموري استعداداً للسفر، بدأت الوساوس تلعب بي ترى من أخبرها بعزمي على الرحيل؟ هل هو الرجل الذي تركته في متجري؟ هل سحرته هو الآخر؟ إذن كيف أأتمنه على مالي وأرحل؟ لا بد لي من الاستعانة بقريب لي كي يشدد المراقبة على المتجر في غيابي، اضطررت للسفر إلى الأحساء وأنا قلق ومستاء جداً.

ومنذ ذلك الحدث الغريب على مبادئ وقيمي، تكونت في نفسي عنصرية مقيتة ضد كل الأعاجم، وقد كنت أحترمهم كإخوة لنا في الإسلام، واستلطف طريقة كلامهم وأحاديثهم. أجل لقد تحول الحب لهم في قلبي إلى كرهٍ واستحقار، بل كرهت كل ما يمت إليهم بصلة، حتى تحاشيت الحديث أو التعامل معهم، ولو قابلت أحداً منهم بالصدفة نظرت إليه بجفاء، ورددت عليه السلام بحنق، وقد بقيت على ذلك الحال فترة من الزمن، لكنني ندمت على ذلك لاحقاً، فلا يجوز التعميم على جميع الأعاجم، بل إن قسماً كبيراً منهم في غاية اللطف والاحترام. وقد ساعدتني تلك الحادثة على إدراك أن التمييز العنصري شعور ظالم غير عادل؛ لأنه مضاد لإنسانية الفرد، ولا بد لي من حُسن الخلق مع الناس سواسية حتى تكتمل إنسانيتي. وعدت نفسي أنه في معاملاتي مع الناس لا بد أن أحرص على التمثل بقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقد رُوي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: "ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من تلك الآية"، ومن قوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: "ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حُسن الخلق، وإنَّ الله ليبغضُ الفاحشَ البذيء".

وقع المفاجأة بقوله: "لم أكن أعلم بذلك، وأنت تبدو صغير السن كي تتحمل كل تلك الأعباء، ربما لا تتأقلم تلك الزوجتان مع الوضع هنا لأن الغربة صعبة، ولا شك في أنهما سوف تسببان لك المشاكل في الدوحة"، قطبت وجهي وأبديت استيائي

وعلى الرغم من حثّ الإسلام على نبذ العنصرية؛ لأن الناس سواسية كأسنان المشط، فإن تلك التحيزات لا تزال تسيطر على بعض العرب للأسف الشديد. إني أتفهم كيف حدث ذلك قبل الإسلام؛ إذ إن لا شيء آخر يميز الناس عن بعضهم إلا الانتماء القبلي، الذي ينظم مجتمعاتهم، حيث لا توجد الشهادات العلمية، أو المراكز والمناصب الحكومية، وبالرغم من وجود ذلك كله في عصرنا الحاضر، فإن سيطرة الأفكار القبلية لا تزال موجودة عند اختيار الزوج أو الزوجة في بعض مجتمعات العرب. وبسبب ذلك تكون نسب الطلاق مرتفعة جداً بين شباب القبائل المجبرين على الزواج فيما بينهم فقط، وربما تحولوا بعد الطلاق إلى الكارهين لذلك التعصّب، هذا بالإضافة إلى إدراك الجيل الحديث خطورة نقل الأمراض الوراثية في زواج الأقارب. ولعل من أكثر معوقات التقدم الحضاري في الدول العربية، المحاباة العنصرية في

الوظائف والمراكز، فالعنصرية من الأسلحة الفتاكة التي شجع الاستعمار على تداولها في المجتمعات الإسلامية كافة من أجل كسرها وتحطيمها. ومن الثابت تاريخياً أن العرب قد تزاوجوا مع العديد من الشعوب مثل الفرس والهنود والروم وغيرهم، وما زالوا يتزاوجون معهم، مما جعل جيناتهم ليست عربية خالصة، وبالرغم من إثبات العلم أن نصف الجينات تؤخذ من الأم والنصف الآخر من الأب، فإن ذلك لم يزعزع ثقة التشدق بالأصل والفصل لدى الجهلاء منهم أو حتى بعض المثقفين ثقافة عالية! وكثيراً ما أصادف مَن يسجن مبادئه وأخلاقه في زنزانة القبلية دون مبرر، كما وجدت من يمارس الإيمان بالعنصرية المقيتة دون حساب لرفض الإسلام لها، وقد لا يقدر البعض عظمة الجرم الذي يرتكبه في حق نفسه وفي حق الآخرين، عندما ينتقد عقائد وطقوس الطوائف الدينية المختلفة التي انبثقت من الإسلام.

وحديثاً اخترع لنا العلم الحديث فحص (DNA) الذي يحلل الأعراق البشرية، وكم من متشدّق بأصوله العربية اتضح له من خلال فحص (DNA) أن لا صلة له بالعرق العربي إلا لماماً، وأن الجزء الأكبر من عرقه ينتمي إلى الفرس أو الروم أو غيرهم على سبيل المثال. أما أنا فقد أيقنت أن البشر كلهم إخوة، ومن لم يكن أخٌ لك في الدين، فهو أخٌ لك في الإنسانية.

العودة إلى الأحساء في منتصف عام ١٩٥٦

عندما اقتربت من البيت الذي تقطن فيه الشريفة ارتعش قلبي ورقص كما ترقص أمام النسيم الرقراق أوراق الشجر الخضراء، وتذكرت أبيات الشاعر أبو صخر الهذلي وقوله المشابه لمشاعري:

هَجرتُـكِ حتَّـى قيـلَ مـا يَعـرفُ الهـوَى * وزُرتُـكِ، حتَّـي قيـلَ: لـيسَ لـهُ صـبر

صَـدقتِ أنـا الصَّـبُّ المُصـابُ الـذي بـهِ * تَبـارِيحُ حُـبٍّ خـامرَ القلـبَ أو سِـحرُ

وإني لتعـــروني لـــذكراك هـــزة * كـما انـتفض العصـفور بللـه القطـر

لكن في داخل المنزل لم أجد ما يسر الخاطر، الأم وابنتها في حالٍ يرثى لها من الضعف والوهن، أحسست أن بيت أبيها يفوح بالتعاسة والمرض، رجوت منها تغيير السكن والذهاب إلى البيت الكبير حتى آخذ راحتي معها كزوج، لكنها كانت معلولة النفس والجسد، ولا شك في

أن غيبتي الطويلة بالإضافة إلى مرض ابنتنا قد جعلها في حالٍ صعبة من القلق والاكتئاب؛ ومع ذلك فهي تطيعني طاعة عمياء وتذهب معي حيثما أريد، بشرط رضا والدها عن ذلك. صبرت عليها حتى ارتاحت في البيت الكبير، وتمنيت أن يهبها الله ذرية في صحة جيدة فهي تستحق ذلك دون أدنى شك. تيقّنت من احتياج المرأة لحنان الرجل الذي يختلف كثيراً عن أي حنان آخر؛ لأنه يمتزج بالحماية والقوة.

وعلى عكس زواجي الأول فقد علمني الزواج من الشريفة قيمة اللطف والمحبة، وكي تنجح العلاقة بين الزوجين لا بد أن تكون حبلى بالمحبة والمودة، مؤطرة بالتواضع والرحمة، هكذا كانت العلاقة بيني وبين الشريفة، علاقة مثالية بين رجل وزوجته تنطبق عليها الآية التالية:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١].

لكني في هذه المرة حزنت لرؤيتها أكثر مما فرحت بها، واختلفت نظرتي المتفائلة للحياة، حيث اجتاحتني هموم وأحزان لا ترحم، وكأنها حد المقصلة المُسلّط على الرقبة. هل أصطحب الشريفة معي إلى الدوحة، أم أتركها هنا حتى تتعافى هي وابنتي؟ وعلى أي حال لا بد لي من إطالة المكث عندها شهرين على الأقل، حتى تستأنس بوجودي إلى جانبها. وتلك الطفلة التي بلغت من العمر سنة واحدة، تحاول الكلام لكن بصعوبة، وتبدو في عمر ستة شهور لضعفها ونحولها. لكن تواجدي معهم مشوباً بالقلق على تجارتي في قطر، ولم توجد في ذلك الوقت طريقة للاتصال أو التواصل السريع مع من أمّنته على تجارتي. حاولت الاستمتاع بوقتي مع ابنتي، وأخذتها لتلعب مع بنات أختي التي أصبح لها في ذلك الوقت ثلاثة صبيان وثلاث بنات جميلات. كما جعلت من ذلك الوقت الطويل الممل فرصة للتقرّب والتعرّف أكثر على أخوي فقد شبوا عن الطوق، كما أن ثائرة أمهم قد هدأت قليلاً بعد أن هدّها الكبر والمرض. سألني أبي أن آخذ الأكبر من أخوي معي إلى قطر، وقد بلغ من العمر ستة عشر عاماً، ولم يفلح في الدراسة، بينما كان الآخر نجيباً جداً في الدراسة. أقنعت أبي أن أجواء الدوحة في قطر غريبة جداً على أخي، وقد تكون متعبة لمراهق مثله، لكني اقترحت أن يبدأ تجارته في البحرين كون

أهلها قريبين منا في العادات والتقاليد، وقد يفلح في التجارة بمساعدة أخيه البهلول، الذي اعتدل حاله بعد الزواج والإنجاب، وأصبح يتردد على والدته في الأحساء، وفي زيارته الأخيرة لم يمانع في اصطحاب أخيه معه إلى البحرين. في الحقيقة أنني لم أستطع نسيان أفعال أمه المشينة وظلمها لنا، وخفت أن أظلم الولد لو أخذته إلى قطر بسبب كرهي لأمه، لكني ندمت لاحقاً على عدم اصطحابه معي ندماً شديداً، وسوف تعرف عزيزي القارئ سبب الندم في متن هذه الرواية.

خلال الفترة التي قضيتها في الأحساء، ذهبت في زيارة قصيرة إلى البحرين لمدة أسبوع فقط، لأطمئن على أولادي وأدفع لهم مصاريفهم، وأشتري لوازمهم، وكم كان يعزّ عليّ مفارقتهم، لكني كنت كارهاً لأمهم بشدة. ورغم توسلها أن أصحبها معي إلى قطر لم ألقَ لها بالاً، أعطيتها حقها الشرعي مرة واحدة، وكم ندمت مستقبلاً على ذلك، ثم هددتها بالرحيل عنها سريعاً لو أعادت التوسل، وهكذا فعلت. عدت إلى الأحساء حيث يعتدل مزاجي، وتدخل البهجة على قلبي برؤية زوجتي وابنتي وقد تحسّنت صحتهما، وعليه قررت أخذهما معي إلى الدوحة، لكن سوء الحظ ظل يلازمني مع الشريفة؛ ففي الأسبوع الأخير من مرحلة الاستعداد للسفر، انقلب حال الشريفة فجأة إلى الضعف والوهن، وتأكدت أنها حامل، وعليه لم يسمح والدها بأخذها معي، وكذلك والدي الذي خاف على صحة البنت الصغيرة أكثر من خوفه على الأم.

<u>العودة إلى الدوحة والتفكير الجدي في الزواج في نهاية عام ١٩٥٦م</u>

رجعت إلى الدوحة خالي الوفاض، وبالرغم من أني وجدت تجارتي بخير مع أرباحها الوفيرة، فإن الوحدة داهمتني بقوة، وأصبحت أحتاج إلى زوجة بشكل ملحّ. لم أستطع الصبر، كنت أسافر كل ثلاثة شهور إلى الأحساء، ثم أمر على البحرين مرور الكرام، حتى ولدت الشريفة ولداً وكانت في بداية النفاس في المرة الثانية من زيارتي لها، فاضطررت للذهاب إلى البحرين لرؤية أولادي بعد طول غياب، وتزويدهم بالنفقة الكافية لهم. لكن الزوجة الخبيثة عادت في مطالبتها بالذهاب إلى قطر، والتأفف من المعيشة في البحرين بعيداً عني، صارحتها بأن ذلك غير ممكن لسوء أخلاقها ونذالة تصرفاتها؛ فهي تحط من مقامي أمام معارفي من

التجار هناك؛ هددتها بالطلاق والفكاك منها نهائياً لكني لم أفعل رحمة بعيالي منها، وخوفاً من أن تكون قد حملت من تصرفي معها في المرة الأخيرة. لكن عندما عدت إلى الدوحة داهمني الاكتئاب المسائي مرة ثانية، وشعرت بالوحدة القاتلة خاصة أن كل معارفي متزوجون مستأنسون في بيوتهم مع عيالهم.

بهجة العثور على الصميدح الصديق الصدوق والمثقف الحكيم

بعد عودتي المخيبة للآمال من الأحساء، والغياب النهائي لتلك الفتاة اللعوب عن متجري، أحسست بالفراغ الشديد. وبعد غلق المحلات ليلاً، وجدتني أداوم على المكوث بساحل بحر الدوحة (ما يُسمى اليوم بالكورنيش)، واخترت ذلك الشاطئ القريب من السوق، حيث كنت أجد السلوى في المشي ومراقبة الناس هناك. وقد لاحظت وجود بعض من الفتيات والفتيان أزواجاً أزواجاً، متناثرين هنا وهناك، ومن طريقة الهمس واللمس ظننت أنهم في مرحلة الخطوبة، أو بداية عهد الزواج، لكني تحققت أن لقاء العشاق عادة ما يتم بين جنبات البحر، حول الصخور الضخمة وبين خلجانه المتداخلة. تحسرت على نفسي حتى هممت بالبكاء على حالي؛ لأنه بالرغم من أن لي زوجتين وأني كثير المال، فإنني وحيد وفي قمة التعاسة، جلست على صخرة أتأمل البحر المهيب، وأصيخ السمع لعلي أسمع بعض همسات العاشقين اللطيفة. لفت نظري في عدد من المرات وجود شخص وحيد لكن يبدو على ملامحه الانشراح وسعة الصدر، ويبدو كرجل قطري مهذّب الهيئة والهندام، ولا أدري كيف تحرّكت في يومٍ ما من مكاني إلى مكانه، ألقيت عليه السلام ثم استأذنت في الجلوس إلى جانبه، رحّب بي وبدأ يجاذبني أطراف الحديث، ويسأل عن أحوالي.

استأنست به وارتحت لحديثه، ولم تكُ من عادتي الشكوى من الوحدة عندما أحادث غريباً، لكني كسرت القاعدة هذه المرة، حيث وجدته يستمع إليّ بإنصات شديد، وقد توطّد بيننا جوّ جميل من التفاهم والتقارب، مما شجعني على الشكوى من وحدتي، أحسست بالسكينة في روحه، ورقة الشعور الواضحة في كلماته، احترمني الرجل ولم يسخر مني كما كان يفعل البهلول في البحرين، بل قال لي بهدوء شديد: "إن ما تشعر به هو الوضع الطبيعي

لشاب صحيح العقل والجسد مثلك، ولا بد أن تتوق إلى الجنس الآخر، وتطلب من يسليك في غربتك"، وهكذا رسمت بتلك الشكوى وبرده المنطقي عليها خط لقاء استمر بيننا حتى نهاية العمر؛ وفي كل مرة ألقاه فيها يشجعني على البوح بظروفي ومشاعري، وفي كل مرة يعدني بالتفكير الجدي لحل أي مشكلة أصادفها، ثم يفي بوعده لي.

بعد لقائنا الأول ودّعني بمودة صافية، ثم وعدني بلقاء في المتجر مساء الغد. أحببت ذلك الرجل المسكون بقوة هادئة لا تُقهَر، والذي رمته لي الأقدار الحانية بحكمة من الرب الرؤوف بعباده الصالحين، واستبشرت به خيراً، وغادرته وأنا أردد: "رب صدفة خير من ألف ميعاد".

اسم صاحبي الجديد الصميدح، ويعني في اللغة العربية (الرجل الصلب الشديد القوي) وإنه حقاً لاسمٌ على مسمى. توالت لقاءاتنا لأنه قد عرف برقة حسه ورهافة شعوره أنني أحتاج إلى صداقته بشدة، فكان لي نعم الأخ وأفضل صديق؛ هكذا ارتبطت بصداقة صدوقة مع الصميدح رافقتني طوال حياتي، كان ذا حكمة وثقافة عالية، وقد لجأت إليه في حل الكثير من مشاكل وألغاز الحياة. ولكونه متعمقاً في دراسة علوم التنمية الذاتية، ومدرباً لمهارات التربية الروحية، فقد فسر لي أن لقاءنا لم يحدث صدفة؛ لأن تتابع الأحداث في الدنيا لا يحدث عشوائياً، بل يخضع لقانون يسمى "السرنديب" وهو جزء أصيل من الطبيعة ذاتها، لا خارجاً عنها ولا متعالياً عليها. كما أوضح لي أن "السرنديب" لا يخضع للسحر أو الشعوذة أو الأسطورة كما يظن الناس، بل هو جزء من ترتيبات القدر الذي كتبه الله علينا. ولا شك في أن "السرنديب" يُمثل الخريطة التي لا بد أن يسير عليها الفرد، بحيث يحدد القدر الأماكن والمواقيت الدقيقة، تلك التي تسمح بدخول شخص واحد أو أكثر إلى سلسلة أحداث معينة، وعليه فقد يتغير مجرى أمة بأكملها نتيجة تصرف ذلك الشخص.

أما في حياة الأفراد الشخصية فإن تشابك سلاسل الأقدار لا بد أن يؤدي إلى دخول شخص ما في مجالك، كي يقلب حياتك رأساً على عقب، يسعدك أو يشقيك، وبحيث لا يمكن أن ترجع حياتك عادية كما كانت بعد دخوله فيها. كما أوضح الصميدح التأثير العظيم والمباشر لنوع نية الفرد في تسيير أحداث حياته خيراً بخير أو شراً بشر. وقد تمكنت علوم

التنمية الذاتية من تسخير النية في قضاء الحوائج وفي شفاء المرضى أيضاً، وذلك بإرسال نية الشفاء لهم في كل يوم. إن موجات الدماغ الفكرية التي تطلق النوايا تعمل على التناغم مع الظروف التي يواجهها الفرد، وهكذا تُكيف الظروف نفسها حسب نوع النية المنطلقة، وتتزامن تلك الأفكار مع التواصل والترابط الذهني مع باقي النوايا القريبة من الفرد، كذلك تترابط نوايا الأفراد مع بعضها بحيث يتعاطفون مع بعضهم.

ثم أشار صاحبي لحكمة بوذية تقول: "إن جميع أعدائك لن يتمكنوا من إيذائك بقدر ما قد تتمكن منك أفكارك، إن لم تراقبها وتكبح جماحها". أجل إن رغبات العقل من أهم مسببات شقاء الفرد، عندها سألته بفضول شديد: "وهل توجد طريقة فعالة لكبح جماح وشرور العقل؟"، أجابني بثقة شديدة وكأنه قد مر بتلك التجربة: "أجل يمكن كبح هفوات العقل بالتصدي لبعض تعليماته المغرية بالفساد الأخلاقي، أو الطمع بجمع المال بكل الوسائل الممكنة. كذلك لا بد من الحرص على رفض مبدأ " الغاية تبرر الوسيلة"، والصرامة في مقاومة الأفكار والظنون السيئة المتعلقة بالآخرين، أو تلك التي لها علاقة بالإفراط في ممارسة المتع الدنيوية. كذلك لا بد من كبح جماح فضول العقل وتساؤلاته الملحة عن أشياء لا تخص الفرد في حياته، وعادة ما ألجم عقلي بالتفكير في بيت شعر من العهد العباسي حيث يقول الشاعر العكوك:

وَأَرى اللَيالي ما طَوَت مِن شَرّتي * زَادَته في عِظَتِي وفِي إفْهَامي

ثم أردف قائلاً: "لا بد من ترك تحديات العقل التي لا طائل منها، وعلى ذلك أنصحك بالتركيز على الهدوء والسكون والخشوع أثناء الصلاة، وممارسة العلاج بالتأمل العقلي الروحاني، كلما أمكن إلى ذلك سبيلاً"، كانت المرة الأولى التي أسمع فيها جملة "العلاج بالتأمل العقلي الروحاني"، فطلبت من صاحبي المزيد من الشرح لفهم تلك الجملة، فلم يبخل عليّ كعادته وقال: "التأمل هو ترك العقل يعمل بهدوء دون مقاطعة تيار الأفكار وتركها تنساب بسلاسة، لكن يجب توجهها بحيث تكون إيجابية، وبدون ممارسة أي تحليلات أو إضافات خارجية، وهكذا يدخل الفكر في سبات وسكينة دون مناقشة أو قلق بشأن أي شيء، ومع

تلك الممارسة يألف الدماغ السكينة ويستغلها في تطوير خلاياه وإعطاء جهازه العصبي المرونة اللازمة التي تؤدي إلى توازن إفراز الغدد ورزانة المشاعر.

والجدير بالذكر أن التأمل قد أصبح علماً معترفاً به اليوم، وله مراكز تسمى "التأمل اليقظ"؛ حيث تقدم فيها دورات متخصصة وتُصرف فيها شهادات للمتدربين. وعادة ما يستخدم التأمل في علاج الاكتئاب وبعض الاضطرابات العقلية والنفسية، كما يفيد في تقوية المناعة وتحمل الآلام.

في عصرنا الحالي ازداد الاهتمام بأساليب التأمل المتنوعة مع المحاولات الجادة في ممارسة تطبيقات التنمية الذاتية، إلى جانب العلاج بالثيتا والكوتشج وغيرها، وذلك لمواجهة الضغوطات والتوترات النفسية الناتجة من مشاغل ومسئوليات وممارسة الروتين الممل في هذا العصر.

كذلك ظهرت الصعوبات في مواجهة المشاكل التي سببتها ثورة الاتصالات الحديثة، وكل ما ذُكر سابقًا قد سبب اختلالات في الصحة نتيجة عدم انضباط إفراز الإنزيمات والهرمونات وكذلك نتيجة حدوث اضطرابات في كمية وتوقيت إفراز السيالات العصبية التي تنظم التفكير والسلوك البشري، وبذلك يُجهد الجسم ويمرض الفرد وقد تصيبة اعتلالات شديدة في الصحة الجسمية والفكرية، وإن الأشد ضررا نتيجة لما ذكر هو زيادة إفراز هرمون الكورتيزون الذي له تأثيرات ضارة وسامة على المدى البعيد.

ولا بد أن أذكر في هذا المجال الأبيات المشهورة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه:

دَواؤُك فيكَ وما تَبصُرُ * وَدَاؤُكَ مِنكَ وَما تَشعُرُ
أَتَزعُمُ أَنَّكَ جُرمٌ صَغيرٌ * وَفيكَ انْطَوى العالَمُ الأَكبَرُ
فَأَنتَ الكِتابُ المُبينُ الَّذي * بِأَحرُفِهِ يَظهَرُ المُضَمَرُ
وَما حاجَةٌ لَكَ مِن خارِجٍ * فكرُكَ فيكَ وَما تُصدِرُ

ومما حبّبني في صديقي أنه كان مؤمناً بأهمية الأخلاق في بناء الشعوب، وكان يشرحها لي كما يلي: "الأخلاق هي شكل من أشكال الوعي الإنساني، وتُشكّل المرجعية الثقافية للمجتمع،

حيث يُعبر عنها بالسلوك الفردي القويم، وهي مجموعة من القيم والمبادئ التي لا بدّ أن يتمثل بها أفراد الشعب وحكامه حتى تستقيم الحياة. وكما قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

وإنّما الأممُ الأخلاقُ ما بَقِيتْ ❋ فإنْ هُمُ ذَهَبتْ أخلاقُهُم ذَهَبُوا

الأخلاق تُشكّل جزءاً من القوانين التي تحكم الدولة بها مثل: العدل والمساواة والحرية وغيرها، ولولا تلك القوانين لكنا نعيش حياة الغاب، مثل سائر الحيوان. وبرحمة من الله اهتدينا لنعمة الإسلام الذي يفرض أن تتم جميع المعاملات بالأخلاق القويمة، والطبيعة الإنسانية السمحاء"، ومن أفضل ما أقنعني به هو أنني الوحيد المسؤول المسؤولية التامة والكاملة عن كل ما يحدث لي في هذه الحياة، وبين يدي وحدي توجد مفاتيح سعادتي وشقائي. وهكذا كانت أحاديثنا مؤثرة فينا ومفيدة لكلينا في مواجهة الأحزان والآلام، بل أني في كل مرة أجالسه فيها أخرج من عنده متسامياً منتشياً بروعة الفكر، فخوراً بفهمي المنطقي لأسرار الناس وأحداث الحياة.

أجل لقد كان نقاشي مع الصميدح مثيراً ومشوقاً ولا يكاد ينتهي، وقد سألته في يوم ما: "هل مجرد الوجود هو سبب كافٍ لشقاء البشر؟"، تفكّر قليلاً ثم قال: "إن أصل شقاء الفرد هي الرغبات والأماني التي لا تنتهي؛ لأنها تُفرز من النفس والعقل معاً، وقد لا يتحقق بعضها، ولو تحققت كلها لطلب الفرد المزيد منها أو من غيرها! كذلك تلعب المخيلة والظنون دوراً مهماً في شقاء الفرد، فهي سبب الطمع والغرور. وقد تتسبب المخيلة في الخوف والتخويف من أي كائن ومن أي شي. وكلما قلت رغبات نفسك، ولم يشطح بك خيالك عشت سعيداً. وعلى الشخص الفهيم الحكيم مراقبة حديثه مع نفسه، وإعادة مشاورة قلبه في كل قرار يتخذه. لاحظ يا عزيزي أن حديث العقل هو السبب الأساسي في تورّط الفرد في المهلكات الثلاث، ألا وهي: الغرور والخوف والطمع".

كيف بدأت خطواتي نحو اتخاذ الزوجة الثالثة

حاول صديقي الصميدح إقناعي بإحضار زوجتي من الأحساء إلى الدوحة، لكني شرحت له أن الأجواء المعيشية في قطر تختلف تماماً عن الأحساء، ولن تتمكن زوجتي المريضة من التكيف هنا ومعها أطفال ضعفاء، وهي دون سند من الأهل أو صديق مؤنس في قطر. أما

زوجة البحرين فهي من الجهالة ونذالة اللسان، مما يحرجني لو علم الناس أنها زوجتي، وأنا التاجر المحترم والمعروف عند كبار القوم. ولما يئس من أعذاري الكثيرة قال بجدية: "لا يمكن أن يستمر حالك التعيس كما هو، ولا بد لك من الزواج للمرة الثالثة في قطر، وإلا منعتك من الشكوى أمامي، ولن أسمح لك بالحديث عن الجنس الآخر مطلقاً"، سكتُ صاغراً ذليلاً، لم أحر جواباً وطلبت فترة للتفكير، وكأني عذراء تُطلب يدها لأول مرة في حياتها. بعد أسبوعين فقط ضمن الصميدح موافقتي على الزواج من قطرية، ونصحني بالتقدم لخطبة إحدى بنات تاجر معروف بالصلاح والأخلاق القويمة، وسوف يكون هو الوسيط في ذلك الأمر، بعد أن يخبرهم بكل تفاصيل حياتي. كما نصحني بتطليق من في البحرين، حتى يقسم لهم أن لي زوجة واحدة في الأحساء فقط، وأنه لا نية لي أبداً، بل لا يوجد مجال لإحضارها إلى قطر. وافقت على كل شروطه، لم يهمني الاستئذان من والدي أو من الشريفة فلو رفضا زواجي، فلن أجد عندهم الحل المناسب، خاصة أن الشريفة قد اعتادت العيش مع أبنائها وسط أهلها، وهي بحاجة شديدة لهم، نظراً لضعفهم وضعفها الشديد معهم.

وعَدْت الصميدح بكل ما أمرني به، وكنت أتساءل كيف هن بنات الدوحة؟ هل أفسدهن الدلال والنعيم مقارنة مع بنات الأحساء؟ هل يمكن أن تتربى الواحدة منهن كتربية الشريفة على اللين والطاعة؟ وهل سأجد الزوجة الصالحة المناسبة لي في نهاية المطاف؟ لست أدري ولن أعرف الجواب إلا بعد التجربة. على أي حال كنت متلهفاً أن أسمع الموافقة من والد الفتاة حتى قبل رؤيتي لها. ونظراً لحسن سمعتي بين التجار، ولكثرة البنات في قطر لم يتأخر أهل الفتاة في الرد عليّ بالموافقة، لكنهم أجلوا الملكة (عقد القران)، واشترطوا عدم إصدار وثيقة الزواج حتى أنتهي من تجهيز بيت الزوجية بالكامل، وكنت قد اشتريته عظماً، أي هيكلاً من الطوب والإسمنت فقط. وكان شرطهم الوحيد أن يكون البيت على أحدث طراز في نوعية الأبواب، وبلاط الأرضيات، وسيراميك الحمامات، والمغاسل، والديكورات، وغيرها؛ كما طلبوا أن يكون البيت مؤثثاً كاملاً لا ينقصه شيء من متطلبات الحياة، وكان ذلك هو شرطهم الوحيد لإتمام الزواج. بدأت في تنفيذ ذلك ووجدت أن مطالبهم لا تكاد تنتهي، كان إخوان الخطيبة يتفقدون جاهزية المنزل كل أسبوع، وفي يدهم لائحة بمطالب العروس من عدة كاملة للمطبخ، ومن تجهيزات لغرف النوم، والمعيشة، والمجلس، وغيرها. أرهقتني تلك

المتطلبات مالياً ونفسياً وجسدياً، وكان الصميدح يصبرني بقوله: "لقد تغيرت الحياة كثيراً يا صديقي العزيز، وتلك المطالب من الماديات أصبحت عادية لدى معظم البنات في كافة أقطار الخليج العربي". وكلما تفقدت هذا المنزل المُجهّز على أحدث طراز، ومقدار الرفاهية الراقية فيه، تمنيت لو أن الشريفة هي من تعيش فيه، وأن أطفالي منها يمرحون فيه ويسرحون.

الشوق للشريفة والرجوع إلى الأحساء في بداية عام ١٩٥٧م

لم يُجَهّز المنزل كما يريدون بالضبط، ومرت ثلاثة شهور على زيارتي الأخيرة للأحساء. أردت الذهاب إلى هناك بشوق عارم، خاصة بعد أن وصلتني الأخبار أن الشريفة بخير، أخبرت الصميدح بنيتي السفر قريباً فقال: "أخاف أن يزل لسانك وتنفضح نواياك في الزواج للمرة الثالثة، حاول أن تنتبه لكلماتك وأنت هناك"، لكنه لم يعرف حقيقة نواياي، ألا وهي أن يكون أطفالي بخير مع أمهم، وعندها سوف أحضرهم إلى قطر، ثم ألغي صفقة العرس تلك المكلفة جداً في الدوحة. خانني الحظ للمرة الثالثة ولم يحقق القدر أمنيتي، الولد والبنت وأمهم بصحة جيدة لكنهم لا يرغبون بالذهاب معي إلى البيت الكبير، فكيف بي لو طلبت منهم اصطحابي إلى قطر، كما أنهم قد تعلقوا بجدتهم وجدهم، وهم لا يفارقون أحضانهما، الجميع يظن أنني أعيش في بؤس شديد في الدوحة، فقد وصلتهم أخبار كاذبة أنها مدينة جرداء بلا زرع أو نخيل، وأن القوم فيها غلاظ القلوب، لا يحسنون التعامل مع الناس. وعليها كان والد الشريفة قاسياً عليّ كعادته وقد أجابني: "الحياة في قطر غير آمنة، ولن أسمح للشريفة بالعيش هناك على الإطلاق"، أخبرته أنها مجرد إشاعات ولا نصيب فيها من الصحة، فلم يصدقني. أما الشريفة الحبيبة فقد تعودت على غيابي ولم تكن لديها نية صادقة في الذهاب معي إلى قطر، لقد كانت تحلم بالبحرين فقط التي تصلهم عنها الأخبار السارة على عكس قطر؛ وعندما عجزت عن إقناعها قالت لي بهدوء: "إن الأحساء قريبة جداً من قطر وبوسعك القدوم إلينا متى تشاء". تذكرت مسيرة الشريفة في عواطفها معي، لم تكن في يوم ما مندفعة أو قلقة أو مستعجلة، بشأن الحب والعشق أو غيرهما. لكنها كانت دوماً المرأة الهادئة الرصينة التي عرفت معها العلاقة الطاهرة اللذيذة، وبمرور الوقت تكيفتْ في العيش بعيداً عني، لكن

حبها لي كان ينمو بهدوء، كم فرحت هي بحبنا في أيامنا الأولى، ربما لأني منحتها خليطاً عجيباً من اللذائذ المطلقة في وقت قصير، ثم تركتها وسافرت عنها. أجل لقد فاضت أيام وليالي عرسنا بالفرح ما لا تعمره سنوات طويلة، بزغت جذور الحب في أراضي قلبينا حيث نمت غصونه وتفتحت البراعم ثم أينعت أوراقه وتم طرح ثماره، وقد كسبت مني طمغة ودمغة الأمومة التي تشتاق إليها كل فتاة، وربما كان ذلك مرادها الأول والأخير في هذه الحياة. حقاً إن مرور الزمن كفيل بترتيب كل شيء، لكن القدر كان لي بالمرصاد، فلم أجد أي تشجيع من أفراد الأسرة جميعها على اصطحاب أسرتي معي، والشريفة لا تغرس يأساً في النفس، لكنها أيضاً لا تلقي لي بذرة أمل في إمكانية مرافقتي إلى قطر؛ لذلك كشفت لوالدي قبل سفري النية في الزواج من قطرية، وتمنيت عليه لو يحضر عرسي مع جميع أهلي وإخوتي، فوعدني خيراً مقابل عدم تطليق الزوجة الأولى كرامة لعيالي منها، بل حاول إقناعي باصطحابها معي إلى قطر، لولا أنني أكدت له مدى كراهيتي لها.

وحدها الزوجة في البحرين رغبت بشدة في مرافقتي إلى قطر، لكنها كانت حاملاً إثر زيارتي الأخيرة لها؛ لم أتمكن من طلاقها وهي حامل في شهرها الأخير، لكن الشك ملأ قلبي نحوها، وتمنيت لو تضع وليدها سريعاً حتى أرى شبه الوليد، وقد نويت طلاقها بعد الوضع حزماً وعزماً. لكني تذكرت ابني المتوفى نتيجة الطلاق السابق، فأجلت الطلاق حتى يتم الوليد سنة من عمره وتنقطع أمه عن إرضاعه. لكن عندما وصلتها ورقة الطلاق كانت فاجعة لها (فجأة وفاجعة معاً) سقطت مريضة، لم أهتم لذلك قدر اهتمامي بالعيال، وكان أكبرهم يخطو إلى الثامنة من عمره، أما الثاني فكان يخطو إلى الخامسة، أما الوليد الثالث فقد قارب السنة من عمره وكان شبيهي كما كان الأول، على ذلك زال قلقي أنه قد يكون من غير صلبي والحمد لله. لكن ذلك لم يشفع لها عندي؛ وقد تم الطلاق لأنه كان شرطاً أساسياً عند الصميدح حتى يتم إكمال زواجي في قطر.

العودة إلى قطر و إتمام زواجي الثالث في نهاية عام ١٩٥٧م

تابعت إجراءات الزواج بغير فرحة أو بهجة حقيقية كما كنت في سابق عهدي بالزواج، شعرت وكأني ملزم بإتمام هذه المهمة الضرورية على أكمل وجه، لم أعرف شيئاً عن الزوجة الجديدة، دينها أو أخلاقها، ما عدا نظرة واحدة قبل الملجة، وقد وجدتها أكثر جمالاً من الزوجة الأولى لكنها أقل جمالاً من الشريفة. لم يكن لي أهلٌ أو أي أقارب في قطر أعزمهم على الفرح، وكان والدي غاضباً مني بعد أن علم بتطليق زوجتي الأولى، كذلك لم يرغب في جرح مشاعر الشريفة وأهلها؛ لذلك لم يأذن والدي لأحدٍ من قرابتي في الأحساء، بحضور عرسي في الدوحة! وعلى ذلك لم يحضر عرسي غير صاحبي الصميدح وأهله وبعض المعارف من طرفي، ولدهشتي الكبيرة حضر جميع أقارب العروس ومعارفها، مما زاد في إحراجي وساهم في إحساسي بالعزلة أمام أهل عروسي، لكنه كان من حسن حظي أني شعرت بالألفة مع أهل قطر مذ دخلتها، وكأنهم أهلي جميعاً، فمر العرس على أتم بهجة وفرح وسرور.

في ليلة العرس هالني كثرة الدلال والدلع والغنج في سلوك زوجتي الجديدة، وكنت أظن أن ذلك لا يليق إلا بصغيرات السن، وليس لمن هن في سنها فقد كانت تبلغ الثالثة والعشرين من العمر. الشريفة لم تفعل ذلك رغم صغر سنها عند زفافنا! كانت الفتاة الخجولة ثم المرأة الوقورة مما رفعها في عيني. بمرور الوقت تأكدت أن العروس الجديدة كانت شكلاً آخر من النساء لم أعهده من قبل. لم أجد منها الالتزام بالصلوات الخمس، أو قراءة القرآن، ولو قليلاً، مما أزعجني فقد كان الحال كذلك مع الزوجة الأولى في البحرين، حزنت كثيراً وشرحت لها عن خلفيتي الدينية، ومدى تمسكي بأن تكون ملتزمة دينياً حتى يستمر زواجنا. وأظنها أحبتني بصدق وحاولت إرضائي بكل الطرق الممكنة، فتعلّمت مني أصول الطهارة، والقيام بأداء الفرائض على أكمل وجه، كذلك حددت لها دروساً يومية في أصول الدين وفروعه وتعاليمه؛ كما جعلتها تؤدي فرائض الحج والعمرة معي أكثر من مرة. ولحسن حظي وجدتها مطيعة هينة لينة، ومع العشرة تقبّلت منها سلوك الدلع، بل وجدته أنثوياً بامتياز، مما زاد شوقي وتعلّقي بها. لكن واجهتنا في بداية زواجنا مشكلة تأخر الحمل مما أقلقها كثيراً، قتلتها الغيرة وهي تعلم أن لدي أطفالاً من غيرها، وكثيراً ما كانت تحاول منعي من زيارة زوجتي في

الأحساء، وذلك باختلاق المشاكل البيتية، ثم إقناعي بضرورة بقائي في الدوحة لحل تلك المشاكل.

بعد مرور ستة شهور على زواجنا اشتد قلقها من عدم الحمل، ولم تفدها المراجعات في عيادات الدوحة، فطلبت مني أن تسافر للخارج للفحص الطبي، لكني أمهلتها قليلاً حتى أفرغ من مشاغلي الكثيرة. وللأسف الشديد كان صبرها قليلاً جداً، وقد ضبطتها وهي تلجأ للمشعوذين وتحاول أن تسقيني شراباً غريباً، فعرفت أنها تكذب عليّ وتخدعني كثيراً في محاولاتها للحمل. مما أزعجني وأغضبني منها، وعليه طلبت منها البقاء في بيت أبيها حتى أتخذ قراراً بشأنها. لجأت إلى الخلوة والدعاء وصلاة الليل لإنقاذ زواجي، ثم أمضيت شهراً في الأحساء بين الشريفة وأولادي الذين أصبحوا مثل الأقمار، وربما أكثر إشراقاً ونضارة من أمهم، والعجيب أنه قد نالهم من بياض البشرة النصيب الأكبر، بينما كان أولادي في البحرين كلهم سمر البشرة؛ كوني أنا وأمهم سمراوان. وأثناء زيارتي لأختي الحبيبة شكوت لها من سلوك الزوجة الثالثة، فضحكت وأخبرتني أن ذلك شأن النساء جميعاً عندما يتأخر حملهن، وذكرتني بمشاكلي القديمة مع الزوجة الأولى، ثم ذكرت لي حديث الفتاشة (قارئة البخت) التي ذهبت إليها في تلك الفترة، وقد تحقق فعلاً. وأظنها ذهبت إليها ثانية فقد ذكرت لي في زيارتي التالية، أن فال (حظ) الزوجة الثالثة بعد فتح القرآن الكريم تبين أنه ممتاز، وذلك بظهور آية من القرآن الكريم ومن سورة الإسراء، ألا وهي الآية التالية: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ ﴾ [الإسراء: ٦]، مما خفف توتري وبشرني خيراً.

رجعت إلى الدوحة، وطيبت خاطر زوجتي بشرط أن لا تعود أبداً لما فعلته مرة ثانية، وأن تعاهدني بترك الغيرة والحسد من زوجتي في الأحساء. بعد ذلك التصالح والتسامح أشرفت على علاجها في الدوحة حتى تم الحمل. واكتشفت بعد تلك الحادثة أن زوجتي الثالثة ربما تكون فرساً جامحاً، لكنها ليست عصية على الترويض، بل تنصاع سريعاً إذا ما داهمها خوف أو حل بها كرب، وما عليّ إلا استغلال تلك الحالات العاطفية المؤقتة كي أروض أخلاقها.

وكلما امتد بي العمر كلما تأكدت أن طبيعة المرأة في طريقة تفكيرها وتأرجح عواطفها تختلف تماماً عن طبيعة الرجل، حتى وإني لأعجب كيف أنهما ينتميان إلى عرق جيني واحد!

تمنيت أن تعرف كل النساء أن في قلب الرجل متسعٌ لأكثر من امرأة واحدة، وأنه مصمم بيولوجياً كي ينثر بذوره كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وللحب شأنٌ آخر فلا يمكن لامرأة أن تأخذ مكانة امرأة كان الرجل يحبها ويحترمها سابقاً، أجل لم تتغير مكانة الشريفة في قلبي، رغم تعلّقي بعدد من النساء بعدها.

بعد عام كامل حدث ما فرحني جداً، ألا وهو ولادة ابنة ثانية من الشريفة، كانت بصحة ممتازة وشبيهة جدتي رحمها الله، فأسميتها على اسمها رغم أن الجميع عارضني وذلك لندرة ذلك الاسم. كما أن علاج زوجتي في الدوحة أدى إلى ولادة توأم من الذكور لي ولأول مرة في حياتي ثم تابعت الولادات وأصبح لي ثلاثة صبيان وثلاث بنات في الدوحة؛ وهكذا أصبح عندي ما مجموعه اثنا عشر من الأولاد (سبعة صبيان وخمس بنات) من جميع زوجاتي. كم يفرحني هذا العدد من العيال ويبهج خاطري، ويشعرني أن العناية الإلهية تلازمني وتسعدني كما تلازم كل مؤمن مخلص، وتُغيّر مساره إلى الأفضل دائماً وتعوضه خيراً مما فقده. كانت كثرة المواليد الذين هم في الغالب بصحة جيدة، سمة ملازمة لذلك الزمن الجميل، الذي يتنافس فيه الرجل على الإنجاب كي يثبت فحولته، ويزيد من أعداد أفراد قبيلته، وفي ظنه أن يحقق وصية رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بزيادة نسل المسلمين لقوله: "تناسلوا وتكاثروا فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة". لكن للأسف الشديد انقرضت هذه الظاهرة في عصرنا الحالي، بسبب تخوّف الشباب من ظهور العاهات الوراثية، أو الإصابة بالسرطانات التي تظهر بين الناس في كل يوم. كما أن مرض التوحّد الذي لم يكن موجوداً بين الأطفال ولم أسمع به أبداً، انتشر بين الأطفال في عهد كهولتي، وربما ظهر بسبب اللقاحات الكثيرة والتطعيمات التي يأخذها الطفل، بينما يظن البعض أنه نتيجة التلوث المنتشر في كل شيء. وقد لاحظت أنه بالرغم من كثرة المواليد في الجيل الذي لازم شبابي، فإن الغالبية العظمى منهم كانوا أصحاء، والدليل على صحة قولي، أن ما أنجبت أنا وأختي من عيال (اثنا عشر طفلاً لكل منا) عاشوا كلهم بصحة جيدة ولم نفقد أياً منهم أثناء حياتنا. أما اليوم فإن المتقدم للزواج يتوجس خوفاً من كثرة المصاريف والنفقات التي تنتظره للطفل الواحد، خاصة بعد ظهور المدارس الأجنبية، بالإضافة إلى تكاليف ما يحتاجه الطفل من ألعاب إلكترونية وماركات عالمية في الملابس وغيرها.

وقد أخبرني أحد الأطباء المختصين بمشاكل الإنجاب والتناسل أن قلة الإنجاب في عصرنا الحديث ترجع أيضاً إلى ضعف خصوبة الشباب، وذلك نتيجة السريان المستمر للكهرباء في غرف نومهم، إذ لا بد من نزع السوكيتات وإطفاء الكهرباء تماماً قبل النوم مباشرة. كذلك تؤثر المجالات الكهرومغناطيسية المحيطة بهم سلباً على صحتهم وأعصابهم، ويتفاقم الضرر مع إدمان استخدام الهاتف الجوال وباقي الأجهزة الإلكترونية، مما يؤدي إلى خلل في إفراز الهرمونات الذكورية، وبالتالي إلى قلة تخليق الحيوانات المنوية. كذلك يُرجع العلماء كثرة ظهور اضطرابات الهوية الجنسية والشذوذ الجنسي في عصرنا الحالي، إلى شدة التلوث البيئي وانتشاره مع الطعام والهواء والماء وفي التربة الزراعية، كذلك يتداخل البلاستيك مع الشراب والطعام، عند تناول الأطعمة والسوائل الحارة في أواني بلاستيكية خفيفة، أو أواني ورقية مبطنة بطبقة شفافة من البلاستيك، مما يسبب اختلال الهرمونات لدى كلا الجنسين.

*****

الفصل الرابع من الملحمة

الضربة القاضية وتقطيع أواصر صلة الرحم

ما العلاقة بين العدل الإلهي والهناءة في العيش؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد من الإشارة إلى تفاصيل العيش عند أخويّ؛ أخي الذي يصغرني بسبع سنوات، أطاع والدنا في كل أمور حياته، أسس تجارة مربحة في البحرين بتشجيع منه، ولبى أمنيته في الزواج مبكراً من إحدى قريبات أبي في الأحساء، مما أقرّ عين والدي وأسعده كثيراً. لكن بعد أشهر من الزواج اضطر أخي لاصطحاب زوجته للعلاج من عدم الإنجاب في عيادة خاصة في المنامة، وكان ذلك العلاج مكلفاً مادياً. ولما لم يفلح العلاج الذي استمر لمدة سنتين، ظن الجميع أنها عقيم؛ ما عدا أخي الذي أحب زوجته حباً جماً، وكذلك والدي الذي أعطاه الكثير من الأموال من أجل استمرار علاجها في الهند ثم في أمريكا، وكان السفر من أجل العلاج مكلفاً جداً في ذلك الزمان، لم أعترض على صرف تلك الأموال التي لم تأتِ بأي نتيجة، بينما اعترضت أختي وناقشت أبي في وقف العلاج، فغضب منها ولم يسمع نصيحتها بضرورة زواج أخي من امرأة ثانية. لكن بعد خمس سنوات من صرف تلك الأموال الطائلة، يأس أبي من تأثير العلاجات، وألزم أخي بالزواج، فأطاعه أخي بالرغم من كرهه لذلك وحبه الشديد لزوجته الأولى، أجل أطاع أبي مسايرة له وضماناً لجلب المال الذي دائماً ما يرسله له.

الزوجة الثانية أنجبت له بنتاً واحدة سليمة واثنين من الأولاد المعاقين، وبالتالي تم صرف المزيد من الأموال في علاجهما، كنت أرقب تلك الأحداث بنفسٍ شاكرة، فقد سهّل الله لي الرزق بالبنين والبنات الأصحاء، مما أسعدني وأقر عيني. وكذلك كان لأختي، لكنها في كل مرة تشمت

بأخي وأمه وتقول: "جزاءً وفاقاً". لم يكن حظ أخي الثاني في الزواج أفضل من الأول، فقد تعرّف على فتاة لعوب من الرياض، حيث درس وتخرج، وظل ينتظر الزواج منها طويلاً، محاولاً إقناع أبيه وأمه كي يسمحا له بالزواج منها، ثم تزوجها رغماً عنهما، لكننا دهشنا جميعاً حين أنجبت ولداً في غضون سبعة أشهر فقط من تاريخ الزواج! وعلى ذلك حامت الشكوك حولها، وما لبث أن اكتشف أخي خيانتها بالصوت والصورة، فالتقنيات الحديثة لم تترك أي أسرار أو خفايا. اضطر لتطليقها ثم مرض جسدياً ونفسياً على إثر ذلك، فقد كان يحبها حباً جماً. بعد فترة وجيزة أقنعته أمه بالزواج ثانية حسب اختيارها من قريبة لها في البحرين، لكن الطيور على أشكالها تقع، فقد كانت الزوجة الثانية سليطة اللسان والسلوك، ولم يهنأ أخي معها، لكنه لم يتمكن من تطليقها إكراماً لقرابتها من أمه. وقد أنجب منها بنتاً ثم اضطر للتوقف عن الإنجاب، نظراً لكثرة المشاكل التي كانت تسببها لولده الوحيد من طليقته السابقة.

على أي حال فقد كان أبي فخوراً جداً بابنه الثاني الذي أكمل دراسته، وحصل على بكالوريوس المحاسبة من جامعة الرياض، ثم ما لبث أن انضم إلى أخيه الأكبر في البحرين، حيث عملا على توسيع التجارة هناك.

<u>الشركاء الأربعة وتأسيس شركة تجارية كبيرة في البحرين عام ١٩٨١</u>

في نهاية عام ١٩٨٠م كان قد مضى عليّ أكثر من خمسة وعشرين عاماً على عملي في قطر، بينما مضت حوالي عشرون سنة على تواجد أخي الأكبر في البحرين؛ وقد ازدهرت تجارته بعد أن انضم إليه أخوه، الذي كان عبقرياً في أمور المحاسبة. وكلما زرت الأحساء ترنم أبي بالجهود التي يبذلها أخواي في تجارة البحرين، والسرعة في بيع البضائع الكثيرة المرسلة إليهما من الأحساء، وكمية الأموال الكبيرة التي ترد إليه بدوره، وطالما سألت أبي عن ملفات الصادر والوارد الخاصة بتجارة أخويّ فلم يطلعني عليها! وأظنه لم يكن يملكها أو حتى يُطالبهما بها، بل كان يطالبني أنا بتسجيل كل صادرة وواردة في تجارتي، وفعلت ما طلبه بصدق وإخلاص. أجل كان ينقصني الحنان من أبي، لذلك قضيت حياتي كلها كالولد الغرير الطامع

في رضا أبيه ولا شيء آخر، وقد كان مجرد تبسّمه في وجهي كافياً لبعث الرضا والسعادة في نفسي.

وعلى ذلك ومنذ بداية عملي في البحرين، وضعت كل ما أكسبه من المال في جيب أبي، وأيضاً كان كل ما أكسبه من مال كثير في قطر يوضع تحت تصرف أبي، ولاحقاً كان يقول لي إن كل ما يكسبه أخواي من مال يوضع أيضاً تحت إمرته، أي إننا جميعاً شركاء في المال وفي البضائع التجارية. ولم يكن تصرفي غريباً بل هو السائد والمتفق عليه في ذلك الزمان، أن يملك الوالد جميع ما يكسبه أولاده من أموال، ثم يعطيهم المصروف بنفسه، بعد أن يحدد ما يكفي لكل واحداً منهم وعياله.

ولما كثرت عيالي طلبت من أبي زيادة في المصروف، أو إعطائي نصيبي من ميراث أمي، خاصة أنه قد تم تأجير البيت الكبير، وسكن هو وزوجته في بيت حديث صغير، بعد أن رحل أخواي إلى البحرين. وقد وعدني أبي خيراً، إلا أنه للأسف لم يوفِ بوعده، مما أورثني الحسرة والندامة في تقتيري على نفسي وعيالي، بينما كان يمكنني اقتطاع بعض أرباحي في التجارة كحقٍّ لي من ورث أمي. لكني للأسف فعلت العكس من ذلك، فقد كنت حريصاً على أن لا أدخر من المال شيئاً خاصاً بي، أو أضع شيئاً في ذمتي من البضائع لي أو لأطفالي، إلا الضروري منها لجعل الحياة عفيفة كريمة؛ حتى الهدايا التي كنت أهديها لعائلتي أو لأقاربي كانت بإذن الوالد، بل إن مصاريفي الإضافية كنت أطلعه عليها.

والدي كان يعرف الصادر والوارد من البضائع التي آخذها معي إلى البحرين أو قطر، ويحاسبني عليها أولاً بأول. أما عقود ملكية الأراضي والعقارات التي اشتريتها من أرباحي الوفيرة في قطر، فقد كان أبي يحتفظ بنسخ منها، لم أكن أخفي عليه أي أمر يتعلق بالمال أو بالتجارة، وذلك حرصاً على إبراء ذمتي، وعلى ذلك وفّقني الله في صحتي وصحة ذريتي، بل بُوركت لي أموري كلها.

في نهاية عام ١٩٨٠م وفي زيارة مفاجئة للأحساء، وجدت أخويّ هناك حيث كانا يقنعان والدي بتأسيس شركة تجارية كبيرة في البحرين، وعندما وافق والدي لم أستطع إلا أن أوافقهم الرأي جميعاً، ولكني طلبت مهلة لدراسة الجدوى، وبعد فترة قصيرة وجدت أن

الشركة المزمع إقامتها مجزية العطاء، فأبلغتهم بذلك فوراً. وفي بداية عام ١٩٨١م وضعنا جميعاً التخطيط اللازم لإقامة أساسيات الشركة، وحددنا يوم الافتتاح في الأول من الشهر السادس من عام ١٩٨١م، حيث تواجدنا أنا وأبي في البحرين كي نفتتح الشركة جميعاً، ثم تم تسجيلها في السجل التجاري بأسمائنا نحن الشركاء الأربعة، وكان ذلك بمثابة اتحاد عائلي قوي، وفرحة كبيرة لوالدي، بل لجميع أقارب العائلة في الأحساء والبحرين وقطر. لكن قبل ذلك، ومن أجل توفير رأس المال الضخم لتلك الشركة الكبيرة، طالب والدي بجمع كل الأموال السائلة التي لدينا نحن الأربعة في البلدان الثلاثة، حتى تكفي لبناء ووضع حجر أساس الشركة، وهكذا تم بيع كل الأراضي والعقارات التي ملكتها في قطر، ثم تحويل الأموال إليه حتى يجتمع المال كله لديه، وبالتالي يكون للشركة المال الكافي لتغطية كل أنواع المعاملات التجارية. وقد ظن والدي أن لأولادي حسابات كبيرة مسجلة بأسمائهم في البنوك، فطلب مني الكشوفات، ثم سحب تلك الأموال القليلة، فعلتها وأنا كسير القلب، لكني وعدتهم بردها مضاعفة بعد أن توزّع الشركة أرباحها؛ وكنت أعرف مسبقاً ومن دراسة الجدوى أن تلك الشركة سوف تدرّ أرباحاً وفيرة في المستقبل القريب، بل ربما في الستة أشهر الأولى من تشغيلها.

ومن مجريات الأحداث الكاشفة للحقيقة أن ابناً لي لم يكن مقبلاً على متابعة الدراسة الجامعية، بل كان يرغب بشدة في ممارسة العمل التجاري الحر، وحيث إن تجارتي في قطر قد بدأت تضيق، بينما تتسع التجارة في البحرين، استأذنت أبي في إرسال ولدي البالغ التاسعة عشرة من العمر؛ كي يعمل مع أعمامه في تلك الشركة، فلم يمانع وطلب منهم استقباله وتهيئة المكان المناسب له هناك. لكنهم للأسف الشديد أساؤوا معاملته، فرجع إليّ بعد ثلاثة أشهر خائباً يجر أذيال الحسرة والندم. بكى واشتكى وقال: "إنهما عاملاه معاملة الخادم المطراش، ولم يرغبوا في أن يتعلم شيئاً من أصول المهنة، حتى لا يطلع أو يعرف شيئاً عن أسرار تلك الشركة"، أجل لقد كانا حريصين على أن لا يفصح أحد منهما عن الأرباح حتى لوالدي نفسه، وهو لم يرغب يوماً في المشادة معهم في أي أمر، مهما كان مهماً أو خطيراً.

لم أناقش أبي أبداً فيما يتعلق بجمع كل أموالي لتأسيس رأس مال الشركة؛ كوني مؤمناً أنه المالك الوحيد لرأس المال في الأصل، وفي الحديث الشريف "أنت ومالك لأبيك"، قمت ببيع

كل الأراضي والعقارات وأعطيته كل المال، وكل ظني (كونه مؤمناً شديد التدين) أنه سوف يقسم الأرباح بالعدل بيننا فيما بعد. ولما لم أحصل في السنة الأولى على أي أرباح من الشركة التي ذاع صيتها وكثر زبائنها، ولم يرسل لي أخواي جرد السنة المالية الأولى كما اتفقنا! تأملت في مغزى إلحاح أبي على تجميع كل المال بحجة إنشاء تلك الشركة؟ ثم شككت في الأمر وساورتني الظنون؟ هل كنت مغفلاً وساذجاً طوال الوقت؟ ماذا بشأن وعده لي ببيع البيت الكبير في القريب العاجل، وإعطائي نصيبي منه؛ كونه معادلاً في قيمته لتركة أمي، متى يا ترى يفي بوعده؟ ترى ما الذي يدور في ذهن أبي؟ إنه يُلمّح لي في بعض المناسبات بأني قد عصيت أمره وتزوجت في البحرين دون علمه، وأن لدي الكثير من العيال مما يجعل حياتي تستهلك المزيد من المال في كل عام. كذلك ولا تزال زوجته حاقدة عليّ لرفضي الزواج من ابنتها قبل أن تتزوج، وحتى بعد طلاقها لمّحت لي بالزواج منها في عدد من زياراتي لهم في الأحساء، وقبل زواجي الثالث في قطر! ترى ما دورها في تحريض والدي وأخوي عليّ؟ وما الذي يخططه لي أخواي بعد تأسيس تلك الشركة؟ أجل لا بد لي أن أعرف كل شيء عن الأموال المشتركة بيننا، والتي انصبت جميعها في تلك الشركة، لقد كنت مغفلاً عندما اشتركت معهم فيها، ولا أدري إلى ما ستؤول في نهايتها؟

ومن عجيب المصادفات أنه في الفترة نفسها من الزمان المليئة بالشكوك والظنون، جاءتني أخبار من البحرين بأن البهلول وأخوي من أبي (وهما إخوة أيضاً من أمه) على خلاف كبير، بل إنهم قد قاطعوه تماماً ولا تواصل بينهم. على إثر تلك الأخبار جاءني هاجس قوي بأن أتواصل مع البهلول، فلعله يعرف ما لا أعرف عن تلك الشركة؟ وقد يرشدني إلى ما ينبغي فعله فهو خبير بالدسائس والحيل. شددت رحالي إلى البحرين كي أتفقد أبنائي وأحفادي أولاً، وكي أعرف شيئاً عن مصير تعبي وجهدي طوال كل تلك السنين الطويلة.

بحثت عن البهلول حتى وجدته مترعاً بالمشاكل مع زوجته وأولاده، ويعاني من نقص في المال كعادته، حاولت التخفيف عنه ونفحته مبلغاً من المال كمساعدة له في ظاهر الأمر، لكنه في الباطن كان بمثابة تحفيز له في سبيل إخباري عن ما يعرفه عن أخويّ. لكن ذلك الخبيث تلكلك في الكلام وتمهل في بداية حديثه، وقد فهم مرادي من طريقة سؤالي عنهما، ثم بعد فترة قصيرة من الصمت قال بخبثٍ شديد: "هل تريدني أن أعمل جاسوساً لك على

إخوتك؟ لا بأس في ذلك، لكن لكل شيء ثمنه"، تبسمت قائلاً: "لقد دفعت لك الثمن مقدماً، فقل لي ما تعرف عنهم، وسوف أزيدك من الخير الجزيل"، لم يكن المال دافعه الوحيد للإقرار بكل ما يعرفه عنهما، بل حقده الدفين عليهما لفقره مقابل غناهم، ويقينه أن أمه تفضّلهما عليه.

ويبدو أني تحدثت عن أخوي بلغة أثارت وتراً حساساً لديه، فقام يسعى لإثارتي أكثر، أقرّ لي أنه عرف من مصادر موثوقة بشراء أخوي عمارة سكنية تتكون من أربعة أدوار تقع في مدينة الدمام، تضم ١٦ شقة، وقد تم تسجيلها بأسماء أبنائهم للتمويه عليّ! لكنهم يجنون منها الإيجارات ويضعونها في حسابات أبنائهم الخاصة. تفاجأت بل صدمت لهذا الخبر، حتى أني تلكأت في نطق الكلمات، وبصعوبة سألته: "هل أنت متأكد من ذلك؟"، ولأول مرة أرى الغيرة والحسد في عينيه بقوة، لدرجة أنه لم ينطق، بل اكتفى بإيماءة من رأسه، واصلت تساؤلي: "لكن لماذا لم يخبرني أبي بذلك؟"، أجابني بتردد: "ربما لا يعرف أبوك شيئاً عن تلك العمارة، أو ربما يعرف ويتستر عليهم؛ لأنها سرقة من مالكم المشترك".

سكتَ قليلاً بينما ظللت أنا فاغراً فاهي، ثم أردف قائلاً: "إنهم يأخذون أبناءهم في أسفار ترفيهية مكلفة جداً إلى لبنان وسوريا، بل وإلى أوروبا، بحجة العلاج، تخيل أن أخاك الأصغر يصرّ على الذهاب إلى لندن لعمل جراحة بسيطة مثل إزالة اللوزتين لأبنائه! وذلك بعلم أبيك والناس جميعاً. بل إن أباك يرافقهم في بعض أسفارهم، فهل أخذ أحداً من أبنائك يوماً ما في رحلاته العديدة معهم؟ ثم هل تجوّلت في منازلهم ورأيت تلك الرفاهية التي تغمر بيوتهم؟ هل تعرف شيئاً عن تلك الأموال الهائلة التي يصرفانها على معيشة أولادهما، هل علمت بقيمة تلك الرسوم الباهظة التي تسدد لمدارسهم الخاصة؟ ابتداء من الروضة التمهيدية حتى الجامعة؟ لم أسمع قط أنك سجلت أحداً من أبنائك في مدرسة خاصة لا في البحرين ولا في الأحساء ولا حتى في قطر؛ وذلك لحرصك الشديد على إعلام والدك أنك لا تصرف إلا القليل من هذا المال المشترك، مما جعلك سخرية أمام أعين الناس، بالمقارنة مع إخوانك! ولا بد أن لديهما من المصاريف الأخرى الكثير مما لا نعلمه نحن، ويعلمه أبوك لكنه يغض الطرف عنهما، وعندما حسبت الأموال التقريبية التي تم دفعها في علاج زوجاتهما وأبنائهما في الخارج، ذُهلت وصُعقت من قيمة الرقم"، قاطعته قائلاً: "الحمد لله على ما حباني به من صحة في

نفسي وأهلي وأولادي"، ضحك عالياً وقال: "لكن لا يزال الله غاضباً عليهم ولم يشفِ أبناءهم، أما أمي الظالمة فقد أصبحت في حالة يُرثى لها من الضعف، نتيجة تكالب الأمراض عليها".

أسهب الرجل في الحديث عن تفاصيل الإسراف الذي يعيشونه، والتي لا داعي لذكرها، فقد كنت أعرف بعضها مسبقاً وأتجاهلها. كما حاول جاهداً أن يوغر صدري على أبي، ويثبت لي أنه يحابي إخواني على حسابي، وذلك بوصفه المسؤول عن التدقيق والمراقبة المالية العادلة. كنت أثناء حديثه مندهشاً مذهولاً، أجل لماذا كنت كالمغيب عن دور أبي في محاباة أخوي طوال ذلك الوقت؛ رددت ما بيني وبين نفسي: "راحت السكرة وجاءت الفكرة"، لكني من هول الصدمة لم أنطق ببنت شفة، استمر البهلول في تهكّمه ثم قال لي جاداً: "هل تريد الحل؟"، صمتُّ متفكراً، لكن إيماءة حزينة مني كانت كفيلة بجعل لسانه ينطلق فقال: "تظاهر بعدم المعرفة عن تلك الاختلاسات وتلك المصاريف المبالغ فيها، تتبع خبر العمارة واحصل على نسخة من صك الملكية بطريقتك الخاصة، ثم واجه بها أباك، وطالب بحقوقك المالية الآن قبل أن يطيح الفأس في الرأس، ولا تدري ربما تكتشف قريباً أن هناك الكثير من العقارات التي سُجّلت لهما ولأبنائهما ولا علم لنا بها"، ثم قهقه كعادته وقال: "كانت أمي تناديك يا ابن العبدة السوداء نظراً لسمرة أمك، والظاهر أن بياض بشرتها وأولادها قد طغى على قلب أبيك، ولا تزال أنت منبوذاً من الجميع يا ابن البطة السوداء"، ثم قهقه عالياً ربما ليخرجني من شرودي. ثم واصل حديثه قائلاً: "لقد كافحت طويلاً في تكبير رأس مال أبيك، بدأت منذ كنت صبياً صغيراً، واليوم شاب شعر رأسك، كيف تضيع جهودك هنا وفي الأحساء وفي قطر، ولا تأخذ إلا فتات السفرة، بينما هم يأخذون الكثير ولا يبذلون إلا أقل القليل".

طغى عليّ الحزن والأسى، وشعرت كم كنت مغفلاً وساذجاً، كرهتهم وكرهت البهلول معهم، لكني لم أحب أن أظلم أبي، ربما كان ساذجاً مثلي؟ قررت السفر بالطائرة إلى الدمام مباشرة، والتحرّي عن تلك البناية الخاصة بهم فما زلت غير مصدقٍ للخبر؟ ثم لا بد من مواجهة أبي بما أعرف لو ثبت أن ما سمعته حقيقياً عنهم.

انكشاف الحقيقة الصادمة الظالمة في بداية عام ١٩٨٢م

وصلت إلى الدمام بعد أن أخذت معي كافة أوراقي الثبوتية، وتلك التي تدل على أني شريك في المال كله مع أبي وأخويّ، توجّهت إلى إدارة ملكية العقارات، ولحسن حظي وجدت أن مدير الإدارة صاحب قرابة لي من جهة والدتي، شرحت له الوضع، تعاطف معي كونه يعرف قصة كفاحي وكدحي لتكبير تجارة والدي، ثم وعدني بالبحث والتنقيب عما جئت لأجله. وفي الغد جاءني الخبر اليقين مع صورة من صك الملكية، وللأسف ثبت تملك أبناء أخوي للعقار الذي كان باهظ الثمن في تلك الأيام. طار صوابي، أصبت بهبوط الضغط واصفر لوني، لاحقني المدير بالماء والعصير قائلاً: "اهدأ قليلاً، أخواك مختلسون لكن ربما يكون أبوك غافلاً عن ذلك كله". لكن للأسف الشديد لم يكن أبي غافلاً! عندما واجهته عرفت ذلك من ملامح وتعابير وجهه، لا شك في أنه على علم بكل ذلك، ربما أبلغه أحدهم أو ربما شك هو فيهم، لكنه حلف لي على المصحف أنه لم يكن على يقين تام بما حدث، هل سألهم وأنكروا؟ فأجاب بأنه لم يسألهم، فلم تكن لديه البينة الواضحة على اتهامهم، بالإضافة إلى الخوف من لسان أمهم. والآن والأوراق الثبوتية بين يديه، لماذا لا يحقق معهم؟ قال: "أنا لا أريد الصراع والعراك بينكم، الذي قد ينتهي بالقطيعة التامة، وتلك لا ترضي الله ولا ترضيني البته، وكم بذلت من الجهد حتى أحافظ على صلة الرحم بينكم". ذكّرته بجهودي في توسيع التجارة، وتكبير رأس المال منذ كنت صبياً حتى الآن، فعايرني قائلاً: "إنك تصرف على تعليم ومعيشة أحد عشر من الأولاد، وقد استأجرت ثلاثة بيوت، وصرفت على ثلاث زوجات، بينما مجموع أفراد عوائل الأخوين لا يتجاوز التسعة أشخاص"، أجبته بما جعله خاضعاً مستسلماً: "أنت تعرف أنني مقتصد جداً في مصاريفي على أولادي، وأن أخوي يصرفان أضعافاً مضاعفة مما أصرف على معيشة أولادهم ومدارسهم وسفراتهم، ولا تنسى الملايين التي صُرفت على علاج زوجاتهم وأولادهم"، أجابني بانكسار شديد: "أنا شيخ كبير ولا جلد لي على النقاش والعراك، قل لي ما الذي يرضيك؟ لكن دون صراع مع أخويك، فما أصعب على نفسي أن أرى أبنائي يتقاتلون من أجل المال"، أجبته والحزن بادٍ على محياي: "أنا أكره ذلك أيضاً، وأعدك بأنه لا صراع ولا عراك بيني وبينهم، بشرط أخذ كافة حقوقي المالية لحفظ مستقبل أولادي، ولن أغادر الأحساء حتى تعطيني حقي وأختي من قيمة البيت الكبير، ثم تقسم باقي الأموال قسمة عادلة

بيننا جميعاً، وذلك بعد تقييم سعر عمارة الدمام وخصمه من حقوقهم، ولا تنسَ أن المال عديل الروح"، أجابني بحزن واضح: "أمهلني حتى الغد ولا بد أن أفكر في حلٍّ لهذا الأمر الجلل، فأنا مصدوم مثلك تماماً". أجبت بعد هنيهة من التفكير: "نعم لكن بشرط أن تعدني بعدم الاتصال بهما حتى نأخذ نحن الاثنين القرار المناسب"، فرد عليّ: "لك هذا ولن أفصح بشيء مما حدث حتى لأمهم". لكن زوجة أبي علمت بقدومي إلى الأحساء؛ كوني مقيماً مع أسرة الشريفة، وهي ما فتئت تقوم بالتجسس عليهم بين الحين والآخر، حتى تعرف مقدار صرفي عليهم. وعندما تأكدت من وجودي في الأحساء لم تتمهل في الاتصال بأخويّ، وإبلاغهما بتستر أبي على وجودي في الأحساء لسببٍ جلل، وهكذا لم يمضِ على لقائي مع أبي إلا فترة قصيرة، حتى حضر أخواي من البحرين، والشرر يتطاير من عيونهما وكأنهما عرفا بافتضاح سرهما.

الجفاء بيني وبين إخواني منذ بداية عام ١٩٨٢م

أصررت على بيع البيت الكبير، فطال مكثنا جميعاً في الأحساء حتى تم بيع البيت الكبير بسعرٍ عالٍ جداً؛ كونه في وسط المدينة ويقع في مرمى تخطيط الحكومة للشوارع، التي تشتري مثل تلك العقارات وتدفع الثمن باهظاً جداً للمالك. اطلع أخواي على سعر البيت الذي يماثل سعر العمارة، فقالا: (العمارة لنا والبيت لك)، لم يتمكن أبي من إقناعهما بأن البيت الكبير إنما هو معادل لتركة أمي، وبالتالي نرث منه أنا وأختي وبالطبع له نصيب من تلك التركة التي ستوضع ضمن ما سوف يورثه. ثم شرح لهما كيف أن جدهم قد سجل البيت باسمه؛ من أجل الحفاظ على حقه في ورث أمي وحق الأيتام أيضاً، فلم يصدقا ذلك! طلبنا الشهود من بقايا أهلي على أن أمي تركت لنا مالاً كثيراً، كذلك طلب أبي من أحد أعمامي ليشهد بوصية جدي، لكن ذلك لم يقنعهما. تظاهر أبي بالغضب الشديد منهما، وطلب مني تأجيل النقاش للغد فقد أصبح تعباً ومرهقاً من الجدال معهما. في اليوم التالي وصلت الأخبار لأحد أخوي أن زوجته الأولى قد حاولت الانتحار؛ كونها مريضة اكتئاب مزمن منذ تزوج عليها، كذلك حدثت بعض المشاكل المالية في الشركة فانزعج أخي الآخر، واضطر أخواي للعودة إلى البحرين وهما غاضبان مني ومن أبي، ولم يشعر أي منهما بالخجل من اختلاس المال وشراء العمارة سراً! ومن هنا بدأت القطيعة بيني وبينهما. بعد سفرهما رفض أبي قسمة المال كله بيننا جميعاً وقال: "لن يرثني أحد وأنا حي أرزق"، رددت عليه والقهر يقطر من صوتي: "مضى على وفاة

أمي أكثر من أربعين عاماً، وقد آن الأوان لاستلام ورثنا منها عاجلاً غير آجل"، وعندما لم يحر والدي جواباً، لمحت له برفع قضية في المحكمة على أخويّ، غضب أبي وقال:(تلك قطع صلة الرحم، وإنها لكبيرة عند الله). لكني وكلت عمي الوحيد الباقي على قيد الحياة، وكان "مكلمانياً" (محامياً)، في قضية استرداد إرث أمي من أبي، وكذلك في قضية اختلاس أموال الشركة، ساندني عمي بقوة، وقال لأبي بالحرف الواحد: (سوف أحامي عن حقوق التوأم اليتيم، ولا شك في أن القضية سوف تنقلب لصالحهما كون الشهود والأوراق الثبوتية موجودة، ومن الأفضل لك التراضي مع ولدك البكر، الذي هو السبب في رفاهيتك أنت وأبنائك)، ثم أقنع أبي أن الوقت مناسب جداً لرد الحقوق لأصحابها؛ كون أبنائه منشغلين عنها. وأخيراً رضخ أبي لضغطونا أنا وعمي عليه، ومنحني حقي من المال في تركة أمي، وكذلك أعطى أختي نصيبها الشرعي. وبالضغط عليه أيضاً، أعطى عمي وكالة للتدخل في موضوع عمارة الدمام، أرسل أبي لأخوي صورة من الوكالة، وطالب أخوي بالتنازل له عن الملكية، وإلا سيرفع القضية بمساندة عمي واستدعاء الشهود من الأحساء والبحرين. لازمت أبي حتى وصلت لنا أوراق التنازل عن ملكية العمارة، ثم أصررت على الذهاب معه إلى الدمام وتغيير الملكية إلى اسمه فقط، وهكذا تمت الأمور على خير ما يُرام، لكن بقيت مشكلة أرباح الشركة التي في البحرين. نبّهت أبي وذكرته بشدة: "إنني كما أفرغت مدخرات أولادي، فقد أفرغت كل أموالي في تلك الشركة، ولم أستلم حتى الآن كشف جرد للحسابات، بالرغم من مرور أكثر من عام على تشغيلها"، فرد عليّ: "أجل نحن الاثنين لا نعلم عن الأرباح شيئاً، لكن لماذا القلق واسمك موثّق في السجلات الرسمية كشريك أساسي في الشركة، كما أن نصيبي سوف يتقاسمه الجميع بعد موتي، فلا تضع البيض كله في سلة واحدة، ولا بد لك من الانتظار عاماً آخر، حتى أُلزم أخويك خلال هذا العام بالجرد التام للشركة وتوزيع الأرباح، وسوف أبلغك بكافة التفاصيل قريباً إن شاء الله تعالى". لكنه للأسف الشديد لم يتمكن من الوفاء بوعده، وفي كل سنة يجد أخويّ عذراً في عدم جرد الحسابات، يخجل أبي مني ويلجمني بقليل من المال، كي يطمئنني بأن أرباح الشركة وفيرة، وفي كل عام يمرّ علينا كنت أحسّ باليأس والعجز، ولا أتمكن من مجادلته في ذلك الأمر.

عندما علمت زوجة أبي بما تم من تغيير في ملكية العمارة، ونيل التوأم نصيبهما من قيمة البيت الكبير، غضبت وثارت على أبي وهددت بترك الأحساء إلى البحرين ما لم يرجع كل شيء كما كان، ولما أعطاها أبي الأذن الصماء، استعانت بحفيدها من ابنتها المطلقة، لترتيب أمر سفرهم جميعاً إلى البحرين. ولأول مرة أرى ضعف أبي الحقيقي في غيابها، لقد تركته وحيداً، ورأيته دامع العين وهو يشكو لي من فراغ منزله، قلت له مواسياً: "تستطيع إرجاعها بالشرع والقانون، لكنها فرصة ذهبية لك كي ترتاح من لسانها السليط، وادعو الله أن تستقر هناك، وتوفر عليك تلك المصاريف والجهود الكثيرة، في ترددها على البحرين لزيارة أبنائها أربع مرات في السنة الواحدة". وفي النهاية لم يملك أبي غير الصمت أمام تصرفها، الذي أظنه قد أزاح عنه عبئاً كبيراً من الناحية النفسية والروحية. أمرت ابنتي البكر من الشريفة وهي المفضلة لديه، كونها سمية أمي، بالعيش معه وزوجها في منزله الجديد، وأظنها اعتنت به عناية فائقة؛ كونها تحبه أكثر من جدها الآخر العنيف. ثم بعد فترة وجيزة تزوجت ابنتي الكبرى القطرية من قريب لنا في الأحساء، واشترطت العيش مع جدها، فكان لها ما أرادت، مما أسعد الجميع.

عزيزي القارئ، لا بد أن أخرج معك بحكمة وعبرة من عراك المال الذي انتهى بسلام، وهي كالتالي: الحقوق لا بد أن تُؤخذ في النهاية، ولا سبيل لها إلا بالإلحاح في طلبها، فالحقوق لا تُسترد بالطرق السهلة الهينة، وإنما بالتهديد والقوة معاً؛ ولا شك في أنه بالرغم من تقوى أبي وتدينه الشديد ومعرفته الدقيقة بشرع الله، فإنه كان لا بد من الضغط عليه حتى يعطي التوأم اليتيم حقهما، كما كان من الضروري رفع القضية والضرب بيد من حديد على اختلاس أخويّ، حتى يرجع الحق لصاحبه الذي هو والدي، لكن ذلك كله لم يكن ممكناً إلا بمساندة ممثل القانون، وهو عمي المحامي الشهم العادل. ومن قديم الزمان، طلب الشاعر الحكيم أبو الطيب المتنبي من المرء أن يجاهد حتى ينال مطالبه العادلة فقال:

وَمَا نَيْلُ المَطالِبِ بالتّمَنّي * ولكِنْ تُؤخَذ الدّنيا غِلَابا

وفاة زوجة الأب في نهاية عام ١٩٩٠

لمدة امتدت إلى تسع سنوات من آخر لقاء لنا في الأحساء، استمر الجفاء وأعني به جفاف السلام وقلة الكلام بيني وبين أخويّ، وذلك لو التقيت بهم صدفة في الأحساء أو البحرين، وقد بذل أبي بعض الجهد لرأب الصدع بيني وبينهما، لكنه لم ينجح؛ كون ذلك الخلاف متعلقاً بالمال الذي هو عديل الروح، ولكون أمهما تساندهما في شدة الجفاء له ولي. وفي كل سنة يخبران أبي أن لهما عذراً في عدم جرد حسابات الشركة، ولما يئس والدي منهما، ترك لهما الحبل على الغارب في التحكم بالشركة التي كنت مغيّباً عنها تماماً. توفيت زوجة أبي قبل وفاة والدي بحوالي عشر سنوات أي في عام ١٩٩٠م، وكم دهش واستغرب عيالي من بكائي عليها، وعرفوا من حالة حزني، مدى حناني ورقة قلبي على أهلي جميعاً، تلقيت العزاء في وفاتها وكأنها أمي؛ وذكّرني أحدهم بقسوتها عليّ أثناء طفولتي وصباي فرددت عليه: "بالرغم من كل شيء فقد كانت عشرة عمر بيننا، وأذكر أنها قد غسلتني يوماً وأنا طفلٌ صغير، وأطعمتني من طبخها مراراً، ولم يكن قلبي ناكراً حتى للقليل من الجميل في يوم ما".

كان الصميدح يقول لي دائماً: "حتى تسعد وتفرح، طهر عليك هذا"، ويشير إلى قلبه، ولمّا رأيت والدي يبكي عليها أثناء العزاء في الأحساء، بكيت بحرقة معه حتى خرج كل ما في قلبي من حقد وكره، أجل لقد تطهّر قلبي من كرهها أخيراً، وكان ذلك سبباً في صفاء نفسي على جميع أقربائي دون استثناء، وعلى إثر هذا الحدث غمرتني السكينة وصفاء القلب.

وعندما ذهبت لتعزيتهما في البحرين، اندهشت من كمية الرفاهية التي تحيط بهما في منازلهم، فقد كان ثرائهما الفاحش مكشوفاً للعيان، قلت لأخي الأكبر منهما على انفراد: "لقد مرت تسع سنوات على تأسيس الشركة، ولم نستلم أنا أو والدي كشوف أي حسابات، وقد اتفقنا أن يكون هذا سنوياً، كما لم نستلم أية أرباح ولو لمرة واحدة"، فرد عليّ بحنق واستياء: "لقد استأذنا من والدنا بعدم تسليم الأرباح، بل تدويرها مع رأس المال، وهكذا يكبر رأس مال الشركة في كل عام. لكن يمكنك بيع حصتك كاملة لنا، بعد حصر كل ما في الشركة من أموال". راقتني تلك الفكرة وطمعت بالملايين من الأموال، لكني شككت في نواياهم، استشرت أختي الشريفة فقالت: "إن تلاعبهما الواضح مكشوف للعيان، وأعذارهما في عدم كشف

الحسابات لن تنتهي، وتسويفهما لتوزيع الأرباح إنما هي حجج باطلة، ومن الخير لك أن تنفصل عنهم في حياة والدنا وهو حي يُرزَق، فلا تدري ماذا يحدث بعد وفاته". أما والدي فرفض فكرة الانفصال تماماً؛ ذلك لأن ربع المال سوف يرجع لي في حال موافقته، وهكذا يتقوض بنيان الشركة، كما أقنعني بأني لو بعت حصتي فقد أخسر في المستقبل القريب الكثير من الأرباح المتراكمة. حاولت بطريقتي الخاصة معرفة معدل الأرباح السنوية، أو على الأقل ما رجع منها إلى رأس مال الشركة، لكني لم أتمكن من ذلك، فقد كانت السرية محكمة جداً، حاول المحاسب المالي أن يخفف من حنقي قائلاً: "أنت شريك أساسي ويمكنك التقدم بطلب خاص إلى المحكمة لمعرفة الأرباح في موعد الجرد فقط، الذي يتم في نهاية كل سنة وفي تاريخ محدد، لكن المشكلة أن الشركاء الآخرين قد أجلوا الحسابات جميعها في هذه السنة، بحجة العزاء"، بلغ أبي ما حصل مني، فنهرني على قلة ذوقي، وطلب مني عدم إثارة هذا الموضوع إلا بعد مرور أربعين يوماً على الأقل من وفاة الأم. وهكذا تم تسويف الموضوع لعشر سنوات أخرى، حتى تُوفِّي أبي في عام ٢٠٠٠ دون أن يفي بوعده في جرد أموال الشركة، وقد أصبحا يقولان له إن الشركة خسرانة بزعمهما. تذكرت حديثي مع أختي ونصيحتها لي، وندمت على رفض عرضهما شراء نصيبي بعد وفاة أمهما مباشرة وقبل وفاة أبي.

وفاة والدي رحمة الله عليه عام ٢٠٠٠م

تُوفِّي والدي عن عمر ناهز التسعين عاماً، عاش في رفاهية وصحة جيدة بالقرب من ابنتي التي دللته كثيراً، إلا أنه مرض في العشر سنوات الأخيرة من عمره بالسكري وأمراض القلب دفعة واحدة، اعتنت به ابنتي عناية شديدة ولازمته أثناء مرضه، فقد كان عشق حياتها الحالية وربما السابقة أيضاً. توفي والدي فجأة، وأخبرتني ابنتي أنه نادى على اسمي مراراً وهو يحتضر، ولم يذكر أي أحد آخر غيري قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. لكني للأسف الشديد كنت في لندن لعلاج يختص بزوجتي الشريفة، فأرسلت ابنتي لي فاكساً يتطلب حضوري عاجلاً، جئت متأخراً بعد محاولة جهيدة في قطع العلاج وإحضار الشريفة معي، تُوفِّي والدي قبل يومٍ واحد فقط من حضوري إلى الأحساء، لم أحضر جنازته ودفنه للأسف الشديد،

رفض أخويّ تأجيل الدفن يوماً واحداً! وعندما وصلت لم أجد أخويّ في الأحساء، بل رجعا إلى البحرين بعد الدفن مباشرة، تجرعت آلامي وأحزاني محتضناً أختي الطاهرة، باكياً على صدرها، قائلاً لها: "لقد عدنا وحيدين كما كنا قبل زواج أبي، كم تمنيت بعد زواج أبي أن يكون لنا إخوة أعزاء، وقد تصبرت أنت معي على ذلك الأمل، لكننا فقدنا اليوم كل الأحبة، أمي وأختي الصغيرة ثم جدي وجدتي وأخيراً أبي، ولن نجد لهم خلفاً أو بديلاً".

وبعد موت أبي ببضعة أيام، وحيث إني لم أستطع تلقي التعزية في الأحساء، جاء أخويّ إلى قطر بحجة التعزية، لكنها في الحقيقة كانت محاولة فاشلة منهما لشراء نصيبي من الشركة دون جرد رسمي وقانوني؛ ولم يجد أخويّ مَن ينهرهما كما نهرني أبي بعد موت أمهما، عندما سألتهما عن أمور الشركة. حاولا خداعي بمعسول الكلام، وعرضا عليّ ثمناً بخساً بحجة خسارة الشركة، رفضت عرضهما الخائب المُجحف، وطلبت كشفاً مفصلاً للحسابات جميعها، حتى أعرف نصيبي من الأرباح طوال فترة استمرت تسع عشرة عاماً بالتمام والكمال، كما طلبت كشفاً لتركة والدي كاملة؛ تهربا من الإجابة، وعادا إلى البحرين سريعاً. عاودت طلبي بعد فترة قصيرة من الزمن لكن بإصرار شديد هذه المرة، وعن طريق خطاب رسمي قانوني، وهددت برفع قضية عليهما، فثار جنونهما، وقالوا إنهما بصدد تصفية كل أمور الشركة؛ كونها خسرانة في زعمهما، وسوف يرسلان لي كشوف الحسابات قريباً، طالبت بموعدٍ محدد فلم أتلقَّ جواباً. انتظرت ثلاثة شهور أخرى، ثم اضطررت لتوكيل محامٍ ورفع القضية عليهما، وأنا في الدوحة، بعثا من يتوسط في الصلح بمقترح هزيل، هم يريدون نصيب الأسد بوصفهم المشرفين على سير أمور الشركة وإعطائي الفتات! ذهبت إلى البحرين لجس نبض الشركة من بعيد، وجدت أن أمورها تسير على أحسن ما يرام، وزبائنها كثر، ولا أظنها خسرت في يومٍ ما أبداً. وكّلت محامياً مشهوراً مختصاً في أمور الشركات المالية، أعطيته وكالة خاصة تسمح له بالبحث عن رأس مال الشركة الذي أنا شريك أساسي فيه، بل أمتلك ربع المال، بالإضافة إلى ورثي من أبي الذي كان يُشكّل الربع الثاني من مال الشركة. استخرجت له أمراً من المحكمة يسمح له بالاطلاع على كافة المستندات الخاصة بالأرباح السنوية، التي لم أطلع عليها مسبقاً، أو أستلم منها شيكاً مصدقاً واحداً. لكن وللأسف الشديد اكتشف المحامي حدوث الكثير من التلاعب في المستندات المالية بعد موت والدي مباشرة! ولا يوجد حل قانوني لاسترداد حقي

بالكامل، إلا برفع دعوى اختلاس عليهم، لكن ذلك قد يدخلهم السجن لشهور طويلة؛ لا، لم يطاوعني قلبي على فعل ذلك، تذكرت مجهودات أبي للحفاظ على صلة الرحم مع أخويّ. قلت للمحامي: "تمهّل وتكفي رسالة التهديد في الوقت الراهن، انتظر حتى أستشير أبنائي وأهلي". شرحت الوضع لأخيهم البهلول، فوجدته هازئاً بي وبرقة قلبي وسخف مشاعري، لكني طلبت منه توصيل الوعيد بالسجن لهم وكفى!

ثار عليّ أبنائي جميعاً ثورة عارمة، وذكروني بتفريغ مدخراتهم وحرمانهم منها وهم أطفال صغار، أما بكري الذي يعيش في المنامة، فقد أعطيته من الثقة ما لم أعطِ أحداً من إخوانه؛ لأنه أكثرهم ثقافة وحكمة، وبالتالي فهو أحبهم إلى عقلي وقلبي معاً، وقد قال لي: "ارجع يا أبي إلى الدوحة وأعطني توكيلاً شاملاً منك، حتى أنهي تلك القضية الشائكة لصالحك، أعرف جيداً أن قلبك لن يطاوعك على سجنهم، وصحتك لن تتحمل المهاترات". رضخت له وتركت القضية في يد ولدي والمحامي، ورجعت إلى الدوحة أجر أذيال الخيبة في استرجاع المال الذي ضاع عمري في الكد والتعب من أجله، والندم على الثقة العمياء وحُسن الظن في أهلي وعزوتي، كما رافقتني أثناء العودة المعاناة من آلام تمزيق صلة الرحم.

التلاعب في أموال الشركة وإعلان إفلاسها بعد الزعم بخسارتها

كان البهلول هو جاسوسي الذي اعتمدت عليه، وقد استطاع وضع جاسوس آخر داخل الشركة يراقب المحامي الخاص بهما ويُسجل حديثه سراً؛ وقد وجد المحامي الذي وكله أخوايّ أنه من أجل دفع قضية الاحتيال والاختلاس بعيداً عن القضاء، فلا بد من إعلان إفلاس الشركة، وبذلك تنفك الشراكة تلقائياً. انزعج ولدي البكر عندما سمع تلك الأخبار، ثم تشاور مع المحامي الذي وكلته فقال له: "لو تم إعلان الإفلاس وتفككت الشركة، فلن تحصلوا إلا على الفتات من رأس المال، وسوف تخسرون كافة الأرباح، إذن لا بد من التحرك عاجلاً وتوجيه تهم أخرى لهم مثل الكذب والاختلاس، وشراء العمارة سراً، بالإضافة إلى التهم الواضحة مثل إخفاء الحسابات، وعدم توزيع الأرباح، تلك التي يمكن إثباتها عليهم بسهولة"، طلب مني المحامي صورة من ملكية العمارة التي كانت مسجلة بأسماء أبنائهم، لكني للأسف

قد أضعتها بعد أن سجل والدي العمارة باسمه، وتمنيّت لو لم أضغط على أبي ليفعل ذلك، فتكون القضية لصالحنا، ذهبت إلى إدارة العقارات في الدمام ثانية، وساعدني المدير في البحث عن الملكية القديمة، لكنه وجد أن أخويّ قد سبقوني وأتلفوا الملف القديم برشوة موظف هناك، وهكذا تسببوا في فصله من عمله! ولا أعرف كيف تسارعت الأمور وتعقدت القضية، حتى تطلب الأمر ضرورة وجودي في محكمة البحرين لمواجهتهم والحلف بالمصحف على أقوالي. طلبت المحكمة مني شاهدين حتى تتحقق من شرائهما تلك العمارة عن طريق اختلاس أموال الشركة، ومن الثابت أنه لا مورد ولا مصدر لهم من المال غير تلك الشركة، وعلى ذلك شهد البهلول معي وكذلك مدير هيئة العقارات في الدمام. كم كرهت تلك المواجهة وبكيت ليلاً ونهاراً على انهيار صلة الرحم التي أوصانا بها ربي وأبي، وتمنيت لو هججت من المال والعيال إلى آخر الدنيا، بحيث لا يجدني أو يواجهني أي أحد. ولما وجد عيالي حزني ولوعتي، استخرجوا لي ورقة طبية تفيد بعدم قدرتي على السفر لحضور باقي الجلسات، وعلى ذلك استكمل ولدي البكر إجراءات القضاء والمحكمة لفترة ليست بالقصيرة، حتى حصلت على حقي في رأس المال مع ثلاثة ملايين من الأرباح، وقد قال المحامي إن الأرباح الحقيقية بالحسابات الدقيقة قد تتجاوز الخمسون مليوناً! وذلك بالقياس إلى الفترة التي استخدمت فيها، والتي ربت عن تسعة عشر عاماً، وعلى ضوء ما حصلت عليه من أرباح هزيلة قررأبنائي الاستئناف، لكني رفضت، لأن الحكم الأخير الذي سوف يصدره القاضي، قد يتضمن سجن أحد أخوي أو كلاهما! جمعت أبنائي كلهم من الثلاثة أقطار، وقلت لهم وأنا في أشد حالات الكرب والحزن: "لقد عشت معكم حياة مُيسرة ببركة القليل من المال الحلال، وتمكّنت من الصرف عليكم منها بالمعقول، لقد عشتم وأمهاتكم وأنا معكم وعددنا ستة عشر شخصاً برخاء ونعمة، وعلى ذلك لن يختلف الوضع معكم كثيراً لو زاد هذا المال أو نقص. أرجوكم خذوا ما أقرته المحكمة لكم من أموال، واقتسموها بينكم، أنا لا أريد منها شيئاً ويكفي أني أقلقت أبي في تربته، ولا أريد إغضابه بعد موته بالتسبب في سجن أخويّ، أرجوكم احترموا رغبتي، وأعدكم بمواصلة الإجراءات حتى حصولي على نصيبي من ميراث أبي، وسوف يُوزع عليكم فور حصولي عليه".

رضخ عيالي لرغبتي، لكنهم لا يزالون غاضبين مني، منكرين موقفي بالعفو عن أعمامهم رغم غدرهم بي، وكم تمنيت أن يتعلموا الدرس، حتى لا يحدث بينهم ما كان بيني وبين أخويّ. للأسف الشديد وبعد ذلك الظلم والإجحاف والغدر من جانبهم، والمواجهة لهم بالتضحية والمسامحة من قبلي، لا يزال أخواي غير راضين عني. طلبت من أختي الطاهرة لم الشمل في بيتها العامر في الأحساء، لكنهما اتهموها بالوقوف إلى جانبي، وكأني أنا الخائن المختلس! وكان ظاهراً في ردهم عليها بالهاتف الجفاء وقلة الأدب، حتى قالت لي أختي بألم وحسرة: "في الماضي كدت أقف مع أبنائك وأبنائي ضدك؛ لأن ما أعطوني من حقي في ميراث والدي لم يكن كاملاً، وتسبب ذلك في غضب أبنائي مني ومنك ومنهم، لكن حبي لك منعني من إغضابك والضغط عليك كي تسجنهم بعد ثبات اختلاسهم. أما اليوم وبعد جفائهم المتعمد لي ولك، وددت لو وقفنا نحن الاثنان مع أبنائنا ضدهم"، رددت عليها قائلاً: "لله الأمر من قبل ومن بعد، إن المسامحة والمودة في القربى من أكثر ما أوصى به القرآن الكريم، وعسى أن نُثاب عليها أنا وأنت فلا تندمي".

بعدها رأيت والدي في المنام يقول لي: "هنيئاً لك المودة في القربى، ربي وقلبي راضيان عليك، وعسى أن تدخل معي فسيح جناته". هل تذكر يا قارئي العزيز، كيف كان الإهداء في مقدمة هذه الرواية؟ وما هو مغزى حديثي عن المسامحة؟ ولماذا ركّزت في حديثي عن العفو؟ ذلك أني لا أزال أتألم من ظلم وجفاء أخويّ، وأردد في معظم الأحيان القول الفذّ العجيب للشاعر الحكيم طرفة بن العبد:

وظُلْـمُ ذَوِي القُرْبَـى أَشَـدُّ مَضَاضَـةً * على النَّفْسِ مِن وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

حافظت بكل قوة على صلتي الطيبة ببقية أهلي في الأحساء، أكرمتهم، وساعدت الضعيف منهم والمسكين حتى سمّوني "أبو الخير والوصال"، وها أنا ذا أتواصل مع أختي الطاهرة بالهاتف في كل يوم جمعة، كما أمرت أبنائي وأحفادي بمحادثتها، حتى نُدخل السرور إلى نفسها. كذلك أوجبت عليهم تطييب خاطرها وزيارتها في الأحساء، كلما أمكنهم إلى ذلك سبيلاً. لقد ظلت أختي تنجب حتى بعد أن تجاوزت سن الخمسين؛ وأنعم الله عليها بنفس عدد عيالي، وهي لهم نعم الأم والمربية، وعاشوا جميعاً في صحة جيدة وتوفيق في الرزق بفضل من

الله تعالى. وبالرغم من وفاة زوجها قبل وفاة والدي ببضعة أعوام، فإنه لم يترك أياً من أولاده يتيماً في سن الطفولة، وقد رعيتهم بنفسي حتى نالوا الحظ الأوفر من التعليم، ومن الوظائف المتميزة.

*****

الفصل الخامس من الملحمة

شذرات من ذكرياتي وإحساس بنهايتي

عشقي للحقول والمزارع والبساتين والنخيل يفوق أي عشق آخر

أشعر دوماً أني والشجر بكل أنواعه كيان واحد، وقد لازمني هذا الشعور منذ أن وعيت على الدنيا، لا سيما وأنا أتفيأ ظلاله الوارفة، حيث تغمرني وأنا تحت فروعه مشاعر الشفافية والرقة. وعندما كبرت وصرت مراهقاً ومتعباً لم أجد الراحة إلا بين أحضانه، مشاعري تتحول وأنا بين الأغصان والأفرع إلى ورق يمتص الضوء والأكسجين، وهذا ما يجعلني أهيم في الحقول سعيداً مترنماً. وكلما تقدم بي العمر تيقنت أني مستعد للهيام بالطبيعة أكثر من أي شي آخر في الحياة، والدليل القاطع هو هيامي وضياعي في الحقول وأنا طفل صغير قبل التحاقي بالكتاب، حتى سموني (جلمود الزرع الصغير)، كنت ألاحق تلك الطيور التي تصبغ الفضاء بالألوان العجيبة في مواسمها، وتضج مزارع النخيل بأصواتها المتضاربة صباحاً ومساءً. في تلك المواسم كنت أُجيد التخفي بين المزروعات كي أراقب الطيور وهي تلتقط الأعواد لبناء أعشاشها، وقد أتتبع مكان التعشيش كي أستمتع برؤية الفراخ الصغيرة. وكم كنت أطوف المزارع باحثاً عن طائري المفضل ألا وهو الهدهد، لم أتربص به سوءاً قط، بل كنت أطرح حبات القمح والذرة في أماكن تواجده، حتى أستمتع بمراقبته وهو يلتقط الحبوب. وكم تشاجرت مع الصبيان ممن يحملون النبال لصيد الطيور أو إخافتها، وكنت أسحب منهم النبالة وانتصر عليهم بالقوة.

ولن أنكر أن طفولتي خارج البيت الكبير كانت مليئة بالأحداث المثيرة والطريفة في الوقت نفسه؛ ويكفي تجوالي في البساتين والحقول لأنعم بشغف الفضول ثم لذة الاكتشاف والفرحة بذلك، أجل إني لأعشق البحث وأعشق الدهشة فيه، وعلى ذلك المنوال بحثت عن الجمال والفتنة في كل مظاهر الطبيعة، خاصة في أنواع الورود والزهور، بل كنت أجد أن كل النباتات جميلة ونضرة فاتنة. وفي وقت راحتي الأسبوعية حرصت طوال عمري على زيارة البساتين في أي بلد كنت فيها، لكن في كل الأحوال، كانت ذاكرتي مطبوعة بفتنة المناظر الطبيعية في مسقط رأسي، ألا ما أجمل بساتين النخيل في وطني الحبيب، وبالذات عند نهاية فصل الشتاء وبداية الربيع، عندما تحنو أشعة الشمس على كل الكائنات، تنخفض درجات الحرارة ويتلطف الجو، ثم يظهر قوس قزح الملون الجميل على امتداد الأفق بعد هطول المطر؛ حينذاك قد يقضي الناس الأسابيع الطويلة بين النخيل، يحملون معهم الزاد والمتاع، ثم تقوم كل عائلة ببناء العشة (الغرفة المصنوعة من جريد النخل الناشف) الخاصة بسكنهم هناك. كم كانت تسحرني تلك الطبيعة البكر، فبعد تساقط المطر بأيام قليلة تتفتح بتلات الزهور المتنوعة، كما تظهر زهيرات المنثور الملونة في كل مكان وكأنها الشموس الصغيرة المنيرة. أما الأراضي اليابسة فتتحول إلى سجادة خضراء تتقافز فوقها أوراق الخبيزة المستديرة النضرة، والحمبزان والنوير. أما زهور الخزامى (اللافندر) فلا تلبث أن تنشر تلك الرائحة التي تغري الناس بتجفيفه وتحويله إلى مادة عطرية للاستخدامات الجسدية. عندما أراقب تلك الحقول تدور في رأسي الآية الكريمة التالية: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥ ﴾ [الأعلى: ٤-٥]. كما يذكرني ذلك المنظر البديع بقول الشاعر إيليا أبو ماضي:

مَـنْ ذا يـكـافـئُ زهـرةً فـواحـةً ❊ أو مـن يـثـيـبُ الـبـلـبـل المترنما

عُـدَّ الـكـرامَ الـمـحـسـنـين وقِسهـمُ ❊ بـهـمـا تـجـد هـذيـن مـنـهـم أكـرما

لـو لـم تَـفُـحْ هذي وهذا ما شدا ❊ عـاشـتْ مـذمّـمـةً وعـاش مـذمّـما

أما سيقان تلك النباتات الغضة فتُتوج بالفراشات الرقيقة الهفهافة، ويتطاير النحل فوق زهور المحاصيل محاولاً امتصاص أكبر قدر من الرحيق الجذاب، ومكملاً واجبه في تلقيح الأزهار لعقد الثمار وإنتاج المحاصيل. في تلك المواسم تتزاوج الطيور، وتشدو ذكورها

بأجمل التغريدات لجذب الإناث إليها، تماماً كما نلاحظ في أشعار الغزل الجميلة التي يطلقها ذكور البشر نحو إناثهم. في هذا الموسم تظهر الطيور الصغيرة جداً على امتداد الأفق وتسمى الزرازير، كما يظهر اليمام الوديع والحمام البري. وقد أجد بركة ماء صغيرة خلفها المطر فأضع حولها بعض الحبوب، حتى تأكل وتشرب الطيور منها بسهولة ويسر. ونادراً ما تظهر شجرة صفصاف متفردة بين باقي الأشجار وكأنها عملاق وسط تلك الحقول، لكنه عملاق لطيف يظلل على المرتادين ويكون مأوى للطيور التي تبني أعشاشها، وتكون هانئة في أمنها وأمانها. أما أنا فأجلس تحت ظلال تلك الصفصافة أتسامر معها ومع الطيور التي تعيش بين جنباتها وتغرد على أغصانها.

تلك التفاصيل هي لحظات عزيزة على قلبي، تُمثل السعادة التي عشتها في مقتبل العمر، أما هذيان آخر العمر فهو مجرد تذكر تلك اللحظات السعيدة ومعايشتها وكأنها الواقع الحالي، ومن أجمل ما أتذكر مواسم الحصاد في الأحساء. في السنة الواحدة يوجد موسمان أحدهما لحصاد الخضار والفاكهة، يمتد من فبراير حتى يونيو في كل عام؛ ثم موسم آخر يمتد من يوليو حتى نهاية سبتمبر، حين يتم قطع عذوج البلح الناضج (الخرف). تتميز تلك المواسم بالفرح والبهجة وجناية المال الوفير، وفيها متعة لا تُقاس أو تُقدر بالرؤية أو بالحركة فقط، بل متعة تشمل جميع الحواس الجسدية. يشترك في ذلك الاحتفال الكبير كل البساتين والحقول المحيطة بالمنطقة التي نعيش فيها، ويتم من خلالها توزيع بعض الفاكهة والخضراوات الطازجة على الفقراء والمساكين، وتعتبر هذه مشاركة اجتماعية عامة جديرة بالاحتفاء بين كافة فئات المجتمع. أثناء الحصاد يتحمل العمل الشاق الرجال والصبيان ما فوق السابعة من العمر، لكنها مجلبة للعار لو اشتركت النساء أو البنات في جمع ذلك الحصاد. ونظراً لأن موعد الخرف يكون في نهاية القيظ، فلا بد أن يبدأ الحصادون عملهم في الصباح الندي الباكر بعد تأدية صلاة الفجر مباشرة، ويستمر العمل حتى موعد صلاة الظهر. يكون لأشجار النخيل كبيرة السن الأولوية في قطع عذوج البلح بعد التأكد من نضجها، ثم فرزها وتصنيفها، حيث يتم تقسيمها إلى ثلاثة أصناف: القسم الأول من البلح تكون فيه البلحة نصف رطبة ونصف خشنة وتُسمى بالرطبة، ذلك الرطب يُعرض للبيع؛ لأنه يجب أن يؤكل طازجاً في حينه؛ أما النوع الثاني فيُسمى بالبسر وله اللون الأحمر القاني أو

الأصفر الفاقع، وتكون البسرة ناضجة مستوية لكنها جافة نوعاً، ولذلك يُطبخ بعضها في الماء المغلي لدقائق معدودة، وتُسمى بعد ذلك السلوق أو الفاغور. أما النوع الثالث الذي لم ينضج أو لم يستوِ بعدُ، بل يظل ناشفاً أو معطوباً، فيُسمى بالخشاف أو الخشاش أو الحشف، ويجمع في أكياس الخيش، ثم يُخزن حتى تأكله البهائم مع النوى في فصل الشتاء. يعمل الأطفال فوق سن السابعة في فرز وتنقية أنواع البلح، بينما يقوم الرجال بتسلق النخلة وخرفها، ثم نقل أكياس الخيش المليئة بالثمار إلى السوق أو المخازن.

وفي تلك الأثناء وفي البيوت تقوم النساء والبنات بتجهيز أقفاص أسطوانية أو مكعبة الشكل متوسطة الحجم، يكون طولها نصف المتر وعرضها ٣٠ سم، يتم صنعها من أعواد السعف الجافة المنزوع منها الأوراق، وذلك لتعبئتها بالرطب حتى لا ينعفص، كذلك تُحمل فيها الفواكه الصغيرة الناضجة. ولن ينسى الفلاحون ترك الكثير من عذوج الرطب اللينة تماماً، والكاملة التي لم تُمس معلقة على أمها النخلة، حتى تتحول إلى التمر تدريجياً، ذلك الذي يُجمع ويؤكل في شهور الشتاء. بعد صلاة الظهر يتوجه الجميع للراحة وتناول الطعام، يتحلقون للأكل حول مياه السواقي، ثم يستحمون في مياه العيون أو بالقفز في جداول الأفلاج (مفردها فلج أو سيب). بعد صلاة الظهر يتوجه الجميع للراحة وتناول الطعام، يتحلقون للأكل حول مياه السواقي، ثم يستحمون في مياه العيون أو بالقفز في جداول الأفلاج. أما وقت المرح واللعب فيكون قبيل اقتراب صلاة الظهر، حينها أقضي الوقت المتبقي بعد انتهاء الحصاد، في التنقل مع أقراني بين المزارع لنستمتع بالاستحمام الجماعي في مياه الأفلاج، أو للتنافس في مسابقات السباحة في مياه العيون؛ بعد ذلك نتبارى في تسلق النخلات أو التسابق بين الأشجار. كنت بارعاً في عمل المراجيح من الحبال التي أصنعها من ليف النخيل، ثم أقوم بتأجيرها للصغار لقاء دراهم قليلة. كما كنت ماهراً في إشعال النيران تحت المراجل الكبيرة وملئها بالماء استعداداً لطهي البلح الناشف، ومن ثم الحصول على السلوق. وكم كانت تدهشني وتسلب ناظري كميات البسر الطازج الملون، وهي تتساقط من الزبيل أو السلال الكبيرة في أفواه المراجل، ولن يطول غليانها إلا دقائق معدودة، حتى تتساوى ألوانها وتتحول إلى اللون البني، ثم يتم غرفها بواسطة مغارف كبيرة تُصنَع من كرب النخل، وتنشر على البساط أو الحصير كي تجف تماماً تحت أشعة الشمس، بعد ذلك يتم تصديرها إلى الدول

التي لا تزرع البلح مثل الهند والفلبين وغيرها من دول شرق آسيا. أما ما يتبقى من السلوق فيستخدم كنوع من الحلويات يتلهى به الأطفال بقية أيام السنة. كثيراً ما تراودني تفاصيل تلك الذكريات الجميلة كلما تقدمت في العمر، وكم سعدت بسردها على عيالي وأحفادي، وكأنني أعيشها في التو واللحظة بكل حلاوتها.

في فلسفة الذات... من أنا ومن أكون؟

كان لديّ الوقت الكافي بعد تقاعدي عن عملي في الدوحة؛ كي أتعرف إلى ذاتي بدقة شديدة؛ ولذلك راجعت تصرفاتي وسلوكي أثناء عيشي في الأحساء مسقط رأسي، وأثناء عملي في البحرين، ثم في حقبة تواجدي في قطر الحبيبة. وبعد مراجعة سجل سلوكياتي في الماضي والحاضر، بإمعان وتركيز عميقين؛ ومع مراجعتي لأحداث حياتي، ودراسة ذاتي ونقدي الواضح معها، اكتشفت أنني شخص ذو تفكير بسيط مشوب بعاطفة قوية، مما سبب لي ضعف الشخصية في التعامل مع من حولي، واتهامهم لي بالسذاجة أحياناً، على سبيل المثال، لم أُظهر الحزم الكافي مع أبنائي مما شجّع بعضهم على عصياني، وإنكار حقي في توجيههم.

وبما أن معيشتي كانت قاسية بعد زواج أبي، فقد جعلت مني تلك القسوة شاباً رومانسياً أبحث دوماً عن الرقة وأعشقها في الكلمات والأخلاق؛ كما أحببت الذرابة (لطافة التصرف ورقة الكلمة والسلوك)، وحاولت جاهداً أن أكون ذرباً ما أمكنني إلى ذلك سبيلاً. بحثت في معاني كل أنواع الكلمات الحلوة سواء كانت حديثاً أو شعراً أو نثراً، وألقيتها على مسامع زوجاتي وأقاربي وأصدقائي. كما اكتشفت أنني شخص ذو روح وثابة متألقة وذو همة عالية في التفكير والعمل، أميل إلى التسامح بالرغم من عصبيتي التي قد تكون شديدة في بعض الأحيان. وبالرغم من عطائي الفقير والمحتاج بكل سخاء ومودة ورحمة، لكني لم أتمكن من فك عقدة التقتير على نفسي وعيالي للأسف الشديد، وقد ندمت على ذلك في شيخوختي ندماً شديداً، خاصة بعد أن سلب أخواي حقوقي المالية، وضاع بعض تعبي في جمع المال هدراً.

وبقدر ما اعتبرني الأفراد من حولي متديناً، اعتبرت نفسي ذا روح مشبعة بالسمو نحو الأعلى، والطموح إلى أعلى عليين في جنات النعيم.

لكني للأسف الشديد وجدت بعض عيالي وقد اضطربت أفكارهم، مع انعدام التطلع للسمو الروحي وهكذا هم يعيشون في بؤس ومعاناة نتيجة الفراغ الوجداني والديني، وكذلك وجدت الكثير من أفراد هذا الجيل يعيشون على ذلك النحو المرير التعيس، مما يدفعهم إلى تعلية نوازع الطمع والجشع والأنانية والحسد والغيرة، ظناً منهم أن هذه المشاعر السيئة، إنما هي بديل عن تلك السمات الروحانية الراقية. لم تغرني المظاهر المادية يوماً ما ولم ينخدع بها قلب، بحثت عن الأعماق والأصول، وقالوا لي إن الوصول إليها صعب، لكني بجهدي المتواصل وإصراري وعزيمتي، تمكنت من كسر صدفة الحياة الصلبة، وغصت بداخلها، حتى رأيت أن ما بداخل الصدفة أجمل جداً مما في خارجها. أفرح حين يعتقد البعض أني مثقف، وأنا أعتبر نفسي قارئاً جيداً، بل مهتماً بكل أنواع الثقافة العامة والخاصة، أجل لقد أحببت القراءة كثيراً، وتمنيت لو قضيت وقتاً أطول في القراءة في مقتبل حياتي، أما اليوم وبعد تقاعدي، وجدتني أقبل على تلك الكتب الفلسفية والدينية التي كان يقبل عليها أبي؛ لأن فيها الكثير من الإجابات عن تساؤلاتي الملحة، كما كشفت لي عن أسرار الحياة الشائكة لكثير من العباقرة والمفكرين. ومن أهم ما توصلت إليه في قراءاتي، وما أنصحك به عزيزي القارئ؛ أن لا تهدر مواهبك بسبب العقد والمخاوف، بل تحين الفرص لتطوير تلك المواهب، وجعلها متاحة للاستفادة منها للمقربين منك وغيرهم. إن ذلك سوف يحقق الوئام مع ذاتك أولاً ثم مع الآخرين، تمسك بالجسارة والهمة في عملك، وتأكد أنك الوحيد الذي يتحمل مسؤولية سعادتك وتعاستك. أجل إن لكل فرد واجبه حيال التمسك بالحياة السليمة، لكن حياتك الثانية الجميلة سوف تبدأ حين تدرك أن لديك حياة واحدة فقط، وكم تصيدت السعادة وبحثت عنها دوماً وأبداً، ثم عرفت أنها تنبع من داخل نفسي وليس من أي مصدر آخر. ولم أشكُّ في يومٍ ما بوجود طفل لم يزل شقياً في داخلي، وهو يتقافز في غالب الأحيان عندما أكون محاطاً بأبنائي ثم بأحفادي بعد ذلك، وفي أحيان كثيرة أشتاق لما افتقدته من اللعب في طفولتي، نظراً لتحملي المسؤولية وأنا في السابعة من عمري. تزدان الشيطنة في ذاتي اللعوبة فأقوم بالتخلي عن التحفظ في كلامي مع أبنائي، أشاركهم اللعب والمزاح متخلياً عن جو الرزانة الكئيب، ثم أفطن فجأة لهيبتي فألجم فرحي باللهو وأعود للرزانة والهيبة. لكني لا أنسى بريق الفرح الذي يتلألأ في أعينهم حين ألعب معهم، فأعود بعد أيام للعب ثانية معهم.

أما عن عشقي للجنس الآخر، فقد كانت الشريفة هي نصفي الثاني الذي عشت زمناً أبحث عنه، ثم وجدته بقدرة القادر الذي يدبر لنا الخير ونحن غافلون عنه، بل قد نرفضه في بادئ الأمر، ثم يلزمنا القدر به وهذا ما حدث لي معها؛ وما زالت تربطني بها مشاعر شتى من الراحة والفرح في قربها. لكن المحبة العميقة التي أحملها لها إنما هي مغلفة بتأنيب الضمير؛ كوني متزوجاً من أخرى قبلها وثانية من بعدها، وأحسب أن تلك المشاعر غير متوازنة، لكنها جذابة ومتحدية للظروف، وقد رفعت روحي إلى ملكوت عجيب مضيء بوهج الحب وتألق العاطفة. في قربها أكون أشبه بالفراشة التي تندفع إلى الوهج حتى تحترق، أجل أنا لا أحسب المسافة بين عقلي وعقلها، بل أعشقها بصدق ووله. أما هي فتعلم جيداً أن كواليس تلك المحبة شائكة فعندي غيرها من النساء، لكنها تشعر بمحبة عميقة الجذور لها وحدها، أحبتني بالفطرة والحس الأنثوي، وتلقفتني بكثير من الاحتواء والصبر والتنازل والتسامح، وهذا بالضبط جل ما يريده كل ذكر من أي أنثى. تعلّمت منها كيف تكون الطمأنينة والاستسلام لأمر الله ﷻ، كما وجدت لديها الاستعداد الكبير لاستجلاب السعادة بأي وسيلة تكون؛ وكان لجهازها العصبي قدرة فائقة على تعطيل مسببات الحزن والكآبة، ومنعها من التسرب إلى داخل نفسها المرحة التواقة للفرح والسكينة. ومما أنجح سعادتنا المطلقة، أننا لم نعرف معاً لعبة الظنون والتأويل، ولم نتعلمها لأنها لعبة فاشلة هادمة للسعادة بين الأحبة، بل تعاملنا مع كل الناس بالفطرة البسيطة الصادقة المباشرة منا وإلينا.

ودون أدنى شك كانت لي عادتي الغريبة الخاصة بي وحدي، التي لم أرَ من يكررها بين الناس، ومن عاداتي الغريبة أنني إذا قابلت شخصاً لأول مرة أتحين الفرصة حتى أرى أسنانه، بل ربما أتعمد إضحاكه والتركيز على ابتسامته، فإذا وجدت أن أسنانه بيضاء مرتبة وجميلة المنظر، ارتحت له وأكملت مسيرتي معه، وإن وجدت غير ذلك تركته وشأنه. وقد بين لي صاحبي الصميدح أن لكل فرد ما يعجبه ويفضله من الصفات الجسدية في الآخرين، وقد يركز على صفة واحدة وعندما يجدها في فرد ما يرتاح إليه، بغض النظر عن صفاته الأخرى، وقد لا يتحدث عن تلك الصفة أو يشير إليها، بل ربما تظل كامنة في العقل الباطن ويظهر ذلك التفضيل للأشخاص لا شعورياً. يقول المثل الأجنبي: "إن ابتسامتك يمكنها أن تجعلك ثرياً أكثر من ورقة اليانصيب"، أجل يا عزيزي القارئ، إن ابتسامك لا تكلفك درهماً واحداً

لكنها تجعلك أكثر إشراقاً وفي صحةٍ نفسية أفضل، كما ثبت علمياً أن الابتسام محفز لإطلاق هرمون الإندورفين الذي يجعل التفكير إيجابياً، وبذلك فهو مفيد في تجديد الطاقة وصفاء الذهن. لكني اكتشفت أن الابتسامة لا تسحرني إلا حين تظهر الأسنان التي تعجبني.

بئساً لوساوس النفس وشكوك العقل، فقد آذتني كثيراً؛ لأنها لازمتني شطراً طويلاً من حياتي، لكن تعلمت بمرور الوقت كيف أتغلب على القلق، وذلك بالتركيز على أهمية الإيمان بالقضاء والقدر لتيسير أمور الحياة، فما كتبه الله سيحدث لا محالة، ولن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا، وقد ساعدني ذلك الإيمان على قضاء بقية حياتي في سكينة وهدوء والعيش تحت أمان الله عز وجل.

كما كانت لديّ عادة سيئة جداً وهي سوء الإنصات لمحدثي والتعجل في الرد، ومن مرافقة صاحبي الصميدح تعلمت حُسن الإنصات للآخرين، وعرفت إنما هو واجب عليّ، وهو مهارة كان لا بد لي من تعلّمها والتدرب عليها مبكراً. وتذكرت إن أول ما جذبني إلى صاحبي الصميدح إنما هي موهبة الإنصات للغير، والتي يتمتع بها بشكلٍ فريد. أما عن طريقة اختياري للكلمات التي أنطق بها، فقد علمني أبي الحرص والتأني؛ ذلك لأني كنت عجولاً في الكلام، وكان رحمه الله يذكرني دوماً بمقولة "البلاء موكل بالمنطق"، وهي ليست آيةً قرآنية ولا حديثاً نبوياً، وإنما هي أثرٌ واردٌ عن بعض الصحابة والتابعين، ومَثَلٌ سائر بين العرب من قديم الزمان. والمقصود به أن الرجل قد يتكلم بالكلمة السيئة فيصيبه بلاءٌ، وِفقَ ما نطق وتكلم به، وهذا حديث صحيح تشهد له الكثير من النصوص الشرعية، والوقائع والحوادث في قديم الزمان وحديثه، وقد ذكر شيئاً من ذلك ابن القيم في كتابه "تحفة المودود بأحكام المولود". وكم أوصاني والدي أن أكون عبداً ربانياً مخلصاً لله في القول والعمل؛ ذلك أن الكون ينسجم مع العبد الرباني ويتآلف معه حتى يُسخّر الله له كل ما يريده ويحلم به. أكد صاحبي الصميدح حديث أبي ووصيته لي، وكان يشرح لي كيف أن قدر الفرد ونصيبه في الحياة مرتبط بما يشعر ويفكر فيه ثم ما يتقول به، إذن عزيزي القارئ، عليك الحرص على تنقية القلب وهدوء الفكر، ومن ثم التحكم باللسان وتخير أفضل الألفاظ، ومن أجمل ما يُقال إن: "الملافظ سعد".

تغيرت أحوال العالم وكذلك تغيرت أحوالي بين الأعوام ١٩٩٢- ٢٠٢٢م

كانت الدنيا تتغيّر أمام ناظري على شكل طفرات قوية وفي قفزات سريعة بداية من العام ١٩٩٢م، وفي العام ٢٠٠٢م لاحظت أن الدنيا قد تغيرت تماماً بالنسبة لي، وكأنما قد نزع الله عنها لباسها المهلهل القديم، وها هي اليوم تلبس حُلة جديدة زاهية، وتتزيّن بكل جميل وعجيب، وقد ذكرني ذلك بقول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا ﴾ [يونس: ٢٤]، مما أوحى لي أن يوم القيامة قد بات قريباً جداً. بالإضافة إلى ذلك نجد الكثير من الشواهد العلميّة التي تخبرنا بما لا يدع مجالاً للشك، عن قرب فناء الأرض بسبب الكوارث الطبيعيّة، والتلوّث الجوي والصوتي وتلوّث الماء والهواء، وتلوث المواد الغذائية، واستمرارية الحروب التي لم توقفها الحضارة بل زادت من عنفوانها وطغيانها. أجل لقد انبهر الناس بتلك الزينة الهشة المخادعة، وكثرت مطالبهم بالمزيد من كل أنواع الماديات، خاصة ما يتعلق بالملذات والمتع الدنيوية، وربما شغلهم ذلك عن ذكر الله والخوف من عقابه. ولا أبرئ نفسي فإن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، ابتعدت عن الله قليلاً، أخذتني مشاغل الحياة الكثيرة والتي تنوعت ما بين التجارة في محلاتي العديدة، والتردد على بورصة الأسهم للبيع والشراء، ثم المساومة على أثمان الأراضي والعقارات. للأسف الشديد، وجدت اليوم أن بعض جهودي تلك قد ضاعت هباء منثوراً، بعد أن نُهبت أرباح أموالي في تلك الشراكة مع أخويّ. وعلى ذلك أنصحك عزيزي القارئ؛ أن لا تصرف معظم وقتك في جمع المال الذي قد يضيع منك في غمضة عين.

في مارس من العام ١٩٩٢م أنهيت العقد السادس وأطللت على مشارف العقد السابع من عمري، فقررت إيقاف الإنجاب، فقد أصبح لديّ ما يكفي من التوجس والتعب على الأولاد والأعمال المرتبطة بهم. ذلك بالرغم من أنني في حينها ما زلت في صحة ممتازة، متوقد الذهن شغوف بالحياة وبتجربة المزيد من خيرها وشرها. لكن صحتي في السنوات التي تلت من عمري بدأت في الانحدار التدريجي، فاضطررت لتقليل ساعات عملي في متاجري، وشعرت بالملل لطول بقائي في المنزل مما لم أتعود عليه من قبل.

أما مطالب العيال فقد تعددت طوال تلك السنين الماضية، ما بين الاستعدادات العاجلة للدخول إلى المدارس في بداية كل عام دراسي جديد، وذلك بشراء الكثير من الملابس والأحذية والحاجيات المدرسية، ثم البحث عن أفضل المدارس الحكومية لتسجيلهم فيها، وذلك حسب مراحل التعليم المختلفة. كما كان يؤرقني بعد تسجيلهم في المدارس، البحث عن المراكز الخاصة بتقوية اللغة الإنجليزية التي أصبحت لغة العصر؛ وكذلك المراكز الخاصة بتعلم الحاسوب الذي أصبح ضرورة قصوى لكل فرد مهما كان مستواه التعليمي والاجتماعي، تأكدت من ضرورة تواجده بين أيدي العيال من أجل اللحاق بثورة المعلومات. أضف إلى ذلك صفقات شراء السيارات لي ولهم، ثم تأمينها أو تصليحها بعد الصدمات والحوادث. تدفعني زوجتي في قطر إلى مكاتب استقدام الخادمات والسواقين غصباً عني، بينما أذهب برضاي إلى مكاتب السياحة، في عطلات الربيع والصيف، حتى أتفنن في حجز الرحلات إلى الدول المختلفة. ولن أستطيع حصر العديد والكثير من مشاغل الحياة المرتبطة بالأسرة، والتي تتجدد دوماً ولا تنتهي؛ لكنني عندما أتعب وأسأم من تكاليف الحياة أكرر قول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى أمام أهلي وصحبي:

سئمتُ تكاليفَ الحياة ومَنْ يعِش * ثمانين حولاً لا أبا لكَ يسأَمِ

ذلك الشاعر المخضرم والذي عاش ما بين الجاهلية والإسلام، عندما قال ذلك البيت من الشعر، لم يكن له سوى ولدين في ذروة النضج والقوة، وربما مسؤولية عنزة وتيس مربوطين في وتد خيمته؟ بالإضافة إلى متعته في قول الشعر دون تدوينه؛ فهل تعرفون ما هي تكاليف الحياة التي سئم منها يا ترى؟ لطالما تساءلت عن نوعية تلك التكاليف التي أرقته واتعبته؟ ومهما كانت مشاغله فلا شيء يقارن البتة بمشاغلنا في العصر الحديث، تلك التي لا تعد ولا تحصى. كذلك رددت كثيراً أمام أولادي قول الشاعر الحكيم أبو العلاء المعري:

تعبٌ كلها الحياة فما أع * جب إلا من راغب في ازدياد

وهذا الشاعر الضرير ما الذي كان يتعبه أيضاً؟ ولم يرَ شيئاً من مصائب الحياة وبشاعتها؟ فما هي نوعية التعب الذي شكا منه يا ترى؟ ولم يكن له عملٌ في حياته إلا تلك الكتب التي لم يتعب في قراءتها، وإنما يجد دوماً من يقرأها له، كذلك كان عنده من يكتب له

مؤلفاته، وأظن أن يديه لم تتعب في عمل شيء في يومٍ ما! فلله در كل من يعيش في زمننا هذا وقد ابتلى بمشاكل العمل الشاق، وتشغيل الأموال، ومداراة الأهل وتربية العيال وتدريسهم، وغيرها من الكثير والكثير مما لا أستطيع ذكره فضلاً عن حصره.

وما زلت أتساءل في كل يوم، هل كنت أباً مثالياً وهل قمت بالمهمة على أكمل وجه يا ترى؟ أنا لم أشكو الضجر أبداً من مشاكل الأبناء ولم أتذمر من تربيتهم، بل فرحت بكل واحدٍ منهم فرحاً شديداً، وتمنيت المزيد منهم، وأطلقت عليهم الأسماء التي طالما أعجبتني، لبيت ما استطعت من طلباتهم لكني لم أسرف في الدلال والعطاء، وذلك حتى لا أُعودهم على الإسراف الذي نهى عنه القرآن الكريم. حرصت على تعليم أبنائي بعض العلوم المفيدة، وبالذات ما يتعلق منها بتعاليم الإسلام القويم والعادات والتقاليد المحمودة، كما نهيتهم عن تلك البدع والخرافات التي اختلطت بديننا وتقاليدنا. لم أفرض عليهم القيام بأي أمر غصباً عنهم، أو على غير هواهم ما دام غير منافٍ للدين والعادات القويمة؛ لم أتدخل في اختيار نوع التخصص الدراسي الذي يعجبهم، ولم أفرض عليهم غيره. وحالما يطلبون الزواج لم أتعنت معهم، كذلك لم أرفض تزويجهم بمن يريدون.

ولطالما جاهدت في رفع مستوى الوعي عند أولادي بطرق مختلفة، ومن أهمها تشجيعهم على القراءة في مختلف المواضيع؛ فقد زودتهم بالكثير من الكتب الثقافية والفنية المتنوعة، بل جهزت لهم مكتبات منزلية (في كل من الدوحة والمحرق والأحساء) ذات رفوف عديدة، اصطفت عليها أمهات الكتب في الدين والشريعة والعلوم والأشهر من الروايات الكلاسيكية الطويلة، لكنهم اشتكوا أنها قد تكون مملة وتتطلب التركيز الشديد؛ لذلك رغب معظم الأولاد في قراءة الروايات القصيرة، ففيها من الإثارة والمتعة مما يجعل وقت الفراغ يمر بسرعة، كما أن قراءتها تخفف آلام المكتئب أو الحزين منهم. كذلك تكون القراءة مفيدة في إثراء المحصلة اللغوية، وتقوية الحوارات المنطقية أيضاً. وإني لأحترم الكاتب الذكي الذي يقرن المتعة بالفائدة، فيضيف إلى أحداث الرواية المعلومات التي توسع المدارك والخيال، كما يضع فيها العبرة والموعظة والحِكَم والأمثال الشعبية الظريفة. ويا حبذا لو أضاف بعض أبيات الشعر وأنواعاً من الطرافة والفكاهة حتى يشرح صدر القارئ. وقد وجدت في معظم الروايات

الأجنبية المشهورة والمترجمة وصفاً دقيقاً وبديعاً لبعض المواقع السياحية في بلد الكاتب، مما يجعل القارئ يلف بعض البلدان وهو قابع في مكانه.

كما شجّعت أولادي على الاهتمام بمختلف أنواع الفنون، وأدمنت أنا القراءة عنها في سنواتي الأخيرة، وأعتقد أن بدايات الفنون حدثت حين أدرك الإنسان وجود الله عز وجل، ثم بدأ رحلة البحث عن الجمال الأوحد والمطلق في مظاهر الكون، وما يحويه من الأحياء والجمادات جميعاً. كما حدث أن تنوعت الفنون حسب جغرافية البلدان والأقاليم، فقد ظهرت النقوش الجميلة الملونة في أقاليم الشرق الأقصى؛ نظراً لتوفر الألوان الصخرية هناك، بينما ظهرت التماثيل العجيبة في حضارة الإغريق والرومان، وكذلك على امتداد القارة الأوروبية؛ وذلك لتوفر الرخام والصخور القابلة للنحت. أما عرب الصحراء فقد تفننوا في قول القصائد الشعرية الطويلة أو ما يُسمى بالمعلقات، كما ألفوا أصنافاً كثيرة من الأمثال الشعبية، وقاموا بإطلاق العبر والمواعظ والحكم، حدث ذلك بسبب معايشتهم جو الصحراء الحالم الهادئ، الدافع للتأمل وصفاء النفس، وتعلموا الصبر وطول البال لوفرة الوقت وكثرة الفراغ. ولا أملك عند قراءة الشعر أو تأمل مختلف الفنون إلا الهتاف: "سبحان ربي العظيم" فقد سخر للإنسان كل شيء يثبت وجوده، ويساهم في الوقت نفسه في رفاهيته.

التغيير المستمر في ظروف حياتي شحذ همتي وكان سبباً في نجاح عملي

أجل رحلت من موطني وتنقلت للعمل بالتجارة بين البحرين والأحساء ثم قطر، وبالرغم من أن الترحال قد كلفني الجهد والقلق والتوجس والشقاء، لكني بدلاً من اليأس والعجز تعلّمت الحصانة بالصبر والمواجهة برباطة الجأش، مما جعلني أنجح في حياتي العملية. ولا يزال الكثير من الماضي جميلاً في قلبي؛ ذلك لكون نفسي ألوفة وفية، أو كما وصف أبو الطيب المتنبي نفسه قائلاً: خُلِقتُ ألوفاً لو رجعت إلى الصبا *** لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وفي هذا المجال أحب أن أهديك قارئي العزيز، هذه النصيحة: لا تتردد في تغيير أي شيء، لو شعرت أن وجوده خطأ في حياتك، ففي كل لحظة ومع كل نفس تولد حياة جديدة؛ لذا عليك أن تتجدد حتى ولو تبقى من حياتك يوم واحد، اجعله لا يشبه اليوم الذي سبقه، فإنه

لا توجد إلا وسيلة واحدة حتى تولد في حياة جديدة، ألا هي أن تموت وتُنهي حياتك القديمة، ولا بد أن يحدث ذلك قبل حدوث الموت الحقيقي. ودون أدنى شك تظهر للمرء الكثير من الخيارات الجديدة في حياته، وعليه أن يكون جريئاً ولا يخاف من تغيير خياراته السابقة، وألا يظن أن مشاكل جديدة سوف تظهر له نتيجة هذا التغيير، أجل إن المصائب التي يلحقها المرء بنفسه كثيرة، وقد تكون مضحكة أو مؤلمة لكنها ليست بسبب التغيير نفسه، بل بسبب الطريقة التي يتم بها التغيير.

أظن أني قد نجوت من نفسي الأمارة بالسوء، وأصبح التغيير إلى التقوى منهاج حياتي، وهكذا أصبحت سلطان زماني. وقد قال الحكيم المتصوف محمد جلال الدين الرومي: "تغير أيها الإنسان إلى المحبة فمنها يصبح كل النحاس ذهبياً، وتمسك بالرحمة حتى تتحول كل المرارات إلى عسل، ثق بربك وعندها تصبح كل الآلام شافية". وقد وجدت أن لصاحبي الصميدح محبة تلقائية في قلوب من يجلس معهم من البشر، وأظن أن سبب تعلق الناس به هو فكره المستنير وخلقه العالي، وتأمله العميق الذي ينعكس على وجهه الودود. وعلى ذلك طلبت من صاحبي الصميدح جمع الأصحاب والشباب من عيالنا، ثم إلقاء محاضرة عن أهمية التغيير الإيجابي في الحياة؛ وقد أبدع صاحبي ونجح في توضيح أفكاره بشكل يتناسب مع تفكير الشباب، وإن كان قد طرح بعض الأمثلة بطريقة مجازية، وأقتطف لك عزيزي القارئ فقرات مما قاله كما يلي: "التغيير ضروري لأي شيء في الحياة، الماء على سبيل المثال لا بد أن يجري وإلا تحول إلى ماء آسن مليء بالفطريات والبكتيريا. وليس بالضرورة أن ترتب لكم الظروف حافزاً على التغيير، وإنما على الفرد أن يجد ذلك الحافز بنفسه، ثم بعد ذلك عليه بالمثابرة والمواظبة على التغيير تحت مظلة منهج محدد، ذي أهداف واضحة مفيدة. ولا بد أن يسبب التغيير السليم قفزة أو نقلة عالية في وعي الفرد وشعوره الوجداني، وبالتالي يتغير أسلوب الفرد إلى القول الحسن وانتقاء الكلمات الواضحة السليمة، كما تتغير طريقة التفكير والسلوك العملي إلى الأفضل. وقد قال الحكيم غاندي:" كن أنت التغيير الذي تريد أن تراه في العالم من حولك"، ولا بد من التأكيد على أن نوعية وكمية الكيمياء في جسمك والمقصود بها "الهرمونات والإنزيمات والسيالات العصبية"، تتغير بتغير المكان والزمان، وحسب مستوى الأحداث من حولك. وعلى ذلك يتغير مستوى صحتك الجسمية والنفسية،

ولا بد أن تتغير أحاسيسك تبعاً لذلك، وعادة ما يحتاج التغيير الكامل إلى واحد وعشرين يوماً كي ينضج ويكتمل. كذلك لا بد أن يتغير مستوى وعيك وإدراكك، بتغيير نوعية الناس من حولك، وتتأثر طاقتك الجسدية والفكرية والنفسية بما يحيط بك من طاقات مختلفة، وعلى ذلك يمكنك أن تستفيد من بعض المقربين منك، وكلٌّ حسب طاقته تكون الاستفادة منه. لكن خذ حذرك من أن يؤذيك البعض بأفعاله وكلماته؛ ذلك لأن كلمات النقد الجارح والشتائم لها تردد تذبذبي ضار على من يسمعها. كذلك احرص في حوارك الداخلي على تداول أرقى الكلمات، تماماً كما تحرص على سلوكك ومظهرك الخارجي.

قد يُصدق العقل كل ما يُقال له، وينشط الخيال في تضخيم بعض ما يراه؛ لذلك وجب التركيز على الأحداث من حولك، والتفكير فيها بحرص ودقة حتى تحدد نوعية التغيير الذي سوف تقوم به، ثم لا بد من اختيار ما يناسب العمر والمركز. وعادة ما تحدث النقلة الكبيرة في الوعي عندما يجذب الفرد إليه كل ما هو جميل، ويوسع دائرة معارفه ومعلوماته، يدرس ويفهم المواضيع التي تثير اهتمامه. كذلك عندما يمر الفرد بتجربة لم يجربها من قبل سواء كانت مريرة أم سعيدة، يرقى الوعي عنده فجأة ويحدث التغيير، ويعيش رؤية جديدة تماماً سببها الاستبصار، وربما يندم على تصوراته وظنونه السابقة. ومن المهم التعود على عدم إطلاق الأحكام المسبقة والتفسيرات غير المنطقية، كما يجب على الفرد مقاومة السلبية والإحباط والمخاوف والعقد النفسية أثناء شق طريقه في التغيير، مع تجنب سوء تقدير الذات.

ومن العجيب أن تحول النقاش في تلك الندوة إلى حقيقة مؤلمة، ألا وهي أن "الآخرين هم الجحيم"؛ بمعنى أنهم من أسباب إثارة الغضب والغيرة والحسد والنميمة والجحود والحقد والتفاخر وغيرها من الآفات النفسية، بل قد يحد البعض من تغيرك نحو الأفضل، وعليه لا بد من الحرص على انتقاء من يكون معك وبجانبك. وقد ذكرت لهم مازحاً ما قاله أحد الحكماء كي يحفظ نفسه من الأذى: "إني لأفر من الناس كما يفر الحمل من الذئاب"، وقد علق الصميدح على ذلك ضاحكاً فقال: "من العجيب أن بعض الصفات الفردية المكروهة مثل الغرور والبخل قد تنفع صاحبها، فهنيئاً للمغرور الذي يبتعد الناس عنه فيتقي شرهم، أو البخيل الذي ينفر الناس منه، فهو بالتالي يكسب غنيمة البعد عن شرورهم، كما يحفظ

ماله في الوقت نفسه، لكن ذلك لا يعني أني أشجع على البخل أو الغرور، وذلك لضررها الكبير على الفرد والمجتمع، ولكني أعني أنه كلما قل كلام الفرد وأفعاله تجاه الناس، كلما قل الخطأ وحفظت كرامة الوجه، وازدادت راحة البال"، أما مداخلتي في تلك الندوة فقد كانت كالتالي: "لا بد أن يشمل التغيير تقديم العون والمساعدة للآخر، أو الاعتناء بالنبات والحيوان، فلن يعيش المرء بسعادة إلا بقدر عطائه، وقد قرأت كتاباً مهماً يُسمى "البهجة"، ويدور حول أفكار "الدالاي لاما" وهو القائد الديني الأعلى للبوذيين في منطقة التبت، يشرح فيه كيفية التغذية الروحية المباشرة للحصول على التغيرات الذهنية الإيجابية، ولن يكون ذلك إلا من خلال تنمية الإيثار والتعاطف حتى تختفي المشاعر السلبية، ويصبح بإمكان الفرد تقديم أفضل ما في قدراته"، وكالعادة أثنى الجميع على تلك المحصلة الرائعة من المعلومات، التي تحصلنا عليها نتيجة الحديث عن التغيير كوسيلة من وسائل تنمية الذات.

توجسي الدائم المستدام متى ينتهي يا تُرى؟ وهل هو نوع من جلد الذات؟

ما زلت متمسكاً ومواظباً على تسلية نفسي وتغذية عقلي بالسفر مع أولادي مرتين في العام الواحد إلى دول متنوعة، أفعل ذلك بفرح وبهجة لما للسفر من فوائد جمة عديدة لا تُحصى، لكن ما إن يطل علينا بعض الفراغ أثناء السفر، حتى أجد نفسي مسجوناً في سرد الذكريات لمن حولي، تماماً كما كان يفعل ذلك التاجر العجوز الذي عملتُ معه زمناً في منامة البحرين. وقد بدأ ذلك يحدث عند إقبالي على السبعين من عمري؛ أجل كنت مشغولاً باسترجاع الماضي وجلد الذات، يعذبني تذكّر ذلك الجهد المرير الذي بذلته من أجل جمع المال، ويمزقني الندم على التقتير في حق نفسي وعيالي، وقد فعلت ذلك من أجل إرضاء أبي، وإمداده بالمال الذي أزيده منه في كل عام، حاولت أن أثبت لأبي مدى جهدي ونزاهتي في حفظ مال العائلة، ثم كان جزائي كما تعرفون. وبالرغم من أني قد أصبحت كهلاً ناضجاً وشيخاً مسناً، لكني أصبحت ذلك الرجل حبيس الماضي، وسجين ذكريات أحداث الطفولة والصبا، ذلك الرجل الذي يشعر بالرعب عندما يتذكر بعض أحداث حياته، وكيف لو أنها حدثت

لواحد من أبنائه؟ ماذا كان ليفعل أو يتصرف يا ترى؟ أجل أنا هذا الرجل الذيلا يكفّ عن القلق على أبنائه، بالرغم من أنه سوف يترك لهم إرثاً مالياً يكاد يكفيهم طوال حياتهم!

كثيراً ما أقلقني التفكير في المحطات التي مررت بها أثناء مشوار حياتي، وكنت في كل يوم أتساءل عن نوعية الحياة التي عشتها، ما قيمة هذا العمر الطويل؟ هل هو مجرد تعاقب الليل والنهار علي؟ أم هو الخير والشر الذي جنته يداي؟ هل الحياة الحلوة عبارة عن لحظات الفرح فقط التي تمر مرور الكرام؟ للأسف الشديد أنا أقر في هذه اللحظة بأني خالي الوفاض تماماً من مصالحة نفسي، وأظن أني لم أكتسب شيئاً مهماً في مسيرة حياتي من أجل تطوير ذاتي، إلا ما نصحني به صاحبي وتحصلت عليه من محاضراته. كما أني للأسف افتقدت الصلح مع بعض الناس رغم أننا جميعاً قد خلقنا من نفسٍ واحدة وعرق واحد، أما علاقتي بأخويّ في البحرين فقد انقطعت تماماً غصباً عني. وقد بات في اعتقادي أن للأم الدور الأول في ترسيخ اعتقاد الأبناء بأي شيء في الحياة وبالذات في العلاقات الأسرية؛ لأنه بالرغم من حرص أبي الشديد على تعليم أخويّ حبي واحترامي وصلة الرحم بصورة خاصة، فإنهما لم يتأثرا بنصائحه والتفتا لوصايا أمهما المضادة لتلك النصائح. أما أنا فلم تكن لي أمٌ تحرضني على أخويّ، وهكذا نجح أبي في ترسيخ أهمية صلة الرحم عندي، وما زلت متأثراً بقطيعة الرحم معهم ومتألماً بشدة لما حدث لنا. لكن لله الحمد والمنة لا تزال بيني وبين أختي الطاهرة زيارات متواصلة ومتبادلة، لم أقطعها أبداً، بل حرصت على زيارتها في كل مرة عند ذهابي لزيارة الشريفة وأولادي منها في الأحساء.

ومع أني أحب الاعتراف بالفضل وأكره النكران، لكني ظلمت نفسي بإنكار كل ما سبب أحزاني وآلامي في الماضي، وتجلى ذلك واضحاً في ابتعادي ممن أحببتهم زمناً ليس بالقصير، لماذا ابتعدت عن أختي وجدتي وذهبت إلى بقيق؟ لماذا لم أحاول الاستقرار مع الشريفة؟ لماذا قاومت فرحة اللقاء بها لفترات ليست بالقصيرة، عانيت فيها الأمرين؟ لماذا ادعيت لنفسي أن الفرحة والسعادة في جَمع المال فقط! إن ذلك مما أتحسر عليه كثيراً الآن. ومع مرور الأيام لم يكبلني الرياء والخيلاء، بل أدمنت المكاشفة الدائمة لنفسي بمقارنة الماضي بالحاضر، وبمراجعة تاريخ حياتي وبالتدريج ولله الحمد، اعترفت لنفسي بالكثير من أخطاء الماضي، وذلك شرط ضروري للإخلاص في الاستغفار، فاستغفرت الله عليها جميعاً، كما وددت لو

أستطيع الاعتذار لمن أسأت إليهم. وأخيراً صدقت تلك المقولة الشهيرة لآينشتاين: "حياة هادئة ومتواضعة تجلب قدراً من السعادة، أكبر من السعي للنجاح المصحوب بالتعب المستمر".

وقد كنت أزور المكتبة العامة ذات يوم، ولفت نظري كتاب بعنوان: "لا تهتم بصغائر الأمور، فكل الأمور صغائر" للكاتب (ريتشارد كارلسون)، استعرته ونفعني هذا الكتاب أيما نفع، لأني قرأته بتركيز شديد، حتى تأكدت أن جُل ما يقوله عن أحداث الحياة والناس صحيح جد، فالحياة سهلة هينة ولا تستحق القلق أو التذمر. لقد كانت العجلة في استباق الحدث وتحقيق الأماني صفة ملازمة لي في بداية حياتي، وكم سببت لي الشر والأذى، لكن قراءتي لذلك الكتاب علّمتني أن لا أكون عجلاً أو قلقاً بشأن أي أمر مهما كان.

هل فات الأوان يا ترى كي أسأل نفسي بعض الأسئلة الخاصة التي تجلب لي الكثير من الهواجس والظنون؟ لكن قد تفيدني الإجابة عنها في حالتي الراهنة، لأني كنت أعاني الأمرين كلما حاولت الإجابة عليها؛ وليس من السهل تغيير القناعات التي تجذرت في عقلي بعد إقراري اليوم بخطئها. لكن هل أنا مستعد لتغيير نوعية الأفكار والظنون التي عذبتني طوال حياتي؟ أجل ما زلت مؤمناً بالأمل في الخلاص من ذلك العذاب، وكما قال الشاعر الطبغري:

أعلـــل الـــنفس بالآمـــال أرقبهـــا ❋ مـا أضـيق العـيش لـولا فسـحة الأمـل

أنا مستعد اليوم لتغيير نفسي من الداخل حتى تتغير حياتي إلى الأفضل، طبقاً لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٥٣ ﴾ [الأنفال: ٥٣]. أنا خجل من نفسي لأني لا أعلم الإجابات على تلك الأسئلة، وقد بلغت من العمر عتياً، لكن لم يفت الآوان كي أستشف بعض الأجوبة. والآن دعني أخاطبك عزيزي القارئ، هل تُراك توصلت إلى أفكاري التي أظن إنها خاطئة؟ تلك التي رافقتني طوال مسيرة حياتي التي سردتها لك؟ وإن لم تعرف بعد، أعدك بالشفافية التامة والحديث عن تلك الأسئلة والأجوبة في نهاية هذا الفصل.

نصحني صديقي الصميدح بأن ألوذ بالضمير (العقل الباطن)، في فترة الاسترخاء التام، للحصول على بعض الأجوبة السليمة، وعندما طلبت منه تحديد معنى الضمير ودوره في حياة الفرد أجابني بما يلي: "الضمير هو الوعي الحي دوماً، والمراقب لأي خطأ في القول والعمل، كما أنه المرشد لكل قول أو فعل؛ الضمير هو مرآة الروح النقية الطيبة العادلة التي نولد بها، والتي تحمل لنا كل إشارات الصح، ثم تحذرنا من الخطأ. وبالرغم من أن الجينات المتوارثة لها دور مهم في تعزيز الصفات الشريرة أو الحث على الأعمال الطيبة، فإن للضمير القدرة على السيطرة عليها جميعاً. يحتاج الضمير إلى تعزيز ونصح وإرشاد من وإلى الآخرين حتى يتطور إلى الأفضل. يضعف الضمير أثناء الصدمات والكوارث؛ لأنه ينتكس ويبدأ في لوم الناس والزمان والمكان، بل ويجعل منهم شماعة يعلّق عليها أخطاءه وخطاياه. ولن ننسى الدور الخطير الذي يقوم به الأقران والأصدقاء، فلهم دور مهم في تعزيز قوة الضمير أو إضعافها، وذلك عن طريق تهوين الغلطات أو الاستهزاء بالأخطاء أحياناً. وإن القرار الصائب الوحيد الذي عاهدت نفسي عليه منذ زمن بعيد، وما زلت أطبقه حالياً، هو مراجعة ضميري في كل شاردة وواردة".

وثقت في أقوال صاحبي ونصائحه القيمة؛ كونه دارساً مختصاً في فهم مهارات الحياة، ومدرباً متميزاً في علوم التنمية الذاتية، لكني أضفت إلى أقواله ما يلي: "لقد وجدت أن للتربية دور فعّال في تنمية الضمير يستمر حتى نهاية العمر، فأنا الآن في فترة الكهولة لكني ما زلت أتذكر تعليمات أبي وجدي وجدتي، ربما لم ألتزم بها في الفترات المبكرة من عمري، لكني أحاول تطبيقها اليوم مع نفسي وأولادي وبالحرف الواحد، وهي تشكل في نظري الطريق المستقيم دوماً وأبداً". ومما ساعدني في تقوية ضميري تذكر الأحاديث النبوية الصحيحة وقراءة القرآن الكريم، والتفكر في آياته يومياً؛ ولعل من أجمل اللحظات في حياتي اليومية هو تأمل آيات الله وتدبرها، ثم العكوف على قراءة كتب التفاسير ومقارنتها ببعضها في بحث دؤوب عن الحقيقة. ومن أغرب ما عرفته حديثاً هي القراءة الخاطئة للآية الكريمة: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ [الإسراء: ١٦] وذلك بتسكين الراء في كلمة أمرنا؛ لأن ذلك يعطيها صيغة الأمر (أي أن الله أمرهم بالفسق) وحاشا لله العادل أن يفعل ذلك، لكن معناها يختلف عند

وضع الشدة على الميم (أمّرنا) أي جعلنا المترفين أمراء، ومن الطبيعي أن يكون المترف أميراً. ومما أثلج صدري أني قرأت كتاب الميزان في تفسير القرآن (الطباطبائي) كاملاً، ثم قارنته بتفاسير أبي حامد الغزالي وابن كثير والإمام محمد عبده وغيرهم من التفاسير المنطقية المعقولة. ولم أنسَ التدبّر والتفكّر في الأدعية التي ورثناها عن آل بيت النبوة عليهم السلام، أحببت هذه الأدعية المتميزة التي يخشع لها القلب والعقل، ولم أجد لها نظيراً في أي كتاب آخر. وإني لأجد نفسي بعد قراءة تلك الأوراد في سعادة لا مثيل لها، ثم لا أطمع في أي شيء من اللذات بعد ذلك أبداً.

<u>قد يتعجل الفرد الفهم ويصبو إلى الحكمة التي تجيب عن تساؤلاته الملحة، فمتى أصل إليها يا ترى؟</u>

في مرحلة الصبا والشباب تشتد العاطفة ويكون الانفعال سريعاً وقوياً، وقد يكون دفع العاطفة (سواء كانت عطفاً أم شجاراً) على الناس تلقائياً، ويتم ببراءة ودون انتقائية، لكن قوة العاطفة تخف تدريجياً بمرور الوقت. وعند الوصول إلى سن النضج وهي الأربعون تقريباً، يبدأ الفرد بالانسجام برفاهية أكثر مع البعض دون البعض الآخر، وهكذا يقل عدد الأصدقاء والمقربين، ولا يبقى من حولك إلا المخلصون فقط، وأولئك الذين يحبونك لشخصك لا لغرض آخر. عندما تقدمت بي السن تعلّمت أن أنظر إلى بعض الناس بعيني الريبة والشك والحذر، ذلك أن البعض قد يكون أكثر حماقة مما يبدو عليه، وربما يكون البعض الآخر أكثر عجرفة وتكبراً، وآخرون أكثر حسداً وغيرة، لا يبدو كل ذلك عليهم على الإطلاق، إذن كان من الواجب عليّ أخذ الحذر والحيطة من بعض المحيطين بي. وبالرغم من ذلك لا بد من الإشارة أنه لا حول ولا قوة لأي فرد منا، مهما كان وضعه ومركزه الاجتماعي إلا بالمحبة والتعاضد مع الآخرين بصدق ومودة.

ولا شك في أن الحكمة تظهر مع تراكم الخبرات ومع الوصول إلى سن النضج تحديداً، ذلك الذي يتفاوت بين الأفراد حسب جيناتهم الوراثية، وحسب الظروف المحيطة بهم وطريقة توعيتهم وبناء ثقافتهم، لكن عادة ما يُبعث الأنبياء في سن الأربعين وهي سن النضج المثالية، وفيها يتم اكتمال بناء الضمير والعقل. وتكون فترة الوصول إلى مرحلة النضج الفكري والروحي

طويلة وشاقة، وقد يشوبها الأذى للنفس وللآخرين، وقد يستنزف الفرد في الطريق إلى النضج الكثير من المشاعر والأحلام والأفكار، مقابل اكتساب الكثير من الخبرات وفهمٍ واضح لما يتواتر من الأحداث، مما يجلب له الراحة والرضا والقناعة والسكينة لاحقاً. وبعد أن تلعب بنا السنون ونلعب فيها، تأتي الحكمة ببطء وهدوء، وتترافق مع سن النضج الذي يأتي متأخراً للأسف الشديد، لكن عند قدومه تتكشف لنا الحقائق واضحة وصريحة، وتصبح الأسئلة والأجوبة مطاوعة لنا في كل حين.

أتحدث عن نفسي على وجه التحديد، فعادة ما يترافق معي استرجاع الماضي البعيد مع جلد الذات الشديد، فما هي الأمور التي ندمت عليها لاحقاً؟ ندمت على أفعالٍ كثيرة قمت بها، أولها ضياع العمر في جمع المال والحرص الشديد عليه، ثانيها الأذى سببته للآخرين وبالذات تطليق زوجتي الأولى. كما ندمت على تطاولي مع أبي بالكلام الجارح أحياناً وهو الشفاف اللطيف، وأشد ما ندمت عليه هي شكوكي الكثيرة في محبة أبي لي. كذلك ندمت على سوء الظن في سلوك الآخرين، والذي اكتشفت لاحقاً أنه لم يكن في محله أبداً. شعرت بالندم الشديد على عدم اصطحاب أخي معي إلى قطر، عندما طلب والدي مني ذلك في الماضي البعيد، ولو لبيت طلبه ذاك في حينه، لكان بإمكاني التحكّم في تجارة العائلة كلها، ثم وضعهم جميعاً تحت قبضتي، لكن لعن الله الحقد، فذلك ما منعني من اصطحابه معي بادئ ذي بدء؛ أما انعدام المحبة والكره المتبادل بيننا، فقد كانا السبب في كل ما حدث من مقاطعة فيما بعد، وهو ما ندمت عليه ندماً شديداً، وكم تمنيت لو نتصالح في يوم ما، لكن هيهات فقد بلغت القلوب الحناجر، وسيطر الحقد على القلوب، فالمال عديل الروح كما يقول المثل الشعبي.

<u>براءة ذمة والدي كما شرحها لي و أقنعني بها الصميدح</u>

في كثير من الأحيان أتساءل هل كرهني أبي بسبب أخطائي أثناء طفولتي وصباي وشبابي، وهل كانت تلك الأخطاء جسيمة يا ترى؟ أجل ربما هي كذلك، فقد كانت المشاعر حينها قوية وطاغية، وعليها كنت أقوم بالتصرف الغبي سريعاً، لكن لم يكن ذلك السلوك هو المقصود على وجه التحديد، بل كثيراً ما نظلم بعضنا البعض كما نظلم أنفسنا بالتسرع في القول

والعمل بما لا نقصده. وعلى سبيل المثال، لما كنت في الثانية عشرة من عمري، كنت مهووساً بمداعبة إخوتي المواليد الجدد واللعب معهم، ويوماً ما كنت أحمل طفلاً منهم كي ألاعبه فوقع من بين يدي، وجُرِح قليلاً مما أجج ثائرة زوجة أبي، وبالتالي عنفني أبي أمام الأهل جميعاً، فرددت عليه بصوت عالٍ جداً وعندما هم بضربي، عايرته بالرضوخ لزوجته المتسلطة علينا وعليه، غضب مني أبي ولم يحادثني لفترة وجيزة، كما قطع عني المصروف اليومي لفترة قصيرة. من هو المخطئ منا يا ترى؟ لماذا لم يراعِ أبي حداثة سني؟ ومقصدي الشريف في ملاعبة إخوتي؟ تلك الأحداث وما يشابهها كانت تكرر بيننا كثيراً، مما يسبب الجفاء بيننا للأسف الشديد.

ناقشت الصميدح في مشاعري المتضاربة تجاه أبي عسى أن يحللها لي إيجابياً، فترتاح بعدها نفسي وأدعو له بالرحمة من كل قلبي، وأتصدق له بخالص وجداني؛ تفكر صاحبي قليلاً ثم أجابني وهو يحرص على انتقاء كلماته: "شخصية أبيك كما وصفتها لي مسالمة هينة لينة، وهو لا يملك في تغييرها قيد أنملة، يتصرف بذلك السلوك مع الجميع رغماً عنه، فلا يستطيع الفرد تغيير طباعه بسهولة، فلا تصفه بالظلم لأنه لا يملك قوة التغيير، وإنما تلوم الشخص القوي الذي يرضى بالظلم ولا يسعى إلى تغييره. ثم لا تنسَ عصبيتك ونزق تصرفاتك وأقوالك الجارحة اتجاهه، وهو الوالد الذي أوصانا الله بلطف الحديث معه، ركّز في فكرك على حنان أبيك ولين ردوده معك. لا أرى سبباً منطقياً في حقدك على والدك، فقد حاول جاهداً إنصافك بإعطائك حقك من المال ورأب الصدع مع أخويك. إنما هو سوء الحظ الذي رمى بزوجة سيئة عليه وعليك، ولو رده الزمان إلى الوراء فلن يختارها أبداً، فهي لا توافقه في الشخصية والسلوك ولا حتى في نوعية المشاعر".

<u>على أي درجات سلم الوعي أقع أنا؟</u>

حتى يتزاح غضبي من والدي تماماً، وأسمح برحيل الذكريات السيئة عنه، نصحني الصميدح بقراءة كتاب: "السماح بالرحيل الطريق نحو التسليم" للدكتور ديفيد هاوكينز، أعجبني الكتاب لكني وجدت صعوبة في فهم بعض مصطلحاته، فرتب الصميدح محاضرة عامة لشرح أهداف الكتاب ومصطلحاته، بدأ المحاضرة بالتعريف بالكتاب ومؤلفه، أما

مختصر المحاضرة فكان كما يلي: "لا بد أن يعرف كل فردٍ منا أهمية السماح برحيل مشاعر الغضب، تلك التي تتشكّل منذ الطفولة ثم تتراكم على امتداد العمر تجاه أي موقف سيئ مررنا به وأي شخصٍ نراه مسيئاً. إن الغضب المتراكم في النفس هو المسبب لنوبات الهلع والقلق والتشاؤم والشعور بعدم الاستحقاق والظلم مما قد يؤدي إلى الاكتئاب المزمن والأمراض الجسدية المصاحبة له، وعلى ذلك يتم إطلاق الحقد والكره والأحكام الجائرة على الآخرين. ولا بد في هذه الحال البحث عن الحب بدلاً من إعطائه. إن رحيل الغضب يعني التحرر من التعلّقات العاطفية التي هي المسبب الأول في معاناة البشر، لكن وقبل أي علاج للغضب، في البداية يجب الاعتراف بوجود بعض المشاعر السلبية في عمق القلب، والقدرة على رؤيتها بوضوح ثم معالجتها دون التهرب منها، أو التملّص من مسؤولية تخزينها والتهويل منها، إن الاعتراف بالخطأ هو جزء من الشجاعة وفيه بعضٌ من العظمة. وعندما يرحل الغضب المرتبط بتفكير العقل ومشاعر النفس، سوف تدفن الأحقاد ويُردم الجفاء، رحيل الغضب يعني شعور الفرد بحالة التسليم والرضا والقناعة، تلك المشاعر تتناغم مع التنوير الداخلي والوعي الفطري البسيط. وقد ابتدع الدكتور هاوكينز "خريطة أو سلم الوعي" لشرح درجات الطاقة وربط كل درجة بصفة سلوكية تحدد وعي الفرد، كما وضع مقياساً لوغاريتمي ينتمي إلى قوة الطاقة، ويتراوح ما بين ١-١٠٠٠، حيث تمثل الدرجة ١٠٠٠ مستوى التنوير التام الذي يمكن تحقيقه في عالم الدنيا، ويظن الكاتب أنها درجة الأنبياء والحكماء من أصحاب التنوير والموعظة. هذا المقياس يتبع قانون الوعي، ويُسمى "مقياس هاوكينز لقياس درجة الوعي"، أما المستوى الأقل في الوعي فيقع في أسفل الخريطة وله من القياس (٢٠) درجة فقط، وهي تمثل مجرد بقاء الفرد حياً وتكون قريبة من الموت لانعدام نشاط صاحبها. أما مستوى الشجاعة (٢٠٠) فهو النقطة الحرجة التي تُظهر التحوّل من الطاقة السلبية إلى الإيجابية، كما أنها طاقة النزاهة والصدق والقدرة على المواجهة. وما يقع من درجات فوق مستوى الشجاعة فكلها داعمة للحياة، مثل السلام (٦٠٠)، الفرح (٥٤٠)، الحب (٥٠٠)، العقل (٤٠٠)، القبول (٣٥٠). أما ما يقع من مستويات تحت (٢٠٠) فهو هدام للقدرات مثل الفخر والغرور (١٧٥)، والغضب (١٥٠). ويُصنف هذا المقياس، درجة الوعي عندك حسب فهمك وتقديرك لمعاني الأحداث من حولك، وهو يختلف قطعاً عن مقياس الذكاء. ومما يحدد

درجة وعيك هو نوعية وطريقة استجابتك للأحداث ولما يحيط بك من كائنات، كما يظهر مستوى وعيك من سرعة بديهتك في الحديث، ومستوى كرمك مع الآخرين معنوياً ومادياً، ولا تنسِ أن طريقة حديثك مع نفسك هي ما يحدد وعيك ومقدار تقواك مع ربك. وإنك لتصل إلى درجات الوعي العالية بعدما تطحنك الظروف المؤلمة، وتمر في أشد حالات الكرب أو الغضب. ولا بد لك أن تتذكر أن كلماتك وأقوالك، وكذلك ردود أفعالك وسلوكك العام والخاص، جميعها تعكس مدى وعيك ورقيك مع نفسك ومع الآخر، وعليه يتم الحكم عليك من قبل الله والناس.

ولا بد أن نعرف أن كل ما في الحياة متصل ومتواصل على المستوى الطاقي المطلق، إذن كل وعي فردي لا بد أن يشارك في الوعي الجماعي، وهكذا يعزز ارتقاء الوعي الجماعي الشفاء الفردي وبالعكس. ولا شك في أن الذبذبات الطاقية سريعة الانتقال من مستوى إلى آخر، وبالذات تلك المتعلقة بالمودة والعطف والحنان، فإنها تصل للطرف الآخر بطريقة سريعة ومؤثرة والعكس صحيح. وحتى يصبح الفرد أكثر وعياً لا بد أن يبحث عن حقيقة نفسه في العمق الباطني، بدل الخضوع لبرمجة القطيع والتصرف في الحياة دون فهم لها، وسوف يكون ذلك الفهم هو بذرة التحول مما يؤدي إلى نقلة نوعية في الوعي المادي واللامادي. ولا بد أن يتبع تطور الوعي ظهور مشاعر الغفران والتسامح، ومن ثم إطلاق اليد بالكرم والسخاء مع الآخرين. ومن الضرورة بمكان تجنب المهلكات الطاقية، مثل: الغضب والخوف والغرور والطمع. ومع ظهور مشاعر الإيثار وتطبيقها على من حولك، سوف يحل الأمن والسلام في نفسك بدل الشعور بالغضب، وتنبثق منك القدرة على حب الناس مثلما تحب نفسك، وهكذا ينطبق عليك قول الرسول (ص): "والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، ولا بد من معرفة أن الجانب المُحب من الذات هو الجانب العظيم الذي علينا التمسك به وعدم الندم عليه مهما كان رد فعل الطرف الآخر، بل إنك لن تعرف السعادة الحقة إلا بالتركيز على سعادة شخص آخر في حياتك، وعندها سوف تتخلّص من الأنانية وتصبح ذا قلب هش وروح ساذجة تفيض بالحب والحنان. وسوف تكون مع الناس معطاء كالنهر والبحر، وتحبهم كافة كما يحب الشجر السحب الممطرة".

تأثرت بتلك المحاضرة كثيراً، وكانت سبباً في تصفية مشاعري من الغضب تجاه والدي، مما أراحني وجلب السكينة إلى نفسي، فشكرت الله الذي أهداني هذا الصديق المثقف الحبيب اللطيف، الذي أكسب من توجيهاته الراحة وصفاء النفس. وكم دخلت في متاهات الفلسفة العقيمة قبل أن أتعرف عليه، لكنه نهاني عنها، وشجعني على استبدالها بدراسة علوم التنمية الذاتية. وهكذا شعرت أن الله عوضني خيراً عن فقدان صديقي المسيحي الذي تُوفّي مؤخراً في البحرين.

ذات يوم شكوت لصاحبي الصميدح من كوابيس الأحلام في المنام، فقام بشرح عمل العقل الباطن أو اللاوعي أثناء النوم، واختلافه عن وعي اليقظة بما لم أسمعه من قبل، وهذا ملخص ما قاله لي: "العقل الواعي هو الحارس على بوابة الشعور أثناء اليقظة، لكن أثناء النوم يعمل العقل الباطن أو اللاواعي فقط، وهو يلجأ إلى الأحلام للتعبير عن أمانيه ومخاوفه. الأحلام هي لغة الرمز الحقيقي الذي يعني التحذير من بعض الأحداث، أو قرب تحقيق الأماني، فالعقل الباطن له القدرة على التنبؤ بما يحدث مستقبلاً، وقد يكون تفسير الرموز أكثر وضوحاً وصدقاً عند المختصين في تفسير الأحلام والرؤيا".

<u>كيف تطورت الحياة الحديثة في قطر بداية من العام ١٩٥٥م</u>

مذ قدمت على قطر في العام ١٩٥٥م، لاحظت الكثير من التطورات والتغيّرات السريعة في كل مناحي الحياة، وقد كان الخير الوفير يعم على الجميع في دوحتي الحبيبة، وذلك بسبب ارتفاع نسب الأجور الحكومية عن غيرها من الدول المجاورة، ومع ذلك فإن الحكومة لم تدخر جهداً في توزيع المعونات على من لا يعمل في الوظائف الحكومية أو لمن يطلب المساعدة. ومع انعدام الضريبة على التجار والمقاولين ازدهر النشاط التجاري، وظهرت الكثير من شركات البناء والمقاولات. وأذكر أني قد شهدت في الستينيات من القرن الماضي، اكتمال بناء أول عمارة عالية في الدوحة، وكانت تسمى عمارة (كليوباترا)، وتقع في منطقة مشيرب، وقد أصبحت قبلة الناظرين؛ لأنها تتكون من ثلاثة أدوار بيضاوية الشكل، ذات أصباغ زاهية تتراوح بين الأخضر والبيج. وبعد ظهور عمارة كليوباترا كان التنافس شديداً على إنشاء المباني العالية جداً. ولا شك في أن اكتشاف البترول في قطر وكافة أقطار الخليج العربي، قد أدى إلى

ارتفاع أسعاره في العالم أجمع، وهكذا أصبحت الدولة غنية بين عشية وضحاها، وغدا الشعب يرفل في رغدٍ من العيش.

ومنذ العام ١٩٧٠م عاشت الدوحة اتجاهات الديمقراطية ومبادئ تكافؤ الفرص، وذلك بوضع الرجل المناسب في المنصب المناسب، ولا تزال الحكومة حكيمة مستنيرة في جميع مواقفها، وفي العام ١٩٧٥م تم إنشاء أول مجلس شورى في الدوحة. وفي عهد الشيخ حمد بن خليفة طبقت الحكومة أسس الديمقراطية، وأُجريت أول انتخابات في بلدية الدوحة في العام ١٩٩٩م في استفتاء شعبي عام، وعليه تأسس المجلس البلدي في العام ٢٠٠٣م. وبناءً على ذلك تغيرت مدينة الدوحة إلى الأجمل بين المدن، حيث رصفت الشوارع بالإسفلت وتزينت بالدورات المرورية، التي تغطيها الحشائش والأزهار من مختلف الألوان، كما اصطفت أشجار النخيل على امتداد الشوارع الرئيسية. والأهم من ذلك أنه تم تجهيز الحدائق العامة التي يأنس إليها كل من يرغب دون استثناء. كذلك اهتم أصحاب الفلل بتزيين حدائقهم الخارجية بسياج من الفل والياسمين وغيرها من الأزهار والورود والرياحين، مما جعل الشوارع مزدانة ومزدهرة بالجمال والروائح الزكية. كان ذلك التقدم واضحاً في تزايد عدد الفنادق الراقية، والاهتمام بالسياحة الداخلية، وتجميل مدينة الدوحة في كل نواحيها. وفي السبعينيات من هذا القرن ارتفع البنيان في الدوحة وازدان بالعمارات الشاهقة، كما بنيت الفلل الراقية والمساكن الفارهة، وكذلك ظهرت المباني الحكومية والمدارس الكثيرة، كما انتشرت المؤسسات التجارية العامة والخاصة. أنشأت الدولة محطات الكهرباء في كل المدن، ومدت خطوطها في كل مكان، كما مددت أنابيب المياه لكل البيوت والمؤسسات والشركات، وقد تم إعفاء القطريين من دفع فواتير الماء والكهرباء، واستمر ذلك حتى وقتنا الراهن. وعلى ذلك اختفى السراج ذو الفتيلة الذي يعمل بالكاز، كما اختفى التريك أو الفنر الذي يضيء ويعمل بالبطارية، ولم يرجع الكندري أو سقاء الماء للبيوت ثانية، وتم سد آبار المياه الحلوة في البيوت أو ما يسمى بالجليب، وظهرت عوضاً عنها المحطات التي تقوم بتحلية مياه البحر، وقد غذت مناطق الدولة جميعها، وهي تصل إلى البيوت بسهولة ويسر.

أجل لقد عرفت مدينة الدوحة الانطلاق والحيوية اللامحدودة في تحديث كل مناحي الحياة؛ كما أن سياسة انفتاح قطر على العالم الخارجي قد ظهرت في سنوات مبكرة، مقارنة

بدول الخليج الأخرى، وقد ظهر التقدم الشامل جلياً بعد أن تولي الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني مقاليد الحكم في قطر في العام ١٩٩٥، ومن بعده استكمل النهضة العظيمة الشاملة الشيخ تميم بن حمد آل ثاني بعد تولى الحكم في العام ٢٠١٣ حفظهم الله تعالى جميعاً.

كيف كانت ثورة التعليم في قطر؟

في العام ١٩٥٢م بدأ التعليم النظامي في قطر، وتم فتح المدارس الحكومية للبنين أولاً، ثم بعد فترة وجيزة تم افتتاح مدارس للبنات أيضاً، لكن للأسف تخوفت الكثير من العوائل من تسجيل بناتهم في المدارس، فلم تعتاد البنات الخروج وحدهن أو مفارقة ذويهن لفترات طويلة، كذلك فإن عادة الزواج المبكر للفتيات منعتهن من دخول المدارس أيضاً. وكنوع من التشجيع الحكومي وللإسراع في تسجيل الطلاب والطالبات، تقرر صرف رواتب بسيطة شهرية تُسمى معاش الطالب، كذلك كان يتم تزويد الطلاب بزوجين من الأحذية، كما تُصرف لهم كسوة شتوية وأخرى صيفية على شكل يونيفورم، تتم خياطته حسب مقاسات التلميذات؛ كما توفرت وجبة طعام يومية مجانية لجميع من في المدارس من طلبة وموظفين وغيرهم، وقد استمر ذلك الكرم السخي على الطلاب حتى العام ١٩٦٥م على أقل تقدير. أجل لقد كانت تلك الأجيال محظوظة وأيما حظ، فقد ذاقت بداية الرفاهية، كما ذاقت هناء الحياة القديمة وتماسك الأقارب وفرحة الحصول على كل جديد. أما اليوم فقد تعقد روتين الحياة بظهور المدارس الأجنبية والخاصة بمستلزماتها الكثيرة، كما كثرت مطالب العيال مما سبب التنافس على المال والمتاع بين زوجاتي من جهة، والأولاد من جهة أخرى.

كيف تغيّرت حياتي الخاصة إلى الأفضل في دوحتي الحبيبة؟

عندما قدمت إلى قطر في فترة الخمسينيات، لم تتواجد فيها الكثير من الأراضي الصالحة للزراعة، لكن بعد استصلاح الأراضي أنتجت الكثير من المحاصيل الغذائية اللازمة لإطعام البشر والمواشي؛ كذلك ظهرت المزارع العامة والخاصة والحدائق المنزلية المنتجة بعد الاستصلاح والسقي الغزير؛ وعلى ذلك قررت شراء أرض كانت مزروعة بالنخيل وأشجار الفواكه المثمرة، ثم زرعتها بالخضار والحبوب المتنوعة، ولم أنسَ البرسيم لأنه غذاء للمواشي في العزبة (جمعها عزب، وهي مكان تربية الخيل والأبقار والمواشي والدواجن، ويجب أن يكون

بعيداً عن المدينة). أجل أنا لم أنسَ في خضم مشاغلي الكثيرة شراء عزبة خاصة بي، ملأتها بالحيوانات الأليفة الظريفة التي يأنس بها عيالي وأحفادي، بل يتسلى فيها جميع أفراد العائلة. وقد شجّع الحصار الذي فُرض على قطر (منذ منتصف العام ٢٠١٧م) الزراعة الغزيرة المتنوعة في معظم حدائق البيوت والبساتين والمزارع والعزب، كذلك نشط استصلاح الأراضي البور وتحويلها إلى حقول مليئة بالمحاصيل الغذائية، وعليه فقد تم فتح أسواق الإنتاج المحلي بأسعار مناسبة للجميع، كذلك كثرت المحاصيل العضوية المدعومة من الحكومة القطرية. وإني مُعجب بشدة بقدرة الشعب القطري الهمام، وكيف حوّل الحصار الجائر إلى أعمال دؤوبة نشطة ومفيدة، حيث تكاتف الشعب على تسهيل الاكتفاء الذاتي في كل شيء من الغذاء إلى الدواء وغير ذلك من مستلزمات الحياة، فلله الحمد والمنة على هذه النعم الجليلة.

أنا أعيش الآن في العام ٢٠١٧ م وأنعم بالتطورات الحديثة التي سهلت لي العيش الرغيد في كل مناحي الحياة، أجل يُسميه الناس بـ (العيش الرغيد)، وهو يعني زيادة الاستهلاك في كل شيء، ومن ثم التخلّص من معظم الحاجيات سريعاً ورميها في أكوام المزابل. أجل لقد تقلّبت الحياة وتشكّلت الأجيال على ثقافة الاستهلاك اليومي، والجري وراء المغريات المادية والجسدية التي لا تنتهي، حتى أصبحت دعوات الفسق والمجون واضحة في المسلسلات والأفلام التي تبثها القنوات الفضائية. وللأسف غزت الأغنيات البذيئة الخالية من الذوق والمنطق معظم الفضائيات العربية، ودندن بها الأولاد في بلداننا الإسلامية المختلفة. وأظن أني قد أذنبت عندما نظرت دون قصد إلى تلك الرقصات المثيرة للفتيات شبه العاريات التي يظهرن من خلال معظم الفيديو كليبات، ثم أصبحت أتعفف عن مشاهدتها، وكم نهيت من حولي عنها، لكني للأسف الشديد لم أستطع منع أولادي بتاتاً من مشاهدتها، بالرغم من أنهم يُغيّرون القناة التي تعرضها عند مشاهدتي التلفاز معهم. أجل للأسف انفصل بعض هذا الجيل تدريجياً عن تراثه، وعلوم دينه، هكذا أصبح فاقداً للهوية؛ بينما تركّزت أهدافه على الاستهلاك اليومي، والتمكن من سبل الرفاهية المتاحة دون تفكير في العواقب. ومما أطار صوابي أن الأجهزة الإلكترونية كالحاسوب والجوال وغيرها، قد سهلّت وسائل التواصل الاجتماعي ليس في الخير فقط، وإنما في مختلف أنواع الشرور، وتلك الطامة الكبرى التي سرقت براءة الأطفال، وشلّت تفكيرهم. وللأسف أصبحت الأجيال ممزقة، فقد فرض الغرب

كل منتجاته وأفكاره الخبيثة علينا فرضاً متعنتاً؛ وأذكر حديثاً نُشر لوزيرة خارجية أمريكا (كونداليزا رايس) في عام ٢٠٠٩م، أكدت فيه على وجوب فرض الأفكار الليبرالية على الشرق الأوسط حتى لو تعارضت مع قيم الإسلام ومبادئه!

في هذا العصر البائس أخلاقياً، أصبح تفكيري مشوباً بالقلق كثيراً، على أخلاق العيال أولاً وعلى نزاهة التجارة ثانياً، تلك التي تعقدت طرقها وتفنن الغشاشون والمنافقون كثيراً في تزييف إنتاجها، وعلى ذلك فسد ذوق الناس في اختيار ومعرفة جودة البضائع. أما الموضة فقد سيطرت عليها المجتمعات الغربية، فسلبت عقول المسلمات وانتهكت التراث الإسلامي المحافظ، ثم تدخلت المصانع الرخيصة في الشرق الأقصى، وقذفت إلينا بالغث والغريب العجيب من البضائع. وعلى ذلك تغيّرت أذواق البشر الفطرية البسيطة، وصارت معقدة تنافي الذوق الراقي، بل وأصبحت الموضة تفتقد الحساسية تجاه عقائد الآخرين في أحيان أخرى.

<u>نموذج من تساؤلات المراهق التي تحيره في هذا الزمان؟</u>

لي ولدٌ يمتلك ظُرف جدي أو جده الكبير، وأذكر أنه كان في طفولته مزاحاً مبتهجاً سعيداً، لكنه أُبتلي في مراهقته ببعض المشاكل مع أقرانه، فأصبح منزوياً حزيناً، وقد كنت دوماً ملاطفاً في حديثي معه، فقلت له: "أنا فخورٌ بك يا بُني، فأنت مجتهد وذكي في دراستك، فطن ونبيه لما يدور من حولك، لكنك في هذه الأيام تنزوي عني وعن إخوتك وعن الناس كلهم، هيا أخبرني ماذا ألم بك؟"، أجابني والحزن بادٍ على محياه الجميل: "كلما تأملت في أمور الحياة، لم أجد العدل الإلهي ملموساً بين الناس؛ لذلك تنتابني الكآبة نتيجة التفكير في هذه الدنيا الظالمة، وقد تفكرت كثيراً في موضوع الظلم الظاهر بكل جوانبه على سطح الأرض، ولم أجد له تفسيراً منطقياً. هل ما يقع علينا من ظُلم هو مجرد ابتلاءات واختبارات يا أبي؟ أم هو ما نستحقه فعلاً حسب قانون الكارما؟"، أجبته بعد هنيهة من التفكير: "أجل يا بني يوجد الكثير من اللبس والوهم عند التفكير في ماهية الظلم، العقل البشري لم يصل بعد إلى تفسير واضح أو فهمٍ كامل لكيفية حدوث العدل الإلهي، وكم بحثت عن ذلك الأمر وتحريت من بعض العارفين ورجال الدين، فلم أجد جواباً شافياً. يتركّز غموض العدل الإلهي في الأسئلة التالية: متى وأين يقع العدل وكيف ينصف المظلوم؟ هل يجب على الفرد أن يأخذ

حقه بيده؟ أم يتنازل ويعفو؟ حتى يريح ويرتاح. لكن السؤال الأخطر هو: كم من الويلات النفسية التي يعاني منها الفرد ولا يعرف من خلالها هل هو ظالم أم مظلوم؟ وكم يعاني البعض من موجات اللوم والعتاب السخيفة التي ليست ذات بال، لكنها قد تفرق بين الأقارب والأحباب. وقد لا يكون هناك ظالم أو مظلوم في بعض القضايا الشائكة العالقة، إنه الغموض القاتل للعلاقات بين الناس، وإنه اللبس بين الصح والخطأ في سلوكنا وتصرفاتنا.

هل سمعت عن الفرقة الإسلامية التي تُسمى بالمعتزلة؟ إنهم أول من جدد في فقه وفهم أصول الدين الإسلامي، وقد تمسكوا بحكمة العقل المثقف الذكي، ووضعوا علم العقل والمنطق ثم الاجتهاد على قمة المصادر في فهم أسس الإسلام، بينما في عموم المذاهب الإسلامية يحتل العقل المرتبة الثالثة بعد القرآن والسُّنة. لقد بُنيت أصول الإيمان عند المعتزلة على خمسة أعمدة، أولها عمود التوحيد، وثانيها ضرورة الإيمان بالعدل الإلهي الذي لا يجور أبداً على أي كائن من كان، وعليه لا يمكن أن يكون الفرد مجبراً على عمل أي شيء، بل هو مُخيّر في كل أمور حياته. ولا بد أن تعرف أن الله جدير بمنح كرمه للجميع، وأن غياب الاستحقاق عن أي فرد لا يمنع رحمة الله من أن تقع عليه. وليس عليك يا بُنيّ إلا أن تطلب الرحمة من الله عز وجل وليس العدل؛ لأن العدل قد لا يكون في صالحك في حياتك الدنيا أبداً. ثم تذكّر دوماً أن الإيمان بالعدل الإلهي هو اطمئنان القلب لله، وليس هو علماً أو فكراً أو حتى ثقافة يمكن أن نبحث في فحواها". وبالرغم من أن ولدي فهم واستوعب ردي عليه كاملاً، فإنه سألني باستياء شديد: "يا أبت، قد يظهر لنا الأعداء فجأة، وكيف نواجه ظلمهم ونحن عاجزين عن الرد عليهم"، حاولت مواساته قائلاً: "لا بأس عليك يا بُني، إن للأعداء وظيفة مهمة ألا وهي دفعنا إلى التفكير، وإلى التنافس الشريف وشحذ الهمم، أما الإحساس بالظلم ومرارته، فله دور كبير في جعل الفرد غير ظالم أبداً، وتوجد قصص حقيقية تاريخية، فيها عبرة وحكمة تتعلق بذلك الأمر".

سكت قليلاً وبدت الراحة على محياه، ثم قال: "هل تعتقد يا أبتي أن الحضارة الحالية قد حققت بعضاً من الإنصاف للفرد". تبسّمت وقلت: "لا تصدّق يا عزيزي أن الحضارة الحديثة قد أنصفت أحداً؟ انظر إلى ثورة الاتصالات الحديثة وكيف ظلمتْ الفرد، بأن ضيّعت أجمل أوقاته وهو يناظر سخافات التلفاز والجوال والحاسوب، بدلاً من العيش مع

الطبيعة، وكيف توقفت ممارسة الرياضة الحرة واستبدلت بالأجهزة الكهربائية، انظر كيف قلّت أواصر الرحمة والمحبة، وقُطعت أوصال الأرحام بالإكتفاء بوسائل التواصل الحديثة مثل "الواتس آب" و"إنستجرام" وغيرها.

ويكفي الفرد ظلماً أنه من الممكن وضع أدوات التنصت والتصوير له في أي مكان وزمان، حتى أصبح البعض يشكّ في أهل بيته، ويخاف من النوم في غرفة نومه! بل قد تحيط تلك الأجهزة المتطورة بالفرد المشكوك به، حتى تتمكن من التقاط صورته وصوته عن بُعد، ثم لا يعرف ماذا يحدث لتلك الصور والأصوات فيما بعد. لاحظ يا بُني أن جميع مناحي الفرد مرتبطة اليوم بالأنظمة الحكومية وغيرها، تلك التي يمر بها كل ما يتعلق بتفاصيل الحياة اليومية للفرد، مثل: التوظيف، التدريب، فيزا السفر والإقامة، التعليم، تأجير أو شراء السكن والسيارة، الأنشطة الرياضية، الهوايات، الصحة... إلخ. وعلى ذلك اختفت الخصوصية ونُشرت كل الأسرار، ولا يملك الفرد إلا السمع والطاعة والتقيد بما تطلبه منه الحكومات والشركات والمؤسسات وغيرها. تأمل كيف يتحمّل الفرد الروتين الطويل الممل لإنهاء معاملاته الشخصية، وكيف يتم تسليط الإعلام عليه، كي يشحنه بالمعلومات المضللة. أجل لقد أحكمت حضارة اليوم القيد حول معصم الفرد، وزادت من التحكّم والسيطرة على أدق تفاصيل حياته، ويُسمى ذلك نظام الاستعباد عن طريق القوانين المشروعة. اليوم يتزايد الاعتقاد بوجود حكومة موحّدة خفية تحكم العالم أجمع، وربما تتلاعب بالأفراد كما تشاء. ومن المؤكد أنها تخطط لكل خطوة بحرص شديد، حتى تقوم بإجبار الفرد على السير معها، وهكذا ربما يصبح الكل تحت قبضتهم". ثم أردفت له قائلاً: "إن الحياة قصيرة جداً، ومع ذلك فالفرد في هذا الزمان يقضيها في سباق مع الزمن وصراع مع الآخرين، وإنهاك جسده بالمتع، وبحث مُضنٍ عن الملذات وإرضاء الشهوات؛ أما في الزمن الغابر فقد كان البشر في تعب دائم من أجل الحصول على لقمة العيش، لكنهم لم يكفوا عن التزاوج والقيام بتربية الأبناء الشاقة من أجل المحافظة على الجنس البشري، واليوم لا يرغب البعض في الزواج خوفاً من التورط في مشقة تربية العيال، هؤلاء قد اختفت عندهم الفطرة الطبيعية في حب الأطفال، بالرغم من وجود التسهيلات وتوفر كل شي! وهذا يدل على مدى تسلط المتعة والأنانية في عقلية البعض على هذا الكوكب".

ثم استرسلت في النصح قائلاً: "يا وليدي، ثق أن الغد المجهول مطرقة من حديد تنبه عقولنا وأفئدتنا، أو قد يكون نسمة باردة عليلة تبرد الروح والقلب. وعندما تكون ظروف الحياة صعبة تمتصّ منا السكينة والطمأنينة، وتقذفنا بالمصائب والأحزان المتتابعة؛ ومع ذلك نتمسك بالحياة على أمل أن تنقشع الغيوم بسرعة. يتمسك الفرد بأذيال الحياة لأن الفطرة السوية تحب الانطلاق في تجارب متنوعة وتأمل بالأفضل دوماً، وتنتظر الكثير والكثير من كنوز الدنيا المخبأة خلف الغد المجهول. كل فرد لديه رغبات لا تُحصى ولا تعد وهو يجري ويلهث كي يحققها، ويظن الفرد أنه سوف يحلق إلى متن السماوات العلا أثناء المعمعة التي يخوضها في تحقيق رغباته، لكن في العادة لا يحقق الفرد من أحلامه إلا القليل. وقد يكون البعض محظوظاً وتنهمر عليهم العطايا الجمة من الرب، مُحققة لهم معظم مطالب الحياة ومشبعة نهمهم الكبير في النيل من ملذاتها. تجدر الملاحظة يا بُني أنه في كل التجارب العلمية الحديثة، الخاصة بالتنمية الذاتية، يتم التأكيد على أن الأفكار الفردية الإيجابية الرحيمة تقوي وتعزز جهاز المناعة، والعكس صحيح. اعتني بقلبك يا ولدي واحرص على تنقيته من الحسد والغيظ والحقد، وكلما أصبح قلبك طاهراً كلما كنت لماحاً وذكياً، وأصبحت مخلصاً وأميناً. إن ذكاء القلب هو أساس الشخصية الفطنة الحساسة لمشاعر الناس من حولها، وكلما ازداد الذكاء حدة كلما كان الفرد أكثر لطفاً وتعاوناً مع الآخرين، أما إبداعات العقل فقد لا يكون لها شأن بالتعامل مع الناس، لكنها تتجلى في حفظ المعلومات وتطويرها، وفي عبقرية إنشاء الاختراعات فقط؛ لذلك أوصى القرآن الكريم بطهارة القلب ووضعه في مرتبة أعلى من مرتبة العقل".

لعلني لم أطمئن ولدي بهذا الحديث، بل ربما زدت من حيرته وشجونه، لكن أجبته بقدر ثقافتي وخبرتي في الحياة، وأظن أنه من مصلحة الفرد أن يكون ثائر الفكر فضولياً متسائلاً عن شؤون وشجون الحياة، ذلك خيراً له من الخمول والاستسلام لحمى الوساوس والظنون.

في العام ١٩٧٨م وعلى أرض البحرين تتكرر الوقائع الأليمة

حرصت على رعاية أبنائي في البحرين مادياً ومعنوياً، وزيارتهم كلما أمكن إلى ذلك سبيلاً، ورغم عدم احترامي للبهلول، فإني لم أمنع التواصل بين الأخوات "زوجته وزوجتي" حرصاً على

عدم قطع صلة الرحم، لكن منعت العيال من تبادل الزيارات، حتى لا يتعلق أولادي ببنات البهلول، حذرت طليقتي مراراً من التفكير في تزويج أحدٍ من أبنائي لواحدة من بنات أختها، لكن الحذر لا يمنع من وقوع القدر، وما يخاف منه الفرد واقع لا محالة؛ فذات يوم فاجأني ولدي الأوسط وصرح لي برغبته في الزواج من ابنة خالته، كان في الخامسة والعشرين من عمره، وقد تخرج وتوظف وأصبح جاهزاً للزواج. لكن تعلقه بابنة خالته شكل صدمة قاسية لي، لم أحب كسر خاطر ولدي بالصراخ والعنف، فقررت أخذه بالحسنى، وفي جلسة لطيفة طويلة شرحت له كيف أن منبت تلك الفتاة رديء، وأن أصلها غير طيب، وشرحت له بالتفصيل التاريخ المهين لتلك الأسرة، وتعودهم على السطو والسرقة، وقد حذرنا الرسول (ص) من ذلك العرق الرديء، وعلى ذلك يكون من المستحيل السماح له بتلك الزيجة. لكنه رد عليّ: "لا تنسَ يا أبي أنني وإخواني نتشارك معهم في الأصل جميعاً، كونها ابنة خالتي، كما أن أباها ذو صلة بك"، حاولت التلطف معه فقلت له: "يا بني إن الحب أعمى ولا بد من الصبر والتفكير، وإن بمقدوري خطبة فتاة أفضل لك، ذات دين وأخلاق من إحدى الأسر العريقة المعروفة بالصلاح والرشد"، لكنه رفض ذلك الاقتراح رفضاً باتاً، وكنت أعرف مسبقاً أنه ذو عاطفة قوية، ولن ينصت لي مهما حاولت في ثنيه عن مراده. وجُل ما قدرت عليه المماطلة وتعطيل الخطبة لعله يفكر ويتراجع عن قراره. حزنت كثيراً كوني كلما أردت الانعتاق من تلك الأسرة الخبيثة، تطاردني وكأنها السحر المدفون ضدي في زندي، فلا سبيل لي من الفكاك منه. استمر ولدي في الطلب والإلحاح، ولم يفلح حتى والدي في ثنيه عن عزمه؛ وعلى ذلك قررت افتعال المشاكل مع طليقتي، وبادرت بالتهديد والوعيد حتى يتراجع الولد عن رغبته، وحتى لا يكرر إخوته فعلته نفسها، لكنها كانت خرساء عن دفع التهمة عنها، وأظنها كانت تستعرض قوتها في السيطرة على أولادي، وربما تعمدت إيذائي بتشجيع ولدها على طلبه.

لم أتعرض لأسرة الفتاة حتى لا أبدو بلطجياً، وكي لا أبدو صغيراً في عين ولدي فيزيد من عناده، لكني أوضحت له أني كاره جداً لهذا الأمر، وأنه لو تم فسوف يكون ضد إرادتي، وهكذا كان، فقد تم عقد القران دون حضوري أو حتى الاستئذان مني! تماماً كما كان زواجي من أمه دون استئذان من والدي؛ أجل إن الزمن يُعيد نفسه ولا بد أن نشرب من الكأس نفسه الذي نسقيه لوالدينا خيراً بخير أو شراً بشر. وأظن أن والد العروس (البهلول) وكذلك جده لأمه،

قد أقنعا ولدي أنه لا غضاضة من عقد القران حتى ولو لم يكن الأب حاضراً، فقد فعل الأب الفعلة نفسها فيما مضى في عدم استئذان أبيه. جاء ولدي إلى الدوحة، وقَبّل يدي ورأسي راجياً أن أحضر وإخوته حفل زفافه، متعللاً أنه كان لا بد من عقد القرآن سريعاً كون الفتاة قد حملت منه! وطلب مني التكتم على هذا السر، فلا يعلمه أحد غيري؛ صفقت على رأسي قائلاً: "تلك أول المصائب والدليل على سوء منبت البنت، والبلية أن عذرك أقبح من ذنبك"، تباكى وقال: "كنت أنت سبب المماطلة والتأجيل، وقد خفت أن تضيع الفتاة من يدي فقد كثر خطابها، لكن تربيتك لي أبت عليّ ألا أن أعقد عليها، أرجوك يا والدي تستر عليّ ولا تفضحني أمام إخوتي وأهلي". استسلمت للأمر كما استسلم والدي من قبل، وحضرت حفل الزفاف مرغماً، كما حرصت على أن يحضر العرس جميع أولادي وأهلي من الدوحة والأحساء. وشاء الله أن أتعلم درساً، بحيث لا أستبق الأحداث وأحكم على الناس لمجرد الشك في أهلهم أو فيمن حولهم، أجل لم يكن ظني السيئ في زوجة ابني في محله، فقد أثبتت لي الأيام أنها شريفة مطيعة لزوجها، وولدت لي الأحفاد المؤدبين اللطفاء، فضلاً عن أنها لم تحقد عليّ بسبب موقفي منها، بل وقرتني واحترمتني كثيراً. لكنها ورثت البخل الشديد من أبيها، والخوف من الثقة بمن حولها، بل زادت عزلتها بعد الإنجاب، وادخرت كل وقتها لعيالها، حتى إنها لم تجامل الأقارب ولم تشارك مناسبات العائلة السعيدة أو الحزينة. وقد اعترف لي ولدي بعد مرور الوقت أنه لم يجامعها قبل الزواج أبداً، بل كانت تلك حيلة من حيل أمه حتى أرضخ للأمر وأوافق على الزواج!

المصائب التي تأتي من قبل الهلول لا تكاد تنتهي، بل تكررت في العام ١٩٩٨م

ابتلاني الله بابنة متوسطة الذكاء ليس لها حظ من الجمال، عنيدة مستقلة الرأي والشخصية، وقد حصلت على الماجستير فزاد غرورها بنفسها. وقد ظننت أنه قد فاتها قطار الزواج، كما ظن ذلك جميع من حولها بسبب تجاوزها الثلاثين من العمر ولم يتقدم أحد لخطبتها. لم أقلق عليها كثيراً؛ لأن ذلك كان الوضع الطبيعي في ذلك الوقت، والبيوت مليئة بالعوانس، ولا من مجير أو حلّ عادل لمشكلتهن؟ لكن ما أقلقني هو استبدادها بالرأي وجرأتها غير المعهودة في مجتمعنا المحافظ، فقد حاولتْ لأكثر من مرة أن تجلب لها زوجاً بالحيلة والدهاء تارة، أو بادعاء الحب تارة أخرى؛ لكن جميع مخططاتها باءت بالفشل الذريع، وزاد

عليها التعزير من قبلي، والنهي والتحذير من قبل كافة أفراد الأسرة، مما أدخلها في حالة حزن واكتئاب، وكذلك شعر أفراد الأسرة بالأسى من أجل حالها.

على الطرف الآخر البعيد كان للبهلول ولدٌ وحيد وسيم وذكي، وقد انتدبته شركة عمله في المنامة للتدريب في الدوحة في العام ١٩٩٨م، وحيث إنه لم تسبق له زيارة قطر من قبل، فقد زوده والده بعنوان متجري ورقم هاتفي حتى يلجأ إليّ في الملمات. ومن تخطيط الأقدار أن تصادفَ حضوره إلى متجري الرئيسي، مع تواجد ابنتي لسببٍ ضروري لم يحدث من قبل، وقد حضرت دون إخطار مسبق لي. لم ألاحظ شيئاً حين تقابلا عندي ولست أدري كيف ومتى تبادلا أرقام الهواتف، وقد غفلنا أنا وأمها عنهما فترة من الزمن، لكن أمها اكتشفت فجأة أنها تتحدث معه عبر الهاتف، بل سمعت جزءاً من حديثها ووافتني به وهي غاضبة، جن جنوني مما سمعت، فذلك أمر لم أتوقعه أبداً. استفردت بابنتي وحققت معها بهدوء، استغلت هدوئي فاعترفت أنهما قد تحادثا كثيراً وناقشا موضوع الزواج طويلاً ثم صدمتني بقولها: "لقد اتفقنا على الزواج، وذلك بحكم القرابة بين الأسرتين، لا تنسَ أن خالته هي طليقتك، وأن أخانا في البحرين متزوج من أخته"؛ قلت لها معنفاً بشدة: "تعرفين أن تلك الزيجات حصلت رغماً عني، ولا أظن أن إخوانك في قطر سوف يوافقون عليه، إن أسرته دوننا في الجاه والسمعة، وهو أقل منك تعليماً"، فأجابت بتحدٍّ إن رأي إخوانها لا يهم على الإطلاق، ثم قالت بصراحة شديدة وغضب أشد: "في حال عدم موافقتكم أو محاولة منعي من هذا الزواج، فسوف أهرب معه إلى البحرين"! يا إلهي كم هي جريئة ووقحة؛ لكن لماذا تطاردني لعنة البهلول في كل زمان ومكان؟! تصنعت الهدوء وأطفأت نيران قلبي المشتعلة بالصلاة على محمد وآل محمد، ثم حوقلت عدة مرات، ولما رأت ابنتي هدوئي، قالت لي بسخرية: "إنه يظن أنك أنت من دبرت أمر لقائنا في المتجر، حتى تزوجني وتتخلص مني، وقد ظننت أنا ذلك أيضاً، ونحن في تلك الحالة لا نستحق اللوم"، وجدت نفسي متهماً بل متلبساً بالقضية فجأة دون سابق إنذار، تماسكت نفسي وحاولت إقناعها بقولي: "تعرفين جيداً أنني أتمنى لك زوجاً خيراً منه، فأنا أعرفه جيداً هو شخص متملق ومنافق لأنه نشأ في أسرة فقيرة، وطالما اقترض أبوه مني المال، لكنه لم يوفِ بديونه لي أبداً"، أجابت في لهجة أقل حدة: "أرجوك يا أبي لا تخلط الأمور، هو يختلف عن أبيه، وتعرف أنه موظف كفؤ، ولا يطمع في أموالك أو يفكر فيها، والدليل أنه

لا يريد العيش في الدوحة، ولن يقبل العيش بعيداً عن أمه فهو وحيدها، إنه يحبني وسوف يتزوجني رغم أني أكبره بثلاث سنوات، وقد ذكر لي أنك تزوجت خالته، وكانت تكبرك بسبع سنوات على الأقل". تحسرت في سريرتي على نفسي، ذلك البهلول النذل يتاجر بتاريخي ويراهن عليه! تذكرت موقف أبي مني في ذلك الوقت العصيب، عندما اعترفتُ له بزوجة الغفلة، واستسلامه للأمر بمذلة شديدة. كادت الدموع أن تنفجر من عيني ولو كان أبي حياً لقال لي: "جزاء وفاقاً". كانت ابنتي من القسوة بحيث أنها لم تتأثر من منظر ذلي ومسكنتي وصمتي، بل وقفت صامدة أمامي، فأشرت لها بيدي للانصراف. كاشفت أمها بصراحة في الأمر، لكني طلبت منها الصمت حتى أحزم أمري، ولم أجد من يشاركني تلك المصيبة غير الصميدح، شرحت له الوضع وقلت له بحسرة كانت بادية عليّ: "أرجوك دعنا نخطط للتخلص من هذا الشاب الانتهازي، وربما نتمكن من إيجاد زوج أفضل لها، أنا حزين جداً ولم أتخيل أبداً أني سوف أذل نفسي في البحث عن زوج لابنتي"، رد عليّ شامتاً بي وصادقاً معي في آنٍ واحد: "منذ زمن رويت لي قصتك مع رجل أعجمي جاء يخطبك لابنته، وحقدت عليه من أجل ذلك؛ لأنك ظننت أن ما فعله ضد قيمك ومبادئك، والآن هل تعذر ذلك الأعجمي وأنت في موقفه نفسه؟" عندما سمعت هذا القول منه كاد أن يُغمى عليّ، حقاً إن المواقف المهينة لا بد من تداولها بين الناس، فويلٌ للشامتين بأي موقف مهين، ولما رأى انكساري أردف قائلاً: "لا تتعب نفسك في التفكير والتخطيط لإفشال ذلك الزواج، لقد حُسم الأمر، العيال غالباً ما يُصرون على رأيهم بعناد وكبرياء، حتى لو اكتشفوا خطأهم عاجلاً أم آجلاً، لا فرق بين البنت والولد في هذا الزمان، وذلك نتيجة تطبيق مفاهيم الديمقراطية والاستقلالية في تربية العصر الحديث. وجل ما أنصحك به هو الرضوخ للأمر الواقع، كما رضخت لأخيها من قبل مرغماً صاغراً، وقد اتضح لك لاحقاً أن زوجته لا غبار عليها"، قلت له بعصبية: "هذا الولد عليه غبار وطين وزفت أسود، هو مدللٌ من قبل أمه وأبيه، كما أنه نسخة من أبيه في الانتهازية واللؤم"، رد عليّ ضاحكاً: "من شابه أباه فما ظلم، كان عليك أن تقطع صلتك مع أبيه منذ زمن طويل، وتمسح عنوانك ورقم هاتفك من ذاكرته، وعلى ذلك لم يكن ليحدث ما حدث"، توترت كثيراً وقلت له مستاء: "أنت أيضاً تلقي باللائمة عليّ، تذكر أن البهلول هو أخ لأخويّ، وقد كاشفني من أمورهم في كثير من التفاصيل، وشهد ضدهم لصالحي، ولن أستطيع الفكاك منه مهما

حاولت. لكن أشد ما يقلقني هو أن ابنتي شديدة المراس والعناد، وقد صارحتني بكل شيء، وأشد ما أخافه منها هو الهروب للزواج منه، وسوف تكون الفضيحة المجلجلة للأسرة كلها"، رد عليّ بتقطيبة غاضبة ونصيحة صادقة: "تعجبني صراحتك، فقد خدمك البهلول في أول زيجة لك، ثم دلك على المحرق حيث قمت بإرساء تجارتك، بعد ذلك عمل لك بالتجسس على أخويه وأخويك، ثم شهد لصالحك في المحكمة، كل ذلك لم ينفع في تغيير نظرتك له، وما زلت تذكر عبثه أثناء طيش المراهقة، وأظن أننا قد فعلناها جميعاً. لقد حان الوقت لأن ترد له بعضاً من أفضاله عليك، حاول أن تنظر إليه ولو لمرة واحدة نظرة إيجابية، ولو حسبتها كذلك فسوف يرتاح ضميرك وتُغير نظرتك إليه. أما ابنتك فهي متعلمة وناضجة بما فيه الكفاية كي تتحمل قرار مصيرها، اتركها كي تتعلّم من الحياة بإرادتها". حقاً إن الصميدح صديق صدوق ولم ينفك من إهداء عيوبي إليّ، وهو من الرقة والحزم بحيث يستطيع مكاشفتي بما لا أستطيع التصريح به لنفسي. قضيت الليل كله أحاسب نفسي، وأتذكر بداية كرهي للبهلول منذ كان طفلاً يلعب معنا في البيت الكبير، يشاكسني ويخطف مني أشيائي وألعابي، ثم احتقرته كثيراً بعد أن سرق مال أمه وهرب إلى البحرين، ثم اعتقدت أنه المسؤول عن زوجتي الأولى الشريرة، وقد كان بإمكاني رفض عرضه فلماذا ألومه؟ وقد حذرني أبي منه فلم أحترم كلمته واتبعت هوى نفسي. وعلى إثر ذلك الحديث مع نفسي قررت مسامحة البهلول وفتح صفحة جديدة في نقاء قلبي عليه. ثم لماذا ألوم ابنتي وهي تكرر موقفي من أبي، ها هي تتبع هوى نفسها ولا تحترم رأيي! وبالرغم من أني واثق من فشل تلك الزيجة، لكن أسقط في يدي للمرة الألف في حياتي، ليت لي قدرة على اتخاذ قرار ما، دون مشورة الصميدح. فكم ندمت على اتباع مشورته لي بتطليق زوجتي الأولى، ولم يزل عيالي منها في لوم وعتب كبير عليّ. كنت في طفولتي وصباي أشاور أبي أو أختي أو أحد أقاربي، ثم ألتزم بأي مشورة تصدر منهم، حتى لو كان فيها ضغط على أعصابي أو أذى شديد عليّ. كذلك كان صديقي المسيحي في البحرين مستشاري في أموري الفكرية والدينية، ثم استشرت البهلول في معاملاتي الأسرية والدنيوية. وها قد بلغت السادسة والستين من عمري ولا أزال رهين المشورة، تلك القاتلة لي أو لمن حولي في بعض الأحيان، لكن لِمَ أجد نفسي مُلزماً بتطبيق المشورة؟ ربما بسبب ما تم تلقيني في طفولتي: "ما خاب من استشار ولا ندم من استخار"، حقاً إن التلقين في الصغر

كالنقش في الحجر. ولطالما تساءلت عن ضرورة وجود مستشار لي، أجل إنه السند الذي أعتمد عليه في اتخاذ القرار الصعب، وأظن أنه ليس لي القدرة في الاعتماد على نفسي لاتخاذ القرار؛ لأنه من الصعب لوم النفس لو ثبت أن القرار خاطئ، لكن من السهل لوم الآخر الذي استشرته، وهذا ما أفعله دوماً للأسف الشديد. وللأسف فإننا نرى عيوبنا أقل بشاعة من عيوب غيرنا! ربما لأننا نعرف الأسباب والظروف التي أدت إلى تلك العيوب والأخطاء، ومن ثم نعذر أنفسنا ولا نعذر الآخرين. أحيانا يمنعني الغرور من التراجع والإعتراف بالهزيمة، أجل لقد ارتكبت ذنوباً يعجز ضميري المرهف عن نسيانها، لكن الأخطاء هي جزء من النفس وعلينا تقبل أنفسنا بكل ما فيها.

في النهاية وافقت بحزن وألم على تلك الزيجة، وأظن أن تحدي ابنتي هو ما منعها من الشكوى لي، بل تحملت لاحقاً الظلم المستمر من ذلك الرجل، فقد سلبها راتبها، وبالغ في أذيتها وإني لأتعجب من رضوخها له. وبعد إنجابها للطفل الأول اعترفت لأمها أنه يُخزن الأموال ولا يساهم بالصرف أبداً على ولده منها، وقد لاحظت أن البخل صفة متوارثة في آل البهلول، لكنها لن تطلب الطلاق حتى لا يشمت فيها أحد! ولا أدري حتى الآن كيف تسير أمورها معه؟ ومتى ينفد صبرها عليه؟

حديث عن تفاوت شخصيات زوجاتي الثلاث

لم أذكر أياً من زوجاتي أمام الأخرى لا بالخير ولا بالشر، منعاً للغيرة أو الشماتة. ولم أشغل فكري أبداً بالمقارنة بين التصرفات الشخصية لزوجاتي الثلاث أو المفاضلة بينهن؛ وذلك لاعتقادي بأن أي فرد يتميز بشخصية متكاملة خاصة به وحده، تشمل عيوبه وميزاته المتداخلة معاً، أجل فقد وجدت أن لكل واحدة منهن ما يميزها وما يعيبها. من في البحرين كانت أشدهن جذباً جنسياً، ونشاطاً وهمة في أعمال المنزل، لكن من الطبيعي أن يصاحب تلك الصفات بعض العصبية في السلوك والتسرع في الكلام، وبعض الطمع والخداع، ولأن الجهاز العصبي نشط جداً، فإنه فعّال على كافة الأحوال وعلى جميع الأصعدة، وعلى ذلك لا داعي لذكر عيوبها الأخلاقية الكثيرة الأخرى التي دفعتني لتطليقها. ولأني كتبت وأوصيت بنشر هذه الرواية، فلا أريد تجريح أم أبنائي بالتفاصيل الكثيرة. لقد سامحتها فور إصابتها بالسرطان،

كما زرتها تطييباً لخاطر أبنائي منها، وبعد وفاتها جعلت بئر ماء باسمها على سبيل الصدقة الدائمة، مما أسعد أبنائي وطيّب خاطرهم من ناحيتي.

أما زوجتي في الأحساء فقد كانت ذات أخلاق عالية، مهذبة بالفطرة ولا يصدر منها إلا جميل الفعل وحسن الكلام، تتميز بالبساطة والسكينة والهدوء، وعادة ما يرافق تلك الصفات بعض البرودة الجنسية، والخمول في النشاط العقلي والحركي، وانعدام الصرامة في تربية الأولاد، مما ضايقني منها في بعض الأحيان، وبالرغم من ذلك وجدت السعادة في قربها على الدوام، وأظن أن ما حدث بيننا نتيجة لتجاذب الضدان، ومن الواضح أن صفاتي هي عكس صفاتها. وبالرغم من مناكفة أبيها ومشاكسته لي في غالب الأحيان، فإنه ولي أمر البيت في الأحساء، وهو الرجل المسؤول الوحيد بين أربع نساء (زوجته وزوجتي وبناتي)، أما ولدي المغرور فقد كان يطابق جده قلباً وقالباً، وله الدلال والموافقة المطلقة عند طلب أي شي من أي فرد في ذلك البيت. بعد وفاة والد الشريفة كان ولدي قد بلغ الثامنة عشرة من العمر، لكن فشله في الحصول على الشهادة الثانوية، منعه من إكمال التعليم الجامعي، طلب مني العمل في قطر، لكن كيف أترك النسوة دون رجل؟ في الأحساء لا بد من وجود ولي الأمر لتخليص معاملات النساء. وجدت في سلوك ولدي بعض الدلال والميوعة، وظننت أنه سوف يسترجل لو وكلت إليه أمر تلك النسوة، كما فتحت له متجراً صغيراً للعمل فيه، وأعطيته مصروف البيت الشهري، وما زلت آمل أن يصبح رجلاً تعتمد عليه أسرتي هناك.

أما عن زوجتي التي في قطر، فهي أنثى بمعنى الكلمة قابلة لكل التحولات؛ لذلك حرصت على توجيه سلوكها ومراقبة تدينها حتى لا تتحول عن واجباتها الدينية والاجتماعية، تلك التي بفضل الله قد أتمتها على أحسن وأكمل وجه، وهكذا أصبحت أفضل زوجة مناسبة لي، بل ساعدتني في تربية أولادي دون أي تقصير.

حصلت على الفرصة العظيمة في حياتي عندما تحولت إلى قطر للتجارة، ثم أصبحت تلك التجارة استقراراً وسعادة بالزوجة والأبناء الذين وُلِدوا في قطر. أجل إن استقراري هنا نعمة عظيمة عليّ ليس لها مثيل، بل انقلبت حياتي إلى السعادة والرفاهية والراحة، بعد أن عانيت من الكد والضنى والكدح لسنوات عديدة انسلت من عمري في الأحساء وبقيق

والبحرين، وكم أنا نادم على ذهابي إلى هناك بادئ ذي بدء. أنا أعتبر قطر اليوم موطني الأول والأخير، أحببتها كما الأحساء بل ربما أكثر، وكم تمنيت لو بدأت فيها مشوار حياتي. آه أيا ليتني لو قضيت فترة صباي ومراهقتي وشبابي فيها، مستمتعاً بالمشي ليلاً على كورنيش الدوحة الهادئ، ببساطته السابقة وروعته الحالية، حيث ينزل الليل بسكونه كله في قلبي، وأسمع غناء الأمواج التي لا أشك أنها تترنم لي وكفاحي وحدي.

أثناء كتابتي لهذه الرواية، حدثت بعض المفارقات الجميلة والغريبة في الدوحة ومن أهمها ما يلي:

تدشين حديقة القرآن الإسلامية في الدوحة

حدث في العام ٢٠١٦م ما أثلج صدري في دوحتي الحبيبة، ألا وهو تدشين حديقة القرآن الإسلامية، التي تعتبر الأولى من نوعها في العالم؛ كونها تضم جميع النباتات المذكورة في القرآن الكريم والسُّنّة النبوية، وتهدف إلى تعزيز ونشر المعرفة بالنباتات الواردة فيهما، والمصطلحات المرتبطة بهما، ثم التأكيد على مبادئ صيانتها والحفاظ عليها. من هنا ينتفي المفهوم التقليدي للنباتات، تاركاً المجال لمفاهيم تتقاطع عند أبعاد روحية وعلمية وبيئية وبحيث تطرح الحديقة مثالاً يحتذى به لبقية الحدائق في أنحاء العالم الإسلامي. لقد هدف المشروع إلى أن تصبح الحديقة مركزاً للتفكير والتأمل والتدبر في آيات الله من خلال الاهتمام بتعريف المجتمع بجميع فئاته من الناطقين باللغة العربية أو غيرها، ومن المسلمين وغيرهم، بأنواع النباتات والمصطلحات النباتية التي ذُكرت في القرآن وأحاديث السنة النبوية، مع إبراز مبادئ الشريعة الإسلامية السمحة الرامية إلى صون وحماية التنوع النباتي. لقد ساعد ظهور هذه الحديقة إلى تسليط الضوء على أهمية صون الموارد النباتية، وكيفية المحافظة على المصادر الطبيعية والبيئية، وإبراز تعاليم الشريعة الإسلامية التي تدعو إلى المحافظة وحماية نباتات الأرض، حتى تتمتع بها أجيال المستقبل. كما أحيت الحديقة التراث النباتي الطبي، وركّزت على الاستخدامات التقليدية الطبية للنباتات ودورها في شفاء الإنسان. تضم الحديقة (٥٩) نوعاً نباتياً ذُكِرت جميعاً في القرآن الكريم والسنة النبوية، وكذلك بعض محاصيل الحبوب والخضار التي ذُكرت في التراث الديني. وقد ورد ذكر عشرين نوعاً في القرآن الكريم، بينها نباتا

الزقوم والضريع، وهما من النباتات الغيبية التي لا يعلمها إلا الله، كما تم ذكر (٣٩) نوعاً في صحيح السنة، ولم يرد ذكرها في القرآن الكريم. وعلاوة على ما تقدم، فإن للحديقة أيضاً مشاتلها الخاصة بها، وتضم أكثر من سبعة آلاف نبتة من أشجار وشجيرات وعشبيات معمرة، وأخرى حولية من بيئات جغرافية ومناخية متباينة، مثل النباتات الصحراوية ونباتات المناخ المعتدل والنباتات الاستوائية. ومن بين المحاصيل التي تضمها الحديقة؛ الخردل والعصفر والكمون والشعير والعدس والحبة السوداء والأرز، إضافة إلى السمسم والقمح والبصل والكراث والثوم والقثاء والقرع العسلي والبطيخ والدباء واليقطين والسعدان والسلق وغيرها. أما النباتات المُعمّرة، فتشمل القتاد والإذخر والحنظل والسنا مكي "العشرج" وقصب الذريرة والقسط والزعفران والبردي والزنجبيل والزرنب، إضافة إلى الصبار والريحان. يتعاون القائمون على الحديقة مع العديد من المؤسسات المتخصصة حول العالم لدعم وصون النباتات المذكورة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. كنت أنا وأولادي من أوائل الزوار لهذه الحديقة البديعة، حيث تمكنت من تعريف أبنائي بما فيها من نباتات قيّمة، ثم أسهبت لهم في ذكر فوائدها الصحية والطبية.

<u>ما المستجدات المكتشفة حالياً حول حادثة تناول الطحين الملوث بالمبيدات الحشرية في العام ١٩٦٦؟</u>

اشتكى لي أخٌ لصاحبي الصميدح من ولدٍ له مصاب بالصرع العصبي، كما أنه يعاني من الرهاب والخوف غير المبرر بالرغم من وصوله إلى فوق سن الأربعين. ومما أخبرني به صادقاً، أنه قد تم عرضه على الكثير من الأطباء المختصين في الجهاز العصبي، لكن لم يجد له سبباً أوعلاجاً حتى الآن؛ وطلب مني عرضه على ولدي المهتم جداً بأبحاث الجهاز العصبي، وقد تفوق في ذلك على الصعيد العالمي، وكان مُلماً بالأمراض المتعلقة بالأعصاب وكيفية علاجها. سأله عن السنة التي قد وُلد فيها؟ ذلك لأن آخرين قد شكوا لولدي الشكوى نفسها، وكان لأولادهم تقريباً السن نفسه والأعراض نفسها، والأدهى من ذلك أنهم عندما تزوجوا انتقل ذلك المرض العصبي إلى عيالهم أيضاً. وبعد أن تأكد ولدي بأن سنوات الولادة لهؤلاء الشباب متقاربة، اجتمع الآباء في جلسة خاصة معه للحديث عن ذلك الأمر، وبعد البحث والتقصي واسترجاع الذاكرة، تذكر الجميع أنه بعد ولادة هؤلاء الشباب بتسع سنوات على وجه التقريب حدثت

كارثة الطحين المسموم، ذلك الذي تلوث بالمبيدات الحشرية في إحدى سفن الشحن القادمة من الشرق الأقصى في العام ١٩٦٦م، وربما كان العامل المشترك بين هؤلاء الأطفال هو تناولهم الخبز المحضر من ذلك الطحين الملوث، وقد أجمعوا على أن هؤلاء الأولاد قد أصيبوا بأعراض طفيفة لمرض عصبي وهم بين التاسعة والعاشرة من العمر، لكن حالتهم الصحية كانت تسوء بتقدمهم في العمر، ولم يظهر التأثير المميت عليهم في حينها لقلة ما أكلوه من الخبز، بينما ظهرت أعراض التسمم الشديد على البالغين ممن تناولوا كمية أكبر، حيث تُوفِّيَ الكثير منهم بينما تم علاج الباقين. أما أولئك الأطفال فقد كانوا في طور البلوغ، وحمل مجرى الدم السموم إلى منبع تخليق الحيوانات المنوية، وهكذا حدثت بعض الطفرات الجينية المشوهة، مما جعل ذُرياتهم تحمل أعراض الصرع أو بعض مظاهر التشوه العقلي. أجل إنها حادثة مؤلمة ألمت ببعض العوائل القطرية، وأظن أني كنت في الأحساء حينها ولذلك لم أتذكر الوقائع الدقيقة لتلك الفاجعة. لكن للأسف الشديد لم يجد ولدي الطبيب علاجاً لذلك المرض العصبي، لكنه كان متفائلاً فعسى الأبحاث القادمة أن تجد الحل المناسب لوقف التشوه الحادث في أمهات الحيوانات المنوية، وبذلك يتوقف نقله إلى الأجيال القادمة.

تزامن ظاهرة السفور مع هروب بعض الفتيات من ذويهن في بعض دول الخليج العربي

في عصرنا الحديث انقلبت الموازين واختلط الحابل بالنابل؛ وذلك لسببين أساسيين، أولاً ثورة الإنترنت التي دخلت كل البيوت، وسمحت للكل أن يطّلع على الخير والشر من أسرار البشر، وبالتالي تم تقليد الناشئة لكل ذلك. ثانياً ثورة الإعلام التي تنشر أخبار العنف الأسري وبعض ما هو مخل بالآداب والأعراف الاجتماعية أو ما هو معاكس للمفاهيم الدينية، وهكذا تصبح تلك الأمور اعتيادية لمن يطّلع عليها، مما جعل البعض يتخلى طواعية عن تقاليدنا الشريفة، بل ربما أهمل البعض فرائض دينهم كسلاً أو تعمداً حسب المفاهيم التي يعززها الإعلام فيهم، فويل للإعلامي الذي ينشر كل ما هو مثير دون النظر إلى عواقب الأمور، وتأثيراتها السلبية على الأجيال الساذجة.

ومن الملاحظ توسع انتشار الفضائيات حتى إن عدد القنوات يزداد في كل يوم، تلك التي تُعرض فيها الصرعات المجنونة والأفكار الغريبة، ويتم تناقلها بين الشباب سريعاً بوسائل الاتصال الحديثة، ثم قد يقلدها البعض دون وعي أو مراعاة للدين والأخلاق. وفي كل يوم نسمع العجيب والغريب من الأخبار الاجتماعية، ولعل أول ما ظهر في سبعينيات هذا القرن، ظاهرة التخلي عن الحجاب الإسلامي في دول عديدة من الخليج العربي. رأيت تلك الظاهرة المخزية أول ما ظهرت في أنحاء من دولة البحرين، فقد هجرت بعض النساء المترفات لبس العباءة والشيلة بدعوى التحضر، وكنت في غاية الدهشة؛ إذ كيف سمح لهن أولياء أمورهن بذلك العمل المحرم شرعاً! ثم انتشر السفور في بعض أنحاء الكويت، ومنها إلى الإمارات العربية أيضاً. بينما ظلت نساء قطر والمملكة العربية السعودية ملتزمات بالعباءة والحجاب ولله الحمد والمنة، لكن الأمر لم يسلم من بعض الاستثناءات النادرة جداً. وللأسف الشديد تزامنت ظاهرة السفور مع هروب بعض الفتيات من دول الخليج العربي إلى مصر ولبنان ودول أوروبا، ربما هروباً من اللباس المحتشم أو بدعوى التحرر من أمور أخرى، ومن الملاحظ أن غالبية الهاربات ممن لم يسمح لهن ذويهن بالسفور في أوطانهن. وعادة ما يكون للفتاة الهاربة رفيق أو رفيقة من معارفها يشجعها ويرافقها في الهروب إلى تلك البلاد البعيدة، كما سهّل لهن الهروب استخدام الهاتف الجوال وكذلك وسائل التواصل الحديثة. تتكرر حالات الهروب بطرق وأساليب مختلفة، ربما مع الصاحبة أو مع الحبيب، لكن الأعجب من ذلك كله، الهروب مع سائق السيارة الذي يقطن معهم في المنزل نفسه! وقد حدث في بعض الأحيان أن ترجع الفتاة نادمة تائبة بعد أن تذوق الويل من رفيقها في الغربة، وعندما يحدث ذلك في البحرين أو الكويت قد تتقبل الأسرة توبة البنت بصدر مفتوح وتغفر لها خطئها، ومن ذلك فهمت كيف يتصالح البعض مع خطاياهم وخطايا غيرهم. أما لو حدث ذلك الأمر في قطر أو السعودية فلا أظن أن أسرتها قد تعطيها مجالاً أو تستقبلها بخير مهما حلفت على التوبة، بل ربما يوقع عليها أشد أنواع العقاب، وتلك المبالغة في القسوة لا أحبذها أبداً، بل لا بد من فتح المجال للتوبة والإنابة كلما أمكن إلى ذلك سبيلا.

خفت على بناتي بشدة في الدوحة من تلك الصرعات الغريبة، وحرصت على مراقبة التزام كل واحدة منهن بالدين والأخلاق، وقد يكون للشيطان منفذ من طريق ما، فلم أسمح

بوجود السائق في المنزل، لكن عندما كبرت في السن، وجدت تعباً ونصباً في توصيل العيال إلى المدارس والأسواق، فسمحت للسائق بتوصيل الأولاد فقط، لكن ويل له لو وقعت عينه على واحدة من بناتي.

كان هاجسي الأوحد هو تزويج بناتي في أفضل وأقرب فرصة ممكنة، والحمد لله ففي الأحساء تيسرت الأمور سريعاً وتزوجت البنتان في سن مناسبة؛ أما في قطر فتبدو أمور الزواج متأخرة لمعظم البنات، وقد اختارت الكبرى الزواج بواحد من أهلي والعيش في الأحساء مع جدها، أما الثانية فقد خفت أن تكن من العوانس، أو هاربة من بين تلك الهاربات؛ لذلك زوجتها مضطراً لمن اختارته (ابن البهلول)، وكانت تحبه هي ولا أحبه أنا، لكن هذا ما يُسمى بتطويع الخطأ من أجل صُنع الصواب. أما الثالثة الهادئة الجميلة، فقد اختارت ممن تقدموا لها قطرياً ثرياً توفي بعد ثلاث أعوام وترك لها طفل معاق، ولم يتقدم لها أحد رغم جمالها للأسف الشديد، وهي الصابرة المحتسبة الطاهرة.

<u>كيف دارت الكرة على صفية و أبيها في الدوحة؟</u>

سوف أذكر أغرب حادثة حصلت لي في الدوحة بعد أن بلغت من الكبر عتياً، وهي كما يلي: ذات مساء قبيل أذان العصر، كنت نائماً في صالة الدور الأرضي، ومن الواضح أن باب البيت الرئيسي الحديدي كان مفتوحاً، أما باب الصالة الخشبي فكان مغلقاً ومقفولاً، لكني سمعت طرقاً قوياً ومفاجئاً عليه، كان الشخص يحاول كسر الباب الخشبي، ثم كسر الباب فعلاً، وإذا برجل غريب نحيل ومُسن يقتحم المنزل، وقد ظهر الرجل لي والشرر يتطاير من عينيه، وعندما اقترب مني رأيت عدم اتزان حركاته وهو يصرخ: أين صفية؟ أريد صفية؟ ثم أمسك تلابيبي دون أن يضربني لكنه صك أذني عند صراخه، ولم يلحظ وجود حفيدي الصغير في الصالة، لكن عندما ركض الطفل صاعداً للدور العلوي ركض الرجل خلفه وهو يصرخ: "صفية، انزلي يا صفية"، ولحسن الحظ لم يتمكن من الصعود لأن أولادي واجهوه على درجات السلم وهم نازلون من الدور العلوي على أثر سماعهم الصراخ، أمسكوه وشدوا وثاقه، ثم طلبنا الشرطة على إثر ذلك، وعندما فك الشرطي وثاق الرجل هاج واندفع نحوي كالثور الهائج وهو يرفع ذراعيه في الفضاء وكأنه يريد الإطباق على عنقي، والعرق يتصبب من

جسده. لم أعرف الرجل أو سبب غضبه مني؟ كان يهذي ويصرخ، ومن الواضح أنه ليس في وعيه، لكنه استسلم للشرطة بسهولة وكأنه متعود على ذلك. فسر الشرطي لنا ما حصل قائلاً: "لقد تصرف الرجل كمن يتعاطى حبوب الكبتاجون المخدرة، ولا بد أنه أخذ العقار قبل قدومه وإلا كيف قدر على كسر الباب الخشبي الثقيل". أجل إنني أعاني من ضعف الذاكرة لكن وجه هذا الرجل ليس غريباً عليّ ولا حتى اسم (صفية). بعد تلك الحادثة بيومين، ذهبت إلى أحد الدلالين من أجل شراء بيت لولدي المعرس الجديد، وقد صادفت الدلال الذي استأجر لي أول بيت في الدوحة، وكنت لا أزال أتعامل معه كوني قد دخلت مجال شراء وبيع العقارات، حال الكثيرين ممن حققوا الثروة والجاه في قطر. دخلنا القهوة العتيقة في سوق واقف وتحدثنا كثيراً، ثم خطرت في بالي تلك الحادثة الغريبة فسردتها له، تريث برهة كمن يتذكر شيئاً، ثم قال فجأة: "آه لقد تذكرت شيئاً، قد يكون ذلك الرجل المعتوه المريض، هو والد الفتاة اللعوب، تلك التي طمعت بك أول قدومك إلى الدوحة، فقد سمعت أنه أدمن حبوب الكبتاجون، وقد وقع في يد الشرطة أكثر من مرة"، اخترقت كلماته مسامعي وكأنها سهام مسمومة، وكأن ساطوراً قطع قلبي إلى نصفين ففاضت منه الذكريات المخبوءة، كيف نسيت اسم من سيطرت على قلبي ووجداني ثلاثة شهور متوالية! قلت له متسائلاً: "لكن هذا غريب جداً! ما الذي دفعه للقدوم إلى بيتي باحثاً عن ابنته؟"، أجابني الدلال: "سمعت أن ابنته قد فشلت في عدد من الزيجات، ثم أصبح أبوها يستغلها، لجني المال من وراء تعدد عشاقها. مما اضطرها للهروب مع رجل إلى مكان غير معلوم، وربما سرح به خياله المريض إليك؛ كونها رغبت فيك بشدة في ذلك الزمان". أجل لقد حدث له كما يحدث لي في كل يوم، تحن الذاكرة للمواقف الجميلة القديمة، فربما تذكر هذا الرجل المعتوه أيام عشقي لابنته، وكم كان سعيداً ومنشرحاً عندما أرسلته هي ليخطبني لها في ذلك الوقت الغابر! هل ظن وهو في حالة الهلوسة أنني قد اختطفت ابنته بعد أن هربت وافتقدها؟ هل طبق على نفسه وعليّ حماقة الوهم والحلم الذي لم يتحقق؟ أم هو افتراس ألزهايمر الذي جعله يغوص في الماضي البعيد فقط وينسى الحاضر؟ أم لأن بيتي هو الأقرب له ولذلك تهجم عليّ؟ وكعادة الوساوس في السيطرة عليّ، قضيت الليل ساهراً أفكر في مغزى التعلق والغرام؟ ألا ما أغرب الحب وما

أعجب الغرام! لله در ذلك القلب الذي عندما يعشق يزداد خفقانه الجنوني، وقد أجاد " قيس بن الملوح" الوصف حين قال:

كـــأن قلبـــي في مخالـــب طـــائر ❋ إذا ذكـــرت ليلـــى زاد بـــه قبضـــا

كيف تتسلل رغبات ذلك القلب المغرم إلى العقل، فينشغل بالتفكير في ذلك المحبوب دوماً، ثم يسيطر الوله على العين فلا تنام من شدة الرغبة في رؤية المحبوب، أما اللسان فيظل يلهج باسم المحبوب ليلاً ونهاراً، حتى يحصل اللقاء والجماع، وعندها قد يخفت توهج الحب ويقل الشوق والغرام. ثم عندما يتعفف القلب عن عشقه، وتطيب النفس والخاطر من التعلق بالمحبوب، ينسى العقل ذلك الذي كان محبوباً! بل وقد ينسى كل ما يتعلق به حتى اسمه! ويغيب المحبوب بكامله في لجة من ظلمات الذاكرة. إذن هل الحب لعبة للحصول على المتع الجنسية فقط، وما تلك المتعة إلا مجرد طُعم شهي لاستمرار تكاثر البشرية؟ لكن ذلك الطُعم فشل في مهمته فشلاً ذريعاً اليوم، بعد أن استطاع العلم السيطرة على التكاثر باستخدام موانع الحمل المتعددة، بينما ظلت الرغبة في الحب ومتعه اللذيذه سارية المفعول، يا ترى هل خدع العِلم الجسد البشري؟ أم نحن من خدع الطبيعة البشرية وتحايل عليها؟ الحقيقة أننا قد خدعنا أنفسنا بأنفسنا وضيعنا الكثير من مُتَع الطبيعة الفطرية البسيطة، عند استخدام وسائل صناعية غالباً ما تكون ضارة بنا على المدى البعيد.

يوضح لنا القرآن الكريم في بعض آياته أن ميقات الله دقيق جداً، إلى حد أن تنظيمه يجعل كل شيء على وجه الأرض يتم في وقته المناسب، وبحيث لا تنمو ورقة شجرة أو تسقط دون عِلمه، قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٩]. إذاً لا بد أن يعطي الله -عز وجل- كل فرد منا وقتاً محدداً لتجربة الحب، ثم وقتاً لنهاية هذا الحب، والأسباب المنطقية لحدوث ذلك كله موجودة لكننا نجهلها تماماً. أجل لا توجد لقاءات عبثية في هذه الحياة، بل إن كل ما نصادفه هو اختبار أو ابتلاء أو هدية للتعلّم من رب السماء، وعسى أن يقدرها العبد الفقير إلى الله في يومٍ ما.

واحدة من عجائب الحياة التي صادفتها في الدوحة

ذات يوم جاء إلى متجري للشراء رجل عربي وقد بدا سعيداً مبتهجاً، وكان جسده قوياً ومميزاً، ولسانه حلواً ذرباً، بالإضافة إلى امتلاكه في نفسه ما يُسمى بالثقة المدمرة. استأنست به كثيراً لظرفه وخفة دمه، وأظن أنه أحبني كذلك، فداوم على زيارتي، ثم عند تآلفي معه أصبح يحكي لي عن مغامراته النسائية الغريبة جداً كونه غير متزوج، ولم تكن له عشيقة واحدة في اليوم الواحد، بل كان يروي لي مغامراته السريعة اليومية مع عدد من النساء، ويقول لي متعجباً ومتسائلاً: "كيف تعيش وتستمتع بالحياة دون النساء في كل يوم؟ ويبدو لي غريباً وعجيباً أن معظم الرجال الذين أعرفهم في مثل ضعفك! أجل لا يوجد فحلٌ غيري في هذه البلاد، أنتم الخاسرون لهذه القدرة اللذيذة التي تفوق لذتها أي شي آخر في هذه الدنيا، وأظنها هبة ربانية ليَ وحدي". وكان كثيراً ما يطلق النكات، ثم يضحك ويستهزئ بغالبية الرجال والنساء. وقد صرح لي أن بعض الأرامل والمطلقات عندما يستبد بهن الشبق يتظاهرن بالتسوق، ويطلن المكوث في الأسواق، بينما يقوم هو بتصيدهن في كل مكان من أنحاء السوق، إنه يعرفهن من طريقة نظراتهن، وقد أخذني معه في جولة بالسوق ذات يوم، حتى شاهدت ذلك بأم عيني، وعرفت أنه صادق معي في كل ما نطق به. وقد سألته عن سر فحولته فقال: "الرجل الفحل لا بد له أن يأكل كما كان يأكل أجدادنا الفحول، فهو يحتاج لأكل اللحم والخضار والثوم والبصل الطازج يومياً عند وجبة الغذاء، كذلك لا بد له من أكل المأكولات البحرية مع الخبز المصنوع من القمح البر في كل ليلة، أيضاً يحتاج الرجل الفحل للرياضة والمشي والحركة الكثيرة في كل يوم"؛ لكن ذلك القول لم يقنعني تماماً، وعندما هرم وكبر في السن باح لي بالمزيد من تفاصيل سره، الذي كان يعطيه تلك الفحولة العجيبة، والتي لم تتوقف حتى بعد أن تجاوز الثمانين من عمره. فقد أسرّ لي أنه في كل صباح يأكل الحلبة المنقوعة طوال الليل، بعد أن يشرب ماء نقعها دون غليها، وكذلك كان يحرص على تناول البصل الطازج في كل يوم مع طعام الغذاء والعشاء. هذا الرجل وهبه الله الوسامة واللسان المفذلك الذلق (الفصاحة مع اختيار الكلمات اللبقة) وذلك ما يجذب إليه النساء، وعندما يقص عليَ طريقة إيقاعه ببعض النساء المتزوجات ومعاشرتهن في بيوتهن أكاد لا أصدقه، حتى أثبت لي ذلك بالصوت والصورة وذلك بعد انتشار وسهولة استخدام الكاميرات الخفية

وعلى ذلك لم يكن يأمن لأي امرأة، ولم يتزوج أبداً، واكتفى بمراعاة والديه حتى نهاية عمرهما. في بداية معرفتي له كنت منبهراً بشخصه وأقواله العجيبة؛ لكني بعد فترة كرهت ذلك منه وأصبحت أعاتبه بل ألومه كثيراً على تلك الأفعال المشينة والمحرمة شرعاً وقانوناً. كرهت ذلك الرجل وقاطعته، خاصة بعد أن تركت تصرفاته آثاراً سيئة في تفكيري، فقد كانت تثير في نفسي الوساوس السابقة التي أقلقتني من زوجتي في البحرين، بل وجعلتني أشك في كل البنات والنساء، ما عدا الطاهرة والشريفة وزوجتي الحالية.

<u>تاريخ العبودية ومراحل تحريمها... تلك المرصودة في متحف بن جلمود بالدوحة:</u>

في أكتوبر من العام ٢٠١٥م دشنت الدوحة متحف بن جلمود، بعد أن وجدت هيئة الآثار في منطقة مشيرب بيتاً قديماً شُيد في العام م ١٩٤٢ يُسمى "بيت ابن جلمود"، ذلك البيت كان ملكاً لرجل سعودي الأصل، وعاش فيه مع أسرته طوال فترة وجوده في قطر، كما كان يجمع فيه العبيد للبيع والشراء والمتاجرة فيهم بصورة قانونية، وقد تحول إلى متحف من متاحف منطقة مشيرب حالياً، ويجدر التنويه بأنه لا علاقة لي به لا من قريب أو بعيد لكنه تشابه في الأسماء فقط لا غير، فقد كان اسم الجلمود شائعاً في السعودية في ذلك الزمان، نسبة إلى بيت الشعر العجيب الذي قاله امرؤ القيس في وصف فرسه أو جواده:

مكـــرٍ مفـــرٍ مـــدبرٍ مقبـــلٍ معـــاً * كجلمود صخرٍ حطه السيل مـن علِ

وبعد زيارتي لذلك المتحف أحببت أن أعرف أكثر وأسجل ما عرفت عن تاريخ العبودية في العالم. في سنة واحدة بلغ عدد العبيد في العالم أجمع حوالي ١٧ مليوناً، وعلى ذلك نظمت لائحة بروكسل في العام ١٨٩٠م طرقاً عديدة لتحرير الرقيق أو العبيد، ثم ألزمت بها سلطنة عمان وزنجبار في العام ١٨٩٧م. لكن الاتفاقية التي تمت في سبتمبر ١٩٢٦ كانت القاصمة في تحريم العبودية وتجارة الرقيق بكل أنواعه في العالم الغربي والأميركي وغيرهما. وللأسف الشديد لم تطبّق دول الخليج تلك الاتفاقية في ذلك الوقت، بل كانت بعض دول العالم العربي مستمرة في تجارة الرقيق سراً، وهكذا تأخر تحررهم في دول الخليج العربي كافة، فقد مُنع في قطر في العام ١٩٥٢م، وفي السعودية واليمن في العام ١٩٦٢م، وأظنه استمر في سلطنة عمان حتى العام ١٩٧٠م، أما في موريتانيا فتوقفت تجارة الرقيق متأخرة تماماً، ولم

يحدث ذلك إلا في العام ٢٠٠٧م. ولا يزال الرق موجوداً في عصرنا الحالي ولكن في صور مختلفة لا مجال لشرحها الآن.

لم يكن الرق منتشراً في الأحساء إلا في بيوت الأمراء، وقليلاً جداً لدى الأفراد ذوي الغنى الفاحش. لكني لاحظت وجود الرق في أول دخولي البحرين، وكلما دخلت بيوت الأغنياء في البحرين وجدت عندهم بعض العبيد، كما كنت أصادف بعضهم مقيدين عند وصولهم إلى الموانئ البحرية، أجل ففي ذلك الوقت كانت البحرين المركز التجاري الأكبر في الخليج العربي للتجارة بصورة عامة. كذلك صادفت البعض منهم في أول قدومي إلى قطر لكنهم كانوا يعيشون في أتم الراحة والاحترام قبل وبعد تحريرهم، ويسميهم أفراد الشعب الخوال (جمع خال) احتراماً لهم، ونظراً لكثرة التزاوج مع فتياتهم، فيصبح الرجل العبد أخو الفتاة المتزوجة من الشخص الحر، خالاً لأولادها.

يتم الرق بطرق مختلفة، لكن الشائع منها الاختطاف من أي مكان في العالم، وغالباً ما يكون من دول أفريقية، لكن قد يكون الرقيق ذوي بشرة بيضاء نتيجة اختطافهم من دول أوروبية أو شرق غربية فقيرة. ويعتبر جميع السبي بعد الحروب رقيقاً، وكذلك يحصل الرق كعقاب على بعض الجرائم كالقتل والسرقة. قد يحدث الرق كنوع من سداد ديون الفرد أو دين قريب له، وقد يصبح الطفل اليتيم أو اللقيط رقيقاً، ومن لا يجد عملاً قد يسلم نفسه طواعية للاسترقاق، كما يولد البعض رقيقاً نسبة إلى والديه الأرقاء. نظام الرق يقضي ببيع وشراء الفرد في أي عمر وزمان ومكان، ولا بد من فصل الفرد عن ذويه، وإجباره على العمل لدى أي شخص، وليس له الحق في ترك أي عمل يوكل إليه، ولا يأخذ عليه أجراً بل يكفي عليه المأوى واللباس والطعام، والمداوة عند الضرورة. ومن الملاحظ أنه عبر التاريخ قد ساهم الرق بشكل كبير في تشكيل البُنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وقد حدث ذلك وسُجل تاريخياً عند الفراعنة على سبيل المثال.

<u>مقتطفات من جولاتي السياحية وملاحظاتي على بعض البلدان</u>

سافرت إلى دول شرق آسيا كثيراً من أجل التجارة، وكذلك من أجل الفسحة والراحة، ذهبت إلى ماليزيا وتايلاند وهونج كونج وسنغافورة والصين واليابان، ولشدة اهتمامي بالأديان

والعقائد، تعرفت على بعض عقائد الشرق الأقصى مثل (البوذية، الكونفوشيوسية، الطاوية، الشنتوية) وجميعها تجمع ما بين الفلسفة والعقائد الإلهية، لكن لم يعجبني من كتبهم الدينية غير كتاب "التاو" (صراط الا بدال) للمعلم الأول (لاوتزو)؛ لأنه فيه الكثير من المعاني المشابهة لآيات القرآن الكريم، وعيبه الوحيد أنه غير مناسب لعامة الناس، لكنه قد وُضع ليناسب عقلية الحكماء والقادة فقط. بهرني الشعب الياباني بالذات، فبالرغم من معتقداتهم الوثنية البالية وتحريفهم للجانب العقائدي، فإنهم تعلقوا بالروحانيات عن طريق التأمل واليوجا. كما أنهم قد طوروا الجانب العملي في جميع أنواع المعاملات سواء كانت إنسانية أو تجارية، هم مخلصون وصادقون في ممارساتهم من الجوانب الدينية والعلمية والاجتماعية والتجارية، ولديهم طرق خاصة في تطبيق التعاون المنتظم بينهم، وبذلك أثبتوا ولاءهم وتفانيهم في حب بلادهم. كما أن الإخلال بالوعد عندهم جريمة لا تُغتَفر، بينما الأخلاق الحسنة هي أساس المعاملة بين كافة السياح مهما اختلفت مذاهبهم وأشكالهم.

وفي ماليزيا أعجبني تطبيق الزي المحتشم على جميع المسلمات، وتطبيق النظافة والطهارة على الطريقة الإسلامية، بداية من المطار وحتى تصل إلى كافة الفنادق في مختلف مناطق البلاد، كما لاحظت تطبيق المعاملة والأخلاق القويمة بين السياح جميعاً دون تفرقة، بينما وللأسف الشديد ابتعدت بعض بلدان المسلمين عن تلك الصفات الحميدة الكريمة، وتمسكوا بالشعارات الفارغة، والعبادات الظاهرة فقط. ولا أعرف كيف يعيش بعض مسلمي اليوم متمركزين حول ذواتهم فقط؟ وكيف تصغي بعض العقول للدعايات المغرضة، تلك التي تركّز على وجوب التمسك بعلو فردانية الفرد (متعته الخاصة)، وتعطيه القدر الأكبر من الأهمية الاجتماعية؟ بينما ترتكز فكرة الإسلام الصحيحة حول إنكار النفس وقمع شرورها، وتعزيز المحبة والعطاء حتى في أحلك الظروف، وقد قال تعالى مادحاً المعطين: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر: ٩]. لكن للأسف الشديد وفي عصرنا هذا، تحولت مبادئ الإسلام العظيمة عند بعض الناس إلى رموز كرموز الديانات الأخرى. وإني لأتساءل أحياناً: هل الأخلاق القويمة

فطرية أم مكتسبة؟ لو كانت فطرية أزلية إذن لماذا تتغير وتخضع للتجربة والقياس والبحث؟ أم هي كما قال العبقري نيوتن: "لكل فعل ردة فعل مساوية له في القوة والمقدار ومضادة له في الاتجاه". لقد تبين لي بعد أن بلغت من العمر عتياً، أن ممارسة العبادات دون أخلاق راقية تكون مجرد عبث تذروه الرياح، لا قيمة له لا للفرد ولا للمجتمع.

وفي رحلتي إلى تركيا حرصت على زيارة المقام المدفون فيه المتصوف الكبير جلال الدين الرومي، ووجدت هناك من يُفسر لي الرموز الصوفية المتعلقة بالرقص عن طريق الدوران، وتلك هي الطريقة المتبعة عند مريدي الرومي. وقد قيل لي: "يرمز الحزام العريض الأحمر إلى التصدي للجوع، ويعني رفع اليد اليمنى باتجاه السماء طلب الخير من الله، أما اليد اليسرى فتتجه إلى الأرض كناية عن أهمية نشر الخير بين جميع الكائنات. يدور الراقصون عكس عقارب الساعة، وذلك بقصد التجرد من قيود الزمن، وأثناء الرقص بالدوران تكون الرجل اليمنى ثابتة على الأرض كناية عن الشريعة الثابتة على مدى الزمان، أما القدم اليسرى فتدور ضد عقارب الساعة كناية عن دوران الأحداث في الحياة. أما الملابس البيضاء فهي ترمز إلى العلاقة المباشرة بين حب الله للمخلوقات بشكل نقي متساوٍ، ويعني الثوب الدائري دورة الحياة والمنافع التي تدور فيما بين بعضها البعض، وبين توجه المريد لله -عز وجل- وأحاسيسه الصادقة في ذلك. الراقصون يرددون بصمت أبيات الشعر المنسوبة إلى جلال الدين الرومي، وعلى سبيل المثال: "عندما يسألونك عن الجمال فقل هو موجود فقط في الوجوه التي تستحي من الله"، "تعرف على نفسك بقلبك، ذلك إن معرفتك بنفسك سوف تقودك إلى معرفة الله". وقد يرافق الرقص صوت الناي الذي يرمز إلى قدر الإنسان الحزين جداً.

ومن أجل إحياء مجد العرب المسلمين في نفوس أبنائي زرت معهم إسبانيا، وأكتب لكم بصدق شديد، إن من أجمل المدن التي زرتها في إسبانيا هي مدينة غرناطة، التي تقع على بعد (٤٣٠ كيلومتراً) جنوب مدريد، وهي من أهم المعالم السياحية التي يرتادها الملايين سنوياً، أي إن الحكومة لا تزال تكسب الكثير من الآثار التي تركها العرب المسلمون. وتعود بداية تشييد قصر الحمراء فيها إلى القرن الرابع الهجري، الموافق للقرن العاشر الميلادي، واستغرق بناؤه التدريجي أكثر من عشرين سنة. ومن سمات القصر وضوح العمارة الإسلامية في جميع أبنيته، ومنها استخدام الحروف العربية بشكل زخرفي رقيق في تنظيمات هندسية رائعة، تظهر جلية

في زخارف السجاد والتحف، كما أنها منقوشة على الجدران وغيرها. وعلى حيطان الأروقة تظهر كتابات من الآيات القرآنية والأدعية المأثورة، وبعض المدائح النبوية وأوصاف الرسول (ص) على شكل الشعر المنظوم، وتحيط بها زخارف من الجص الملون الذي يكسو معظم الجدران. ومما أدهشني هناك، بلاطات القيشاني الملونة ذات النقوش الهندسية الجميلة، التي تغطي الأجزاء السفلية من جدران الأروقة. ومن أبرز المعالم في غرناطة ما يُسمى "قصبة الحمراء" وهو حصن يحتل مكاناً منيعاً من هضبة كبيرة هناك، وباقي الهضبة محاطة بسور قوي البنيان توجد عليه ثلاثة عشر برج بعضها لأغراض دفاعية. وعلى مرتفع مجاور للحمراء تقوم جنة العريف، وهي حديقة ملوك بني نصر، وتحتوي على أجنحة وأروقة محاطة بحدائق جميلة تسقى من خلال قنوات ونوافير ماء بديعة. ترى ما سبب تسمية هذا المَعلم البارز باسم قصر الحمراء؟ ربما يكون اسمه مشتق من بني الأحمر، وهم بنو نصر وكانوا يحكمون غرناطة، وربما تعود التسمية إلى التربة الحمراء التي يمتاز بها التل الذي تم تشييده عليها. أما قصور الزهراء فقد جاء ذكرها في مذكّرات الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب "الناصر بأمر الله"، أوّل خلفاء بني أمية في قرطبة، وكانت قصورها تحاكي قصور بني العبّاس في بغداد وتفوقها روعة.

ويا للعجب فقد جاءت سبية جميلة جداً من الشمال الإسباني البارد، واتخذها الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب (الناصر) محظية له وأسماها بالزهراء، ثم أمر بزرع أشجار اللوز حول القصر حتى تذكّرها أزهارها البيضاء بالثلوج التي تكسو ربوع مسقط رأسها! ثم أمر الملك بتشييد المدينة الزهراء على بُعد ثماني كيلومترات شمال شرقي قرطبة عند سفح «جبل العروس»، وكانت قصوره تقوم على هضبة مرتفعة منها تشرف على الحدائق الملكية والمباني الإدارية. لكن للأسف الشديد دخلها البرابرة يحملون مشاعلهم الحرّاقة في عام ١٠١٠ وأضرموا في قصورها النار، فتَهَاوَت أسقفها الخشبية المنقوشة بآيات القرآن، وتداعى قرميدها الأحمر الجميل، ثم دخلها العساكر ونهبوا ما فيها من كنوز ونفائس الفنون. وبعد إحراقها والدمار الذي حلّ بها، تعرّضت لحملات نهب كانت آخرها في العصور الوسطى، حين انتُزِعت منها حجارتها الشهيرة التي كانت من الصخور الليّنة التي يرغبها البنّاؤون لسهولة تحويلها إلى أعمدة رومانية أو قوطيّة الطراز. وفي عام ٢٠٠٩م افتتحت الملكة صوفيّا متحف

المدينة الزهراء الذي ضمّ تحفاً وقطعاً أثريّة من الموقع، والذي نال جائزة الأغا خان العالمية للهندسة عام ٢٠١٢م، ثم جائزة المتاحف الأوروبية. كذلك بهرني بناء جامع قرطبة الذي كان أكبر مسجد من نوعه في العالم، ويستوعب خمسة آلاف مصلٍّ، لكنه تحول اليوم في حكم الإسبان إلى كاتدرائية ضخمة تخدم الدين المسيحي.

كذلك تجولتُ في معظم أقطار أوروبا، ورأيت فيها العجب العُجاب، على سبيل المثال، في سويسرا رأيت الطبيعة الخلابة التي أعشقها في كل مظاهرها، في لسعة البرد في الشتاء، وفي جمال تساقط ندف الثلج الرقيقة الهفهافة فوق الأشجار العارية من الأوراق. ووجدت في البلدان الشرقية الحارة الصيف بجماله الخاص، ويتجلى في لواهيبه التي تشعل طاقة الروح والجسد، وفي تنوع ألوان الفواكه والخضار الطبيعية الطازجة. كذلك في طول نهاره الذي يمكنك من السياحة الطويلة والتمتع بالمناظر الساحرة في المنتزهات وما حول البحيرات والأنهار. ولا شك في أن البشر جميعاً يمثلون جزءاً من هذه الطبيعة الساحرة، والمطلوب منهم المحافظة عليها، وحبها لدرجة الاتحاد معها، حتى يمكنهم التمتع بكل ذرة فيها.

وعندما اشتقت لرؤية أمواج البحر العاتية وسماع صوتها المتواصل، وددت تجربة السفر لمدة طويلة عبر السفن الحديثة، التي تمخر عجاج البحار متنقلة بين الدول المختلفة، ركبت باخرة ضخمة متجهة إلى اليونان، كانت تحمل بداخلها كل ما يخطر بالبال من أسواق ومقاهٍ وصالة سينما وحتى ملاعب رياضية. صدمتني الذاكرة بإعادة شريط رحلاتي في ذلك المركب الضيق الهزيل الذي ركبته عشرات المرات عند سفري من وإلى البحرين، حيث عانيت من الدوار وحدثت لي إغماءات لا تُعَد ولا تُحصى؛ ألا ما أبعد المقارنة بين الحالتين وشتان بين هذا وذاك، ومن العجب العجاب أني لم أشعر في الباخرة بدوار البحر ولا بأي متاعب صحية! بل استمتعت بكل الوقت أثناء رحلتي الطويلة في هذا اليخت البديع، حيث طوقتني الرفاهية وأخذتني الوناسة بين راحتيها. ومن أغرب ما رأيت في الجزر اليونانية الكثير من الطيور ذات الألوان البديعة والأحجام المتفاوتة، ومنها طائر القطرس الذي يعيش حياته كلها في البحر ولا يحتاج إلى اليابسة إلا لدقائق معدودة حيث يضع بيوضه في الأعشاش المهجورة. وكلما ارتحلت إلى أرض وجدت آلافاً من أجناس النبات والحيوان التي لم أصادفها مسبقاً، وكم لجأت إلى الأفلام الوثائقية حتى أعرف أكثر عن تلك الأجناس العجيبة الغريبة، وقد أثار

فضولي تفنن الخالق في صُنع الملايين من الكائنات؛ فهل الهدف منها يا تُرى إسعاد الإنسان وتجديد دهشته؟ أم هي تجسيد لقدرة الله غير المتناهية على سطح الأرض؟ أم هي مجرد انعكاس لوجود الخالق عز وجل؟ فويلٌ للملحدين الناكرين لروعة الخلق وإبداع الخالق.

السياحة الشخصية في الأحساء

أجل لقد أصبحت الدوحة عزيزة غالية على قلبي، وما إن أفارقها فترة قصيرة من الزمن حتى أشتاق إليها، ومع أني أحببت قطر حباً جماً فهي أم الخير الوفير، وهي موطني الحبيب الذي عشت فيه أكثر من ستين عاماً؛ لكني لن أبالغ لو قلت إن أجمل رحلاتي كانت إلى مسقط رأسي في الأحساء، حيث كنت أتجول في أنحاءٍ رائعة كانت مجهولة بالنسبة لي سابقاً، كما كنت أعيش بسعادة وفرح ذكرياتي القديمة في بعض البساتين المألوفة لدي، كيف لا وهي مراتع الطفولة البريئة. ومع زوجتي الشريفة وعيالي وأقاربي كنت أستنشق روائح الطبيعة ساحباً مع كل نفس ذكرى الأمسيات المجللة بالسكينة والسعادة. كنت قانعاً بمعيشة الترحال والزيارات المتقطعة لرؤية موطني وأهلي، ولم أطمع بغير ذلك، وكما قال الشاعر:

والــنفس قانعــة إذا مــا قنعتهــا ❋ وإذا تُــرد إلــى قليــلٍ تقنــع

وكلما تكرر ترحالي في الأحساء، هرعت إلى تلك الحقول والمزارع التي بدأت تندثر على مر الزمان، أناجيها بحنان ومودة، متذكراً قصيدة الشاعر المبدع إيليا أبو ماضي، وكأنه يعنيني أنا في كل بيت منها، بل كأن هذا الشعر قد وضع كي يصف مشاعري أنا شخصياً:

وطــن النجــوم أنــا هنــا ❋ حــدق أتــذكر مــن أنــا

ألمحــت في الماضــي البعيــد ❋ فتــى غريــرا أرعنــا

جــذلان يمــرح في حقولــك ❋ كالنســيم مدنــدنا

المقتنــى المملــوكُ ملعبُــهُ ❋ وغيــر المقتنــا

يتســلّق الأشــجار لا ❋ ضــجراً يحــس ولا ونــى

ويعــود بالأغصــان يبريهــا ❋ ســيوفا أو قنــا

ويخوض في وحل الشّتا * متهلّلا متيمّنا
أنا ذلك الولد الذي * دنياه كانت ههنا
أنا من مياهك قطرة * فاضت جداول من سنا
زعموا سلوتك ليتهم * نسبوا إليّ الممكنا
فالمرء قد ينسى المسيء * المفترى والمحسنا
والخمر والحسناء والوتر * المرنّح والغنا
ومرارة الفقر المذلّ * بلى ولذّات الغنى
لكنّه مهما سلا * هيهات يسلو الموطنا

ما زلت أعيش حياة السفر والترحال المتكرر بين قطر والأحساء، وربما أزور البحرين للضرورة القصوى فقط. لكن أين تكون محطتي الأخيرة يا ترى؟ وفي أي ركن من البلاد سوف أهنأ بالهدوء التام، وأموت فيه ميتة لذيذة تنسل فيها روحي من جسدي المعذب، وتخرج بخفة النسيم لتهرب من هذا العالم وصخبه إلى سكون السماء حيث أتسامى منتشياً من انعتاق الروح وتجليها لخالقها.

<u>تألب المتاعب الصحية عليّ بداية من دخولي العقد السابع من عمري</u>

مرت ستون سنة من عمري، وأنا في صحة تامة ونشاط جيد؛ إذ لم يختلف عليّ شيئاً مما كان في شبابي باستثناء قلة عدد ساعات نومي، لكن في عمر الثانية والستين أُصِبت بارتفاع طفيف في ضغط الدم، وعليه منع عني الطبيب تناول الملح والبهارات الحارة مما خفف من شهيتي للطعام. كما حذرني الطبيب من أنني على حافة مرض السكري، خاصة أن عندي الاستعداد الوراثي للإصابة بهذا المرض، والحقيقة أنه منتشر في عائلتي انتشار النار في الهشيم. خرجت من تلك الفحوصات بميزة جيدة، ألا وهي محافظتي على وزني المثالي ثابتاً طوال هذه السنين، وذلك بسبب عدم مبالغتي في الأكل مع حركتي المستمرة وكثرة أسفاري وترحالي. وعندما بلغت الخامسة والستين أُصبت بمرض السكري، وكانت أعراضه واضحة

عليّ، بدأت أشعر بالتعب والعطش الشديد عند القيام بمجهودٍ متوسط نسبياً، كما صرت أطلب الراحة أو النوم بين الفينة والأخرى.

ومن الطبيعي أن تضعف الذاكرة مع تقدم السن، وقد حدث ذلك لوالدي بعدما تخطى سن السبعين من عمره، لكن أشد ما كان أقلقني هو الخوف من مرض ألزهايمر الذي يشل ذاكرة المريض تدريجياً، فينسى أسماء من حوله، أو يتذكرها بصعوبة، ثم يفقد تواصله مع أهله الذي ينسى تفاصيل العلاقة بهم، ويستمر ذلك حتى ينهار الجسم كله؛ إنه مرض مخيف لكن إن كان هذا المرض وراثياً فأنا في مأمن منه؛ لأني لم أسمع أنه حدث لأحدٍ من قرابتي.

لكني بعد تخطي سن السبعين حدثت لي الطامة الكبرى، بدأت أعاني في هذه السن من نمط الأفكار المتكررة ثم الدوران حولها والشك فيها وتقليبها طوال الوقت، هل أنا مصاب بوساوس عقلية أو مرض نفسي، أو ربما مجرد اضطراب عصبي بسيط نتيجة تراكم تعب السنين؟ لم أشكو إلى أحد، ولم أذهب إلى الطبيب في بادئ الأمر، لكن مع ملاحظة أفراد عائلتي شرودي المستمر، وصمتي مع تقطيبة محياي، اضطررت مجبراً لمراجعة الطبيب الذي قال لي: "قد يعاني حوالي ٨٠ % من المسنين من مشاكل صحية جسدية، بينما يعاني أكثر من ٤٥ % منهم من الأمراض النفسية مثل الاكتئاب والقلق والوسواس القهري وغيرها، مما قد يحول حياة المسن إلى جحيم. إن معرفة الداء تسهل وصف الدواء ثم الوصول إلى مرحلة التشافي السريع، وإنك لمصاب بما يُسمى بالوسواس القهري، وأرى أنك مثقف ويمكنك القراءة والتمعن في أحوال الأمراض النفسية وأعراضها. إن فهم واستيعاب المرض يُشكل أفضل الوسائل لتطوير العلاج النفسي، وبلوغ حالة التعافي بسرعة". وصف لي الطبيب بعض الأدوية التي أصابتني بالخمول والكسل فتركتها بعد فترة وجيزة من تعاطيها، وقررت علاج نفسي بنفسي، بدأت بالتركيز والبحث عن هذا المرض من خلال الإنترنت؛ وقد قرأت عنه ما يلي: " يُعد الوسواس القهري رابع مرض نفسي منتشر في العالم بعد الخوف والإدمان والاكتئاب؛ لذلك فهو معروف للعامة من البشر. كما بينت الأبحاث أن انتشار الإصابة بهذا المرض تحدث في مختلف الأعمار، وقد تتراوح بين ٣ % - ٦ % بين الشباب، أي أنه يوجد بضعة أشخاص من بين كل مائة شاب ممن يعاني من الوسواس القهري. لكن النسبة تزيد كثيراً بين المسنين، وقد تصل إلى ٢٥ % منهم. غالباً ما تبدأ الأعراض في الظهور الواضح بعد سن الخامسة والستين،

وتتم تشخيص الحالة بسهولة عند مراجعة الطبيب النفسي، لكن قد لا يعرض المريض نفسه على الطبيب، إلا بعد فترة من الزمن؛ لأنه يظن أن تلك الوساوس لا تستحق العلاج، حتى تنال منه الأعراض ويبدأ في المعاناة الشديدة. غالباً ما يستغرق علاج الطبيب فترة تتراوح من شهور إلى سنوات حسب شدة الحالة. وقد أثبت العلم أن العامل الوراثي أو قصور الجينات له دور أساسي في نشأة الوسواس القهري، حيث ينتشر بين أفراد العائلة الواحدة، وقد يعاني أولاد المريض من الوسواس عن طريق المعايشة والتقليد في طريقة تفكير المريض نفسه. وينشأ عصاب الوسواس القهري نتيجة وجود قصور في بعض الإنزيمات والموصلات العصبية في الدماغ، ويُسمى ذلك بالتغير البيولوجي مما يسبب خللاً في تنظيم المعلومات وتكرارها داخل المخ؛ لذلك يكون علاجه بتناول مادة السيروتونين ومشتقاتها.

يعتقد علماء الطب النفسي أن الصدمات والضغوط النفسية تلعب دوراً هاماً في التحفيز لظهور هذا المرض؛ ومن أهم أعراض مرض الوسواس القهري ظهور أفكار وصور متكررة، أو اندفاعات عصبية غير مبررة، كما تظهر مخاوف غير منطقية، وله طقوس حركية مستمرة أو دورية متقطعة، ومن أنواعه: وسواس النظافة والطهارة، الشك في عدد الأشياء، ومنها إعادة عد الفلوس مراراً وتكراراً أو الأغراض وغيرها، كذلك يظهر على المريض ما يُسمى "الشكك"، ومعناه شكوك المريض في أنه قد قفل الباب أو الغاز... إلخ. وقد يعلم المريض علم اليقين بتفاهة هذه الوساوس وعدم معقوليتها، لكنه لا يتمكن من مقاومتها وعدم الاستسلام لها، مما يُسبب له صعوبات اجتماعية وآلاماً نفسية وعقلية حادة. تتضح الأعراض بأشكال متعددة، من بينها الشعور بمجموعة من الوساوس والاندفاعات القهرية لفكرة أو صورة، أو لمنظر حميد أو كريه أو لعبارات معينة تتردد على تفكير المريض وتطارده في كل الأوقات. وينشأ من ذلك اجترار الأفكار والأسئلة التي لا يمكن الإجابة عنها، وقد يحاول المريض التخلص منها دون جدوى، وغالباً ما تكون ذات طابع ديني عقائدي بحيث يصبح المريض فريسة سهلة لها، وقد لا يستطيع القيام بأي نشاط ذهني آخر غير الشكوك العقائدية. تظهر على المريض أيضاً الاندفاعات اللا إرادية كالرغبة الجامحة في القيام بأعمال لا يرضى عنها المجتمع، وقد تكون في هيئة عدوانية تجاه الذات أو الآخرين. بالإضافة إلى ممارسة بعض العادات المتكررة وهي من أكثر الأعراض القهرية شيوعاً، كغسل اليدين مئات المرات في اليوم الواحد، وكذلك إعادة

الوضوء، والاغتسال عدة مرات خوفاً من التلوث، وعليه قد يتم المكوث في الحمام ودورة المياه ساعات طويلة. وهناك حالات دورية من الوسواس القهري تأتي على شكل نوبات تختلف شدتها في كل مرة، وقد يتم شفاؤها باتباع توصيات الطبيب النفسي دون تناول الأدوية. وتتشابه أعراض الوسواس القهري مع أمراض عضوية أخرى تصيب الجهاز العصبي، كما قد يصاحب اضطراب الوسواس القهري أمراض نفسية أخرى مثل القلق المزمن والاكتئاب الحاد، وعندها يحتاج المريض إلى العلاج السريع".

كانت تلك ملخص قراءاتي عن المرض، أما في حالتي الشخصية، كنت أتعرض لطوفان دائم لا ينقطع من الأفكار التي تخص الماضي والمستقبل، بينما غالباً ما يختفي التفكير في الحاضر، وقد يتخلل ذلك صور قهرية متكررة تظهر بشكل الوسواس المرضي، بعضها يكون في صورة ذكريات مؤلمة وأحلام لم تتحقق، وأحياناً أتذكر فجأة أمنيات جميلة وأحداث سعيدة من الماضي البعيد والقريب أيضاً. والعجيب أن تظهر من ضمنها أفكار مرفوضة أخلاقياً ودينياً كأن تكون جنسية أو انتقامية، أو مؤلمة نفسياً مثل الذكريات الحزينة المتعلقة بموت أمي، ومن بعدها أختي الطفلة الحبيبة. ثم أدخل في التفاصيل المؤلمة لنماذج من قسوة زوجة أبي على التوأم، وعلى ذلك أنهال باللوم على أبي إذ كيف لم يمنعها من ممارسة تلك القسوة المقيتة علينا. ومن حُسن حظي أن صاحبي الصميدح قد حررني لاحقاً من لوم والدي، وذلك بإقناعي أن أبي هو رهين طباعه اللطيفة الشفافة وليست له تلك الطبائع القوية العنيفة المشاكسة.

وقد أخبرني الصميدح عن الوسواس القهري بما يلي: "إن الأفكار القهرية السيئة هي نتاج الأنا وانشغالها في تقييم نفسها ومقارنتها بالآخرين، كطرح الأسئلة التالية: لماذا يظن صديقي الفلاني أنه أفضل مني؟ أنا بالتأكيد أفضل منه، أنا أمتلك مزايا هو لا يمتلكها؛ أريد تحقيق نجاحات مثل الآخرين، فلماذا لا أستطيع فعل ذلك؟ وهكذا تستمر الوساوس وتدور في حلقة مفرغة. إن عملية تذكر أحداث الماضي ومقارنتها بالحاضر، إنما تعبّر عن سطوة الأنا السفلى، وسيطرتها على الذات السامية الأصيلة، وذلك حتى يتم طمس الأنا العليا والذات النيرة، ومنعها من التواصل مع الحاضر الجميل، وتحقيق الوعي الكوني الراقي بمساعدة العقل الباطن، وبالتالي يمكن الرقي على سلم الاستنارة الروحية". عندما توصلت إلى هذا

المفهوم واقتنعت به، تمكنت السيطرة على وسواسي القهري، وكنت أردد دوماً: "إن الله مع الصالحين وهو أرحم الراحمين".

مع تقدمي في السن أصبحت كثير السهاد والأرق، فما أن أضع رأسي على الوسادة حتى يجافيني النوم وتتناوشني الأفكار؛ ثم تذكرت والدي وما يصنع معي عندما كنت أمرض صغيراً ولا أتمكن من النوم، كان كثيراً ما يقرأ هذه الآيات الكريمة واضعاً يده على رأسي: ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [طه: ١١١]، ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣]، ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [النمل: ٨٧]؛ فصنعت صنع والدي، وفوجئت أني بعد تكرار قراءة تلك الآيات، ما ألبث أن آتيه في بحور الأحلام الغريبة العجيبة، والتي أحاول تذكرها في الصباح لكن دون جدوى.

ولطالما آمنت أن الصدقات تدفع البلاء والأمراض عن الإنسان، وقد ورثت ذلك الاعتقاد من ممارسة أفراد أسرتي له جميعاً. ومع زيادة المال وتدفق الحلال، تعودت قطع بعض المال في كل شهر لمساعدة المحتاجين، ومنذ أكملت الخامسة والستين من عمري عاهدت الله على بناء المساجد وحفر الآبار والمساهمة في بناء المراكز الصحية في الدول الفقيرة، كما أكثرت من توفير سبل الماء البارد في الطرقات، حتى يشرب منه العمال الذين يعملون في الشمس الحارة، وغير ذلك من الأعمال الخيرية البسيطة. ولله الحمد والتوفيق فإنني كلما امتد بيّ العمر ازداد قربي من ربي، واجتهدت لأن أعد العدة لملاقاته بكل خير، محملاً بالحسنات متطهراً من الآثام والخطايا.

كيف تمكنت من وضع برنامج بديع لحياتي بعد تخطي العقد الثامن من العمر؟

بالرغم من تقاعدي الجزئي عن العمل، وتسلم أولادي زمام الأمور التجارية، فإنني ما زلت أطوف بالمتاجر الخاصة بي، وأستمتع بالبحث والسؤال عن الصادر والوارد، ومعرفة الأرباح الشهرية التي يُحصّلها أولادي من التجارة، والمبالغ التي تدرها العقارات حيث ترتفع الإيجارات في كل عام.

حرصت على مساعدة عقلي في الاحتفاظ بنشاطه، آزرت عواطفي في مقاومة كل حزن وهلع، وتجاهل أي إجهاد أو وجع، وأنا مستمر في كتابة روايتي هذه وقد تجاوزت العقد الثامن من عمري، لكن ونظراً لظهور بعض العلل في شيخوختي، قلّت ساعات عملي في متاجري، وازداد وقت فراغي، كما صرت لا أستغرق في النوم إلا ساعات معدودة. ومما خفف ضيقي بحالتي الصحية، ظهور الإنترنت وانتشاره الواسع في تلك الحقبة من الزمان، وقد تعلم استخدامه كل من يعرف القراءة والكتابة. سايرت الوضع الجديد وسألت أحد أحفادي أن يعلمني تلك الأعجوبة الخارقة، وقد وجدت استخدام الإنترنت سهلاً، ولم أغفل عن متابعة كل جديد ومثير في كل زمان ومكان، بل أغرمت بالبحث في ملفات السيد العالم الجليل (جوجل) عن كل شاردة وواردة تهمني، وعلى سبيل المثال بحثت فيه عن جميل القول من الأشعار والحكم والمآثر القديمة. كما تعرفت على الجديد من علوم ومنشورات العالم، في معظم أمور الدين والدنيا، ثم تساءلت بصمت وأحياناً بفضول شديد، إلى أين يتجه بنا العالم يا ترى؟

بمرور السنون تغيّرت الحياة من حولي تدريجياً، وكنت أراقب ذلك بتعجب وفضول، لكن أشد ما أثار فضولي هي ثورة الإنترنت السريعة، ثم تنامي سرعتها تدريجياً حتى وصلت إلى سرعة لمح البصر. كنت أجد فيه الكثير من المواضيع الشيقة، ومنها على سبيل المثال، بحثت في جوجل عن معنى جوهر الحكمة، ظهر لي الفيلسوف (كوين نوران) في مقالٍ له على صفحته في "فيسبوك" كاتباً ما يلي: "إن جوهر الحكمة وسرها هو خارج حدود الأنا، وتأتيك الحكمة حين تبلغ منتهى الصمت، الذي يبدأ حين ينطق الكون، وتصغي أنت إليه بروحك، وما ستسمعه سيدهشك حقاً، فإن أزلية الكون فيها مطلق الحكمة والعلم والفهم والقدرة، فقط تنفس بمحبة واحترف الإصغاء. لكن حاذر من العقل لأنه في جزءٍ من الثانية يفتح العقل ملف علاقتي الكامل بمن ألتقي به، ثم يأتي الحكم عليه من الماضي، فإن كان هذا الشخص أقوى مني فسوف أحترمه، وهذا حكم العقل المادي، وإن كنت أقوى منه فلن أحترمه! والأقوى هنا غالباً ما تكون مادة أو سلطة أو حتى قوة جسدية. كما قررت أن أصافح كل من ألتقي به وأنظر إليه بمحبة، لأكون أنا الوعي، ولا أكون أنا عقلي الذي يقارن ويحكم، وسوف أعامل الجميع دون انتقاء مزيف ومداهنة ومصالح مادية، وهذا هو الزيف الذي يرفضه نور

القلب، لن أتودد للأقوى، لكني سأحب نور قلبه، حتى لو لم يكن هو يدركه أو يعيه، سوف أقدر وأحترم نور كل كائن في هذا الكون. أما عقلي الحبيب، فسوف أستخدمه لأميّز بين النار والماء، بين اللون واللون، لكني لن أدعه يفتح ملفات الماضي لكل من ألتقي به. سأكون متسامحاً مع الجميع وراضياً بكل ما يحدث؛ لأني على يقين تام بأن كل ما يحدث معي هو ما أستحقه، ولأني أدرك بأن كل ألم يصيبني هو دواء لنفسي وارتقاء لها، وأن المعاناة هي صدمات الصحوة. الله هو النور المطلق ولا يمكن إلا أن يأتينا بالخير كل الخير، وإن كان ظاهره معاناة أو ألم فهو الذي يقدر ويهدي، وفي تقديره العلم المطلق وكل الحكمة والمحبة، وهو الأحن منا علينا وهو المجيب لدعواتنا، وقد تعودت ألا أحدد دعوتي بشيء؛ لأن عقلي لا يحسن التقدير؛ لذا فإن دعوتي دوماً تكون ما يلي: "إلهي إني أسألك الخير حتى وإن كنت أرى الشر في ظاهره، فإني أعلم بأنك الأعلم، وأوقن أنك أنت الأقرب مني إليّ، فروحي منك ونوري منك وأنت الوهاب الحبيب، سأبتسم لكل قطرة ماء، ولكل نسمة هواء، وسوف أقدس نورك في كيان كل كائن". أعجبني هذا المقال، وأحسست أنه قريب إلى ذهني وقلبي ونفسي، حتى إنني أعدت قراءته لأصدقائي وأبنائي.

واليوم أقول لك يا قارئ العزيز: آه ما أحلى الراحة بعد التعب وما أجمل لذة الانتصار في تحقيق الربح الوفير، وما أروع متعة السفر والترحال، ألا ما أسعدني بلمة العيال والأحفاد جميعاً من حولي في جميع المناسبات. أجل لقد عشت حياة جميلة مثيرة في الغالب، لدرجة أن الملل والسأم كانا بعيدين عني بُعد الأرض عن السماء، وعندما يتحدث الآخرون عنهما كنت أتساءل ما الذي يتحدثون عنه يا تُرى؟ كان قلبي مفعماً بالميول والرغبات والطموحات التي لا تنتهي، وعقلي مليئاً بالتحديات والتساؤلات والشغف والدهشة، مما أثري أيامي وليالي بالمتعة والشوق والفضول، فلله الحمد والمنة على تلك النعم التي لا تُعَد ولا تُحصى.

ما قصة دود القبر؟

بحثت في الإنترنت عن المواضيع التي تحيرني كثيراً، ومن أغربها كيفية ظهور دود القبر بكثافة شديدة لأكل الجثث؟! وعادة ما يخطر في بالي هذا السؤال عند ذكر الموت، من أين يأتي الدود ولماذا يأكل الجسد بعد الموت؟ هذا الدود الذي لا يفرق بين الكائنات الميتة جميعاً،

فيأكل النبات والحيوان والإنسان سواءً كان شريراً أم طيباً، مؤمناً أم كافراً. بحثت وعرفت أن الدود يتكون فطرياً بادئ ذي بدء مع تعفن الجسد، يعيش في الخلايا الميتة، ثم يضع بيوضه فيها حتى يتكاثر بالملايين ويأكل الجسد كله حتى يخفيه عن الوجود ما عدا العظام التي لن يتمكن من قضمها. تفكرت في هذا الأمر كثيراً وتوصلت إلى أن الدود ينبع بادئ ذي بدء من خلايا الدماغ الحية الموسوسة، مما يجعل المرء مصاباً بالخرف قبل أن يموت، وأثناء حياة الفرد يقوم دود الدماغ بأكل الدماغ رويداً رويدا، حتى يتقاعس المرء عن الحركة والتفكير، ثم يتسرب الدود إلى جسده فيضعفه، ويأكل منه شيئاً فشيئاً حتى يصاب المرء بالنحول والعجز والانحناء، كما يتطرق الدود إلى نفسه وروحه فيعجز الفرد عن طلب المعالي وأعمال الخير، ويقنع باليسير من الأمور. يبقى ذلك الدود في الجسد الحي بأعداد قليلة نظراً لوجود المناعة الخلوية التي تقاومه، لكنها تنتهي عند حلول أجل الإنسان، وبعد موت وتعفن الجسد، يتكاثر هذا الدود حتى ينهش الجسد كله، حيث لا توجد الخلايا الحية والمناعة الذاتية التي تقاومه. ولا عجب أن يسلط الله علينا أصغر مخلوقاته حتى يرينا من آياته الكبرى، وأظن أن الدود قد تسرب إلى معظم ما على الأرض ونحن غافلون عنه، وسوف يأكل كل كيانات العالم حتى تندثر المخلوقات تماماً، أجل سوف يحدث ذلك في يومٍ ما حتى تصير الدنيا إلى عدم. لكن ما سر تلك الجثث التي تظل سليمة تحت الثرى؟ هل هو تميزها بحسن الطوية وسلامة العقل من الوساوس؟ أم شيء آخر لم يتمكن العلم من تفسيره حتى الآن؟

ومن المدهش العجيب أن ركزت بعض الأبحاث الحديثة على خلايا الدود، للحصول على بعض المعلومات الخاصة بكيمياء الجسم البشري، وقد أثبتت كثير من نتائج الدراسات التي أجريت على حياة الديدان، فعاليتها عند تطبيقها على خلايا البشر. كما خلصت دراسة حديثة إلى أنه عند ممارسة الديدان للحركة المستمرة المتوسطة، ولكن ليست الحركة السريعة المفرطة في وقت مبكر من حياتها القصيرة، فإن التمثيل الغذائي لديها يتحسن كثيراً، وتعمل عضلاتها بصورة أفضل طيلة حياتها، كما أنها تعيش لفترة أطول، وتتمتع بحماية جيدة من مرض ألزهايمر المشابه للإنسان لدى الديدان. أجل قد نتعلّم من الدود بعض أساسيات الصحة والمرض، وإلى الدود تنتهي أجسامنا، كما تنتهي حياته بعد أكله لنا، وكأنه مسخر لهذه

المهمة فقط. وما يتبقى لنا على هذه الأرض بعد الاندثار في باطنها، إنما هي أعمالنا الطيبة، والذكرى الحسنة لأرواحنا.

إحساسي بقرب نهاية حياتي على هذه الأرض

في مارس من عام ٢٠١٧ أكملت عامي الخامس بعد الثمانين، تكالبت واشتدت عليّ الأمراض، لكني ولله الحمد لم أصب بمرض ألزهايمر الذي كان هاجسي الأول منذ أن ضعفت ذاكرتي قليلاً. عندما كنت في البحرين حرصت على الاحتفاظ بالجنسية السعودية وعدم إسقاطها عني، مهما حدث لي من صعوبات، ثم حصلت بطريقة ما على الجنسية البحرينية أيضاً دون إسقاط السعودية، وعلى الجنسية البحرينية سجلت أولادي خاصة أنهم من مواليد البحرين، كما تمكن أولادي في الأحساء من حمل الجنسية السعودية تبعاً لجنسية والدهم. لكني وجدت أولادي في قطر يطالبونني ويُلحون عليّ للحصول على الجنسية القطرية، فكرت كثيراً ثم اقتنعت أن ذلك من حقهم، لكن ذلك لن يتم إلا بإسقاط الجنسية السعودية عني، فعلتها فقط من أجل خاطرهم، وعلى إثر ذلك حصلت على الجنسية القطرية بسرعة وسهولة والحمد لله ولأصحاب الشأن. لكني حرصت حرصاً تاماً على عدم تغيير جنسيات أبنائي الآخرين، وذلك لإيماني الشديد بأن على كل واحدٍ منهم أن يحتفظ بجنسية البلد الذي وُلِد ولا يزال يعيش فيه، فقد ارتبط معه بذكريات عزيزة على نفسه، ولن يكون سعيداً إلا في مسقط رأسه؛ لذلك لم أجبر أي منهم أن يأتي للعيش معي في قطر؛ وأظنني بذلك قد أنصفتهم جميعاً. وقد أكدت لي مسيرة حياتي أن شعوب الخليج هم لحمة وأسرة واحدة لهم أب واحد، بالرغم من تعدد أمهاتهم، تماماً كما أنني والد لعدد من الأبناء في ثلاث دول خليجية مختلفة، لقد عشت بين الأحساء والبحرين وقطر مخلفاً في كل بلد زوجة وأطفالاً، ولم أشعر أبداً بالغربة في أي بلد حططت به من تلك البلاد.

لكن في الخامس من شهر يونيو الموافق للعاشر من رمضان ٢٠١٧م، حدث ما لم يكن في حسبان أحدٍ من البشر، فعلى الرغم من قدسية هذا الشهر الكريم، تم حصار شعب قطر ومقاطعتها من طرف جيرانها وأبناء جلدتها ودينها ولغتها (البحرين، الإمارات العربية المتحدة، المملكة العربية السعودية)! أجل لقد فُرض على الشعب القطري الحصار الجائر بإغلاق

كافة المنافذ الجوية والبحرية والبرية، حتى لا نتمكن من الذهاب إليهم، ولا بضائع تأتينا منهم، وليس بالإمكان إرسال أي شيء إليهم. حتى أنه لم يصل إلينا في يوم الحصار المشؤوم أو اليوم الذي تلاه الحليب الطازج لأطفالنا، وكان مصنع الحليب القطري (ندى) يقع في الأحساء أي ضمن الأراضي السعودية. أغلقت الأجواء أمام الطيران القطري فلم يتمكن من الطيران فوقها، وعلى ذلك اضطررنا إلى استخدام أجواء من هم ليسوا بأبناء جلدتنا ولا ينطقون بلساننا. أجل لقد تقطع الركب بيننا وبين أحبائنا على حين غرة، وبدون سابق إنذار! إنه قرار تتقطع له القلوب، فقد مُنعنا من السفر لرؤية أبنائنا وأقاربنا في تلك الدول! وللأسف الشديد تشتت الأسر وتقطعت الأرحام، وكان ذلك حدثاً جليلاً ومصاباً عظيماً لجميع مواطني دول الخليج العربي، بل لجميع المسلمين.

أما أنا فقد تزلزلت أركاني وصعق صوابي، كيف أتواصل مع أبنائي المبعثرين بين تلك الدول والتي يحملون جنسيتها ويعملون فيها، كيف أرى أولادي في البحرين؟ وماذا عن عيالي وعشيرتي في الأحساء؟ لقد استبدلت جنسيتي السعودية بالقطرية، فكيف لي أن أصل إلى أحسائي الحبيبة. عشت ثلاثة أيام من الذهول والدهشة، حتى واساني جميع من حولي وقالوا لي: "لا تحزن ولا تبتئس، نتمنى أن يكون هذا الحصار عارضاً مؤقتاً، وسوف يزول عاجلاً فشعوب الخليج كلها لحمة وأسرة واحدة"، أجل إن هذا ما يصدق تماماً على حالي مع أولادي ذوي الجنسيات المختلفة، تمنيت ما تمنى جميع الخليجيون، لكن قلبي لم يصدق انفراج الحصار بسهولة، لأن للسياسة شأنٌ آخر وحسابات كثيرة لا نعرفها نحن البسطاء. ذبلت روحي وجن عقلي، ولم أرغب بالخروج حتى من بيتي، تعذبت كثيراً ورددت في نفسي: "ويلٌ لك يا عاشق الزرع والنخيل، مت بحسرتك، فقد ظهرت فجأة دونه ودونك بحار وجبال وصد ورد، بلا توقع أو سابق إنذار". ومن هول الصدمة شعرت بدنو أجلي، طلبت من أولادي جميعاً الحضور إلى قطر كونها الدولة الوحيدة التي لم تطرد الآخرين، بل تستقبلهم بصدر رحب، ولم تضع أي معوقات في دخولهم إليها أو خروجهم منها. وبعد بضعة أيام تم لي ما أردت، فقد اجتمع أولادي كلهم من الثلاثة أقطار، التي هي أعضاء بـ"مجلس التعاون الخليجي"! ما عدا ولدي البكر فقد كان في رحلة علاج بيعدة لزوجته. طلبت من عيالي عدم مفارقتي خلال تلك الأيام الأليمة، وانتظرت على أحر من الجمر عودة ولدي البكر من لندن؛ سارعت بعمل جرد

دقيق لأموالي، كما حصرت بضائع تجارتي، كي أعرضها للبيع بالجملة على أولادي ممن يعملون في التجارة، وقررت تقسيم المال والممتلكات سريعاً وأنا حي أُرزق، وجدت ذلك أسهل لي ولهم، ولم أستثنِ زوجاتي من هذا الأمر.

خيم الحزن على الجميع في قطر صغيراً وكبيراً، وحتى شعوب دول الحصار لم تتقبل هذا الأمر بسهولة، نظراً لوجود أواصر القرابة وصلة الرحم والصداقات والمصالح المشتركة بين الجميع، لكن ما باليد حيلة. خلال حصار قطر ساءت صحتي كثيراً، وبعد بضعة أشهر أحسست بدنو أجلي واستدعيت بتصريح خاص وعاجل، أبنائي من البحرين، ثم أختي الطاهرة وزوجتي الشريفة من الأحساء، وكذلك ولدي وبناتي هناك، فحضروا على عجل، واستقبلتهم بحزن وألم وتحسر، وقد احتضنني النساء بالعوال والنحيب، قلت لهن: "أنتن بقية الأهل، والخلف بعد الوالدين، ولا أسألكم إلا الدعاء لي بالرحمة بعد موتي، وأظن أني قد أسلم الروح إلى خالقها في هذه الليلة"،

فأسرعت بكتابة هذه الكلمات: "أشهد الله تعالى أني قد سامحت جميع من أخطأ في حقي، فأنا أتمتع في هذه اللحظة بنقاء القلب وحسن السريرة، ولا أرجو من جميع أهلي ومعارفي إلا مسامحتي على أي قصور أو خطأ، ورجائي الوحيد هو الدعاء لي بالرحمة والمغفرة".

*****

الفصل السادس

رأيي في شخصية الجلمود

أنا الابن البكر للجلمود، ومن على أرض البحرين جاء دوري للإدلاء برأيي في شخصية أبي، وشرح نوعية علاقتي به بإسهاب شديد. حرص أبي على أن أكون أول من يقرأ هذه الرواية بعد وفاته، ربما لأتعرف على ما خفي من مشاعره في حياته الخاصة.

لقد وجد أبي الأعذار المنطقية لتطليق أمي، وكأنه بوصفه الدقيق عن ما حدث منها يعتذر لنا نحن أبنائها عما حصل منه تجاهها. ولا يعلم أني قد عذرته وسامحته منذ زمن طويل. لقد وُلِدت وأبي في الثامنة عشرة من عمره، وتُوفِّي -رحمة الله عليه- وهو في السادسة والثمانين من العمر، أي أنه قد عرفني ما يقارب الثمان والستين عاماً هي سنوات عمري المديد إن شاء الله، وعلى ذلك لازمته في أحلك وأسعد أوقاته، وكذلك كان هو. عرفته أباً عطوفاً متسامحاً مؤمناً تقياً يخاف الله في كل شاردة وواردة. وقد كان لي الشرف الكبير في نيل ثقة أبي اللا متناهية في كل الأمور، وتأمينه لي على أسراره الشخصية والمالية وكذلك الفكرية، والدليل أنه ترك لي هذه الرواية التي أعدها بنفسه للنشر بعد مماته وكما أوصى بذلك في وصيته. أنا على يقين أن والدي كان يُفضلّني على إخوتي جميعاً، كوني ابنه البكر المطيع له دوماً وأبداً.

يؤلمني ذكر والدتي بسوء، لكن من الإنصاف القول إن والدي قد عانى معها معاناة شديدة، هي أنانية قاسية ذات ألفاظ بذيئة، تحب الدنيا كثيراً وتطمع في كافة ملذاتها، ولا تهتم بالدار الآخرة؛ ومن الواضح أن أبي ذو طباع مختلفة تماماً عنها، فهو ملتزم وقنوع، وقد أعطانا الكثير من عطفه وحنانه، وعلّمنا القدوة والموعظة من أخلاقه الفاضلة وكلماته

الراقية. قضى أبي أغلب شهور السنة بين قطر والأحساء، بينما كان يزورنا خطفاً كل ثلاثة أشهر، وبالرغم من ذلك لا يزال حريصاً في تلك الفترات القصيرة على تعليمنا بعضاً من أصول العبادات وفقه العقائد. تحمل أبي سوء أخلاق أمي كثيراً ونحن أطفال، ثم لم يستطع التحمل أكثر لسوء ألفاظها وشدة عصبيتها، بعد الطلاق أحسست بنوع من الراحة، لا سيما أنه كان يظهر لها الكثير من العنف والعصبية أيضاً، مما يزعجنا ويفزعنا نحن الأطفال؛ لكنني عندما طلقها وكنت أخطو إلى الثامنة من عمري، افتقدته وكنت أشتاق إليه كثيراً، فقد أصبح بعيداً عنا، ونادراً ما كان يقضي مع أطفاله الثلاثة الوقت الطويل، وهكذا ظلمنا وتركنا تحت رحمة أمنا وسوء تربيتها.

عندما كبرنا وتزوجنا، لم يكتفِ أبي بالتواصل معنا عبر وسائل الاتصال الحديثة، بل كان يطلب منا دوماً زيارته في الدوحة، ويحرص على لقاءنا في كل المناسبات والأعياد وغيرها؛ كذلك كان يطلبنا كي نزور معه إخواننا الذين يقطنون الأحساء. لم يبخل والدي علينا بالصرف المعتدل، وحرص على متابعة تعليمنا في المدارس الحكومية الجيدة. وعندما توظفت استمر في مد يد العون لي، ومع أنه كثير الأموال والأملاك فإنه علّمنا الادخار وكرهنا في الإسراف الذي هو من عمل الشيطان. وقد تمكنت بعد ممارسة الاقتصاد التوفير من راتبي، ثم شراء شقة لي، وكافأني أبي بفرشها لي بالجيد من الأثاث. تزوجت حسب اختيار الوالدة، ومما زاد في تعجبي أن أبي لم يتدخل ويرفض اختيار أمي للزوجة، بل قال لي بكل أريحية: "ما دمت راضياً عن جمال وسلوك الفتاة فلن أعترض أبداً، وسوف أبارك لك هذا الزواج". والحمد لله فإني وجدت سلوك زوجتي مختلفاً تماماً عن سلوك أمي، فعشت معها مرتاحاً، رزقت منها بالبنين والبنات، وكانت فرحة أبي كبيرة بالحفيد الأول، الذي سميته على اسمه، وقد أهداه مبلغاً كبيراً من المال تعبيراً عن سعادته بقدومه.

ورثت من أهل أبي الشغف بالقراءة، وهكذا تمكنت من الاطلاع على معظم فنون الثقافة والعلوم، كما ورثت منهم الطموح وحب العمل من القلب والعقل معاً، وضعت إطاراً محدداً لأحلامي في الوظيفة، وسعيت إليها بكل حب وصدق وشغف، فتحققت جميع أحلامي، وكان عقلي يقوم بإعادة التجديد بين الفينة والأخرى، حتى استمر نجاحي في الحياة الدنيا. لكني للأسف وفي وسط تلك المعمعة أغفلت العمل للحياة الآخرة، فلم ألتزم بالعبادات، وربما

حدث لي ذلك نظراً لبعد والدي المتدين عني، وكنت تحت رحمة أمي التي لم تكن ذات تدين للأسف الشديد. كذلك اختلطت مع أجواء بعضٍ من شباب البحرين المتحررين والملحدين، والذين لا هم لهم إلا الغرف من ملذات الحياة الدنيا. مرت عليّ ثمان سنوات زوجية هنيئة طيبة، ثم ضمر الود تجاه زوجتي، وساد في قلبي الملل؛ ربما لأنها لم تُطوّر فكرها وثقافتها، وأنا المعروف بالثقافة العالية، والفكر المتوقد.

حدث أن تعرفت على امرأة بعفوية وتلقائية في أحد مجمعات الخدمات الحكومية، كانت موظفة ومهمتها إكمال واستيفاء بعض الأوراق المهمة، تبادلنا أرقام الهواتف لاستكمال المعاملة ثم تطور الحديث بيننا إلى السياسة ثم إلى الشعر والأدب. هي كتلة من الجمال ممزوج بالعفة والنقاء والفهم العميق، تقرأ وتنتقد جميع أنواع الفنون، حديثها شيق وممتع في كل المجالات، تمتلك عذوبة الصوت سواء نطقت كلماتها بحزم أو برقة. وقد خفق قلبي بشدة بعد سماع ضحكتها لأول مرة، وأظن أن الضحكة هي الورطة الحقيقية لكشف أنوثة المرأة المتدفقة، أجل فويل للرجال من ضحكات النساء التي يجب تحريم سماعها على الأغراب، لكني تورطت وعرفت الحب والعشق الحقيقي، الذي انتهى للأسف إلى ما لا يُحمد عقباه.

الغريب أنها بالرغم من كونها صاحبة أعصاب قوية وشخصية عملاقة في مجال عملها، فإنها تعامل أولادها الأيتام الثلاثة برقة متناهية، هم يحلقون حولها في كل مكان تسافر إليه، رأيتهم صدفة في سفرتي الأخيرة إلى لندن وكنت وحيداً، فلم أتمالك نفسي من الفرحة وتطفلت عليهم وطلبت منها صورة جماعية لهم، فلم تبخل عليّ بها، بدت صورتي معهم كلوحة سريالية جميلة، كنت أحملها في جيبي وأنظر إليها في كل حين، علها تصبرني على بُعدها عني. لم أرَ منها غير وجهها الجميل البديع، وتقاسيم جسمها الرشيق كتلك الاستدارات والانحناءات الانثوية في جسدها من الأمام ومن الخلف وهي لابسة العباءة السوداء، لكن تلك التقاطيع كانت كافية لاثارتي طول ليلي ونهاري. وجدت تلك المرأة تسكن في أعماقي، وتمشي في شراييني، غاصت جذورها في نفسي، وأينعت ورودها على تقاسيم وجهي، فضحني حبي لها حتى سألني الجميع لماذا تبدو سعيداً جداً، ووجهك كالبدر المنير؟ تغير سلوكي مع زوجتي حتى شكت في الأمر، وبدأت في التحقيق معي وتفتيش حوائجي. تحادثني حبيبتي كثيراً وتشكو من ظروفها وتبوح لي بأسرارها، وفي همسها الودود اعتراف خفي بحبها لي، لكنها لم تجاهر به صراحة، هذا

بالرغم من اعترافي بحبي لها في مكالمات كثيرة. ولا أعرف إن كان تصرفها هذا خجلاً مني أم جهلاً بنواياي الشريفة، لكني أعرف درجة حبها لي في دلائل كثيرة، منها طريقة ودرجة تلفظها باسمي حسب ما الحديث بيننا. وعندما طلبت منها الزواج، اعتذرت كونها مسؤولة عن عيالها وعملها ووقتها لا يسمح بغير ذلك، لا أفهم كيف ترفض المرأة الزواج من رجلٍ تحبه وتحادثه في أدق تفاصيل حياتها! بينما يتشوق الرجل العاشق دوماً إليها، ويتمنى لقاءهما الجسدي في أقرب فرصة ممكنة؛ أجل يتشوق معظم الرجال دوماً إلى ملامسة ظل امرأة أعجبتهم، بينما لا يحدث ذلك مع بعض النساء، إنها حقيقة واقعية، لا أجد لها تفسيراً منطقياً. وقد أثبت لي ذلك التوجه أن الاختلافات كبيرة بين الرجل والمرأة، ويشمل ذلك جميع النواحي البيولوجية والعاطفية والعقلية، وكانت كلها واضحة جداً في علاقتي بتلك المرأة. أنا كرجل أشعر أن للحب سلطان عليَّ وهو أقوى من أي سلطان آخر، وأظن أن للغريزة سلطة على الرجال أقوى من سلطة الطعام على الجائع؛ وكم وجدت صاحب عقل ومبادئ متهاوناً في مبادئه، وراكعاً أمام سلطان العشق، وكم لعب الحب على عقول الأذكياء، بل كم خدع الحب العقلاء بأسباب واهية وأعذار سخيفة ليس لها أول من آخر. ولن يعذر أحد هؤلاء العشاق حتى يمر هو بتجربة العشق الحقيقية، وكما قال الشاعر الرقيق أبو الطيب المتنبي:

وَعَـذَلْتُ أَهْـلَ العِشْـقِ حتـى ذُقْتُـهُ * فعجبـتُ كيـفَ يَمـوتُ مَـن لا يَعشَـقُ

وَعَـذَرْتُهُمْ وعَرَفْـتُ ذَنْبـي أَنّنـي * عَيّـرْتُهُمْ فَلَقيـتُ منـهُ مـا لَقُـوا

وقد قيل لي إنه نادراً ما يشعر العاشق في حال الصحوة أنه كان في كبوة! لذلك لم أعرف حلاً لمشكلتي معها، ظننت أنها ستقاطع مكالماتي يوماً ما، لكنها استمرت تحادثني لمدة سنة كاملة دون لقاءات أو مقابلات، إلا من خلال العمل مما كان يزيد شوقي إليها، طلبت منها الزواج مرة ثانية، ثم مرة ثالثة بأي شرط تطلبه، لكن نصيبي منها كان الرفض في كل مرة. فكرت في عدم الرد على مكالماتها، لأرى كيف سيكون تصرفها، لكن لم يصدر منها أي ردة فعلٍ لمدة شهر كامل. هل كانت تتسلى بي طوال عام كامل؟ ألم يكن حبها لي حقيقة بالنسبة لها؟ وإذا كان ذلك صحيحاً، لماذا لم يكن حبي الجاد جداً مؤثراً في نفسيتها. تأزمت نفسياً وبكيت من الحزن، وفكرت مائة مرة بمعاودة الاتصال بها، لكن عزت عليّ نفسي فلم أفعل، وأظنها

تتساءل ببراءة في كل يوم: "إذا كان يُحبني حقاً فلماذا هجرني؟". استشرت أحد أخصائي العلاج النفسي في تلك المعضلة التي ألمت بي، دفعت له الكثير من المال كي يعالج حالتي، لكنه فعل بي أكثر مما أنا فيه من الغيظ والحزن، فقد شرح لي أن بعض النساء يتملكهن البرود الجنسي بعد الترمل أو الطلاق، وحتى بعد وقوعهن في الحب يتخوفن من إنجاب المزيد من الأطفال. وعندما تتحمل المرأة مسؤولية مسبقة بالعيال، قبل حدوث الحب، فإنها تظن أن المسؤولية سوف تزيد مع أعباء العناية بالزوج والمنزل لاحقاً. سألت الطبيب ما الذي تحتاجه المرأة لنسيان تلك المسؤوليات؟ ألا تحتاج للحب الطاغي الذي يدفعها إلى الزواج؟ ألم يكن في حبي الثقة الكافية للتخفيف من عبء المسؤوليات الملقاة عليها؟ ليتني أجد لها العذر الشافي حتى ترتاح نفسي قليلاً، وكما قال الشاعر المتنبي: "وفي بعض العذر تفنيد"، أو ليتها تعطيني بعض المبررات حتى ولو كانت كاذبة وغير منطقية. قلبي يكره العزلة والكتمان ويتمنى البوح لصديق أو قريب، لكني لا أستطيع التعبير عن مشاعري إلا لها هي وحدها فقط.

ثم تذكرت أبي ودعاءه لنا أثناء المرض والهم للتخفيف عنا، توجهت إليه في قطر وشرحت له مشكلتي الخاصة، أنصت لي بإمعانٍ شديد، أحسست تعاطفه القوي معي وكأنه مر بنفس التجربة! طلبت منه الدعاء فأجابني بنعم. وكان يشوح بيديه وكأنه يطرد عني الحيرة، ثم صمت هنيهة وقال بعطف وحنان: "لا تبتئس يا ولدي ولا تحزن، ابحث يا فلذة كبدي عن عبادات أو حتى هوايات، تنسيك هذا الحب المستحيل". حاولت تطبيق نصيحته، بحثت في "جوجل" عن حِيل وأساليب غريبة عجيبة ومارستها حتى أنسى حبي الوحيد المستحيل! تابعت ودققت في جميع وسائل التواصل الاجتماعي، وتابعت كل ما يبثه لنا "واتس آب" و"فايبر" و"إنستجرام"؛ ذلك لأن وسائل التواصل الاجتماعي على تماس شديد بالنفس البشرية ومشاكلها. تعرفت على أمهات الكتب في علوم النفس والطب السلوكي، قمت بدراسة الكثير من المعلومات في الأبحاث النفسية والسلوكية، فوجدت أن هناك وسائل عديدة، تساعد الفرد على نسيان الحب وتبرأ العاشق من الهوى، ولم أزل أمارسها حتى الآن أملاً في النسيان والسلوى.

*****

الفصل السابع من الملحمة

الملاحق المرفقة بالرواية

بعد نهاية المتن الذي كتبه أبي في هذه الرواية، وجدت أنا الابن البكر للجلمود الكثير من المخطوطات والمذكرات التأملية بخط أبي، استأنست بها كثيراً وعكفت على قراءتها، فوجدت أن ما فيها ليس خاصا بالأحساء وحدها، بل ينطبق معظمه على دول الخليج العربي، تأثرت بها تأثراً شديداً فلم أسقطها من يدي حتى أكملتها، ثم قررت أن أنشرها كملاحق لهذه الرواية وهي كما يلي:

الملحق الأول: تاريخ موجز عن الأحساء القديمة

كانت منطقة الأحساء تُسمى (هجر) في العهد القديم، وقد ذكرها الرسول (ص) في أحاديثه بهذا الاسم. وعندما استقرت بها فرقة القرامطة أنشأوا قريباً من منطقة هجر مدينة جديدة أسموها الأحساء، وقد أُطلق هذا الاسم على تلك المنطقة بسبب احتباس مياه العيون تحتها، أو ربما بسبب تربتها الحمراء اللزجة الخصبة التي تشبه طعام الحسو (جمعه أحساء وهو حساء يُطبخ مع الكثير من حبة الرشاد الحمراء، ويُصنع عادة للنفساء في دول الخليج العربي). الحَسا بالنطق المحلّي هو اسم يطلق على كل أجزاء محافظة الأحساء التي تقع في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، وتعتبر مدينة الهفوف العاصمة، حيث إنها أكبر مدن الشرقية، وتوجد بها أكثر الدوائر الحكومية المهمة حالياً، وكانت الهفوف عاصمةً ومقراً للسنجق؛ أي الحاكم التركي المسؤول عن محافظة الأحساء في ذلك الزمان. تتكون حاضرة الأحساء الحالية في الأصل من مدينتين منفصلتين هما الهفوف ومدينة المبَرز، وقد كان لكل منهما مطلع القرن العشرين سورها المستقل وتفصل بينهما مسافة صحراوية بمساحة ميلين، كانت تسكنها الذئاب، التي اختفت بعد التوسع العمراني الحديث، حيث اتصلت المدينتان ببعض لتشكلا حاضرة واحدة، ويفصل بينهما شارع واحد يُسمى النجاح.

وما زالت الهفوف ومدينة المبَرز معروفتين كمدينتين قائمتين بحد ذاتهما، لكنهما تشكلان منطقة حضرية واحدة، تعنى بإدارة شؤونها "أمانة الأحساء". ولا يزال اسم الأحساء يعمم على واحة الأحساء بأكملها بما فيها من القرى الكبيرة مثل العمران والبطالية وجبل القارة؛ وكذلك الضياع الصغيرة المحيطة بالهفوف والمبَرز. تبعد مدينة الأحساء حوالي ٦٠ كم عن مياه الخليج العربي ويعتبر (العجير) ميناء الأحساء الأوحد.

تقع في الهفوف منطقة القصور الأثرية، ومن أشهرها برج قصر إبراهيم، وسور الكوت. كما تشتهر محافظة الأحساء بكثرة عيون الماء الساخنة والباردة، وهي واحة زراعية كبيرة ومتنوعة المحاصيل منذ قرون طويلة، وتتميز بزراعة الكثير من النخيل والأشجار المثمرة الأخرى. ومن أشهر بساتينها، بستان (سمحة) الذي كان مركزاً لتعليم اللغة العربية للموظفين الأجانب التابعين لـ "أرامكو" في العام ١٩٥٧م.

إن تسمية مدينة المبَرز أتت من بروز وتجمع أهل الأحساء إليها قبل انطلاقهم للحج، وهذا الأمر شبه متفق عليه بين جميع أهالي مدينة المبَرز. أما بالنسبة للآثار فيوجد بمدينة المبَرز قصران أثريان هما "قصر صاهود" وترجع أساسات القصر إلى أربعة آلاف عام، وقد تمت إعادة بنائه قبل ثلاثمائة عام تقريباً؛ أما "قصر محيرس" فقد تم إنشاؤه في بداية عهد آل سعود بواسطة الأمير محيرس. وما زالت بعض البيوت الأثرية قائمة حتى الآن، لكنها مهجورة وآيلة للسقوط، دون أن تنال الاهتمام المطلوب. وتظهر المناظر الطبيعية الخلابة حول الجبال المشهورة مثل جبل (الشعبة) وجبل (القارة) وجبل (الأربع)، كما يوجد أيضاً جبل (الأصفر) وهو مقرّ الطيور المهاجرة، ولم يتم استغلاله للسياحة للأسف الشديد حتى وقت كتابة هذه الرواية.

كان في منطقة الأحساء نهرٌ جارٍ يُسمى نهر "عين الخدود" وله مناظر جذابة التقطت في عام ١٩٤٠م، تلك الصور لا تزال محفوظة في كثير من المتاحف الأوروبية التي تهتم بحفظ تلك الصور. كما توجد "عين النجم" في وسط مدينة المبَرز وهي من أكثر الأماكن شهرة في الأحساء، وتقع قرب جبل (أبو غنيمة) وتحتوي على مياه كبريتية؛ لذلك لجأت إليها بعض العوائل الخليجية للعلاج بمياهها المعدنية الطبيعية، أما الآن فهي للأسف مغلقة لسبب غير

معروف. كما توجد عدد من العيون الأخرى ومن أهمها "العين الحارة" وسط مدينة المبَرز، وقد كانت تبدو كبحيرة متوسطة الحجم، لكنها تقلصت في عام ١٩٧٠م. أما "عين أم سبعة" في شمال مدينة المبَرز فتقع بالقرب من قرية القرين، و "عين الحويرات" تقع أيضاً في شمال مدينة المبَرز في وسط قرية المطيرفي. أما عين الجوهرية فيتدفق منها كل دقيقة ثلاثة آلاف جالون من المياه العذبة، وتقع في قرية البطالية شرق مدينة المبَرز، وأخيراً لا بد من ذكر عين (باهله) التي تقع شرق مدينة المبَرز.

<u>الملحق الثاني: علاقة أهل الأحساء بالطبيعة الزراعية</u>

يعرف معظم أهل الأحساء كل ما يتعلق بطبيعة بلدهم، بداية من مواقع النجوم وعلاقتها بتبدل الفصول وسقوط الأمطار، على سبيل المثال، هم يستبشرون عند بزوغ نجم سهيل المبشر بهطول الأمطار في أوانها من كل سنة، كذلك يعرفون مواعيد عودة الطيور المهاجرة كالهدهد والخضيري والحمامي والرماني والقوبع، فيعملون على حماية بذورهم ومزارعهم من تلك الطيور بوسائل مختلفة، لكنهم يعرفون أيضاً كيفية الاستفادة من بيضها في الأكل وفضلاتها للتسميد. يتعلمون ويتداولون قواعد الطبيعة ونظامها أباً عن جد، ويعرفون كل ما يتعلق بالمزروعات من حرث الأرض وتهويتها، كذلك مواعيد بذر البذور أو غرس الشتلات وغير ذلك. كما يعرف النخلاوي كيف يخزن مياه الأمطار ويحفر العيون والآبار، التربة هي معشوقته الأولى التي لا بد أن يمدها بالسماد والبذور الجيدة والماء العذب كي تعطيه أفضل ما لديها وأجوده. والجدير بالذكر أنه من العيب في واحات الأحساء أن يصطاد الصبيان والرجال الطيور، وذلك لاعتقاد المزارعين بأن لها دوراً كبيراً في خصوبة التربة وبركة الزرع، وعليه لا تؤكل طيور السمان والحمام والبط والأوز، ولا حتى الأرانب أو الحيوانات البرية كالضب وغيره، لكن تؤكل فقط الدواجن التي تربى في حوش المنزل، وتتغذى ببقايا الطعام العضوي الذي يفيض عن حاجة أهل البيت، فتكون ذات طعم لذيذ فريد ومميز.

يكمن جمال الحقول في تنوع محاصيلها، ويبدو المنظر ساحراً على الأخص عندما يتم زرع الأرز الحساوي، حين تظهر الشتلات الغارقة في المياه ببراعمها ذات النجيل الأخضر الفتان، وهي تقفز برأسها البديع فوق مستوى الماء. تتميز مزارع الأحساء بغزارة أشجار الليمون الأخضر الصغير، وتطغى رائحة زهورها البيضاء المنعشة على أجواء الحقول في بداية فصل الصيف، وكذلك في بداية فصل الشتاء، حيث يزهر الليمون مرتين في السنة. كذلك تبدو أزهار الرمان الحمراء القانية اللون، أبدع وأجمل ما يكون بين المزروعات، وغير ذلك الكثير من الجمال الفتان. وما بين النخيل تزرع كل الخضار المعروفة في دول الخليج العربي دون استثناء، كما توجد أشجار الفواكه اللذيذة بمختلف أنواعها، ومن أكثرها التين والرمان والخوخ والعنب والبابايا، البطيخ الأصفر (الشمام)، وكذلك البطيخ الأحمر ويُسمى (الجح) وغيرها. أما موسم جمع الرطب فيكون بين شهور يوليو وأغسطس وسبتمبر، وحينها يكون الرطب الأحمر والأصفر متواجداً في كل البيوت دون استثناء. وتلك حكمة إلهية حيث تخفف تلك الفواكه الصيفية والرطيبات من لواهب السموم في فصل الصيف القائظ.

كل ذلك كان في الماضي الجميل، أما في الحاضر وللأسف الشديد فقد تقلصت مساحات البساتين وتحولت إلى صفوف من البيوت والمحلات، كما أصبحت بعض مزارع النخيل تُسمى بالاستراحات، تلك التي يقضي فيها الناس إجازاتهم الأسبوعية أو الشهرية، دون اهتمام حقيقي بالمزروعات، وما يهم البعض هو السباحة في البرك والرقص والغناء بين الأشجار. أما في ذلك الزمن الجميل فقد كانت معظم البساتين قريبة من المنازل، وربما تمتد حتى أطراف البيوت، وهكذا تذهب إليها العوائل في كل أسبوع تقريباً، من أجل الوناسة والتريض، وكذلك لغسل الملابس والقدور الكبيرة، وأيضاً للاستحمام في العيون الدافئة شتاء والجداول الباردة صيفاً.

أما "الطبينة" فهي كلمة تُطلق على عملية حرق المخلفات من كل ما تفضل من سنابل الحصاد ومخلفات النخيل وبقايا كل أنواع المزروعات، ويتم الحرق في حفر كبيرة تُجهّز داخل الحقول، ثم تُستَخدم كسماد لاحقاً. يُخلف هذا الحرق رائحة طيبة، يظل يتذكرها دوماً من يزور الأحساء، ويستنشق هواءها المطيب بتلك الرائحة العبقة. وفي العادة عند العصر وقبيل

الغروب تفوح روائح "الطبينة" الزكية، كما تفوح في الجو رائحة الأرز المحصود حديثاً، تلك الروائح طيبة النكهة تميز بالذات كل المزارع والحقول في الأحساء.

الملحق الثالث: النخل شجر مبارك الأنثى منه وكذلك الذكر

النخل هو شجري المُفضّل دون مزايدة، لا أدري كيف يتخلل منظره نفسي ويغوص في ثنايا قلبي، وقد وجدت أنه من السهل عليّ تطويع مشاعري حتى تغوص عميقاً في جذور النخلة، ثم تصعد مع العصارة من خلال جذعها، ثم تنتشر بين السعفات الخضراء الهفهافة. أما رفيف السعف فكفيل بتحريك الشوق والحنان بين أضلعي، وإن تأملي للنخل فله وقع قصائد الشعر البديعة على روحي وعقلي. تكتسي أحاسيسي بالسعادة حينما أغرق في تفاصيل النخلات الصغيرة الطرية، أدخل معها في مشاعر الانسجام، حيث يتمايل كياني مع تمايلها، ولا بد أني محظوظ كون مراتع طفولتي كانت الواحات الخضراء المترفة بالروعة والجمال، وكم كنت أهرب إليها كي تخفف عني قسوة الحياة التي عانيت منها الويل والثبور وعظائم الأمور.

ولم يجد الشاعر العراقي بدر شاكر السياب، أجمل من النخيل في مدينته البصرة، ليشبه به عيون حبيبته فقال:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر ❋ أو شرفتان راح ينأى عنهما

أنا أعشق النخلة وأتأملها كثيراً، وقد يكون سر حبي للنخيل أني قد وُلِدت وترعرعت بجانبه، وهو أمام ناظري أينما ذهبت وتنقلت فهو يحتل حيزاً كبيراً من أراضي الأحساء؛ وفي ذلك الزمان كانت غالبية أهالي الأحساء تمتلك مزارع النخيل المتفاوتة في العدد والمساحة. أجل لقد كانت العناية بالنخيل والمزارع والبساتين من أولويات الحياة في الأحساء؛ وذلك من أجل أمور كثيرة لا أستطيع حصرها فضلاً عن تعدادها.

يتميز ذكر النخل بإنتاج مجاميع من الجرابات التي تحتوي على حبوب اللقاح، وفي نهاية الشتاء قبل دخول الربيع بين الشهور فبراير - مارس، تبدأ رؤوس الجراب بنية اللون بالبروز حول قمة جذع النخلة، ويتراوح عددها ما بين ٨ - ٤ جراب حسب عمر النخلة، ما تلبث

الجراب أن تنشق ويخرج من كل جراب عذق ذو أعواد كثيفة يُسمى "الطلع"، يحمل الطلع حبوب اللقاح ناصعة البياض ذات الرائحة الفواحة العطرة، ويتساقط من تلك الحبوب بودرة بيضاء مائلة للصفار، وتلك هي المادة الفعالة في تلقيح جراب النخل الأنثوية. أما ما يفيض ويتبقى من حبوب اللقاح مع قطع الجراب المشقوقة، فتخضع لعمليات بسيطة من الغليان والتقطير حتى يُستخرَج منها ماء اللقاح الذي يستخدم في أغراض التطبيب المتنوعة، كما يُخلط مع ماء الشرب والعصائر وذلك لطيب طعمه وعذوبة رائحته. في الموسم نفسه تبدأ بوادر الحمل تظهر على إناث النخيل، حيث يبزغ في نهاية شهر مارس من النخلة الأنثى ما بين ٦ - ١٢ جراباً تصطف بشكل دائري حول قمة الجذع؛ وما يلبث الجراب أن ينشق ويخرج منه عذق أو عذج يحمل المئات من حبيبات البلح الصغيرة، تلك التي لو تركت دون تلقيح لأخرجت رطباً غير جيد لا يحمل النوى. وعلى ذلك لا بد أن يتم التلقيح بأخذ عدة عيدان من طلع الذكر قبل أن تتساقط منه بودرة اللقاح، ثم توضع في وسط كل جراب لأنثى النخل. وعادة ما يخفف عبء النخلة بالتخلّص من بعض الجرابات الأنثوية بحيث يتراوح العدد المتبقي ما بين ٦ - ٨ جرابات فقط، لكن ما يُقطع من تلك الجرابات يمكن أكله نيئاً ويُسمى "الحبنبو". أما المنظر الذي أعشقه كثيراً، فهو منظر عذوق الرطب المتعلقة بأمها حاملة مئات الحبات من البسر الأخضر الجديد، وكل ما يتساقط منها بفعل الرياح لا بد أن يُجمَع ويُطبَخ في الماء ثم يُؤكَل، أو يُقدَّم علفاً للبهائم. وتدريجياً يتحول البسر إلى الرطب المتناصف، أي أن نصفه الأعلى ليناً أما النصف الأسفل فيكون يابساً وملوناً بالأحمر أو بالأصفر. ثم يتحول مع حرارة الشمس إلى الرطب اللين الكامل النضج، ويكون ذلك خلال خمسة شهور، أكثر قليلاً أو أقل حسب نوع النخلة، حيث يوجد في الأحساء عشرون نوعاً من البلح على الأقل.

ولو تركنا الرطب على أمه النخلة حتى بداية الشتاء، فسوف يتحول نهائياً إلى التمر، وهو المحصول الذي يُحصَد ما بين شهور سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر. بعد أن ينشف التمر على أمه النخلة، يُجمع ويُغسل ثم يُعبّأ في أكياس صغيرة الحجم مصنوعة من خوص الجريد أو السعف، ثم يوضع عليها الطوب الثقيل لمدة شهرين حتى يخرج منها الدبس الثمين الغني بالفوائد الغذائية، وهو بديل للسكر في ذلك الوقت، ويُستخدم في تحلية لقمة القاضي

وغيرها من المعجنات والأطباق الحلوة. وعادة ما تُبنى قنوات صغيرة تحت أكداس التمر، حيث يجري فيها الدبس ثم يُجمع في المواعين الخاصة به. كما يتم كنز التمر أو تخزينه، (بعد نزع الدبس منه) في حجيرة صغيرة خاصة به توجد عادة في كل بيت، يتم تبيض تلك الحجيرة بالجص الأبيض، ولذلك تسمى الجصة أو المغبة، كما قد يُسمى التمر "السح والمفردة سحة"، ويُسمى أخذ التمر من الجصة في كل يوم بنقش التمر. يرافق التمر جميع الوجبات في الأحساء، وعادة ما يُؤكل القليل منه قبل تناول وجبة الطعام، ثم التحلية به في نهاية الوجبة أيضاً. ويُستَخدم التمر في صُنع حلويات كثيرة ومتنوعة، منها: التمرية والعصيدة والخبيصة، كما يُصنع منه خبز التمر المشهور في الأحساء فقط لا في غيرها.

لا أكاد أعرف شيئاً يُرمى في المزابل من بقايا النخل، ولأنها بالفعل شجرٌ مبارك، فكل ما يتعلق بها يُستخدم في تيسير شؤون الحياة، وحتى الخوص الصغير الدقيق لا يُرمى بل يستخدم كمنظف لما بين الأسنان ويُسمى الخلال.

وعادة ما يُؤخَذ الخوص من الجريد أو السعف الناشف، وتُصنع منه أوانٍ كثيرة، منها ما يلي: البساط أو السماط وله استخدامات كثيرة، منها وضع آواني الطعام للضيوف، أما السفرة تُستَخدم لوضع الطعام عليها أثناء تناول الوجبات في المنزل، بينما تستخدم الحصيرة للجلوس فوقها، أما المدة فهي الحصيرة الطويلة العريضة وجمعها المداد، وتفرش للضيوف للجلوس عليها. تصنع الخوص المكبة وهي على شكل إناء مجوف عميق متوسط الحجم يشبه الطاسة، ويُغطَّى به الطعام حتى لا يكون مكشوفاً للحشرات. المنسف وجمعها مناسف، ويُصنع على شكل صينية دائرية الشكل قليلة العمق، ويُستخدم بتحريكه لأعلى وأسفل بحركات سريعة وذلك لفصل القشور عن الحبوب، ثم نسفها أي طردها خارج المنسف. الجفير وهو السلة الواسعة الكبيرة، أما الزبيل فهو السلة الواسعة العميقة، كما يصنع منه المخرف وهي سلة خاصة يعلقها النخلاوي على رقبته ويجمع فيها الرطب في بداية نضجه، كذلك تُصنع الأكياس الخوصية وتكون مستطيلة الشكل، وتُستخدم لحمل وتخزين التمور والفواكه اللينة. وتُسمى جميع تلك العمليات بالتخصيف أو الخصف، وأجمل ما كنت أراه مخصوفاً من الخوص هو المنز أو سرير المولود، وفي العادة تتسلّى النساء والفتيات في وقت الفراغ بصنع كل ما ذُكِر آنفاً.

السعفات الناشفة تُسمى "الجريد" أما عيدان أو أعواد التي حملت الخوص، فلا ترمى في المزابل، فصنعة الصبيان هي تنظيف السعف الناشف من الشراشيف من حوله، وذلك للحصول على أعواد الجريد الخشبية النظيفة، حتى تُصنع منها الأقفاص الخشبية الصغيرة، التي تعبّأ فيها الفواكه اللينة والرطب؛ وكذلك تصنع منها المكبة وجمعها مكبات وهي أقفاص ذات أحجام مختلفة لحفظ الطيور والدواجن التي تباع في الأسواق. كذلك تصنع منها السلال متنوعة الأشكال والأحجام وغيرها من مستلزمات البيوت والمتاجر، كذلك يُستَخدم الجريد الناشف لتغطية أسقف البرك والمسابح والعشش، وتُسمى تلك الأسقف عادة بالعريش أو التعريشة. ومن جذوع النخل تبنى أسقف المنازل والمساجد وغيرها، كما تستخدم كجسور للعابرين فوق قنوات المياه، وعندما يوضع جذع النخلة عند موضع تدفق المياه من العيون يُسمى ذلك الموضع بالغبت، وذلك لوقف أو التخفيف من جريان المياه المتدفقة بقوة من العين، أما ما يتبقى على الجذع بعد قطع السعف الناشف فيُسمى بالكرب، ولا بد أن يُقطع أولاً بأول عند تنظيف النخل، لكنه لا يُرمى بل يُستخدم في إشعال النار لطبخ الطعام اليومي، وكذلك للتدفئة في الشتاء. يتماسك الكرب على جذوع النخل بواسطة الليف الذي ينزع عند تنظيف النخل، ويُستخدم في عمل الحبال المتينة، وليف الاستحمام، وكذلك ليف غسل الصحون. أما العسو فهو العذج الناشف بعد تخليصه من التمر، وقد يُستَخدم كمكنسة في البيوت والحقول. وحتى بعد موت النخلة يُشق جذعها ويستخرج قلبها الناصع البياض المُسمى بـ"الجذب"، حيث يُقطع إلى مكعبات صغيرة ويؤكل هنيئاً مريئاً. بينما يٌستفاد من البلح المتساقط سواءً كان خشناً ناشفاً أم أخضراً في إطعام الماشية، أما الأبقار فيُجمع لها بقايا التمر والنوى مما يساعدها على إدرار الحليب بغزارة. وحديثاً اكتشف العلماء الفوائد الصحية لنوى التمر، وأصبح يُستخدم كبديل للقهوة بعد تجفيفه وتحميصه وطحنه.

تتشابه النخلة مع الإنسان في عدة أمور، منها العيش حتى ما يُقارب السبعين عاماً، وحدوث تلك الانحناءة المنكسرة في الظهر بفعل طول العمر، كذلك يتميز النخيل بالفصل الجنسي ما بين الذكر والأنثى، ثم الموت السريع عند قطع رأس النخلة، على عكس باقي النباتات التي لا تتأثر بقطع رأسها؛ وصدق رسولنا الكريم عندما قال: "أمكم الأرض، وعمتكم النخلة".

إن كونك غنياً في الأحساء بتملّك الأراضي والمتاجر، لن يغنيك يوماً عن تملك النَخل (بستان يغلب فيه شجر النخل بمختلف أنواعه على باقي الأشجار)؛ لأنه الملاذ الآمن للعائلة بعد التعب، كما يعتبر الواحة الوارفة الظلال لتجمع العوائل والأقارب في كل أسبوع. إن مجرد رؤية النخل تغسل هموم النفس، كذلك فإنه المكان الوحيد لغسل الجسد كاملاً دون حساب للماء، حيث تتفجر عيون الماء في معظم بساتين الأحساء.

الملحق الرابع: شكل ونوعية بناء البيوت في الأحساء حتى العام ١٩٦٠م

أعتقد أن ما أصفه الآن ينطبق على جميع البيوت في دول الخليج العربي ، وقد استمر ذلك ربما حتى العام ١٩٦٥م، فقد كانت البيوت تُبنى من اللبنة والطين والأحجار، بينما تتكون السقوف من جذوع النخيل وليفها وسعفها الناشف؛ كما يصنع باب البيت محلياً من الأخشاب السميكة، وقد يسمى "الدروازة" لو كان باب البيت الخشبي كبيراً مزيناً بالمسامير النحاسية، يليه مباشرة الدهليز أو الممر وهو أهم ما يميز تلك البيوت القديمة، وقد يستمر بطول ثلاثة أو أربعة أمتار، ثم يتصل بالباب الخشبي الثاني المؤدي إلى حوش المنزل الذي لا يُسقف، وعادة ما يكون ممر الدهليز بعرض ٢-٣ أمتار، مما يكفي لمرور ثلاثة أشخاص في صف واحد؛ والهدف من وجود الدهليز هو منع الأغراب من دخول حرمة المنزل مباشرة. وعادة ما ينتظر الرجال في الدهليز حتى يخرج إليهم رب المنزل، ويكون الدهليز مسقوفاً في غالب الأحيان حتى يقي الضيوف من الشمس أو البرد، أما المقلط أو المجلس فهو مخصص لاستقبال الضيوف، وقد يكون له باب مباشر في الدهليز، ثم باب آخر يؤدي إلى حوش المنزل المفتوح على السماء مباشرة من غير سقف.

ولا بد أن يحيط الليوان بجهة واحدة من الحوش على الأقل، والليوان هو مساحة تكون في العادة مستطيلة الشكل يغطيها سقف تحمله أعمدة وليس له باب، وتقع في الليوان أبواب الغرف، وعادة ما يُفرش الليوان بالحصيرة أو المدة أو السجاد العجمي؛ لأنه يُستخدم في القعدة أو جلوس العائلة في معظم الأوقات، لتجهيز أعمال المنزل والخياطة وغيرها، كذلك قد تجتمع فيه أفراد الأسرة لتناول وجبات الطعام والشاي في غالبية شهور السنة، وقد

يستخدم للنوم فيه ليلاً حين تشتد حرارة الصيف، لكن يُهمل استخدام الليوان تماماً في الشتاء أو عند هطول الأمطار، حيث يختبئ أهل المنزل بداخل الغرف المحيطة به. ولا بد من منع الأطفال من الجلوس في الليوان وقت ظهيرة الصيف، كذلك لا تجلس العائلة فيه عند اشتداد السموم؛ وهي رياح صيفية حارة جداً محملة بالغبار، أو وقت اشتداد اللواهيب الحارة في الصيف. وفي العادة تُبنى على أطراف الحوش أكثر من دجة أو دكة مرتفعة للجلوس عليها والتمتع بأشعة الشمس في فصل الشتاء.

ونظراً لشدة ترابط العوائل وأهمية صلة الرحم، ونظراً لتشاركهم في الأعمال نفسها، ترى الأقارب يعيشون بالقرب من بعضهم بعضاً، وهكذا قد يضم البيت الواحد في الداخل عدة بيوت صغيرة يجمعها دروازة واحدة ودهليز واحد، مما يجعل الأسر متجمعة معاً في الأفراح والأتراح. أما الفرية أو الفرجة فهي فتحة صغيرة قد تكون بين بيتين متلاصقين، والهدف منها تسهيل دخول وخروج أهل البيتين للزيارة ولتبادل المتاع بين الأهل والأقارب دون استخدام الباب الخارجي. أما أسطح المنازل فتُستخدم في العادة للنوم أثناء الصيف؛ لذلك لن ترى أي بيت على شكل طوابق. ونادراً ما تُبنى غرفة واحدة في زاوية من السطح وتُسمى الكندية، والتي تستخدم لتنشيف التمور وبعض أنواع الحبوب والبقوليات والأعشاب، كما قد تستخدم لتخزين بعض أنواع المؤونة والحاجيات والأثاث. لكن في نهاية الخمسينيات دخلت الهندسة الحديثة وتغير العمران والبنيان، وعليه تغيرت بيوت الأحساء، كما ظهرت العمارات والفلل الفاخرة.

<u>الملحق الخامس: الحياة اليومية متشابهة في جميع أقطار الخليج العربي حتى العام ١٩٦٠م</u>

في الصباح الباكر لا بد أن يخرج رب الأسرة أو أحد العيال، لشراء الخبز الطازج من أقرب مخبز، حيث تنتشر المخابز في كل الأحياء تقريباً، ويُسمى المخبز (التنور). كذلك توجد مهنة الخبازة في البيوت، وتقوم بها بعض النسوة لكسب العيش، وفي حال عدم وجود النقود تتم مقايضة الخبز الطازج بالبيض أو الزبدة أو غير ذلك. وما ألذ البيض المقلي بالزبدة

الطازجة مع ذلك الخبز الساخن. ولا بد من ذكر الخبز الحساوي ذا اللون البني المائل للاحمرار، بسبب خلط العجين بالتمر والحبة السوداء وحبة الحلوة (بذور اليانسون) مما يعطيه النكهة المميزة، وعليه لا بد أن يكون أغلى ثمناً من الخبز العادي. أما خبز المسح (خبز الرقاق الخفيف والناشف)، فتستخدم له الطابة أو الطاوة وهي قطعة معدنية كبيرة مستديرة يفرد عليها العجين اللين ليتحول إلى خبز رقيق، الذي يمكن تخزينه لفترات طويلة، وعادة ما يتم خبزه في معظم بيوت الأحساء بعد إشعال نار الخشب تحت الطاوة.

أما البشتخته؛ فهي صندوق خشبي مزخرف الشكل يحتوي على الأواني الخاصة بتقديم الشاي، وفيه أماكن صغيرة خاصة بحفظ الاستكانات (ومفردها استكانة وهي كوب صغير خاص لشرب الشاي)، كما توجد في البشتخته أماكن لحفظ الملاعق والإبريق وعلبة الشاي والسكر. أما المشتخته فهي خزانة خشبية لها قفل ثقيل، تستخدم لحفظ اللؤلؤ والذهب والأموال.

بعض الأطعمة التي يتناولها شعب الأحساء وربما بعض شعوب الخليج

يتكون الريوق أو القدوع (طعام الإفطار) من الحليب الطازج ويُشرب بعد تسخينه وتهييله، (خلطه بقليل من مسحوق حب الهال)، أو غليه مع الزنجبيل في الشتاء، أو الزعفران في الصيف؛ وفي أغلب الأحيان يُخلط الحليب بالشاي دون تهييله. وعادة ما يغمس الخبز الطازج بالروب أو الزبادي المُصنّع في البيت، وقد يتناول البعض الغبوبة الباردة، وقد تُسمى البيوتة أو الملالة وهي ما يتبقى من طعام العشاء، وتتكون من الأرز وتخلط في العادة مع الروب الطازج. وقد كان الطعام (البائت) يوضع فوق ما يسمى السراقة أو المرفاعة وهي خشبة مثلثة الشكل تربط من أطرافها الثلاثة بحبل يتدلى من السقف، فتمتنع القطط والزواحف من تسلقها لأنها مرتفعة ومتحركة. وفي حالة عدم توفر الخبز للإفطار يستخدم البقصم وهو نوع من المخبوزات الناشفة ذات النكهة اللذيذة، ويغمس عادة في الروب أو الحليب الساخن. كما يتم تقديم الأجبان البيضاء والدبس والعسل والبيض والقيمر (الكريما أو القشطة الطازجة)، ضمن طعام الإفطار، وذلك عند وجود الضيوف في المنزل، إلا أن تلك الأصناف

قد تقدم يومياً في بيوت الأثرياء. ويختلف طعام الإفطار في فصل الشتاء، فحينها تُطبخ العصيدة المتماسكة (الدقيق الأبيض أو الطحين الأسمر المطبوخ مع السمن والدبس والفلفل الأسود)، كذلك تظهر الرغيدة اللينة (خليط من الدقيق الأبيض والسمن والسكر وبهارات صفراء اللون). أما الخبيصة فهي خليط من الدقيق (الأبيض أو الأسمر) والسمن والتمر والبهارات. أما البلاليط فهو فطور الأثرياء، ويتكون من الشعيرية الناعمة المقلية بالزبدة الطازجة، ثم يضاف إليها السكر وحب الهان وماء الورد والزعفران، وكل تلك الأصناف كانت غالية الأثمان في تلك الفترة من الزمان. وكان فطور جدي متميزاً، بخلطة عجيبة لذيذة تدفئنا في فصل الشتاء، فهو يفصل الصفار عن بياض البيض، ثم يخفق الكثير من الصفار مع العسل والزبدة ويطبخها جميعاً على النار، ثم يدعونا لتغميس الخبز الساخن فيها، ولا أذكر أني قد تذوقت فطوراً لذيذاً دافئاً غنياً بالفوائد مثل ذلك الفطور، رغم تجاربي المتعددة في تذوق الأطعمة لشعوبٍ مختلفة من أنحاء العالم.

في ذلك الزمان جرت العادة على أن لا يُطبخ الطعام لوجبة الغذاء؛ لأنه يتكون في العادة من الخبز والتمر واللبن الرائب، وكتعويض عن البروتين ربما يُضاف للغذاء بعض النخج (الحمص الناشف المطبوخ بالماء والملح)، أو الباجلا (الباقلاء أو الفول الناشف المطبوخ بالماء والملح)، ولأن كُلاً من الفول الناشف والحمص يطبخان لفترات طويلة في قدور كبيرة، فيكون ذلك من اختصاص المخابز، ولا تُطبخ في البيوت. لكن لا بد من طبخ وجبة العشاء في المنزل وذلك بإشعال النار في كرب النخل أو الحطب، وفي بداية الخمسينيات تم استيراد الجولة أو الشولة من الصين (آلة بسيطة تعمل بالكيروسين ويطبخ عليها الطعام). في العادة تتكون وجبة العشاء من الخضار والأرز ونوع واحد من الودام (كلمة تُطلق على الطعام عالي البروتين مثل اللحم أو الدجاج أو السمك)، وتُؤكل الوجبة بعد صلاة المغرب مباشرة، ولا بد أن ينام الكل بعد صلاة العشاء. توجد بدائل عن الأرز يمكن تناولها في وجبة العشاء، مثل المفلج أو الجريش (القمح المجروش)، والهريس (نوع من حبوب القمح).

ونظراً لبعد الأحساء عن البحر، فلا يتوفر السمك الطازج إلا فيما ندر، وكثيراً ما يُؤكل السمك المالح المجفف، وكذلك الربيان الجاف أو الجمبري المقدد، وللحساوية طبخات خاصة بهم في إعداد تلك المنتجات البحرية. ويظهر الدقوق وهو الجراد الناشف المدقوق

جيداً في فصل الشتاء فقط، ويستخدم بدل الودام. كما يظهر في الشتاء السمك المشلق (يشبه الفسيخ المصري وهو السمك الناشف الكبير المعد للشواء). كذلك يؤكل سمك المتوت الصغير جداً، ويكون في العادة ناشفاً وقد يسمى (القاشع، سحناه، العوم أو البسوس)، ويُعد من الحراسين وهي أسماك صغيرة جداً تشبه السردين، وتعيش في البرك والمستنقعات الكبيرة، وتصنع منه الودمة (أكلة حساوية شعبية مشهورة، حيث يُضاف سمك المتوت المدقوق إلى عصير الترنج أو الليمون وتُلف بأوراق الفجل الطازج) ولا بد أن يُقدم معها التمر. وتجدر الإشارة إلى أن أهل فارس يصنعون من سمك المتوت (صلصة المهياوة) وهي من الشهرة بحيث انتشرت عن طريقهم في كافة دول الخليج، لكنها لم تظهر في الأحساء؛ وذلك لانعدام وجود العجم عندنا في ذلك الزمان.

بعد حلب الماعز أو الشاة أو البقرة صباحاً، يتم خض أو رج الحليب بشدة وبتكرار متسارع في المخضة (هي إناء أسطواني خاص مصنوع من الألومنيوم، وفيه تتجمع قطرات الدهن وتلتصق ببعضها، وبذلك يتم فصل الزبدة عن الحليب)، وقد يستخدم بدل المخضة المعدنية ما يُسمى السقا أو الجربة (جراب من الجلد مصمم بطريقة تسمح برج الحليب الطازج بسرعة شديدة حتى يتم استخلاص الزبدة). ولا بد من ترويب أو تحميض ما يتبقى من الحليب حتى لا يفسد، وذلك بإضافة بعض الروب البائت إليه، وحفظه في مكان دافئ، حيث يتحول بعد فترة إلى اللبن الرائب الذي يمكن استخدامه لليوم التالي. الجدير بالذكر أنه ينمو في مزارع الأحساء نوع من النبات يُسمى (الإرطى) له أعواد دقيقة تنشف بسرعة وتتحول إلى اللون الذهبي البني، وهو ذو نكهة طيبة وفوائد صحية للمعدة، وعادة ما تُسحق العيدان إلى مسحوق ناعم، يُضاف إلى اللبن الرائب، الذي يُرج جيداً مع الماء البارد، بغرض تحويله إلى مشروب اللبن، الذي يشربه الناس يومياً بعد الوجبات. كذلك ينبت في براري الأحساء الفوطن أو الحبق، الذي عادة ما يطحن ويُخلط مع التمر عند تخزينه حتى يعطيه النكهة العطرة المميزة له، كما يستخدم مغلي الفوطن كمشروب في الشتاء بعد خلطه مع الشاي.

سمة أهل الخليج العربي النظافة والطهارة على الدوام

يعتني الحساوية اعتناءً شديداً بنظافة البيوت وطهارة الأبدان، ويساعدهم على ذلك وفرة عيون الماء الحارة والباردة، ولا شك في أن النظافة والطهارة تنعكس على نقاء الفكر والمزاج أيضاً، فتجدهم أكثر الناس رحابة وأوسع صدراً، يتعامل الفرد منهم بأريحية بالغة، مع الطرف الآخر مهما كان عرقه أو جنسه. كذلك تعمل البيئة الزراعية على تدفق البهجة في النفس وفرحة القلب، فترى غالبية الحساوية مبتهجين ومرحين، كذلك لاحظت تلك البهجة والمرح عندما اختلطت مع أشخاص من البيئات الزراعية في البلدان الأخرى. المزارعون في الأحساء لهم عند الحديث مع بعضهم لكنة محببة، حيث يكون النطق بالكلمات هادئاً، كما تُلفظ الكلمات ممطوطة نوعاً ما، مما يجعلها سهلة الفهم وذات نغمة رنانة. يميل أهل الأحساء إلى تصغير الكلمات لجعلها لطيفة، وعلى سبيل المثال: رجيجيل (تصغير رجل)، دويرة (تصغير دار)، حبيبة (تصغير مجموعة الحبات الصغيرات) جليمة (تصغير كلمة) وهكذا.

الملحق السادس: الأعمال اليدوية القديمة للمرأة الحساوية وتتشابه مع غيرها من نساء الخليج العربي

عادة ما تكون المرأة الحساوية مشغولة بأعمال البيت طوال وقتها، فهي تقوم بكثير من الأعمال التي لا تكاد تنتهي مثل: تنظيف المواعين وذلك بفركها بليف النخل والرمل الناعم، وتنظيف الملابس ببودرة الشنان التي تعطي رغوة صفراء مائلة للبياض، والمستخرجة من نوع من صخور في البرية تسمى العجرم. وحيث إن جميع الأحواش في البيوت تكون مفروشة بالرمل الناعم، فلا بد أن تفرش عليه الحصر أو المداد المصنوعة من خصف سعف النخيل؛ لذلك يتم تنظيفها بالعرجون أو العسو وهو عذق النخل اليابس والخالي من التمر، أما المقشة فهي مكنسة مصنوعة من القش الناشف من بقايا المحاصيل. وقد يستخدم العسو للضرب وتأديب الصغار؛ حيث إن لسعاته خفيفة وغير مؤذية للجسم. كما تقوم النساء بتنظيف الحبوب والبقوليات من الرمل والحصى، وكذلك يتم تنظيف الأرز من الشلب وهو الأرز غير المقشور. ومن المهم أيضاً تنقية الليمون الصغير الناشف والمتحول إلى اللون البني أو الأسود

من البذور، ثم طحنه جيداً، واستخدامه مع البهارات أثناء الطبخ، أو شربه كمشروب ساخن لمعالجة أمراض القولون وغيرها. كذلك تقوم النساء في مجموعات بدق حبوب القمح في سنابلها الناشفة، بالهاون الخشبي الكبير للتخلص من القشور أولاً، ثم الدق مرة ثانية بعد التنظيف للحصول على الجريش أو المفلج (القمح المتكسر)، كما يقمن بطحن حبوب القمح للحصول على البرغل أولاً، ثم الطحين الدقيق الناعم، وفي ذلك تُستخدم ما يُسمى (الرحى)، وهي قطعتان من الحجر أو الصخر المستدير فوق بعضهما، للقطعة العلوية فتحة لإدخال الحبوب الناشفة، وعادة ما تُحرك القطعة العليا بمقبض حديدي وبشكل دائري وسريع؛ كي تطحن الحبوب بالتعاون مع الصخرة السفلية، ثم يخرج الطحين من بين الصخرتين.

عادة ما تُحضر النساء جميع أنواع مواد التنظيف في المنزل، ومن أهمها: سحق الأوراق الجافة من شجر السدر (الكنار أو النبق)، وما أكثره في الأحساء وعادة ما ينمو بين المزارع، ويتم تنشيف أوراقه بعيداً عن أشعة الشمس حتى تظل محتفظة بلونها الأخضر، وبخواصها المنظفة المطهرة للشعر والجسد. كذلك يتم تحضير مواد الزينة من مواد محلية مثل: طحن ورق شجر الحناء بعد تنشيفه، وله عدة استخدامات للزينة وغيرها، أما الكحل المستخدم لتزيين العيون، فيستخرج من نوع من الصخور الجبلية. وتقوم المرأة الحساوية أيضاً بتحضير (الودج أو الودك) وهو شحم بقري مخلوط مع مواد أخرى يُستَخدم لتقوية شعر الرأس وإطالته، وكان الشعر الطويل عنصراً أساسياً لجمال المرأة في ذلك الزمان؛ وقد يُستَخدم شحم سنام الجمل أيضاً، ولا بد أن يتم مزج الشحم مع مسحوق الزعفران والخزامى وإكليل الجبل (روز ماري). كذلك يتم تحضير (مسحوق النورة) وهي مادة مستخرجة من الصخور الكلسية تشبه الجص، ويتم خلطها مع الزرنيخ للتخلص من الشعر الزائد. وأكثر ما كنت أحب هو استنشاق مسحوق الغسل (أوراق الآس الناشفة ذات الرائحة العطرية الخلابة)، التي تستخدم كبودرة مطهرة وقاتلة للجراثيم؛ لذلك عادة ما يُدلك به جسد المولود أو يوضع بين أفخاذ الأطفال الرضع.

ولن أنسى ابداع النساء في فنون الحياكة والتطريز في الملابس والعباءات. كذلك في خصف سعف النخيل على أشكال مواعين متعددة الأشكال والأحجام. ولا يمكن حصر كل الأعمال المنزلية التي قد اندثرت، وكان يقوم بها النساء والبنات على حدٍّ سواء ببهجة وفرحة.

الملحق السابع: الأعمال اليدوية الخاصة برجال الخليج العربي

للرجال أعمال خاصة بهم مثل تجديد قطن الدوشق (مرتبة السرير القطنية)، وعادة ما يحضر النداف (القطان) إلى البيوت في فصل الشتاء، ومعه آلته الخشبية التي تسمى (المنجد)، ثم يمارس عمله فوق أسطح المنازل، حيث يفتح كل مرتبة ويخرج حشوها القطني، ومن خلال المنجد يقوم بضرب القطن المتكتل فوق بعضه، ضربات متتالية حتى يتفكك ويرجع إلى نعومته، ثم يعيد حشو المرتبة بطريقة متساوية ويخيطها كما كانت.

يقوم الرجال برحلات موسمية لجمع الجراد، حينها يتسابق الرجال والصبيان في صيد كميات كبيرة من الجراد، ويكون ذلك في منتصف فصل الشتاء؛ حيث يتكاثر الجراد ويأتي بأعداد مخيفة ليأكل من الحقول والمزارع، ويتركها قاعاً صفصفاً، ثم يتخفى ليلاً بين شجيرات البرية. يستعد له الرجال بحفر الحفر متوسطة العمق بين ثنايا المزارع؛ حيث يختبأ فيها، لكنه عندما يسقط عليه الندي يثقل وزنه، ولا يتمكن من الطيران ويتكوم فوق بعضه، عندها يقوم الصبيان بجمعه من فوق الأرض في البراري والحقول، كما يقوم الرجال باقتلاع الشجيرات الصغيرة التي يختبئ فيها، ثم نفضها في أكياس الخيش الكبيرة، أو جمع الجراد المتراخي بطرق بدائية أخرى. أما النساء فتضع الماء والملح في القدور أو المراجل الكبيرة فوق النار، حيث تفرغ أكياس الخيش فيها مباشرة، عندها يتطافر ويتنطط الجراد مثل حبات الذرة في المحمصة، لكنه يموت بمجرد تعرضه للحرارة وبخار الماء. بعد ذلك يُغرف في مغارف كبيرة ثم يترك ليجف في صواني كبيرة فوق السطوح تحت أشعة الشمس، وهكذا يمكن تخزينه لفترات طويلة، وقد يتم شوي الجراد طازجاً على الفحم ويؤكل منه بطنه فقط المليء بالبيض، ويعتقد الناس أن في أكل الجراد شفاء لأنه يُأكل من كل أنواع النباتات.

الملحق الثامن: أنواع التسالي والألعاب القديمة للصغاروالكبار

يتسلى الكبار والصغار باللعب أحياناً في أوقات الفراغ، ويكون ذلك في أوقات معينة من اليوم، تمتد من بعد صلاة العصر في يوم الجمعة حتى قبيل صلاة المغرب. وقد تبدأ التسالي بعد صلاة العشاء في باقي أيام الأسبوع. وقد تكون التسلية بالتنافس في حل الألغاز، وعلى

سبيل المثال: إليكم هذا اللغز العربي الصرف، الذي سمعته لأول مرّة في طفولتي، ولم أستطع فهمه أو حلّه ألا وهو: "سألتك يا قاضي تُها، عن امرأة تزوجتها، هي أمي وأنا ولد تها"، وتعني تلك الكلمات أن القاضي اسمه "تُها" وقد تزوج من امرأة ولدت له ولداً وهو السائل فأصبحت أمه، كما أصبح هو ولداً للقاضي "تُها".

كما يعجبني اللغز التالي لمعرفة ماهية حرفة القائل:

"أنا ابن من دانت الرقاب له ما بين مخزومها وهاشمها،

تأتيه بالرغم وهي صاغرة يأخذ من مالها ومن دمها".

والجواب: هو الحجام، وقد كانت مهنة الحجامة سائدة في ذلك الوقت.

ومنها أيضاً: "طل برويسه وانحاش"، أي طل برأسه ثم هرب سريعاً والمقصود به دلو الماء. واللغز التالي هو: "حازمة وسطها، ونافشة كشتها"، وتعني حزمة البرسيم. وخذ معك هذا اللغز أيضاً: "أبوك في البيت ولحيته في الشارع"، ويُقصد به المرزام، الذي يوجد في سطح البيت لكن نهايته مفتوحة على الشارع خارج البيت، حيث يتدفق منه المطر، وقد اندثرت المرزام من البيوت الحديثة. أما هذا اللغز العجيب فهو كما يلي: "غنمنا يا السود، في البر رقود، إذا هزينا العود كثرت غنمنا"، والمقصود به الكلمات التي نكتبها بالقلم ذي الحبر الأسود.

وقد تكون التسلية بسرد الحزاية "الحكاية القصيرة وجمعها الحزاوي"، وعادة ما يسردها كبار السن، وربما يتم أثناء السرد تقليد للأصوات وتمثيل لبعض المشاهد من وقائع الحزاية، كما قد تتخللها الأنشودة أو السجع، وقد تكون الحزاية حقيقية أو من بعض الخرافات. وعادة ما يبدأ القاص بتلك الكلمات: "جانا وجاكم وخير لفانا ولفاكم وشرٍّ تعدانا وتعداكم". وكم كانت تسحرني الحزاوي الشعبية المضحكة، وبالذات حزاية "نص نصيص"، وفي تلك الحكاية وصف لقوة الشخص المعاق، وتحكي كيف تحوّل نصف رغيف إلى نصف إنسان قوي وذكي جداً. وكذلك تعجبني حزاية (العتويل) والمقصود به الرجل العملاق القوي، وصفته تكون (عتوي) وجمعها عتاوله، وهم الذين يُسلطهم الحاكم الظالم على الضعفاء، لكن في تلك الحزاية يظهر واحد منهم ويقف مع العدل والحق حتى النهاية. أما أختي فكانت تعجبها الحزاية التالية: "خنيفسين بنيفسين ايش قعدج على الباب؟ تبين رجيل (تصغير رجل)

الخطاب يخطبك ويخطبني؟"، وهي قصة تراثية مضحكة تحكي عن خنفساء تبحث عن زوج ثري، ولا يروقها أي واحد من أصحاب المهن البسيطة، حتى يخطبها الفأر الصغير ويحكي لها عن مغامراته المثيرة في السرقة، فتتزوج الفأر لأنه يسرق بيوت الأغنياء، لكن نهاية الطمع تكون مأساوية، وذلك بموت الفأر غارقاً في تنكة الدبس.

كما توجد حزاية الحية مع ولد سلمى، الذي تركته أمه باكياً وذهبت لجلب الماء من البئر، وعندما سمعته الحية جاءت وهي تغني له قائلة: "لا، لا، يا ولد سلمى، أمك راحت تريد الماء، لا عندي ديود (مفردها ديد وهو الثدي) حتى أرضعك، ولا عند يد حتى أرفعك، وأخاف أحبك (أبوسك) وألدغك".

أما السوالف ومفردها سالفة فتكون ذات أحداث طويلة وكثيرة، وغالباً ما تكون حقيقية، ويتم سردها مع ذكر التفاصيل الدقيقة في السهرات، وأثناء التجمعات في المناسبات والأعياد وغيرها. الحكايات القصيرة نسبياً، تحكي عن حياة الصالحين والزهاد أو من يعاكسهم، وغالباً ما يرويها شيوخ الدين في المساجد والكتاتيب لتؤخذ منها العبرة والفائدة، تلك السوالف والقصص هي إحدى دعائم الثقافة في مجتمعي، ومصدر ذكرياتي الجميلة التي ما فتأت أسلي بها أطفالي وهم صغار، ثم أرويها لأحفادي الذين يفضلون عليها أفلام الكرتون للأسف الشديد.

في ذلك الزمان تتكون ألعاب الأطفال الذكور، من ألعاب بسيطة جداً تعتمد على أشكال خشبية من صُنع يدوي محلي، كما توجد كرات زجاجية صغيرة ملونة تسمى (التيلة)، يلعب بها الصبيان دون البنات، أما البنات فيلعبن بالحصيات الصغيرة ويُسمى اللعب بها (اللقفة)، كما تتفرد البنات باللعب بالدمى المصنوعة من القماش أو الخشب بعد خياطة الملابس المناسبة لها. كما يلعب الجنسان لعبة الخشيشة، وهي تعتمد على التخفي عن الأعين، ثم البحث عن الأشخاص في الأماكن المختلفة والفائز هو من لا يجده أحد.

الملحق التاسع: الأناشيد الشعبية التراثية

عندما يعلن طالب حفظ القرآن الكريم نهاية حضوره في حلقة المطوع، وذلك بعد ختمة القراءة للقرآن الكريم كاملاً، أو بعد أن يحفظ أجزاء منها عن ظهر غيب، عندها يتم تجميع

الأطفال ابتهاجاً بهذه المناسبة، ويقوم أهل الطالب بتوزيع الدراهم والحلويات، وفي ذلك الحين يشدو الأطفال بهذه الأنشودة الدينية: "الحمد لله حميد المبدي، الحمد لله الذي هدانا، بالدين والإسلام واجتبانا، الحمد لله الذي علمنا القرآنا... إلخ". كما قد يطوف الطالب على منازل أقربائه وهو ينشد مع أصحابه: "بسم الله سمينا، باسم ربي تبدينا، دخلنا بيت مولانا، كريم الزاد أعطانا، أعطانا ربنا رضانا، أعطانا قبة خضراء، فيها مسكن الزهراء، فيها قارئ يقرأ، من قرأها مرة زار بيت الله، ومن قرأها مرتين زار صاحب النورين، ومن قرأها ثلاثاً لا يُعذّب في القبر ولا يخاف، ومن قرأها أربعاً دخل الجنة يربع، بنات الحور تجنيها وتجني من معانيها، محمد ساكن الجنة... إلخ".

ومن أشهر الأناشيد للتحصين من الشر والضرر، ما تنشده النساء ما بين العصر والمغرب وهي: "محمد فارش البردة فصلى، وقال للأرض أمسينا وأمسيتي، وأمست الخيرات إلينا وإليك، بحق الله عليج كفي عنا حرفيج وطرفيج، وكل دابٍّ يمشي عليج، وكل سودة وكل أسود وكل حية وكل عقرب. إذا جات المهمات في الليالي المظلمات، تعصينا بعصا موسى، وتدرعنا بدرع الإله الذي لا يفنى ولا يزول. إلهي اجعل بيني وبين أعدائي صداً ورداً، وجبالاً ما تنعد، بحق محمد صلى الله عليه وعلى آله الكرام".

وكثيرا ما تقص الأمهات هذه الحزاية على الأطفال مع الغناء الشجي: (امرأة توفى زوجها وطردتها زوجة ابنها التي عاشت معها في بيتها، ولم ترحب بها باقي زوجات أبنائها، أو يستقبلها أحد من أقاربها فراحت تبحث عن أهلها وكانوا في بلدة أخرى، ويستلزم الوصول إليهم عبور البحر عن طريق الجسر، فراحت تسأله وهي تغني بصوت حزين: (بسألك يا قنطرة (جسر العبور الصغير فوق الماء) ما مروا عليك أهلي؟) أجابتها القنطرة: (مروا عليّ سويعة قبل ما يطلع الفجر، شلوا بمحاملهم، وراحوا بمراكبهم، وخلوا دمعتي تجري)، فردت عليه قائلة: (ليتك يا خوي يا ولد أمي تدري). ثم أخذت تبكي وتغني قائلة: (ربيت الأولاد يوم الصغر وجهالي، ربيت العيال وأحسنت الربا فيهم، ربيت العيال على اللي تعب فيهم، حسبت العيال عند الكبر يغنوني، لا بالسلف يسلفوني، ولا بالدين دانوني، ومن الشمس إلى الفيء ما قدروا يشيلوني).

ثم قامت تغني عتابا لأهل زوجة ابنها، وتذكرهم باليوم الذي جاءت فيه تخطب ابنتهم: (بالأمس لما جيتهم، فرشوا زواليهم، ومدوا مطارحهم، وذبحوا ذبائحهم، واليوم ما أنفع أنا ليهم). ثم عبرت البحر إلى بيت أخيها، لكن زوجته لم تفتح لها الباب، فنامت من التعب عند العتبة الخارجية لباب المنزل، ولما جاء أخوها ورآها نائمة قال: (نامي يا المسعدة في فيَء الضحى نامي، أنا أخوك وخال ولدك، وأنا ضمام الأيتام، وأنا القنطرة اللي تسندي عليها ظهرك وجهالك).(أي عيالك الصغار)

<u>الملحق العاشر: اهتمامي الكبير بالشعر والشعراء</u>

كان أبي وجدي يشيران إلينا دوماً بأهمية الاطلاع على دواوين الشعر، وحفظ ما تيسر منها، نظراً لدور الشعر في ترقيق الحس العاطفي، وبناء الخيال، وإثارة التأمل في مخلوقات الله والتفكّر في جمال الطبيعة.

لم يكن لي خالات أو أخوال أو أي أقارب من طرف الوالدة في الأحساء، فقد انتقلوا جميعاً إلى الدمام، وهكذا كنت أجالس أبي وجدي وأعمامي كثيراً، وكان لهم دوماً أحاديث في الشعر والأدب والسير التاريخية. أحد أعمامي كان شاعراً وخطيباً مفوهاً، وعمي الآخر كان "مكلمانياً" أي محامياً، وكان يعمل في هيئة القضاء العليا، ويمتلك أوراقاً رسمية حكومية عليها ختم الدولة، وطالما قلبتها بين يدي ونظرت إلى نقوش ذلك الختم بإعجاب شديد. أما أبي فلم تلهه التجارة عن الثقافة وحب الأدب، وقد كان مغرماً بالقراءة منذ نعومة أظفاره، ولم يقبل قط هدية من أحد غير الكتاب، كذلك لم يجلب شيئاً من أسفاره غير البضاعة التجارية، والكتب المتنوعة التي كان يهدي بعضاً منها لأفراد عائلته وأصدقائه. ومن أهم كتبه كتابان لا يفارقونه أبداً، وهما نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب، ثم ديوان أبي الطيب المتنبي، وقد سرت على سيرته فأصبحت تلك الكتب سلوتي أنا أيضاً. كان أبي يقرأ في الليل تحت ضوء أبو فتيلة أي (السراج الذي له فتلة ويعمل بالكاز)، حتى خافت عليه جدتي من العمى لشدة إدمانه على القراءة. وكم كان يردد لنا أبياتاً محببة إليه من الشعر، أثناء تناول الوجبات والشاي والقهوة، وحيث إن لي ذاكرة قوية وسرعة في البديهة، تراني أحفظها بسرعة وأعيدها

على مسامعه ثانية، فيفرح ويكافئني بما يشاء، ثم أكررها على مسامع أختي حتى تحفظها عن ظهر قلب. وأذكر أن أول ما حفظناه ونحن في الخامسة من العمر، ولم نفقه من معناه شيئاً هو بيتان من شعر ابن الفارض:

تــــه دلالاً فأنــــت أهـــلٌ لـــذاكا * وتحكــم فالحســن قــد أعطاكـــا

ولـك الأمـر فـاقض مـا أنـت قـاضٍ * فعلــى تــاج الجمــال قــد ولاكــا

كنا في الخامسة من العمر وظننا أن تلك الأبيات أغنية أو أنشودة مرحة، وقد وضعنا لها لحناً كما نشاء، ثم رقصنا و"نقزنا" أي (تنططنا) على ذلك اللحن بفرح وسرور.

كما اقتبست وحفظت الكثير من الأبيات الشعرية ولا سيما تلك التي سمعتها من والدي وجدي نتيجة عشقهما الشديد للشعر والشعراء، وترديدهم الأبيات الجميلة والحكيمة في كل حين. على سبيل المثال كان جدي كثيراً ما يردد على أسماعنا قول أبو الطيب المتنبي:

لا يــدرك المجــد إلا ســيد فطــن * لمــا يشــق علــى الســادات فعــال

لا وارثٌ جهلــت يمنــاه مــا كســبت * ولا ســؤول بغيــر الســيف ســئال

ولا يكتفي بذلك، بل يشرح لنا المعاني الجميلة في تلك الأبيات التي تحث على طلب المجد بحكمة وذكاء، وبعصامية لا تعتمد على السيف أو على ميراث أحد، وكان رحمه الله يحثنا على الاقتداء بتلك الأبيات التي تضج بالموعظة الحسنة.

أجل لن تكتمل متعة القراءة إلا بالاطلاع على أروع ما قيل شعراً، تلك الأبيات التي تنعش الروح والنفس، ولا بد من حفظها عن ظهر قلب، وتكرارها في مناسبات معينة، كذلك يُحبذ قولها بين الشباب كنوع من الحكمة والموعظة.

كذلك حفظت من والدي معظم الحكم التي تواترت عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، سواء كانت نثراً أو شعراً، وأهدي لك عزيزي القارئ منها ما يلي:

النفــس تبكــي علــى الدنيــا وقــد علمــت * أن السلامــة فيهــا تــــرك مــــا فيهــا

أموالنـــا لــــذوي الميـــراث نجمعهـــا * ودورنـــا لـخــــراب الدهــــر نبنيهـــا

إن الـمـكـــــارم أخـــلاق مـطـهـــرة * الـديـــن أولهـا والـعـقـــل ثـانيـهـا
والعـــلم ثـالـثـهـا الـحلـــم رابـعـهـا * والـجـــود خامسهـا والـفهــم ساديـهـا
والـبـــر سـابعـهـا والـشكـــر ثـامـنـهـا * والـصـبـــر تاسـعـهـا والـلـيـــن بـاقـيـهـا

نصحني صاحبي الصميدح وهو المهتم بكل أنواع الثقافة قائلاً: "إنك تحمل في فكرك، وتطبّق في سلوكك الكثير من قيم ومبادئ الإنسانية، كما أنك مغرمٌ بالشعر خاصة وبالأدب عامة، فلماذا لا تحاول أن تكون أديباً روائياً، أو تكتب شعراً أو حتى نثراً، إن النفس الشفافة الزاهدة المتسامحة تصبو دوماً إلى التعبير عما يلوج فيها، إما بالشعر أو بالنثر، وكذلك يطمح الفكر النقي الصافي، وبذلك تنفع الناس وتسمو بهم في سماء الفكر، مما يساعدهم على التجلي والترفع والانعتاق". وللأسف لم أتمكن من تطبيق نصيحته، ولم أحاول كتابة النثر أو الشعر في يوماً ما على الرغم من شغفي به كثيراً؛ ذلك لأن الشعر الجيد يحتاج إلى الموهبة حتماً وإلى الشفافية والقدرة على التعبير، كما يحتاج إلى معرفة كم كبير من المفردات اللغوية المتنوعة، وكذلك إلى الدراسة المتعمقة في أصول وقواعد اللغة العربية، وأنا للأسف الشديد لم أملك أياً منها. ولا بد أيضاً أن يصاحب ذلك كله رقة في الإحساس وسمو المشاعر والقدرة على انتقاء الكلمات المناسبة ذات السجع الجميل. ألا ما أقبح الشعر دون الوزن والقافية، بل أحياناً يكون أشبه بالنثر غير المترابط وغير المفهوم. وأستثني من ذلك النثر الموزون الذي يُحاكي الشعر في السجع والطباق والجناس، فقد يكون مقبولاً لدي نوعاً ما.

أجل فعلى الرغم من عشقي للشعر قديمه وحديثه، فإنني لم أكتب منه بيتاً واحداً، لكن ولله الحمد والمنة أصبح واحداً من أولادي شاعراً بقدرة من الله عز وجل؛ هذا الولد تعلم في مدارس قطر الحكومية الممتازة قواعد اللغة العربية السليمة وجميع أنواع الأدب، كما تعلم المنطق والفلسفة؛ ولحسن حظه ورث عن جده هدوء النفس وحب المطالعة والتأمل الدقيق في مسارات الحياة. عندما بدأ كتابته للشعر كان صغيراً ففرحت به كثيراً، وشجعته على ذلك فأصبح شاعراً ملهماً وأديباً مفكراً. أجل أظنه الشاعر القدير في صنعته وموهبته، فله تواصل رائع مع مفردات الكلمات، وكأنها تنبع من جميع خلايا جسده وليس من لسانه فقط، كما أنه المؤثر في السامع عند إلقاء الشعر، بل وعند إلقاء الخطابات الأخرى، وذلك

لجمال صوته وحسن إلقائه. وكم أسعدني ذلك الأمر لأنها أمنية حياتي التي لم أحققها بنفسي؛ بل كانت واحدة من أحلامي المؤجلة والتي حققها لي القدر بتلقائية وعفوية.

وفي كهولتي حاولت تسلية نفسي بامتهان الكتابات البسيطة، لملء الفراغ الكبير في حياتي، فقمت بتأليف كتاب سميته "قبسات من أسفاري بين البحار والبراري" طبعته على حسابي الخاص، وكان توزيعه حكراً على أهلي ومعارفي وصحبي المقربين فقط.

الملحق الحادي عشر: غرامي بالموسيقى والأغاني الشعبية وكذلك الأقوال المأثورة

لا شك في أن للموسيقى تزكية للنفس وراحة للبدن، وهي صوت سماوي مقدس تأخذه الآلة من الطبيعة ثم ينطلق من نفس الآلة إلى الأذن البشرية فتبتهج النفس لسماعه، وعلى ذلك لم أحرّم الموسيقى والغناء على نفسي كما فعل البعض. لكني بلا شك حرمت على أذني الغناء المثير للشهوات، كما كرهت الكلمات الفجة القبيحة والموسيقى الصاخبة. لم أتعرف على أي آلة موسيقية عندما كنت صغيراً، ولم يعرف الحساوية أيّاً من آلات الموسيقى غير الربابة، وكانوا يشترونها من البدو في السوق الشعبي. تُصنع الربابة من أعواد الخشب وساق الخيزران وجلد حُوار الناقة أي صغيرها حديث الولادة؛ وعادة ما تكون الأوتار من شعر ذيل الخيل، ولا بد أن يلازم الربابة قوس رفيع من الخشب يتم العزف به. وقد جرت العادة أن يُرافق العزف على الربابة إنشاد الشعر الشعبي، وهي تسلية مُحببة تظهر في مجالس الرجال أثناء السمر والأعراس، وكذلك في مناسبات الأعياد وغيرها.

لطالما عشقت التراث القديم، خاصة الثقافة الشعبية بكل أنواعها وفنونها من الحكمة والأقوال المأثورة، حفظت بعضها وحاولت تعليمها لأولادي وأحفادي، كما رويتها لبعض أصحابي ممن يعشق التراث الشعبي؛ ولا شك في أن ذاكرتي تحمل رصيداً ضخماً من القراءات في العلوم الدينية بمختلف أنواعها ومذاهبها، كما أنني قد أبحرت في بحور الروايات والأساطير العربية، وكذلك غصت في محيطات الفلسفة، وقرأت في نقد الأدب العربي، هذا إلى جانب قراءتي الكثيرة المتنوعة للكتب الإسلامية التاريخية وغيرها. إن الرابط المشترك بين تلك الكتب جميعها تناولها للتراث والتاريخ الإسلامي وتقطيعه بحثاً وتنقيباً ما بين مؤيد ومعارض

وناقد، وعلى ذلك يحدث الجدل الشديد بين الطوائف المختلفة دون دلالة واضحة أو بيّنة كاسحة، وبالتأكيد دون شهود عيان. وكذا يحدث اليوم أن يُفكّر العرب والمسلمون بالماضي أكثر من الحاضر، والمضحك أنهم يلتمسون من ذلك الماضي السحيق حلولاً لمشاكلهم الحالية! بالرغم من قول حكيمهم في ذلك الزمن الغابر: "ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها".

كذلك أحببت الاطلاع على الثقافة الخاصة للشعوب، بحثت عنها في كل بلد عشت فيه، كما تقصيت عن الفنون والموسيقى والغناء، بل وحاولت تعلّمها من شعوبها حتى أشاركهم أفراحهم وأتراحهم، وغالباً ما كنت أختلط مع أفراد من عامة الناس. وقد أصادق أفقرهم وأجهلهم، حتى أشعر بالبساطة والسكينة التي يحملها هؤلاء الفقراء ذوو الصفات الجميلة مع تميزهم بالخلق والدين، مما يرفعهم في عيني.

وكان أشد ما يجذبني في الثقافة الشعبية هو تداخل الأشعار الفصيحة، مع الحكم الشعبية، وتشابك الألفاظ السوقية مع تلك الراقية جداً، وقد حفظت الكثير من تلك الأمثال التي تنطق بالحكمة والموعظة مثل:

"لولا الحَلاقة (أي التحلي بالنفاق أمام الناس) والملاقة (أي التملق)، يا ناس، محد حب أحد، تفاح البصرة يا ناس أبو خد وخد".

"عتيق الصوف ولا جديد البريسم أي الحرير".

"ما ينام الليل مغبون، ولا يقرب النار دافي".

"لا يطعمك شهد مكنون، إلا الصديق الوافي".

"لا تمر على المزبلة يعميك سافيها (أي من يقلبها من أسفل إلى أعلى)، ولا تحاكي (تتحدث) مع بنت النذل، تحط فيك ما فيها".

وكم أحببت الحكمة في المثل القائل: "عدوك من بلغك، مب اللي قال فيك"، ويعني ذلك أن من يبلغك خبراً سيئاً بقوله إن فلاناً اغتابك بكذا وكذا يكون هو عدوك الحقيقي؛ لأنه يقصد أذيتك، أما من تحدث عنك في غيابك فربما لم يقصد الأذية المباشرة.

الملحق الثاني عشر: أنا عاشق الورد الذي لا أطيق عنه بديلاً

كم كررت في هذه الرواية أنني محبٌّ للطبيعة في كل مظاهرها، وعاشق لكل التنوع في تضاريسها البديعة، من جبال ووديان، هضاب وكثبان رملية، بحار وأنهار وجداول، صحاري وثلوج وحقول وغيرها، أنا أعشقها في كل أحوالها وفي جميع الفصول. لكن لا بد أن أحدثك عزيزي القارئ، عن الورود والأزهار، فقد فتنت بمنظر أزهار الفل والياسمين، كما سكرت عند شمي للكادي والمشموم، أحببت شكل السوسن والياسمين، ثم تهت في تأمل ألوان الليلك والبنفسج والنسرين، كما شدتني الألوان المتعددة لأزهار الأقحوان، وأعجبني اللون الأحمر القاني لزهرة الرمان. وكم سحرتني أزهار اللوتس أو الهليلج، طالة برأسها المتوج بألوانها البهية، من تلك الجداول والبحيرات الصغيرة التي تحتضنها وتعيش فيها، وقد وجدتها كثيراً في بلاد الشرق الأقصى.

لكني عشقي الحقيقي كان ولا يزال للورد الجوري أو المحمدي دون منازع، إن تأمله وشمه من أجمل مُتَع الحياة عندي، وكم بحثت عنه في الحقول والبساتين والحدائق، وكذلك قرأت عن معانيه وأخباره في الكتب ومن خلال الإنترنت فوجدت ما يلي: "إن ورد كل شجرها هو نورها أي تفتح أزهارها، وكما قيل الورد نور كل شجرة وزهر كل نبتة، وواحدته وردة". أما ما يُسمى بالورد الجوري فيتميز بالرائحة العطرة الزكية، والشكل اللفائفي الذي يعطيه جماله، كذلك تكون له ألوان بديعة، وعادة ما يكون للورد لوناً أحمر ضارباً إلى الصفرة، وينبت في بلاد العرب بكثرة، خاصة في بلاد الشام، ومنه الأنواع الريفية والبرية والجبلية. ومن أسماء الأسد (ورد)، وكذلك الفرس، وقد تسمى المرأة ورد عندما يكون لونها بين الكميت والأشقر. تأمل عزيزي القارئ، في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧ ﴾ [الرحمن: ٣٧]، أي صار لون السماء كلون الورد، ولأن الورد يتلون فيكون في الشتاء خلاف لونه في الصيف، والمعنى أن السماء تتلون من الفزع الأكبر كما تتلون الدهان المختلفة. وقد كان للورد حضور قوي في التراث الإسلامي مع بقية النباتات، خاصة عبر الكتب الطبية، مثل: كتاب "القانون في الطب" لابن سينا، وكتاب "الجامع في الأدوية" لابن البيطار الأندلسي. كذلك ذُكر الورد في كتب الزراعة مثل: كتاب "الفلاحة النبطية"، ترجمة ابن الوحشية النبطي في القرن الرابع

الهجري، وكان حول الزراعة ببابل. وذُكر أيضاً في كتاب "فضائل الورد على النرجس" لابن طيفور. كما كثر ذكر الورد واستخدامه أيضاً، في مجالس الخلفاء الأمويين بعد ظهور الترف فيها؛ كما كان للورد أهمية كبيرة في حياة الخلفاء العباسيين.

وكان صلاح الدين المنجد من أوائل المهتمين المعاصرين بتراث الورد، وكتب الكثير من التفاصيل في بحثه عام ١٩٤٢م؛ وحديثاً اشتهر الكاتب عبود الشالجي، في بحوثه عن الورد، ونشرها في عام ١٩٧٥م. وقد ظهر في التراث الإسلامي استخدامات كثيرة لكلمة الورد، تكررت في الأدب والشعر، وكذلك تستخدم كلمة الورد في الأمثال، ومن أشهرها: "عشان الورد يُسقى العليق". وكان الورد معروفاً في الجاهلية، وردة هي اسم أم صاحب المعلقة طرفة بن العبد وهو القائل:

صغـــــــر البنـــون ورهـــــط وردة * مـــــــا تنظـــــــرون بحـــــــق وردة

وتعتبر شقائق النعمان تسمية وشكلاً من الورد، وهي الأكثر نصيباً في الأساطير، لَونه هو الأحمر القاني وقد كثر ظهوره بالبراري، وقد كرمه الله بأن يكون رمزاً للشهادة، وقيل سُمي بهذا الاسم نسبة إلى النعمانيين ملوك الحيرة، أو نسبة إلى الدم، والنعمان هو أحد أسماء الدم. إلا أن المهتمين بالأسطورة قالوا إن اسم شقائق النعمان مشتق من النِّعم بكسر النون، ومن معانيها المخضوضر، ومنها تشتق كلمة الناعمة أي الروضة أو الحديقة.

وقد قيل في الورد من الشعر الجميل الكثير، بل تفنن الشعراء في وصفه وتشبيهاته ببعض أمور الجميلة والشائكة، ومنها قول العماد الأصفهاني:

قلـــت للـــورد مـــا لشـــوكك يـــدمي * كـــل مـــا قـــد ســـوته مـــن جـــراح

قـــال لـــي هـــذه الريـــاحين جنـــد * أنـــا ســـلطانها وشـــوكي ســـلاحي

أما الشاعر الجاهلي عنترة بن شداد، فقد وصف الورد والأزهار في قوله:

بـــأَرْضٍ تـــرَدَّى المـــاءُ في هَضَـــباتِها * فأَصْـــــبَحَ فِيهَـــــا نَبْتُهَـــــا يَتَـــــوَهَّجُ

وأَوْرَق فيهـــا الآسُ والضَّـــالُ والغضـــا * أنـــا ونبـــقٌ ونســـرينٌ ووردٌ وعوســـجُ

وأَوْرَق فيهـا الآسُ والضَّـالُ والغضـا * ونبـــقٌ ونســـرينٌ ووردٌ وعوســـجُ
لـئِنْ أَضْـحتِ الأَطْـلالُ مِنها خَواليـاً * كـأَنْ لَـمْ يَكُـنْ فيهـا مـن العـيش مِـبْهجُ
فيـا طالمـا مازحـتُ فيهـا عبيلـةً * ومـــازحني فيهـــا الغـــزالُ المغـــنجُ
أغـــنُّ ملـيحُ الـدلَّ أحـورُ أَكحـلٌ * أزجُّ نقـــيُّ الخـــدَّ أبلـــجُ أدعـــجُ
لــهُ حاجِــبٌ كــالنُّونِ فــوْقَ جُفُونِــهِ * وَثَغْـــرٌ كزَهـــرِ الأُقْحُـــوَانِ مُفَلَّـــجُ
وردْفٌ لـــه ثِقْـــلٌ وَقـــدٌّ مُهَفْهَـــفُ * وخـــدٌّ بـــه وَرْدٌ وســـاقٌ خَـــدَلَّجُ

كما قال وصف بهجة رؤية الورد ورائحته بقوله:

ومبهــــرج ومهــــرج وجلــــل * والـــورد بـــن مـــبهج ومفـــوح
كـــالزعفران وأبـــيض كالســـجنجل * يزهـــو بـــأحمر كـــالعقيق وأصـــفر

وكان أبو دلف صادقاً في تشبيهه تقلب القلب بموسمية الورد فقال:

ولا خيـر فـيمن لا يـدوم لـه عهـد * أرى ودكـم كـالورد لـيس بـدائم

ومن وصف الشاعر الفطحل أبو تمام للورد الأحمر القاني:

قتـل الـورد نفسـه حسـداً منـك * وألقـــى دمـــاه في وجنتيـــك

أما الشاعر البحتري فقد تميّز بالتشبيهات الرقيقة للورد عند بداية الربيع:

أتـاك الربيـع الطلـق يختـال ضـاحكاً * مـن الحسـن حتـى كـاد أن يتكلمـا
وقـد نبـه النـوروز في غسـق الـدجى * أوائـل ورد كـن بـالأمس نومـا
يفتقهـا بـرد النـدى فكأنمـا يبـث * حـديثاً كـان قبلـه مكتمـا

ولم يتوانَ الشاعر الفارس أبو فراس الحمداني عن وصف الورد في خدود حبيبته بقوله:

الــــــــــورد في وجنتيـــــــــــــه * والســـــــــــحر في مقلتيـــــــــــــه

وإن عصــــــــــــاه لســـــــــــاني * فالقلـــــــــب طـــــــوع يديـــــــــه

يـــــا ظالمــــــــاً لســـــــت أدري * أدعـــــــــو لــــــــه أم عليـــــــــه

إن طبيعة الأندلس الساحرة، وحدائقها الغناء، بما فيها من الورود ذات الألوان الجميلة والروائح الزكية، قد ألهمت الشعراء الأندلسيين، ومنهم المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد الذي قال:

كأنمـــــا ياســـــمينا الغـــــــض * كواكــــــب في الســـــــماء تبـــــيض

والطــــرق الحمــــر في جوانبــــه * كخــــــد حســــناء مســــه عــــض

وفي العصر الحديث ظهرت لإيليا أبو ماضي قصيدة رائعة تحت اسم "بائعة الورد"، يقول في مطلعها:

مــن الفرنســيس قيــد العــين صــورتها * عـــذراء قـــد ملئـــت أجفانهـــا حـــوراً

أذلـــت الــــورد قانيــــة وأصـــــفره * كيمـــا تصـــون الـــذي في خـــدها نضـــرا

نهاية فصول الملحمة